نجمان ياسين

تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين

١٩٨٨





نجمان ياسين

تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين





نجمـان ياسـين
تطور الاوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين
الموصل ـ بيت الموصل ـ ١٩٨٨
٣٤٠ ص ، ببليوغرافيا ص ٣٠٦ ـ ٣٢٤
اصل الكتاب رسالة ماجستير في الاداب ـ جامعة الموصل ، ١٩٨٥
١ . العرب ـ تاريخ ـ عصر صدر الاسلام ٢ . العرب ـ تاريخ ـ عصر الراشدين .

بيت الموصل للنشر والتوزيع

الاهـــداء:

الى القـائـد المبـدع صدّام حسين

قلت مرة أن مهمة المؤرخ أن يبحث في الغاطس من التاريخ.

هذه محـاولـة أولى في البحث عن الغـاطس من تاريـخ الأمـة، أضعهـا بين أيـديكم عسى أن أكملهـا بمحـاولات اخـرى مستقبـلا، وأن تشجع الآخرين على البحث في هذا المجال ضمن فهم قومي اشتراكي لتأريخنا العربي.

شكـــــر وتقديـــــر

وأنا أنتهي من كتابة بحثي ، يسرني أن أسجل الشكر العميق لاستاذي الجليل الدكتور هاشم يحيى الملاح ، لتجشمه عناء الاشراف على رسالتي مكبرا فيه جهده وحرصه الكبيرين ودقته وعلميته ، وروحه الديمقراطية التي أشعرتني بالصداقة الحقّة ، وحب الحقيقة ، وعدم ادخاره أي جهد كان له أن يسهم في توجيهي وفي تطوير البحث نحو الأحسن .

كما يطيب لي أن أشكر اساتذتي الافاضل الدكتور عبد المنعم رشاد والدكتور خضر جاسم الدوري والدكتور عماد الجواهري ، حيث كان لمناقشاتي معهم ولفتهم نظري الى أمور حيوية ومهمة ، كبير الأثر في انجاز هذا البحث ووضع يدي على أمور ماكان لي أن أنتبه اليها لولاهم .

وأشكر الدكتور عاصم اسماعيل لتفضله بوضع خلاصة عن بحثي باللغة الانكليزية ، ولكل روح طيبة ، نظيفة دعمت هذا البحث وسعت الى تطويره كل الحب .

ثبت المحتويات

مقدمـــة

إن من الاعمـال العلميـة ما يقـدم نفسه بنفسه الى القراء بدون اية حاجة الى تقـديم أو تزكيـة من احـد، لانـه يحمـل من عنـاصـر القـوة الذاتية ما يغنيه ويجذب الاهتمـام اليـه. وأحسب ان كتـاب «تطـور الاوضـاع الاقتصـادية في عصر الرسالة والراشدين» يعد نموذجاً جيداً لهذا النوع من الاعمال.

فقـد أعـد هذا الكتـاب أو الرسالة العلمية من قبل السيد نجمان ياسين كجزء من متطلبـات نيـل شهـادة المـاجستيـر في التاريخ الاسلامي. حيث التزم المؤلف بالطـريقـة العلميـة المعتمـدة في الـدراسـات التـاريخيـة، من ناحيـة جمع المادة العلميــة، وتحليلهـا، وعـرضهـا بشكـل يعتمـد التـوثيق العلمي الـدقيق لمختلف الروايات والآراء.

وقد تميز هذا الكتاب بالاضافة لما تقدم، بجمال اسلوبه، وفصاحة عباراته، حيث ان مؤلف الكتـاب ـ كمـا هو معلوم للقـراء ـ اديب مبدع، وكاتب قصة متميز، نُشر له الكثير من القصص التي كانت موضوع اهتمام واعجاب القراء، وحضي قسم منها بالترجمة الى لغات اجنبية.

لقد شهدت بقيمة هذا العمل العلمية لجنة مؤلفة من ثلاثة اساتذة في التاريخ الاسـلامي، حيث أوصت بمنح صاحبـه عن جدارة درجـة المـاجستير في التاريخ الاسلامي بدرجة جيد جداً.

لكـل ما تقـدم، اعتقـد ان هذا العمـل جدير بأن يقدم نفسه بنفسه الى القراء الكرام، وكلي ثقة انه سيكون موضع تقديرهم ورضاهم.

الدكتور هاشم يحيى الملاح
استاذ التاريخ الاسلامي في كلية الآداب
جامعة الموصل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة :

كنـا ومـا نزال نرى استحـالـة فهم تاريـخ الامـة العـربية، دون فهم النواحي الاجتماعية والاقتصادية، التي تشكل جزءا حيويا من تجربتها الانسانية وتحيلنا الى فهم الجـوانب الحيـاتيـة الاخـرى. كمـا ان دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي تضعنا امام خبرة وتنظيمات الامة وقدرتها على التمثل، ومن ثم الانتقال الى مرحلة الاضافة والابداع، بحيث يكون التاريخ الحضاري وحياة البشر الهدف من دراستنا لتاريخنا. وهذا الامر من شأنه ان يقدم صورة حقيقية عن مسيرة الامة ويجنبنا الوقوع في قبضـة الـدراسـات السيـاسيـة الكثيرة التي سعت بشكل مباشر وغير مباشر، عن قصـد او دون قصـد، الى اظهـار التـاريخ العربي الاسلامي سلسلة من الصراعات وعـدم التجـانس، وبهـذا المعنى تكون دراسة التطورات الاقتصادية جزءا مهما من دراسـة التـاريـخ الحضـاري للامة. وهي جزء غير قابل للاستبعاد اذا اردنا ان نكوّن صورة دقيقـة عن تاريخنـا. وقـد كان الهـدف من دراستنـا، تشكيـل مخطـط عام للاوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين.

ومن المعـروف ان هذه الفتـرة كانت قد شهـدت تكوين الامة وتوحيدها قوميا وفكـريـا، كمـا عدت فترة هجرات واسعة الى الامصار والتعرف على حياة الاستقرار ومفارقة البداوة بشكل عام. اي انها كانت تمثل: التأسيس والاصول والجذر الذي استنـدت اليـه البحوث التاريخية والدراسات الدينية فيما بعد.. ناهيك من أثر هذه الفترة في رسم الاحداث اللاحقة، ولا يخفى ان فترة التكوين تتمتع في تاريخ كل امة بميزات وسمات لها شأنها الخطير، اضافة الى انها تضج بالآراء المختلفة الامر الـذي أدى الى ظهـور آراء متنـاقضـة في مسألـة معينـة، وعليـه اقتضى الأمر معاملة النصـوص بدقـة وشـك. وكـانت خطتنـا معـاملة النصوص المتناقضة بحذر وحيطة ومحـاولـة تبين اصـولها ودوافعها الضيقة، لان الهدف الاساس من البحث كان ابراز جوانب الوحدة والتماسك والابتعاد عن المواقف الاحادية المفرقة، وبرغم ان المادة المتـوفـرة والخاصة بالاوضاع الاقتصادية مبعثرة ومتفرقة ونادرة فقد سعينا الى وضعها

في اتساق يخدم النهج العام للبحث ويؤكد طابع الوحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

لقد واجهتنا اثناء البحث صعوبات جمة . ففضلاً عن قلة المعلومات الاقتصادية ووجودها في اماكن شتى وعدم تجانسها في احيان كثيرة ، لم نجد من مؤرخينا من أفرد لهذا الجانب الحيوي العناية التي يستحق ، ولذا لم يكن ثم مناص من أخذها من كتب التاريخ بعد قراءة نقدية . ولنا ان نشير بأن الطبري قد قدم لنا معلومات مفيدة في المجال الاجتماعي والاقتصادي . وكذلك شأن اليعقوبي والمسعودي ، ومع انهم قد أدرجوا معلوماتهم بشكل عام الاّ اننا ومن خلال الموازنة والنقد والحيطة ، حاولنا ان نستفيد من النصوص الكثيرة التي قدموها لنا ، وكان عملنا منصبا على ادراجها ضمن خط البحث العام ، وتجدر الاشارة الى ان كتب التاريخ لم تكن لوحدها كافية لرسم التطورات الاقتصادية ، فاستعنا بكتب الخراج والأموال لأبي يوسف وابن آدم وابن رجب وابي عبيدة القاسم بن سلام ، ويلاحظ ان هذه المصادر قد عنيت بالاحوال والتنظيمات الاقتصادية وقدمت لنا معلومات غنية في هذا الشأن . الاّ اننا كنا حذرين في اخذ المعلومات عنهم ، اذ انهم عموما كانوا يركزون على الجوانب النظرية وكانوا معنيين بالمثال والنموذج ، ولذا اقتصر اخذنا عنهم على المعلومات الواقعية ذات الجانب التطبيقي . كما اعتمدنا نفس المنهج في الأخذ عن كتب الحديث والفقه ، وهي الاخرى تحفل باشارات اجتماعية واقتصادية متفرقة . ولجأنا الى اخذ نصوص من كتب الفتوح للبلاذري وابن اعثم وابن عبد الحكم ، وهي نصوص مبكرة ودقيقة في نفس الوقت . اما كتب الطبقات لابن سعد وابن حجر وابن عبد البر فكانت ذات شأن كبير في معلوماتها الحية عن ثروات القادة والولاة والنمو الاقتصادي . ومع انها متعبة الاّ انها مثمرة لاسيما اذا احسن الموازنة بينها ووضعها في سياق البحث بشكل علمي ، ولنا ان نشير الى ان المؤلفات الجغرافية لابن حوقل وابن رستة وابن خرداذبة والهمداني وابن المجاور. قد وضعت بين ايدينا معلومات اقتصادية قيمة وأوضحت لنا علاقة الانسان في انشطته الاقتصادية بالبيئة . واسعفتنا كتب الأدب واللغة للجاحظ وابن عبد ربه والثعالبي والمبّرد ، بنصوص جيدة تناولت الاحوال الاقتصادية ، ويغلب على كل ما

سبق من نصوص، وجودها بقلة في اماكن متفرقة. اضف الى ذلك انها تختلف باختلاف المناطق والعهود التاريخية، ولذا كان تركيزنا منصبا على توحيدها في خط واحد يدرك العلاقة بين الخاص والعام ويهدف الى معرفة نقاط الالتقاء والافتراق. والحق اننا لم نأخذ النصوص كافة بسهولة، اذ كان لنا نقدنا وتعليقنا على بعضها وابراز جوانب الخطأ والمبالغة ان وجدتا، اي ان مهمتنا كانت قراءة النص وفق مرحلته وظروفه التاريخية وموازنته بما سبقه وبما جاء بعده في محاولة للتوصل الى رأي مقبول.

اما المراجع الحديثة فقد كان لكتابات الدكتور عبد العزيز الدوري، والدكتور صالح العلي، الفضل الكبير في اضاءة عدة جوانب من بحثنا وفي احالتنا الى مصادر مهمة، وبالتالي خلقت عندنا الطمأنينة في موازنة نتائج بحثنا، كما يلاحظ اننا قد اعتمدنا الاخذ من عدد من المستشرقين مع الحذر والحيطة من آراء بعضهم ممن انطلقوا من مفاهيم وتصورات عنصرية، ونستطيع القول بيقين اننا قد بذلنا جهدا واضحا في الرد على آرائهم التي استهدفت تشويه تاريخ الامة والتجافي عن الحقيقة، وقد قمنا بهذا الامر بمناقشتهم بهدوء وبعيدا عن الانفعال، اذ تركنا للنصوص التاريخية وللعقل اسقاط بعض حججهم الواهية التي وقعت في اعمامات متقصدة ونظرة أحادية، ونعتقد انه قد آن الاوان بأن يكتب ابناء الامة تاريخها ومن داخل الدائرة لا من خارجها، وعلى نفس الغرار ناقشنا آراء اكثر من مؤرخ عربي معاصر ممن تبنى آراء المستشرقين وانجرف في تيارهم سواء أكانت آراء شرقية او غربية، وكان هدفنا الخروج ببحث مكتوب بعين وعقل عربيين.

اما المنهج الذي اعتمد في انجاز هذا البحث، فقد كان يقوم على التعددية في الأسباب. وكان الأساس في اخذنا بهذا المنهج هو ادراكنا بعدم وجود نظرية واحدة كافية لاستيعاب تعقيدات الحياة والتاريخ، ولعل هذا هو السر في هيمنة نظرية معينة في فترة تاريخية ومن ثم تراجعها كي تأخذ دورها نظرية جديدة اخرى. اي ان النظرية الاولى تصبح مجرد تاريخ. فضلا عن كون الحياة أشمل من كل فلسفة لان الاخيرة نتاج للاولى، كما ان الفكر الغيبي السلفي في حديثه عن تاريخ الامة قبل

الاسلام، يصادر جوانب حضارية عظيمة ويجهز على معطيات انسانية لصالح تأكيد موقفه التقليدي من الاسلام ويغفل الدور القومي في انبعاث الامة. على حين يقف الموقف الاممي مكتفيا بالنفخ في حجم العامل الاقتصادي ومغفلا العوامل القومية والفكرية، واخيرا فان الموقف الليبرالي بارتباطاته المتشابكة ذات النوايا المعروفة، يكاد لا يرى من تاريخ الامة سوى النزعات القبلية وروح البداوة، وهذا الامر يشير صراحة الى ان ممثلي التيارات الثلاثة السابقة، يقعون في نظرة جزئية احادية ويغفلون الخصوصية في تاريخ الامة.. ومن هنا كان لابد لنا من اعتماد منهج جديد يأخذ بتعدد الاسباب، فمع ادراكنا لاهمية العامل الاقتصادي في التاريخ وان موضوع دراستنا ينصب عليه بالدرجة الاولى، فاننا قد حاولنا جاهدين ان نبرز فاعليته ضمن كل حالة ان وجد. وان لم يكن الامر هكذا فقد كنا نستعين بالعوامل الاخرى - قومية وسياسية وفكرية - وكنا ندرك بان كل عامل من هذه العوامل يبرز او يتضاءل احيانا ليترك لغيره من العوامل المجال في العملية التاريخية. وقد يحدث ان تتضافر وتتشابك عدة عوامل لتنجز عملية تاريخية معينة، وهكذا فان المنهج الآخذ بتعدد الاسباب من شأنه ان يقدم صورة اكثر شمولية وصدقا لتاريخ الامة وله ان يسهم في ابراز جدل القومية والطبقة وتجلياتهما في تاريخ الامة. وهذا ما حاولنا تأكيده طوال رصدنا لحركة التطور الاجتماعي والاقتصادي في الفترة الخاصة بالبحث.

وقد قمنا بتقسيم البحث الى اربعة فصول، كل فصل يضم عدة مباحث، تطرقنا في الفصل الاول - الاوضاع الاقتصادية في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام - الى بحث اثر البيئة على الاقتصاد العربي، وانتقلنا لبحث مظاهر الحياة الاقتصادية التي تمثلت في الرعي والبداوة وفي الزراعة والصناعات والتجارة، ثم انتقلنا لدراسة الابعاد الاجتماعية للواقع الاقتصادي وطبيعة تشكيل الفئات الاجتماعية، واخيرا توقفنا مليا عند دراسة الاوضاع الاقتصادية في مكة والطائف ويثرب، اذ انها كانت البيئة التي ولد فيها الاسلام. وكانت ابرز واهم نتائج الفصل الاول تتمثل في:

- قيام القوى الاجنبية الفرس والروم والاحباش، بتخريب الاقتصاد العربي ودفع الامة الى حالة البداوة بعيدا عن الاماكن الخصيبة، وفرض ضرائب ورقابة على

التجـار العـرب، رغبـة تأخيـر تطـور وتكامل الاقتصاد العربي وربطه بتبعية اجنبية، وترافق مع هذا تخريب سياسي استنفر عند العرب حسهم القومي ورغبتهم في درء العدوان.

ـ لم يكن ثمّ في الجـزيـرة نظـام اجتمـاعي واقتصـادي واحـد، بل كانت هناك عدة انظمة تتعايش وفق خصوصية تاريخية، والى جانب الرعي والبداوة كانت الزراعة، وتعايشت معهما الحرف البسيطة والتجارة.

ـ وجـد الـرقيق والعمـل الرقيق في الجزيرة، ولكن العبودية عند العرب لم تصل الى مرحلة نظـام اجتمـاعي متكـامـل بل كانت ظاهـرة مرافقـة، وقد استخدم العبيد في الشؤون المنـزليـة والتجـارة وبجـانبهـا الخـدمي، اضـافة الى وجود اشارات توحي باسهامهم في العمل الزراعي كأجراء او عبيد.

ـ عرف العـرب القطـائـع في اطـراف الجـزيـرة وفي العراق وسوريا بالذات، ووجد اقطـاع في اليمن، ولكن ذلـك لم يبلغ مرحلة النظـام الاجتماعي والاقتصادي، بل كان ظاهـرة مرافقـة، اضف الى ذلـك قد وجـدت جذور محلية للقطائع في الجزيرة وفي الحجـاز بالـذات، ولكنهـا كانت بسيطة، وقد عرف العرب مبدأ احياء وامتلاك الارض الموات واقطاع المعادن.

ـ عرف العـرب الصنـاعات، وكانت الضرورات العملية تدفعهم الى القيام بها، اما النظـرة الغيـر محبـذة للصناعات فقد وجدت عند بعض القبائل البدوية لا الحضرية وبحدود ضيقة.

ـ قامت التجـــارة بدور فعـــال في احتـواء الاقتصـاد البـدوى وجعله تابعـا لاقتصـاد الحـواضـر، وخلقت التجـارة خرقـا لبنيـة بعض القبـائـل البدوية القريبة من خطوط التجارة فنشأ عن ذلك تباين في مستوى الفئات الاجتماعية اقتصاديا، ولكن ذلك لم يصـل الى مرحلة انقسـام طبقي بحكم عادات المجتمع البدوى وتماسكه الداخلي وامكـانيـة الصعـود والهبـوط الاقتصـادي عن طريق الغزو، وأخيرا نظرة البدوي الى الغني كمستودع للمال بحكم اشتراك ابناء القبيلة في الدفاع عنه، وهكذا استمرت الفئات الاجتماعية تتواجد في مختلف مراحل الامة ففي كل الفترات التاريخية وجد الاقطـاع جنب الـرقيق، ووجـدت التجارة مع الصناعات وهذه سمة تؤكد خصوصية

البناء الاجتماعي عند العرب الذي يرجع الى ان القومية في تاريخ الامة أسبق من الطبقة.

ـ وجدت بفعل التجارة نظرة فردية قوية، تمثلت بالدرجة الاولى في حواضر الحجاز واضعفت بشكل عام التماسك القبلي، مما خلق توترا نفسيا عند ذوي الضمائر الحية والمتدينين والضعفاء، فأصبحوا ينتظرون الخلاص الذي جاء من خلال رسالة العرب ممثلة في الاسلام.

ـ اوجدت التجارة الكثير من الاسواق، وكان لهذه الاسواق أثرها الفاعل في الدمج الاقتصادي والتوحيد الثقافي القومي وانضاج المواقف السياسية العربية التي بدأت تتطلع الى الوحدة في الحياة العربية.

وتابعنا في الفصل الثاني ـ التحولات الاقتصادية التي احدثها الاسلام في شبه جزيرة العرب ـ فأوردنا المبادىء التي جاء بها الاسلام في المجال الاقتصادي، اذ عدّ الملكية لله فكان الانسان مستخلفا، وتتبعنا اثر ذلك على مستوى تصرف الاغنيا والفقراء، ثم انتقلنا لبحث الملكية الفردية التي اقرها الاسلام، وكيف انه عد الثروة الواسعة بمثابة شر وخطيئة، وكان التركيز على ضوابط تحديد الملكية قد شمل تحريم الربا وتنظيم الميراث، اضافة الى الصدقة كتطهير للنفس، كما تحدثنا عن الكفارات وسيلة من وسائل تحديد الملكية، وأخيرا اوضحنا دلالة تحريم كنز الاموال، لنصل فيما بعد الى ان الاسلام قد عدّ الرق حالة مؤقتة في حياة الانسان. وبعد هذا بحثنا في ـ الموارد المالية لدولة المدينة ـ فدرسنا الغنائم وطبيعتها وحاجة الدولة اليها وطرق توزيعها، كما درسنا الجزية مصدرا ماليا وأشرنا الى خصائصها زمن النبي (ص) وانتقلنا لندرس الصدقات مصدرا ماليا آخر وما طرأ عليها من تطور، اما مظاهر النشاط الاقتصادي في زمن النبي (ص) فقد درسناها من خلال التركيز على التجارة وتنظيم النشاط التجاري، وأبرزنا اهميتها في حياة العرب المسلمين وما طرأ عليها. ثم انتقلنا الى الزراعة ومسألة الارض فبحثنا في طبيعة وأسباب قطائع النبي (ص) ودققنا في مسألة كراء الارض ومعاملة الارض العربية، اضافة الى الحمى ورفض الاسلام له، وتوقفنا عند البداوة والرعي اللذين اخذا بالانحسار

نسبيا بسبب تشجيع الاسلام على التحضر وخاصة في الاماكن القريبة من المدينة.

وانصبت عنايتنا على الاجراءات الاقتصادية التي قام بها النبي (ص) وابعادها الاجتماعية والسياسية، فبحثنا في المؤاخاة والأسس الجديدة بشأن الميراث ودلالة اعطاء المهاجرين الفقراء من اموال بني النضير، وظهور اهل الصفة وكيفية معاملة النبي (ص) لهم. كما تطرقنا الى تعزيز الوضع المادي للمؤلفة قلوبهم وابعاده السياسية.

- لم يؤمن الاسلام بالتفاوت الطبقي، ولم يرد لفظ الطبقة في القرآن الكريم، بل ورد لفظ الدرجة وكان معنيا بأمور معنوية. اما آيات التفضيل في الرزق فقد جاءت لتجرد اثرياء قريش والطائف من سلاح الثروة والامتيازات حيث كانوا يرون ان النبوة يجب ان تكون من نصيب الاغنياء، وكان افضل رد عليهم هوبيان ارتباط مصدر الرزق بقوة وارادة سماوية غير ارضية، فالله يصطفي من يشاء، وهويرفع اويخفض من يشاء، وبهذا المعنى كانت آيات التفضيل ردا على الاثرياء وتجريدا لهم من حججهم الكلامية، فالرزق يقرره الله، واختياره الفقراء اتباعا للنبي وائمة يمكنهم في الارض، اسقط حجج الاغنياء ونفوذهم.

- كانت الصدقة تعني اعطاء الفضل، وهوكل ما زاد عن حاجة الانسان، ويظهر ان هذا الموقف القرآني المتشدد لم يلق استجابة كاملة عند بعض المسلمين فنزلت آيات تحذر من الكنز وتنذر الاثرياء بالعذاب.

- عدّ الرق حالة مؤقتة في حياة الانسان، وكانت الحرية هي الاصل، والنص القرآني واجراءات النبي (ص) تدعو الى تحرير الرقيق ورفض العبودية، وتمثل هذا في مفهوم المن والفداء، ويبدو ان العرب المسلمين بعد مرحلة حروب التحريرقد عدّوا هذا الحكم خاصا بعرب الجزيرة فقط، ولم يطبق على اهل البلاد المحررة لظروف موضوعية، برغم ان الحكم قطعي وعام.

- وجد الميراث كي ينظم توزيع الاموال بعدالة وكي لا تؤول الثروة الى الاقوى كما كان سابقا.

- كانت الغنائم تشكل موردا مهما لدولة المدينة، ولم تكن مهمة حتى فتح خيبر ومكة اذ ازدادت وانعشت اقتصاد دولة المدينة.

ـ اخذت الجزية زمن النبي (ص) بنسب متفاوتة من أهل الذمة وكانت نقدية وعينية وحدها الاقصى دينار على الرجل البالغ ولم نعثر على نص يقرر اعفاء الصبية والشيوخ ورجال الدين منها.

ـ اصيبت التجارة بنكسة وخاصة تجارة اهل مكة بسبب الحصار العسكري والاقتصادي ومقابل ذلك انعشت التنظيمات العربية الاسلامية حركة التجارة بعد ان طهرتها من قيم الاستغلال، كي يجرد الاغنياءمن عنصري النفوذ والاستغلال.

ـ كانت قطائع النبي (ص) محددة ولها اسبابها السياسية والاقتصادية والاخلاقية، وأغلبها من الموات، كما ان كراء الارض قد وجد زمن النبي (ص) وجاء تحريم الاحماء ليجرّ شيوخ العشائر من الاستغلال.

ـ لم تكن الاسباب الاقتصادية وراء نظام المؤاخاة بقدر ماكانت الاسباب الخاصة بالمجتمع العربي القبلي في المدينة، هي الاساس.

ـ وجدت مجموعة من ضعفاء المسلمين اطلق عليهم ـ اهل الصفة ـ ولم يكن عندهم من ملجأ سوى زاوية في مسجد المدينة. ومن بين صفوف هذه المجموعة برز فيما بعد بعض قادة تيار الزهد. كما ان ممارساتهم صارت جذرا لحركة التصوف فيما بعد.

ـ نظراً لان الاسلام دين حضري يشجع على الجهاد، فقد حرم النبي (ص) البدو من الغنيمة ولم يعطها الا لمن شارك في الجهاد، كما ان هذه الفترة قد شهدت ضغطا متزايدا على المدينة مما دفع النبي (ص) ان يعيد القبائل المهاجرة الى اماكنها وخاصة بعد فتح مكة.

ـ قام النبي (ص) باكثر من حملة لدفع تهديد الروم على الحدود الشمالية، وبذلك وضع الأسس لحركة التحرير فيما بعد، وكان السبب الاقتصادي ظاهرا في هذا الشأن بسبب تهديد الروم لتجارة المدينة، اضافة الى سعي النبي لتوحيد وتكوين الامة.

ـ كان النبي (ص) يأخذ من القبائل العربية التي ارتبطت بالاسلام خمس الغنائم المتأتية عن الغزو، وهو غير الصدقة المفروضة عليهم، وقد كان هذا الاجراء من أسباب ردة بعض القبائل العربية.

وتناولنا في الفصل الثالث ـ التحولات الاقتصادية في مرحلة التنظيم ـ فناقشنا الابعاد الاقتصادية لحركة الردة وانتهى بنا الامر الى حروب التحرير العربية الاسلامية واسبابها، وقمنا بتقديم لمحة عن حالة البلاد المحررة من الناحية الاقتصادية لنصل الى بحث الموارد المالية بعد حروب التحرير من غنائم وجزية وخراج وعشور وضرائب صناعة وصدقة، ثم تناولنا الاصلاحات الاقتصادية الناجمة عن حروب التحرير فدرسنا القطائع والارض الزراعية وأوضاع الرقيق لنركز على الديوان والعطاء واثرهما في الحياة الاقتصادية وما طرأ من تطور في حياة الامصار والبلدان المحررة وانتهينا الى بحث أثر التطورات الاقتصادية على الاوضاع السياسية في الدولة العربية الاسلامية، وكانت اهم النتائج التي توصلنا اليها تتمثل في ما يأتي :

ـ وجدت أسباب اقتصادية مهمة في حركة الارتداد بحكم نفور بعض القبائل العربية من الصدقة واعطاء خمس الغنائم، كما وجدت اسباب عقائدية في حركات اخرى تمثل في ظهور انبياء كذابين، اضافة الى وجود سبب قومي في ردة اليمن تمثل في الرغبة بطرد الفرس الاجانب.

ـ كانت الاسباب القومية والدفاعية والعقائدية والاقتصادية، متضافرة في حروب التحرير العربية الاسلامية، وصار اتجاه الدولة قوميا بعد التحرير، وارتكز في نفس الوقت على أسس اسلامية، فمن جهة قام العرب من سكان البلدان المحررة باختلاف اديانهم بمساعدة العرب المحررين، ومن جهة اخرى لم يفرض المحررون الاسلام بل تركوا للجميع حرية الاديان.

ـ كانت الاوضاع الاقتصادية في البلدان المحررة، مرتبكة، وذات صيغة طبقية، وكان السكان المحليون يعانون من سوء الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وقد قام العرب المسلمون بتقليل الضرائب وفتح الترع واقامة الجسور والخزانات والقنوات.

ـ ازدادت الغنائم بشكل كبير بعد حروب التحرير العربية الاسلامية، واستخدم بعضها لاغراض استثمارية.

ـ ازدادت الجزية، ونظمت واعفي منها الفقراء ورجال الدين والاطفال والشيوخ وكانت تؤخذ في وقت معين. ومنذ زمن عمر بن الخطاب فرق بين الجزية والخراج وبين ارض الصلح وارض العنوة.

- نظم الخراج بعد مسح السواد، ولم تمسح ارض الشام او مصر، وكان ذلك أخف على السكان من السابق وقد روعيت في جبايته عوامل انسانية.
- استحدثت عشور التجارة وضرائب الصناعة.
- انحسرت نسبيا اهمية الصدقة بسبب وجود موارد مالية اخرى.
- اضعف العرب المسلمون النظام الاقطاعي في البلدان المحررة، وبقيت الارض بأيدي السكان المحليين مع ملاحظة انهم قد استعانوا بالدهاقين.
- حرّم عمر بن الخطاب الرق على العربي، وأوصى بتحرير الفلاحين، ولكن الرقيق تسرب من خلال الاسر ومبدأ المعاملة بالمثل الى الحياة العربية الاسلامية.
- كان لظهور نظام العطاء أثره العميق في انعاش الاوضاع الاقتصادية في الدولة وخلق دورة اقتصادية نشيطة فتطورت الامصار وظهرت الحاجة الى الانتاج والاستهلاك والاستثمار.
- اوقف العرب المسلمون تسرب الذهب الى القسطنطينية ووضعوه بين ايدي السكان المحليين للتداول، وكان لذلك اثره في انعاش الاقتصاد. كما وجدت الفضة وبكثرة واسهمت في قوة اقتصاد الدولة.
- خلقت حركة التحرير تطورا اقتصاديا تمثل في اثراء بعض القادة والولاة والتجار، وكان عمر بن الخطاب يشدد الرقابة عليهم بشأن ذلك.
- لم يكن عمر بن الخطاب ممثلا لتيار الاتباع او المحافظين، كما ذهب بعضهم بل كان مجددا وجريئا في العديد من الاجراءات الاقتصادية، وكان ينضوي ضمن خط الزهد، ولذا قام بمنع اثرياء قريش من الهجرة وحجر عليهم ومنع عطاء المؤلفة قلوبهم.
- عدت اموال النبي (ص) واسهمه خاصة باموال الامة.
- قام عمر بن الخطاب بعدة اجراءات للتخفيف من الضغط السكاني على المدينة واعاد كثيرا من القبائل العربية الى مواطنها بعد عام الرمادة.

اما الفصل الرابع وهو الاخير، الذي كان معنيا بالتحديات والمشاكل التالية لمرحلة التنظيم، فقد ركزنا فيه على التوسع في الاستثمار الزراعي والتجاري في عهد عثمان، وأشرنا الى نمو الحرف والصناعات في الامصار، وكانت عنايتنا منصبة بشكل بارز على جوانب الصراع بين التيار الدنيوي وتيار الزهد الذي انتقل من شكله

السلمي الى شكله العنيف في الثورة ضد عثمان، وانتهينا الى مناقشة الصراع بين مركزية الدولة والروح القبلية والاقليمية، واخيرا تحدثنا عن الاوضاع الاقتصادية في زمن علي بن ابي طالب، وما طرأ عليها من تغييرات مع اشارة الى سياسته في المجال الاقتصادي، وكانت اهم نتائج هذا الفصل هي:

- حدث توسع في منح القطائع زمن عثمان بن عفان، وكان بعضها اقطاع تمليك، على حين كانت قطائعه الاخرى لاعتبارات عسكرية دفاعية ولاعتبارات خاصة بتوطين العرب.
- اثارت عملية مبادلة الارض في العراق والحجاز برغم انها تمت بموافقة القبائل الروح القبلية لان المنتفعين من المبادلة كانوا من قريش - كما ان عائد الصوافي كان للقبائل من صوافي الكوفة وبعملية المبادلة خرج من ايديهم، ويلاحظ ان القطائع في الكوفة كانت تثير الاستياء، في حين لم يحدث هذا بشأن اراضي البصرة لانها كانت من الموات.
- حدث توسع في امتلاك الارض الزراعية واستخدام الرقيق في احياء الارض الموات سواء في البلدان المحررة او الحجاز، فقد وجدت ملكيات واسعة لعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وبعض كبار الصحابة الذين عنوا باحياء الارض والاستثمار الاقتصادي.
- لم يقتصر عمل الرقيق على الزراعة بل امتد الى التجارة بشكل ملحوظ، اضافة الى اسهامهم في الاعمال المنزلية.
- نشطت التجارة، ونشط التجار، واستفادوا من حروب التحرير في تكوين ثروات كبيرة، وكان للعطاء ووجود الذهب والفضة وظهور الامصار اثره في انعاش التجارة.
- نمت بعض الحرف والصناعات في الامصار وبدأ العرب يعملون في هذا المجال.
- بدأت ثروات بعض العرب المسلمين تثير استياء اهل التقوى وتيار الزهد، فاخذ الصراع بينهما شكل محاججات كلامية ثم تطور الى حركة مسلحة عنيفة، وهذا الامر يشير الى ان الصراع لم يكن صراعا بين يمين اويسار بقدر ما كان صراعا بين تيار زاهد يتمسك بالاصول، وآخر لا يرى بأسا من ان تظهر نعمة الله عليه، واتخذ كلا التيارين وسيلة لتسويغ اهدافهما السياسية والاقتصادية، شأنهما في ذلك شأن كل الحركات الدينية في القرون الوسطى.

ـ استخـدم عثمـان بن عفـان عددا من اقاربه ليحكم السيطرة عليهم وعلى الامصار الجـديـدة بسبب ظهـور نزعـات قبلية واقليمية إرادت ان تبتعد عن مركزية الدولة في المدينة، مع ملاحظة ان بعض ذويه قد أساءوا التصرف وحملوه اخطاءهم.

ـ اسهم الموقف من الصوافي وازدياد الروادف في ظهور دعوات تدعو الى المساواة، وكـان للتغيـر السكـاني المتـزايـد في الامصار اثره في انقاص العطاء مما خلق نقمة وجهت ضد عثمان بن عفان.

ـ برز دور واضح للعـامـة والـرقيق في الثورة على عثمان، مما يشير الى تغيير بشرى سكـاني واضـح، ولم يصـل دورهم الى ثورة طبقيـة كمـا ادعى بعض المؤرخين، فالطبقة لم تكن تشكلت بعد، اضف الى ذلك وجود أسباب اخرى في الثورة.

ـ كانت سياسية علي بن ابي طالب في المجال الاقتصادي تقوم على تشديد الرقابة وولاتـه مع ملاحظـة حصـول ارتبـاك اقتصادي في زمنه بسبب استقلال الشام ومصر وتلاعب بعض الولاة بالاموال.

ـ ظهـرت اصـوات عربيـة في الصـراع بين علي ومعاوية، تدعو الى الوحدة وترفض الصراع بين ابناء الامة، معبرة عن حس قومي ينبه الى خطورة العدو الاجنبي الذي يجب ان تنصب كل الجهود لمكافحته، بغية استكمال تحرير الارض والانسان.

وبعـد.. نأمـل ان نكـون قد وفقنـا في استخـدام منهجنا القائم على تعددية الاسباب، وان نكون قد قمنا بقراءة نقدية دقيقة لمصادرنا سعيا وراء اضاءة جوانب حضاريةمن تاريخنا الاجتماعي والاقتصادي، اضاءة حقيقية تحقق الربط بين جدل القومية والطبقة في تاريخ الامة من خلال رؤية تعتمد الفكر القومي الاشتراكي الذي يمتاز بخصوصية ويهدف الى التعامل مع تاريخنا بخصوصية ايضا، فأن يكن التوفيق قد حالفنـا فذلـك جل ما ننشـد، وأن نكن قد خرجنـا عمـا هومألـوف وشـائـع من تخـريجـات وآراء، فلنـا فضيلة الاجتهاد وحسن النية، وعسى ان يكون هذا البحث حافـزا لنـا ولغيـرنـا من البـاحثين للغـوص في تاريخ الامة، وابراز جوانبه الحضارية وتأكيد طابع الوحدة والتماسك فيه، ونبذ كل ما يسيء اليه، وصولا الى الحقيقة التي هي غايتنا ومرمانا.

ومن الله نستمد العون والتوفيق

الفصل الاول:

الاوضاع الاقتصادية في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام

- موقع وطبيعة شبه الجزيرة العربية
- اثر البيئة على الحياة العربية
- اثر الوجود الاجنبي على الحياة العربية واستجابة العرب للتحدي
- التخريب الاقتصادي الاجنبي
- **مظاهر الحياة الاقتصادية في شبه جزيرة العرب:**

١- الرعي والبداوة

٢- الزراعة ونشأة الاقطاع الزراعي:

١- الزراعة:

أ- الزراعة في الطائف

ب - الزراعة في يثرب

٢- نشأة الاقطاع الزراعي:

أ- الاقطاع في اليمن

ب - جذور الاقطاع في الحجاز

٣- الصناعات والحرف اليدوية:

أ- البدو والصناعات

ب - الحضر والصناعات:

(١) الصناعة في اليمن

(٢) الصناعة في الحجاز

موقع وطبيعة شبه الجزيرة العربية :

ان فهم مجمل الحياة لامة ما بشكل عام ، والحياة الاقتصادية بشكل خاص ، يفترض معرفة طبيعة البيئة التي عاشت في ظلها تلك الامة ، ومن هنا فان تقديم رسم للملامح الاساس لشبه الجزيرة العربية على المستوى الجغرافي ، من شأنه ان يضع بين ايدينا بعض المفاتيح التي تقودنا الى ادراك الفعاليات الاقتصادية للعرب قبل الاسلام وفي ظله .

تتمتع شبه الجزيرة العربية بموقع فريد في وسط العالم القديم «فجنوبيها اليمن وشماليها الشام وغربيها شرم ايلة وما طردته من السواحل الى القلزم وفسطاط مصر وشرقيها عمان الى البحرين وكاظمة والبصرة وموسطها الحجاز وأرض نجد والعروض[١]وهذا الموقع قد مكن العرب من التعرف على بعض معطيات الحضارات المجاورة، كما حصنهم ضد اطماع الاجنبي .

تطل بلاد العرب على مياه كثيرة، فمن الشمال تحيط بها مياه نهرية هي شط العرب فالفرات فالعاصي لتنتهي في خليج العقبة ، ويحيطها من الشرق خليج البصرة وعمان ، على حين يشكل البحر العربي وخليج عدن حدها الجنوبي ، واخيرا يحدها من الغرب البحر الاحمر[٢] .

تضم شبه جزيرة العرب تنوعا جغرافيا، فالطبيعة فيها ليست واحدة اومتماثلة في جميع ارجائها، فهناك الجبال وهناك البوادي واخيرا هنالك بعض الوديان الحاوية بعض المياه المتأتية عن الامطار بالدرجة الاولى . فبالنسبة للجبال نجد جبال تهامة التي تشكل قطعة من اليمن وتطل على البحر الاحمر صاعدة الى مكة[٣]، وبينها وبين نجد، السروات وهي جبال ممتدة من جنوب اليمن الى شمال الحجاز كثيرات الغرس[٤]، وهذه الجبال تتمثل ايضا في «جبل السراة الذي يصل ما بين اليمن والشام فانه ليس بجبل واحد وانما هي جبال متصلة على نسق واحد من

---

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب، ص١ .

(٢) الاصطخري ، المسالك والممالك، ص٢٠ ، ابن خلدون، المقدمة، ص٨٣.

(٣) ابن حوقل، صورة الارض، ص٤٣ ،

(٤) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص١١٧ .

اقصى اليمن الى الشام»[1]، اما جبال حضرموت الممتدة من الشمال الى الجنوب[2] فتقع شرقي عدن قرب البحر ورمالها كثيرة غزيرة تعرف بالاحقاف[3] اما على مستوى البوادي فتشكل المساحة الاكبر في شبه جزيرة العرب. وهي تضم بادية البصرة وبادية الجزيرة وبادية الشام وأخيرا بادية السماوة[4]، وهي عموما قفار صعبة الارتياد[5]، وتقع نجد بين تهامة والسروات[6]، وهي من شرقي تهامة، قليلة الجبال، مستوية البقاع، ونجد اليمن غير نجد الحجاز، غير ان جنوبي نجد الحجاز يتصل بشمال نجد اليمن[7]، وهي ارض يغلب عليها الطابع الصحراوي[8]وتتوزع الاودية والواحات التي تحوي بعض مياه الامطار والسيول في اكثر من مكان من شبه الجزيرة العربية[9].

أثر البيئة على الحياة العربية:

من هذا نرى ان شبه جزيرة العرب صحراء شاسعة في الوسط عديمة الانهار وشحيحة المياه، وهذا الامر لم يشجع على الاستقرار، فغلبت حالة البداوة وعدم الاستقرار، وكان طابع الرعي هو السائد، اما الوديان والسهول التي كانت شمالها وفي الهلال الخصيب بالذات، فقد شجعت على حياة الاستقرار والزراعة. على حين كانت الجبال الموجودة في الغرب والجنوب قد أتاحت لبعض مناطق الحجاز الفرصة لان تكون واحات فاتسم طابع الحياة فيها بالاستقرار ولاسيما المدينة والطائف والمستوطنات اليهودية، ومكنت الجبال ووفرة المياه اليمن من ان تكوّن

---

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٦٧.
(٢) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص١٠١.
(٣) ابن حوقل، صورة الارض، ص٤٤.
(٤) المصدر السابق، ص٢٥ - ص٢٦.
(٥) المصدر نفسه، ص١١٨.
(٦) المصدر نفسه، ص١١٧.
(٧) ابن حوقل، صورة الارض، ص٤٥.
(٨) الهمداني، المصدر السابق، ص٤٨.
(٩) المصدر نفسه، ص١٥٠ وما بعدها.

زراعة ومجتمعات متحضرة، وكان للموقع الجيد لشبه الجزيرة فضيلة تنشيط الاقتصاد التجاري، وهذا الاختلاف في البيئة قد اوجب اختلافا في طرق المعيشة والنبات والحيوان والسكان[1].

أثر الوجود الاجنبي على الحياة العربية واستجابة العرب للتحدي:

ان الوجود السياسي للقوى الاجنبية قد أثر على الحياة العربية وجعل خط التطور في مرافقها الاقتصادية ينحسر ويتراجع او يتوقف في الاقل لفترة معينة حيث «تعرضت المجتمعات العربية لازمة حادة في القرن السادس للميلاد اذ تكالبت عليها الدولتان الكبريان، البيزنطية في الغرب والساسانية في الشرق فاستولى الاحباش ـ حلفاء البيزنطيين ـ على اليمن، ورافق ذلك زوال كيان كندة، وضرب البيزنطيون كيان الغساسنة في الشام، كما قضى الساسانيون على كيان المناذرة في العراق ومدوا سيطرتهم المباشرة عليه وعلى جهات من الخليج العربي. وبقيت اليمن ساحة صراع بين الدولتين حتى مد الساسانيون نفوذهم اليها، وهكذا زالت الكيانات العربية وواجه العرب التهديد الاجنبي مباشرة»[2].

وازاء هذا التحدي، سعى العرب الى الرد على الخطر وفق امكانياتهم المتاحة، فأمرؤ القيس يسمي نفسه ـ ملك العرب ـ ويمكن ان يعد هذا الامر محاولة لمواجهة جهود البيزنطيين والساسانيين، والنعمان بن المنذر قد ساعد ـ رغم نصرانيته ـ سيف بن ذي يزن ولم يتخل عن حسه بالتضامن مع بني قومه، فكان ان توسط له لدى كسرى ليمده بجند وسلاح ساعدته في تحرير اليمن من الاحباس[3] وقد اثارت سياسة النعمان بن المنذر للتحالف مع القبائل العربية، خوف كسرى فتخلص من النعمان وأوجز سبب ذلك بقوله: «.. وأما ما زعمت من قتلي النعمان بن المنذر، وازالتي الملك عن آل عمرو بن عدي الى اياس بن قبيصة، فان النعمان واهل بيته واطأوا العرب، واعلموهم توكفهم خروج الملك عنا اليهم، وكان اليهم في

---

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب، (ص٥٩).

(٢) الدكتور عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص٩.

(٣) الدينوري، الاخبار الطوال، ص٦٣.

ذلـك كتب، فقتلتـه، ووليت الامـر اعـرابيا لا يعقل من ذلك شيئا»[1]، وترتب على ذلك ان «جعلت بكر بن وائل تغير في السواد»[2]، وجرت مناوشات عديدة بين اياد والفرس. فهزموهم مرة بعد مرة»[3]، ثم جاءت وقعة ذي قار[4] لتحقق اول نصر في معركة نظامية مع الفرس، وقد عبر النبي (ص) الذي كان ضميرا للجماعة العربية، عن راحته بشأن ذلك، فقال: «اليوم اول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصـروا»[5] وهـذا القـول اقـرار باعتداء الفرس وظلمهم للعرب، ويعزز هذا الاتجاه ما اشـار اليـه ابن اعثم الكـوفي في «.. ان الفـرس كانت تتعـدى على العـرب وتظلمهم..»[6] وظهـرت اصـوات فردية لتعبر عن رفض الحكم الاجنبي وتدعو الى الانتباه الى الاخطار التي تحدق بالعرب وتبث الدعوة الى التماسك العربي وتجاوز الانقسـام وحيـاة التشـرذم[7] وقد تجسد هذا الرفض للاجنبي في محاولات جماعية تارة وفردية تارة اخرى. الا ان الذي كان يجمع هذه المحاولات ويوحدها في بودقة واحـدة هو الاحسـاس بالـذات العـربيـة التي بدأت تنتقل من التبعية الى الرغبة في الاستقـلال، ومن مرحلة الانفعـال بالاحـداث الى العمـل على تحقيق الفعـل والاسهام في صنع الاحداث[8].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٩ـص١١٠.

(٢) الاصفهاني، الاغاني، جـ٢٠، ص١٣٢.

(٣) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ١، ص١٢٩.

(٤) المصدر السابق، جـ٢، ص١٣٣ـص١٣٨.

(٥) خليفة بن خياط، كتاب الطبقات، ص٤٣. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص١٩٣.

(٦) ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، جـ١، ص٨٩.

(٧) الاصفهـاني، الاغـاني، جـ٢٠، ص٢٣ـص٢٤، ص٢٥ «للمزيد راجع قصة وقصيدة لقيط بن معمر»

(٨) «لمزيد من الاطلاع على المناوشات العسكرية بين العرب والفرس، تراجع دراسة د. فاروق عمر فوزي ـ ثلاث معارك حاسمة في الخليج العربي ـ مجلة آفاق عربية، العدد ٧، سنة ٧٩آذار ١٩٨٤، ص١١ـص١٧.

التخريب الاقتصادي الاجنبي :

واذا اعترفنا بان البيئة العربية لم تساعد كثيرا على تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فان القوى السياسية لم تدع الفرصة للاقتصاد العربي كي يتطور ويتكامل ، بل عملت في كل فرصة سانحة على ضرب تطوره اوفي الاقل تأخير هذا التطور والسعي لجعل معاش العرب يدور في فلك اقتصادها ، واستهدفت اية محاولة توفرت على بعض النضج في المجال الاقتصادي والسياسي ، وذلك بأن قامت باقصاء العرب عن الاراضي الخصبة ، ويسعفنا التاريخ بنص ذكي يكشف هذه الحقيقة اذ يخاطب الخليفة علي بن ابي طالب انصاره عن حالة التجزئة التي عاشها العرب ، ودور الاجانب من فرس وروم في تخريب اقتصادهم فيقول : «تأملوا امرهم في حال تشتتهم وتفرقهم ليالي كانت الاكاسرة والقياصرة ، اربابا لهم ، يحتازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق ، وخضرة الدنيا الى منابت الشيح ، ومهافي الريح ونكد المعاش ، فتركوهم عالة مساكين اخوان دبر ووبر ، أذلّ الامم دارا ، وأجدبهم قراراً[1] .

وهذا الدفع للعرب باتجاه الصحراء قد ساعد على توسع موجة البداوة ، اضف ان غياب التوتر والحرب بين الدولتين الساسانية والبيزنطية ، كان يرهق التجار العرب اذ تتفق الدولتان على تشديد الرقابةعليهم وزيادة الرسوم على بضائعهم[2] .

والواقع ان احداث التاريخ تضعنا امام اكثر من محاولة تخريب اقتصادي قامت به القوى الاجنبية من اجل الالتفاف على العرب ، والهيمنة عليهم ،

---

(١) الامام علي ، نهج البلاغة ، شرح محمد عبدة ، جـ٢ ، ص٥٣ .

ويذكر الطبري والثعالبي ان سابور الفارسي (٣١٠-٣٧٩) قد هاجم ، القبائل العربية القريبة من العراق ، كما هاجم البحرين واليمامة ، وطمر العيون والآبار التي اعتمدت عليها هذه القبائل ، اضافة الى حفر خندق بين العراق والبادية حجز بين القبائل العربية والعراق . الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ، ص٥٥ ، الثعالبي ، تاريخ غرر السير ، ص٥١٤ .

كما يذكر الطبري وابو عبيدة ان الفرس قد وضعوا حاميات على حدود العراق ، هي المسالح ، ولعل ابرزها في عيون الطف ، الطبري ، م . ن جـ٣ ، ص٤٧٨-ص٥٠٣ . ابو عبيدة ، النقائض ، جـ٢ ، ص٦٤٠ .

(٢) احمد صادق سعد ، الدولة الاموية والصراع من اجل العدل ، ص٦٤ .

فالاحباش يدفعون بحملة يقودها ابرهة الحبشي لاحتواء مكة اقتصاديا وسياسيا[١]، وبيزنطة تضع بعض العيون في مكة لتزويدها بالتطورات الحاصلة، ويندرج ضمن نفس الاتجاه وجود جالية حبشية في مكة[٢]، لا بل ان اسلوب الرقابة والتجسس الاجنبي على العرب لم يتصل بالحواضر فحسب، بل امتد الى البادية لمعرفة تحركات الاعراب من خلال مندوبين اجانب برفقة حاميات[٣]، وقد أدى احتكار الروم والفرس للذهب الى تقليص تداوله بين السكان المحليين[٤].

وفي ضوء ما سبق نستطيع ان نجمل مظاهر الحياة الاقتصادية في الجزيرة العربية في:

١ـ الرعي والبداوة.
٢ـ الزراعة ونشأة الاقطاع الزراعي.
٣ـ الصنائع والحرف اليدوية.
٤ـ التجارة.

مظاهر الحياة الاقتصادية في شبه جزيرة العرب:

١ـ الرعي والبداوة:

تعرف البداوة بأنها «تجوال ليس فيه استقرار ورعي قطيع من الانعام»[٥] ويظهر بأن البداوة واعتمادها على الاقتصاد الرعوي كانت منتشرة في شبه الجزيرة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٥٧. ابن حبيب، المنمق، ص٧٣.
(٢) O'L EARY, ARABIA BEFORE MUHAMMAD, P,184
(٣) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ٣، ص٦٠٣ـ ص٦٠٤.
(٤) موريس لومبار، الاسلام في مجده الاول، ص١٥٧ وص١٥٨.
(٥) مونتجمري وات، البدو، ص١٦.
ويعرف ابن منظور البداوة بأنها الاقامة في البادية، وان البادية اسم للارض التي لا حضر فيها، واذا خرج الناس من الحضر الى المراعي في الصحاري قيل بدوا والاسم البدو. والبدوي هو الذي يكون في البادية ومسكنه المضارب والخيام وهوغير مقيم في موضعه، لسان العرب، جـ١٨، ص٧٢، ص٧٣.

العربية، فثمة بداوة في نجد اساسها رعي الابل والسكن في الخيام[1]، وبداوة في الحجاز اعتمدت من جملة ما اعتمدت عليه الرعي[2]، وهؤلاء البدو الذين يعيشون من منتجات الابل بالدرجة الاولى كانوا منتشرين بين العراق واليمن والشام ينتجعون المراعي والمياه، معتمدين عدم الاستقرار أساسا لحياتهم[3]، ولما كان هؤلاء البدو قد اعتمدوا على الابل في معاشهم فقد كانوا «اكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا، لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرارا من أذى البرد الى دفء هوائه وطلبا لما خض النتاج في رماله اذ الابل اصعب الحيوان فصالا ومخاضا وأحوجها في ذلك إلى الدفء، فاضطروا الى ابعاد النجعة، وربما زادتهم الحامية من التلول ايضا فأوغلوا في القفار»[4]، والبدو يأخذون الحبوب والادم من الحواضر الا انهم يقتصرون في غالب احوالهم على الألبان وتعويضهم من الحنطة أحسن معاض»[5] واذا عرفنا أن أساس حياة البدو والرعي وعدم الاستقرار امكن لنا القول في أن البدو يقتصرون على الضروري من المعاش.

ومع ان سمة عدم الاستقرار تغلب على البدو فانهم يستقرون مؤقتاً طلبا للماء والمرعى، اذ «لجميع العرب مياه يجتمعون عليها وملكية يعرجون اليها، كالدهناء والسماوة والتهائم وانجاد الارض والبقاع والقيعان والوهاد، ولست تكاد ترى قبيلا من العرب توغل من الاماكن المعروفة لهم والمياه المشهورة بهم كماء ضارح وماء العقيق والهباءة وما أشبه ذلك من المياه»[6].

---

(١) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص١١٧.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٥.
(٣) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٢٥.
(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص١٢١.
(٥) المصدر نفسه، ص٨٧.
(٦) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٩٩.

ويبرر المسعودي سبب سكن البدو الصحراء قائلا: «ورأت العرب ان جولان الارض وتخير بقاعها على الايام أشبه بأولى العز وأليق بذوى الانفة وقالوا: لنكون محكمين في الارض ونسكن حيث نشاء أصلح من غير ذلك، فاختاروا سكنى البدو، من اجل ذلك»[١].

وهذه كما نرى تبريرات غير علمية لسكنى الصحراء، اذ ان السبب الحقيقي في تقديرنا يعود الى فقر البيئة التي أملت نمط العيش الرعوي، وليس كما اورد المسعودي بدلالة اندفاع البدو نحو الاستقرار حين يجدون الاراضي الخصبة او الظروف الملائمة، فالمناذرة والغساسنة بدو استقروا، وهجرة الاعراب نحو المدينة زمن الرسول (ص) ومن ثم هجرتهم الى الامصار، تقدم شواهد على صحة رأينا، فالتمدن - غاية للبدوي يجري اليها[٢].

كانت البداوةالعربية رهناً باستئناس الجمل والاعتماد عليه في معيشتهم في التجارة والطعام واللبن واللحم[٣]، وقد ارتبط مصير البداوة القائمة اقتصاديا على الابل في الجزيرة العربية ارتباطا وثيقا بمصير تجارة القوافل ومن ثم كان لتدهور هذه التجارة شأن كبير ولاشك في حياة البدوي[٤].

وكان لسلسة الحروب الطويلة بين فارس وبيزنطة[٥]، أثر مزدوج على حياة البدو، فمن جهة توسعت موجة البداوة نحو الشمال من الجنوب الذي تحول جانب من سكانه المشتغلين بالفلاحة الى حياة البداوة[٦]، ناهيك عن تواجد البدو اصلا في الشمال، ومن جهة اخرى اتاحت الحروب بين فارس وبيزنطة الفرصة للبدو للاسهام في التجارة، ففي ضوء أخذ المواثيق التجارية من الدول المجاورة، ومن

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص١٢٩.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص١٢٢.

(٣) مونتجمري وات، البدو، ص٧١.

(٤) المرجع نفسه، ص٨٩.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص١٧٦-ص١٨٧.

(٦) المرجع السابق، ص٩٥.

شيـوخ القبـائل البدوية[1] توثقت الصلات بين البدو المستقرين وبين اقرانهم ممن يعيشون في الصحراء مماسير التجارة[2].

وهذا يعني ان هؤلاء البدو الذين وصفهم ابن خلدون بأنهم . . «اهل القفر والصحـراء»[3] لم يكـونـوا منعزلين اقتصاديا ولم يكن اقتصادهم قائما على الاكتفاء الـذاتي، الّا انهم في نفس الـوقت مرتبطين باقتصـاد الحـواضـر واقتصاد يقوم على الـرعي وتكـون ملكيـة الابل عماد وجوده يقتضي التضامن القبلي والعصبية للدفاع عن ممتلكات القبيلة، كما تقضي وحدة الجماعة الاشتراك في الغنائم.

ان سعة انتشار البداوة واقتصاد الرعي في الجزيرة العربية، حدت بالجنحاني الى الذهاب بأن مجمل الاقتصاد فيها يقوم على الرعي، فقد قال: «انني أميل الى الاعتقاد انه اقتصاد رعوي بالرغم من أهمية النشاط التجاري، ولا نغفل عن الاشارة الى ان النشاط التجاري كان يقتصر في هذه المرحلة على أسواق المدن الرئيسية في الحجاز مثل مكة والمدينة»[4].

ومع تقديرنا لهذا الرأي، فاننا نرى ان التجارة لم تقتصر على مكة والمدينة، بل تعـدتهمـا الى الطـائف والمستوطنات اليهودية، اضافة الى اسهام شيوخ القبائل والاعراب في العملية التجارية كما سنوضح عند الحديث عن التجارة.

ولا يفـوتنـا الاشـارة الى وجـود زراعة في الواحات والاماكن الخصبة، اضافة الى وجود نشاط حرفي بسيط كما سنبين في الصفحات الآتية:

---

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص٣.

(2) مونتجمري وات، البدو، ص١٢٣.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ص٨٩.

(4) د. الحبيب الجنحاني، الشؤون الاقتصادية والمالية في حياة الدولة العربية الاسلامية الاولى، ص١٠.

٢- الزراعة ونشأة الاقطاع الزراعي:

١- الزراعة:

تتسم نظرة البدو الى الزراعة بعدم الاحترام، فجرير يهجو بني حنيفة قائلا:

اصحاب نفل وحيطان ومزرعة سيوفهم خشب فيها مساحيها[١]

الّا ان الاعتبارات العملية دفعت العرب - بالاخص سكان الحواضر - الى ممارسة الزراعة، لا بل ان بعض سكان نجد وهي هضبة عالية قد حفروا الآبار وزرعوا الكروم والنخل وبعض الفواكه[٢]، على حين اشتهرت اليمامة بكثرة العيون وانتاج الحنطة والتمر[٣]، كما كانت خيبر ووادي القرى وفدك من المناطق الزراعية[٤].

أ- الزراعة في الطائف:

تستحق الطائف ان نقف عند مستواها الزراعي المتطور قياس للاماكن الاخرى المعاصرة لها في الحجاز، فقد كانت مدينة زراعية كثيرة الشجر والثمر وتزود مكة بالفواكه والبقول، وقد وجدت في هذه المدينة مياه جارية[٥]، ساعدت بالتأكيد على اقبال سكانها على الزراعة، الا ان اهم مسألة بشأن الطائف في نظرنا تكمن في ان طبيعة الزراعة فيها تقدم لنا اشارة دقيقة عن وجود الملكية الفردية للارض، فالعباس بن عبد المطلب يمتلك ارضا في الطائف[٦]، وعمرو بن العاص

(١) المبرد، الكامل، جـ٣، ص٢٥.

(٢) ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ص٢١٧-ص٢١٨.

Semple, Influence of Geographic Envitonment, P501

(٣) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٢٣، ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان ص٢٨-ص٢٩.

(٤) الاصطخري، المصدر نفسه، ص٢٣-ص٢٥. الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٧٠.

(٥) السلمي، عرام بن الاصبغ، اسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى، ص٤٢٠.

(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٨.

يمتلك ارضا فيها ايضا[1]، وهذا الامر له شأنه في تحديد طبيعة الملكية، ويظهر ان الزبيب والعسل كانا ينتجان بكميات كبيرة في هذه المدينة[2].

ب ـ الزراعة في يثرب:

عرفت يثرب بالزراعة اذ يوجد فيها الكثير من الآبار والوديان التي تعتمد على المطر والتي افضت كنتيجة طبيعية الى خلق زراعة حسنة الانتاج منتظمة[3]، وساعدت خصوبة التربة الى منح الزراعة فرصة النمو والانتظام مما جعل يثرب من امهات المراكز الزراعية[4] واضافة الى اشتهارها بالنخيل[5]، فقد اشتهرت بانتاج حب البان ومنها كان يحمل الى جميع البلدان، وهي حشيشة تنبت في باديتها[6].

ان ما أوردناه يتناقض مع الرأي القائل بان «العربي غير مؤهل للزراعة»[7]، ويتنافى مع الشواهد والوقائع التاريخية التي بين ايدينا بما يتعلق باسهام العرب

---

(١) الاصفهاني، الاغاني، جـ١٨، ص٢١٣.

ان معرفة العرب للملكية الخاصة للارض قبل الاسلام يتناقض مع قول د. طيب تيزيني بان «مايميز العلاقات الانتاجية الاجتماعية في الحجاز الجاهلي هو فقدان ملكية الارض بالمعنى الدقيق المميز» مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، ص١٥٢.

يقول البلاذري: . . وكانت لعامة قريش اموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها فلما فتحت مكة وأسلم اهلها طمعت ثقيف فيها حتى اذا فتحت الطائف اقرت في ايدي المكيين، المصدر نفسه، ٦٨.

(٢) ابو يوسف، الخراج، ص٧٠ـص٧١. البلاذري، المصدر نفسه، ص٦٨.

(٣) السمهودي، وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى، جـ٢، ص١١٩ـص١٤٩. اسماء جبال تهامة. . ، ص٤٢٤، ص٤٢٦.

(٤) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٢٣، عبدالله عبد العزيز بن ادريس، مجتمع المدينة في عهد الرسول (ص)، ص٢٥.

(٥) ابن حوقل، صورة الارض، ص٣٧.

(٦) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص٢٥.

(٧) روم لاندو، الاسلام والعرب، ص١٨.

وخاصة سكان الحواضر في الزراعة ، غير ان هذا لا يجب ان يدفع بنا الى اعطاء الانتاج الزراعي دورا اكبر مما كان عليه وذلك باعتباره ـ انتاجا لاغراض التبادل الواسع ـ لانه اذا صح اعتباره انتاج تبادل، فانه تبادل داخلي في الاعم، وتصريف مايزيد عن الحاجة في الاسواق العربية ، وليس لغرض التجارة الخارجية ذلك ان طبيعة هذا الانتاج تتأثر بالبيئة التي لا تخلق فائضا عن الحاجة كي يصدر الى الخارج[1]، والسبب الاساس الذي يجعلنا نتبنى هذا الرأي هو ندرة الماء في شبه الجزيرة العربية، ولكن هذه البيئة الشحيحة بالماء وان اثرت على الزراعة فانها دفعت العرب ايضا الى الاحتيال على البيئة فكانوا يسعون الى الاستفادة منها ما وجدوا الى ذلك سبيلا .

المسألة التي تستحق ان تذكر، هي ان الزراعة في بلاد اليمن من حيث الانتاج والتنظيم كانت اكثر حيوية من الزراعة وسط الجزيرة والحجاز[2] وان الزراعة في الحجاز من حيث امتلاك الارض بشكل ملكية فردية وتحقيق فائض بسيط، تجعلنا نرجح انها قد عملت على خلق تفاوت في الثروة وعززت الانقسام بين من يمتلك الارض والفائض وبين من لا يمتلكهما وان كان هذا التفاوت اوليا لم يصل الى درجة تناقض طبقي .

٢ـ نشأة الاقطاع الزراعي:

يبدو ان العرب قبل الاسلام قد عرفوا الاقطاع، غير ان معرفته لم تجعل منه نظاما خاصة، كما ان الاقطاع عند عرب اليمن كان غيره، عند عرب الاماكن الاخرى في الجزيرة ولا سيما الحجاز.

أـ الاقطاع في اليمن:

وجد نظام اقطاعي في اليمن ،بقيام ملكية سبأ وذوريدان أثر زوال الملأ «واستندت الملكية الى شيوخ قبائل الاقطاعيين، فالاراضي تعطى لشيوخ القبائل لتتولى هذه زرعها، وكانت الارض تعطى في الاصل مقابل خدمة عسكرية، كما

(١) د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ٧، ص١٤ .

(٢) د. ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية، ص٢٨ .

صارت تعطى مقابل دفع مبلغ من المال، وقد يشتري الشيخ الارض باسم القبيلة ويدفع كل سنة شيئا محددا، وتعطى للشيخ عادة وثيقة تبين حدود الارض والواجبات المترتبة عليها، وكان التعاقد بين الملك والشيخ مباشرة. وهذا الاخير مسؤول مباشرة تجاه الملك عن كل الالتزامات، وكان يضاف الى القبائل المالكة جماعات من قبائل اخرى ـ بقرار ـ كموال لتتولى الزرع حسب الحاجة. وتعد جزء من الكيان الكبير للقبيلة.

وهذا يعني ان القبيلة ليست دائما من نسب واحد بل فيها اناس من مجموعات وطبقات مختلفة حسب ظروف العمل واستغلال الارض. وهكذا قام نظام اقطاعي في اليمن وتكونت صلات اقطاعية بين الملك والشيوخ[١].

وقد كانت العوائل الشريفة في اليمن تمتلك ملكيات اقطاعية او شبه اقطاعية وتستخدم الفلاحين او العبيد في الارض[٢].

هناك مسألة تقتضي الوقوف عندها بما يتعلق باقطاع المعادن عند اهل اليمن، اذ انهم عرفوا اقطاع ما ظهر وما بطن من المعادن ولم ينتبهوا الى الفرق بين الاثنين[٣] على حين قرر الاسلام عدم جواز اقطاع المعادن الظاهرة وصارت في حكم الماء العد ـ اي الدائم الذي لا ينقطع ـ الكل فيه سواء[٤].

ب ـ جذور الاقطاع في الحجاز:

يمكن لنا ان نذهب الى ان اصل جذر الاقطاع في بعض المناطق العربية باستثناء اليمن قد جاء عن طريق الاجنبي، فمثلا ذوو الاكال من وائل «وهم اشراف كانت الملوك تقطعهم القطائع، فأما مضر فكانوا لقاحالا يدينون للملوك الّا بعض

(١) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، هامش ص٢٤ـص٢٥.

(٢) د. عبد العزيز الدوري، نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية، ص٧.

(٣) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ٧، ص١٤٦ـص١٤٧.

(٤) ابن سلام، الاموال، ص٢٧٥ـص٢٧٦.

«من المفيد الاشارة بأن عرب اليمن كانوا يعتبرون الارض والانسان، **ملك الآلهة**، وان الملكية حق مقدس، وهذا الامر يشبه ما جاء به الاسلام باستثناء الملكية التي صارت ذات وظيفة اجتماعية».

تميم ممن كان باليمامة وما صاقبها، فذوو الآكال: قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن عبدالله ذي الجدين ابن عمرو بن الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان، وكان كسرى اطعمه الابلة وثمانين قرية من قراها»[1] وربما كانت جاذبية الاقطاع في تلك الفترة قد دفعت بأبي سفيان الى امتلاك ضيعة في الشام[2].

لعل فكرة الملكية التي كانت واضحة في المناطق الزراعية، يمكن ان تقودنا الى بعض الامور فيما يتعلق بجذور الاقطاع في الحجاز، فمن المعروف ان اكثر من شخص قد امتلك ارضا في الطائف[3]، كما كانت ملكية الارض الزراعية الخاصة بارزة في يثرب ـ المدينة ـ[4]، واذا عرفنا ان العبيد كانوا يستخدمون في الزراعة[5]، وفي احياء الاراضي الموات[6]. جاز لنا ان نرجح وجود جذور اولى للاقطاع البسيط القائم على الاستثمار غير الواسع للارض وان كان استثمارا يستهدف الربح وتحقيق فائض للتبادل المحلي، مع ملاحظة ان هذا الاستثمار لا يقوم على عبودية الفلاح، وانما الاستفادة من عمل الاجراء والعبيد في حدود الامكان وطاقة الارض الزراعية، وهي محدودة عموما في الحجاز، وما قلناه ليس بعيدا عن الواقع، لان لدينا اشارات عديدة تثبت لنا ان عرب ما قبل الاسلام قد عرفوا قيمة الارض المقطعة بدليل ان

---

(١) ابن حبيب، المحبر، ص٢٥٣، كما اقطع الاكاسرة آل عدي العديد من الاقطاعيات، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص١٩٣، وامتلك الازد العديد من القطائع في الحيرة، ابن منظور، جـ٩، ص٣١٢.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان

(٣) ابن حبيب، المنمق، ص٣٦٠، ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص٢٢، ابن سعيد الاندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، ص٣٩٨. البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٨.

(٤) السمهودي، وفاء الوفا، جـ١، ص١٢٥.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٢١٨ـص٢٢٠.

(٦) ابن قتيبة، المعارف، ص٣٢. السمهودي، وفا الوفا، جـ٢، ص٢٨٠.

رؤساء القبائل العربية قد سألوا النبي (ص) مرارا عديدة[1] اقطاع اراض لهم ففعل مما يشير الى معرفتهم اهمية الارض[2]، ولنا ان نشير بأن العرب قبل الاسلام قد ذهبوا الى من احيا ارضا ميتة صارت له[3].

وبصورة عامة لا نجد في الحجاز اونجد او العربية الشرقية ملاكا مزارعين كبارا على نحو ما نجده في اليمن او في بقية العربية الجنوبية، وذلك لصغر مساحة الارضين المسقاة بالمطر او بالمياه الارضية في هذه البلاد نتيجة شح الارض وبخلها على الناس بالماء، ولهذا لم يظهر في الحجاز او في نجد او ارض العروض مزارعون كبار، لهم عدد كبير من الفلاحين والرقيق يستغلونهم في استغلال الارض[4]، ونعتقد ان هنالك مسألة مهمة يجب ان نشير اليها، تتمثل في ان العرب قبل الاسلام قد عرفوا احياء الموات، وكانت الارض التي تحيا تصبح ملكا خاصا لمن قام بالاحياء. وقد وقعنا على اشارة فريدة في هذا المجال قدمها لنا كتاب الاغاني على الشكل الآتي: «ان حرب بن امية لما انصرف من حرب عكاظ هو واخوته مر بالقرية، وهي اذ ذاك غيضة شجر ملتف لا يرام، فقال له مرداس بن ابي عامر: اما ترى هذا الموضع؟ قال: بلى، قال: نعم المزدرع هو فهل لك ان نكون شريكين فيه ونحرق هذه الغيضة ثم نزدرعه بعد ذلك قال: نعم، فاضرما النار في الغيضة. ولم يلبث حرب بن امية ومرداس بن ابي عامر ان ماتا فأمر مرداس فدفن

---

(١) ابن آدم، الخراج، ص٩٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص٥٧٧، ابو يوسف، الخراج، ص٦١.

ابن آدم، الخراج، ص٩١. البلاذري، فتوح البلدان، ص١٠٣، ابن سلام، الاموال، ص٢٨١-٢٨٢. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص٢٠٥. ابن دريد، الاشتقاق، ص١٨٢. الثعالبي، ثمار القلوب، ص١٠١.

(٣) الاصفهاني، الاغاني، جـ٦، ص٩٢-٩٣.

(٤) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ٧، ص١٥٦.

بالقرية ثم ادعاها بعد ذلك كليب بن ابي عهمة السلمي، فتصدى له عباس بن مرداس»[1].

٣ـ الصناعات والحرف اليدوية :

أ ـ البدو والصناعات :

ما من بد من الاقرار بوجود اختلاف بين البدو والحضر، بشأن الصناعات والحرف، فالبدو يكرهون ذلك لان الحرف اليدوية من الامور غير المحبذة وان بعض الحرف نالت ازدراء البدو اكثر من غيرها، فعلى سبيل المثال، كانت الحدادة مهنة منبوذة في الوسط البدوي بحيث لم يجد جرير ما يهجو به الفرزدق، افضل من وصمه بأنه ابن حداد :

اذا عدّت الايام أخزين دراما ... وتخزيك يا ابن القين أيام دارم[2]

كذلك هجا الأشهب بن رميلة الفرزدق :

يا عجبا هل يركب القين الفرس ... وعرق القين على الخيل نجس
وانما سلاحه اذا جلس ... الكلبتان والعلاة والقبس[3].

ومع ان نظرة البدو الى الصنائع والحرف اتسمت بالنفور منها ربما بسبب كون الصناعة من حرف العبيد والخدم والاعاجم والمستضعفين من الناس، وبسبب كون الصناعة تتطلب الاستقرار والخضوع للسلطة والتملق للمشترين. وكلها امور

(١) المصدر السابق، جـ٦، ص٩٢ـص٩٣.

يشير يحيى بن آدم الى ان قول النبي (ص): من احيا ارضا ميتة فهي له، يعني اذنا واطلاقا للاحياء، الخراج، ص٩٠. ويقدم لنا في ص٦٣ نصاً لا يشترط موافقة الخليفة في الاحياء فيقول: «جاء رجل الى علي عليه السلام فقال: أتيت ارضا قد خربت وعجز عنها اهلها فكريت انهارا وزرعتها قال: كل هنيئا وانت مصلح غير مفسد، معمر غير مخرب.

(٢) المبرد، الكامل، جـ٢، ص٧٨.

(٣) الاصفهاني، الاغاني، جـ١٩، ص٤٣.

تتناقض مع نظرة البدوي للحياة، الا ان الاعتبارات العملية ومتطلبات الحياة الواقعية أملت وجود بعض الحرف البسيطة بين البدو انفسهم، لأن العمران البدوي . . لا يحتاج من الصنائع الاّ البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار او حداد او خياط او حائك او جزار واذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وانما يوجد منها بمقدار الضرورة اذ هي كلها وسائل الى غيرها وليست مقصودة لذاتها»[1].

نعتقد ان الذي تحكم في نشوء الصناعات عند البدو، هو الحاجة التي عبرت عن الاستجابة للواقع ومتطلبات العيش، على حين كان الموقف من الصنعة والمهن نظريا واخلاقيا.

ولعل ابرز دليل على تحكم جاذبية الواقع في الحرفة والصنائع، هو الظاهرة المتمثلة في بني أسد الذين يبدو انهم قد احترفوا الحدادة حتى سمّوا بالقيون وسميّ . . الحداد ـ هالكي ـ لان اول من عمل الحديد الهالك بن عمرو بن أسد ابن خزيمة. ولذلك قيل لبني اسد ـ القيون[2]، ويرجح ان وجود معدن في منطقة بني سليم[3]، قد حدا بهذه القبيلة الى محاولة استخراج المعادن. *

ب ـ الحضر والصناعات:

مقابل موقف البدو من الصناعات والحرف اليدوية، نجد ان اهل الحضر كانوا يمتلكون نظرة اكثر تقدما من موقف البدو.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٠١.

(٢) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص٥٤.

(٣) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٣١.

* «مما يعزز ذلك، ان شركة التعدين السعودية قد عثرت في المنجم الذي كان لبني سليم على ادوات فيه استعملت قبل الاسلام في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه مثل، الرحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح، وشاهدت آثار القوم في حفر العروق التي تكون الذهب».

د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ٧، ص٥١٤.

١ـ الصناعة في اليمن:

تأتي اليمن في مقدمة اجزاء جزيرة العرب في الصناعة، ولا نكاد نجد مكانا يسبقها فيها، وهي الاولى في الانتاج ايضا، وقد عرفت منتجاتها في كل موضع من بلاد العرب، وهي المكان الوحيد فيها، الذي زادت صادراته فيه عن وارداته، وكان مستواه المعاشي فيه اعلى من المستوى المعاشي لبقية اجزاء جزيرة العرب، وكان مستهلكا ومنتجا، لحاجته الى الاستهلاك، ثم هو المكان الوحيد الذي نجد فيه التمايز الطبقي، ظاهرة واضحة، لتباين الظروف المعاشية التي عاشت فيها طبقات المجتمع، فأسياد اغنياء، وطبقات وسطى، وطبقات فقيرة معدمة، لا تجد رزقها الاّ بشق الانفس[(١)].

٢ـ الصناعة في الحجاز:

يقدم لنا الجاحظ وابن قتيبة وابن رستة قائمة عن صناعات اشراف مكة، ومنها يتضح لنا ان عدم احترام المهنة كان عند البدوي بشكل خاص، وليس عند العرب عموما، بدلالة ان عرب مكة المتحضرين نسبيا كانوا يعملون في مهن مختلفة[(٢)] ولاهمية النصوص التي في اعلاه ارتأينا ان نورد احدها الذي يقول:

«وأما صناعات الاشراف، فانه روى:

ان ابا طالب كان يعالج العطر والبز، واما ابو بكر وطلحة وعبد الرمن بن عوف فكانوا بزازين، وكان سعد بن ابي وقاص يعذق النخل، وكان اخوه عتبة نجارا، وكان العاص بن هشام، اخوابي جهل جزارا، وكان الوليد بن المغيرة حدادا، وكان عقبة بن معيط خمارا، وكان عثمان بن طلحة صاحب مفتاح البيت خياطا، وكان ابو سفيان بن حرب يبيع الزيت والادم، وكان امية بن خلف يبيع البرم، وكان عبدالله

---

(١) د. جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ٧د ص٥١٩.

«نعتقد ان اعتبار اليمن المكان الوحيد الذي نجد فيه التمايز الطبقي واضحا، مسألة فيه نوع من الاعمام بدلالة ان مجتمع مكة كان يعاني من تمايز اقتصادي، فهناك طبقة التجار الاثرياء، وهناك العبيد والضعفاء، وهناك فئة وسطى بين الطبقتين».

(٢) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص٩٣. ابن قتيبة، المعارف، ص٥٧٥. ابن رستة، الاعلاق النفيسة، ص٢١٤ـص٢١٥.

بن جد عان نخاسا، وكان العاص بن وائل يعالج الخيل والابل»[1] ومع اقرارنا بأن القائمة تضم من اسهم في عمل يدوي يمكن ان ندرجه ضمن الصناعات، فانها لا تفرق بين الصناعات والمهن ذات الصبغة التجارية الواردة في نفس القائمة، ولذا يجب ان نتحفظ في اعتبار ما ورد «صناعات الاشراف» فهي مهن اكثر منها صناعات وهي مهن في بعضها ذات صلة وثيقة بالتجارة، وعلينا ان نتحفظ في انها كانت «تنتج لغرض التبادل»[2]، اذ هي في تقديرنا لسد الحاجة المحلية في افضل الاحوال، والامر الاكثر اهمية في هذا المجال ان هذا النص من مخلفات العصر العباسي رغبة في رفع قيمة بعض الاعمال والشخصيات بدلالة ان النص يشير الى ذلك في الفقرات اللاحقة مما يجعلنا نشك بانه موضوع.

واشتهرت الطائف بدباغة الجلود ويحتمل انها كانت تصدر الى خارج الجزيرة بدلالة سمعتها الحسنة التي وصلت الى بعض الملوك، فالنجاشي حاكم الحبشة كان يحب ان يهدى اليه أدم الطائف[3] ويبدو ان حاجتها الدفاعية قد جعلتها تدفع بعض ابنائها الى تعلم صناعة الدبابات والمنجنيق[4]، مما يؤكد رأينا بأن متطلبات الواقع هي التي كانت تتحكم في الصناعات دونما اعتبار كبير للنظرة الاخلاقية.

ولعل النشاط الحرفي في يثرب ـ المدينة ـ كان مؤديا مهمته من حيث سد حاجات الناس بما يخص ارتباط الصناعات بالزراعة بالدرجة الاولى، وخاصة الحرف المعتمدة على انتاج النخيل، ووجدت حرف قائمة على طرق واذابة المعادن لسبك الحلي وصنع الاسلحة مثل القسي والرماح والسيوف ونحوها[5] كما ان اليهود في يثرب اشتهروا بصناعاتهم المعدنية كالحدادة والصياغة وصنع الاسلحة[6].

---

(١) الجاحظ، المصدر نفسه، ص٩٣

(٢) محسن خليل، في الفكر الاقتصادي العربي الاسلامي، ص٤٥ ـ ص٤٦.

(٣) الواقدي، المغازي، جـ٢، ص٧٤٢ـص٧٧٢.

(٤) المصد نفسه، جـ٣، ص٩٦٠.

(٥) عبدالله عبد العزيز ادريس، مجتمع المدينة في عهد الرسول (ص)، ص٢٧٣.

(٦) احمد امين، فجر الاسلام، ص٢٤.

ونحن نعتقد ان الصناعات والحرف التي وجدت في الحجاز كانت صغيرة لتلبية بعض حاجات البدو والحضر ولم تصل الى مرحلة ازدهار صناعي.

٤ـ التجارة:

كان لموقع شبه جزيرة العرب الذي يتوسط العالم القديم وينفتح على اليمن والعراق وفارس والشام ومصر[١] واطلالها في نفس الوقت على مياه شط العرب والبحر الاحمر والبحر العربي وخليج عدن[٢]، كبير الاثر في تنشيط حركة التجارة، وقد انفرد الحجاز ـ الذي كان موطن الدعوة الاسلامية ـ بموقع مركزي جيد اذ كان يحجز بين الشام واليمن والتهائم[٣]، وكان يتصل عبر طرق تمتد الى الكوفة والبحرين ودمشق ومصر[٤] واليمن[٥]، مما اهله لاحتلال دور متطور في التجارة اثر تفاقم الحروب بين فارس وبيزنطة[٦].

أ ـ التجارة والانفتاح الثقافي على الحضارات المجاورة:

لقد غذت حركة التجارة، العقل العربي وجعلته ينفتح على تجارب الامم المجاورة، ويتفاعل مع معطياتها الحضارية، فالتاجر جواب يحمل البضاعة بيد ويحمل الخبرة باليد الاخرى، واذا كانت اليمن قد نشطت تجاريا واحتكرت الاتجار ببعض البضائع، وكانت تدمر والحضر من قبل قد وجدتا بفعل الموقع التجاري، وكان لابد لهم من الاتصال بالحضارة المجاورة، فان الحجاز قد عرف التجارة ايضا

---

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص١.

(٢) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٢٠، ابن خلدون، المقدمة، ص٨٣.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٥.

(٤) ابن حوقل، صورة الارض، ص٤٦. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٢٥، ص١٣٦، ص١٣٩.

(٥) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٥٠.

(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص١٧٦ـ ص١٨٧.

وكان له انفتاحه على الدول المعاصرة، فقد كان لقريش رحلة الى الشام[١]، ونظرا لانهم كانوا تجارا[٢] فان تأمين انتظام التجارة أملى عليهم عقد اتفاقيات مع القوى السياسية المؤثرة في عصرهم»، كان هاشم بن عبد مناف صاحب ايلاف الرحلتين، وأول من سنها، وذلك انه اخذ لهم عصما من ملوك الشام، فتجروا آمنين، ثم ان أخاه عبد شمس اخذ لهم عصما من صاحب الحبشة، واليه كان متجره، واخذ لهم المطلب بن عبد مناف عصما من ملوك اليمن، واخذ لهم نوفل بن عبد مناف عصما من ملوك العراق، فألفوا الرحلتين في الشتاء الى اليمن والحبشة والعراق، وفي الصيف الى الشام[٣]. واذا اخذنا ما سبق كمسلمة ـ مع تحفظنا من امكانية الوضع في القرون التالية لظهور الاسلام رغبة في منح اسرة النبي (ص) ميزات خاصة. جاز لنا ان نقرر بأن اولاد عبد مناف كان لهم صلاحية واسعة في عقد الاتفاقيات وان قريشا قد فوضتهم عقدها، ولم تكن الطائف أقل شأنا من مكة في الانفتاح على تجارب الامم والحضارات القريبة من جزيرة العرب اذ كان لها تجارتها مع العراق والشام واليمن[٤] وحتى المدينة ـ يثرب ـ التي كانت أقل شأنا في مجال التجارة من مكة والطائف لم تعدم المشاركة في الانفتاح على تجارب الامم الاخرى من خلال التجارة[٥].

ويبدو ان طريق الصحراء الذي يقع ضمن جزيرة العرب كان نشيطا بشكل كبير اذ دلت بعض الاكتشافات الحديثة انه كان يسلك في القديم اكثر مما كان يظن[٦].

وعليه فقد اعتمد البيزنطيون على قوافل البدو والتي كانت تحمل لهم البضائع من الهند والصين وفارس واليمن وافريقية[٧] وما كانت التجارة في الحجاز لتقتصر

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٥٦.
(٢) المصدر نفسه، ق١، ص١٨٨. ابن حبيب، المحبر، ص١٦٢ ـ ص١٦٣.
(٣) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص٥٩.
(٤) الواقدي، المغازي، جـ٢، ص٥٩٨.
(٥) الواقدي، فتوح الشام، جـ١، ص١٦.
(٦) جورج لوفران، تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، ص١٩.
(٧) Detmenghem, The life of Mahomet, PP. 25,26

عليهن اجرة بغاء[1]، المهم في الامر ان الرواية ترينا دهاء التاجر وعقليته التضليلية، وهو وان كان نموذجا فرديا الا انه يجد من يناظره من التجار الآخرين في عصر كانت النـزعـة الفـردية فيه سائدة، بدلالة ان القرآن الكريم قد شن حربا لا هوادة فيها على فئـة التجـار وممارساتهم الفردية وتهددهم بالويل «ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعـدده، يحسب ان مالـه اخـلده»[3] وبيّن لهم ان الثـروة تورث الطغيـان والجبروت «كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى»[4] وانتقل في آيات اخرى لينقد بقوة بخل التجار وسلوكهم الفردي الاناني «كلا بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضون على طعـام المسكين، وتأكلون التـراث اكلا لما، وتحبون المال حبا جما»[5] وهذه الحملة الشديدة على التجار الاثرياء ترفض هيمنة النزعة الفردية عندهم، وتنسجم مع المـوقف المبـدئي للاسـلام الـذي يعـد الثـروة الـواسعـة من اسبـاب الشـرور الاجتماعية، وهي تضعنا امام موقف نقدي وصارم من سلوكهم.

جـ - الفعاليات التجارية والنشاط الربوي:

احتلت التجارة مكانة واسعة في حياة عرب الحجاز «والدليل على ذلك كثرة التعابير المالية والتجارية التي استعملها القرآن كالحساب والميزان والقسطاط والذرة والمثقـال»[6] ووصـل تأثيـر التجـارة في نفوس العرب ان ظهرت ظاهرة النسيء التي تعني التأخيـر بمعنى انهم كانوا يحلون الشهر من اشهر الحرام ويحرمون مكانه شهرا

---

(١) يورد ابن قتيبة في المعارف انه «كان لعبدالله بن جدعان جوار يساعين ويبيع اولادهن» ص٥٧٦.

(٢) سورة الهمزة، الآية، ١، ٢، ٣.

(٣) سورة التكاثر، الآية، ١، ٢.

(٤) سورة العلق، الآية، ٦، ٧.

(٥) سورة الفجر، الآية، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.

(٦) د. صالح احمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ص٩٦.

لمزيد من التفاصيل يراجع «المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم»، محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي/بيروت، ص١٥٢.

من اشهر الحل[1] كما ان الاشهر الحرم وهي ـ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ـ منحت المجال للتجارة[2] اضف ان الحج نفسه لم يكن بعيدا عن التجارة.

ارتبط بالتجارة كثير من الفعاليات الاقتصادية التي كانت مؤشرا واضحا على حيوية التجارة، فقد عرفوا الاحتكار[3] والقروض والشركة[4] والعلاقات الائتمانية من خلال السفتجة ـ وهي كتاب صاحب المال لوكيله ان يدفع مالا قراضا يأمن به من خطر الطريق[5] اضافة الى الوكالة والوساطة[6] وتعلموا بالمضاربة ـ المشاركة بالمال من جانب وبالعمل من الجانب الآخر.

والظاهرة التي تستحق ان نقف عندها ونحن نتحدث عما يرافق التجارة من فعاليات هي الربا لذي يعني القرض بفوائد عالية، ويبدو ان الربا قد تسرب الى الحياة العربية عن طريق اليهود الذين وجدوا في المستعمرات الزراعية وفي الطائف[7] ولعل سبب اقبال سكان الحجاز على التعامل بالربا يرتبط بالبيئة الطبيعية التي لم تمكن اصحاب الثروة من استثمار اموالهم في الزراعة نظرا لمحدودية الارض القابلة للزرع، اضافة الى ضعف الصناعة التي لم تشجع على استثمار الاموال فيها فالتجأ الاثرياء الى الربا بديلا عنهما بغية زيادة الثروة.

د ـ تأثير التجارة على الاقتصاد البدوي:

ان واحدة من اهم القضايا المتعلقة بالتجارة تكمن في انها كانت معبرة عن نمو الاقتصاد الحضري وسعيه نحو احتواء اقتصاد البدو ومن ثم اضعافه للنظام

(١) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٠ـ ص٣١.
(٢) تراجع سورة التوبة، الآية٥، الاية ٣٦، سورة البقرة، الآية ١٩٤.
(٣) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ٧، ص٣٩٩.
(٤) المرجع نفسه، ص٤٠٤ـ ص ٤٠٦.
(٥) المرجع نفسه، جـ٧، ص٤١١.
(٦) المرجع نفسه، ص٤١٢ ـ ص٤١٣.
(٧) سعيد الافغاني، اسواق العرب في الجاهلية والاسلام، ص٦٠.

«ان هذا لا يجب ان ينسينا ان الربا كان موجودا عند البابليين والآشوريين» وان الارباح الكبيرة التي تتيحها التجارة كانت سببا للتعامل بالربا الفاحش.

القبلي بحيث ترتب على ذلك ان بدأ التفاوت في الثروة ـ بين ابناء القبيلة الواحدة والقبائل القريبة او البعيدة عن خطوط التجارة ـ يظهر ذلك بشكل اقوى من السابق[1]، وأدى هذا الوضع الى ظهور ملامح انهيار التضامن القبلي. فالحياة في الصحراء تستدعي التضامن والنصرة وخاصة بالنسبة للاقارب. . ولكن الفردية التجارية تملي غير ذلك، فالتجار الكبار يضعون مصالحهم فوق كل شيء ويجدون سببا للاتحاد باقرانهم من التجار اكثر من اتحادهم بعشائرهم، وقد حل محل الوحدة التي كانت القبيلة قوامها، وحدة اخرى تنطلق من مصالح تجارية مشتركة، ولكن هذه الوحدة لم يكن بمقدورها في مجتمع تجاري ان تستقل من خلال صيغة جديدة كل الجدة، لذلك ظلت لصيقة باوضاع ومواقف اجتماعية اقدم منها عهدا وتتمثل في الاطار القبلي»[2].

بيد ان هذا الامر كان متمثلا في القبائل البدوية المرتبطة بالعملية التجارية وليس كل البدو، ومن هنا يكون الرأي الذي يرى «ان التجارة لم تدخل تعديلا يذكر على نمط انتاج الشعوب التي لعبت دور الوسيط»[3] غير متماسك، كما ان موقف من يذهب الى ان الاقتصاد الرعوي بقي ملصقا على الفعاليات التجارية ولم يقتطع منه اي فائض من التجارة لصالح البدو[4] يقع في تعميم ويغفل اثر التجارة في احداث تحول في البيئة والاجتماعية.

---

(١) حسين مرّوة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، ص٢٠٣ـ ص٢٠٤.

لقد ابرز ابن خلدون عملية احتواء الاقتصاد الحضري لاقتصاد البادية فقال: «وكذا الدنانير والدراهم مفقودة لديهم، وانما بأيديهم اعواضها، من مغل الزراعة واعيان الحيوان او فضلاته البانا واشعارا واهابا مما يحتاج اليه اهل الامصار فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم، الا ان حاجتهم الى الامصار في الضروري وحاجة اهل الامصار اليهم في الحاجي والكمالي» المقدمة، ص١٥٣.

(٢) احسان سركيس، مدخل الى الأدب الجاهلي، ص٢٥٣.

(٣) جان شينو وآخرون، حول نمط الانتاج الاسيوي، ص١٩٨.

(٤) د. سمير امين، التطور اللامتكافيء، ص٣٤.

ان هذا الـدور الـذي مارستـه التجارة كعامل توحيد اولا ، والدور المتمثل في احتـواء واضعـاف الكيـان القبلي ـ المشتـرك في العمليـة التجارية ـ ثانيا ، قد خلق تناقضا بين قيم القبيلة وقيم النزعة الفردية المتمثلة في التجارة ، وهذه سمة مميزة من سمات المراحل الانتقالية .

هـ ـ الاسواق التجارية ودورها في التوحيد الاقتصادي والثقافي :

رافق التجارة نشاط مباشر للاسواق التي اخذت تتطور حتى اصبحت في أوج نمـوهـا في القـرن السـابـع الميلادي[١] ، وقد كان لهذه الاسواق اهمية كبيرة دفعت بروكلمـان الى عدّهـا مع المـوحـد الايـديـولوجي ـ الدين الاسلامي ـ من الأسباب الاساس في توحيد «نظرة العرب الى العالم وصهر عاداتهم ومفاهيم الشرف عندهم في بودقـة واحـدة، ومنحهم لغـة شعـريـة مركـزة تسمـو على جميـع اللهجـات»[٢] والملاحظ ان الاسواق لم تفد العرب التجار من حيث البيع والشراء فحسب ، وانما أفـادت البـدو الذين كانوا يأخذون جعلا نظير الحماية والخفارة والخدمة في القوافل الـوافـدة الى الاسـواق[٣] ونظـرا لاهميـة الاسـواق في الحيـاة العـربية قبل الاسلام وانسجاما مع المفاهيم القبلية ورغبة في الاستفادة القصوى من السوق ، فقد كانت بعض الاسواق تخضع لسيطرة بعض القبائل اذا وقعت في منطقة نفوذها[٤] ومع ان المؤرخين العرب يختلفون في عدد هذه الاسواق فابن حبيب يعدها اثنتي عشرة سوقـا[٥] واليعقـوبي يرى انهـا عشـر اسـواق[٦] على حين يرى الهمداني انها احدى عشـرة سوقـا[٧] في حين يختلف آخـرون في تحـديـد عددهـا ، وهـذا الامر قد حدا بسعيد الافغاني ان يقدم لنا جدولا يبين عدد هذه الاسواق وفق قناعة كل مؤرخ[٨] الاّ

(١) هنري ماسيه ، الاسلام ، ص٣٧ .

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص٢٦ .

(٣) د . شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص٧٧ .

(٤) الازرقي ، اخبار مكة ، ص١٩٠ ـ ص١٩١ .

(٥) ابن حبيب ، المحبر ، ص٢٦٣ـ ص٢٦٨ .

(٦) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ص٢٣٧ .

(٧) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص١٧٩ـ ص١٨٠ .

(٨) سعيد الافغاني ، اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ، ص٢١٩ ـ ص٢٢٤ .

ان المهم في هذا المجال ليس عدد الاسواق بشكل دقيق اذ يندر ان نجد اتفاقا على تحديد العدد بين المؤرخين، بل المهم معرفة ان هذه الاسواق كانت موجودة كظاهرة بارزة في حياة العرب.

كانت اسواق العرب تنتقل في شبه الجزيرة بحيث تضمن تغطية اغلب الاماكن ان لم يكن جميعها[1] ومن هذه الاسواق ماكان يقتصر نشاطه في الاغلب على ما كان يجاوره من الاحياء والقرى، وما ينزل بساحته من القبائل، كسوق الثعلبية والاحساء وغيرها، ومنها ما كان عاما تفد اليه الناس من اطراف شبه جزيرة العرب كلها مثل سوق دومة الجندل، وصحار ودبا، والشحر، ورابية حضرموت، وذو المجاز ونطاة خيبر، والمشقر، وحجر اليمامة، وصنعاء ومنى وعكاظ وعدن[2] ولعل هذا الفرق في نوعية الاسواق يرجع الى اننا «اذا عرضنا الامم والشعوب وجدنا ان البدوي منها له اسواق موسمية تقام في اماكن معينة. مرة في السنة او الفصل او الشهر او الاسبوع، والسنوي او الفصلي منها اعم وأشبع لارتباطه بالانتاج الزراعي والحيواني، اما الجماعات الحضرية فتغلب عليها الاسواق الثابتة، لأن لكل مدينة اسواقها تباع فيها مصنوعاتها وغلاتها وتحمل اليها ما تحتاج اليه مما تنتجه البلاد الاخرى»[3].

كان رؤساء القبائل والملوك يتنافسون في السيطرة على بعض الاسواق لتصريف بضائعهم وتحصيل الضرائب[4] ويعكس حضور قريش لهذه الاسواق موقعها الاقتصادي والديني في نفوس العرب[5] مما يشير الى قوة تحالفهم مع القبائل. ويلاحظ ان الفرس كانت تسيطر على اسواق معينة كالمشقر، وكانت مع اسواق اخرى تخضع لضريبة العشور[6]، مثل صحار ودبا، على حين كانت اسواق اخرى لا تخضع للعشور لانها ليست ارض مملكة[7]، وربما كانت اسواق العرب

(١) ابن حبيب، المحبر، ص٢٦٣ - ص٢٦٨.
(٢) د. حمدان الكبيسي، اسواق العرب قبل الاسلام، ص٩٢.
(٣) د. نقولا زيادة، لمحات من تاريخ العرب، ص٢٤٦
(٤) ابن حبيب، المحبر، ص٢٦٤.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٦٤.
(٦) م. ن، ص٢٦٤ - ص٢٦٥.
(٧) م. ن، ص٢٦٦.

هذه صورة، مصغرة للتوحيد وللتناقضات في نفس الوقت اذ «كان في العرب قوم يستحلون المظالم اذا حضروا هذه الاسواق فسموا المحلون. وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر فيسمون الذادة المحرمون»[1] الاّ ان اهم ما يعنينا من شأن هذه الاسواق هو ادراكنا ان اهم الاسواق القريبة من مكة كانت سوق عكاظ التي كان لها شأنها في عملية التوحيد الفكري واللغوي والاقتصادي، اذ كان ينزلها قريش وسائر العرب[2] والمعروف ان هذه الاسواق الموسمية التي كانت تقام قريبة من مكة مثل عكاظ وذي المجاز وذي المجنة، قد حدت بالرسول (ص) ان يعرض نفسه في المواسم[3] بما يوحي بأنها كانت منبرا ثقافيا اضافة الى قيامها بمحاولة تحقيق اندماج اقتصادي لشبه الجزيرة العربية، وتجاوزت حالة العزلة فنتج عن هذا توحيد عادات ولغة العرب واحساسهم بالحاجة الى الوحدة السياسية.

الابعاد الاجتماعية للواقع الاقتصادي في شبه جزيرة العرب:

الفئات الاجتماعية وعمل الرقيق:

أ ـ نظرة البدوي للثروة:

يبدو الغني في نظر البدوي مستودع، او مالك مؤقت لثروته الخاصة ومهمته ان يوزعها على المحتاجين في القبيلة، ويستخدمها للقيام بواجب الضيافة وفداء الاسرى ودفع الديات[4] وهذا الفهم ينطلق من شعور كل فرد في القبيلة بان له حقا في مال الغني لانه يسهم في حمايته من الانتهاب، والبدوي الفقير بهذا المعنى كان يرى نفسه مكافئا للغني، كما ان ثروة البدوي من حيث المصدر سواء كان الاسهام

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ١، ص٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٨ (اليعقوبي).

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٤٢٢.

(٤) مونتجمري وات، محمد في مكة، ص١٢٧ـ ص١٢٨. «لاحظ ان هذا الفهم قريب من الاستخلاف في الاسلام».

في تجارة القوافل ام الغزو ـ متحركة صعودا او هبوطا مما له شأنه في كسر الفوارق الاقتصادية وعدم بقائها ساكنة، الاّ ان هنالك حالة خاصة اخرى تبرز عند الحديث عن البناء الاجتماعي والتفاوت في الثروة بين ابناء القبائل ونعني بها القومية، انها اسبق اجتماعيا من الطبقة في تاريخ الامة العربية، فالتكون التاريخي للعرب انبثق عن اسر فقبائل وعشائر، ونظرا لاختلاف انماط الانتاج وتداخلها من حيث المعايشة بين العبودية والاقطاع والزراعة والتجارة، فقد بقيت هذه الظواهر المرافقة والخاصة في تاريخ الامة وامتدت عن طريق التكرار حتى العصر الحديث[1].

ب ـ الفئات الاجتماعية عند البدو:

من المعروف ان تقسيم المجتمع العربي التقليدي يجعل منه فئتين هما اهل المدر واهل الوبر، ولكن ابن سعيد الاندلسي يقسمه الى ثلاث فئات، هم ملوك، اهل المدر، الحضر، واهل الوبر ـ البدو ـ[2] وهذا التقسيم يركز على التوزيع الجغرافي واختلاف موارد الرزق دون ان يتطرق صراحة الى البناء الاجتماعي، وقد اشار ابن خلدون الى العلاقة بين البناء التحتي والبناء الفوقي فقال: اعلم ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش[3].

والواقع ان الرؤساء والشيوخ كانوا يشكلون فئة متميزة وقد كان مفهوما الملك والسلطة يتمحوران حول شخص شيخ القبيلة فهو المسوّد، والرب والمالك، الشريف، الفاضل، الكريم، الحليم، المقدم. ان سيد القبيلة يعبر عن ملكية القبيلة ويمثل سيادتها اورياستها. انه الرئيس والزعيم[4]، وهذه السيادة قد اعطته عدة حقوق هامة.

---

(١) عزيز السيد جاسم، جدل القومية والطبقة، ص٥٠، ص١٠٧.
(٢) ابن سعيد الاندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، جـ١، ص٧٤.
(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص١٢٠.
(٤) د. خليل احمد خليل، جدلية القرآن، ص٥٢ ـ ص٥٣.

لك المــربــاع منهـا والصفـايـا   وحـكـمــك والـنـشـيطـة والـفـضــول[1]

واذا تركنـا فئـة الشيوخ والرؤساء فسنقف امام الاحرار الصرحاء الذين يعتزون بانسابهم مما يخفف من حدة التفاوت الاجتماعي بينهم في الاقل برغم وجود فقراء منهم. لان طبيعة نظرة البدوي الى الثروة واهمية النسب تجعلان الفرق بين الفقراء والاغنيـاء على المستـوى النفسي محدودا اضافة الى الحلفاء والعبيد، الذين يؤدون اعمالا خدمية بالدرجة الاولى، ويحدد العلي الفئات الاجتماعية عند البدو بالصليبة والحلفـاء والعبيـد، فالعـرب الصليبـة منحـدرون من اصـل واحـد مشترك هو الجد الاعلى للقبيلة، لذا كانـوا يعـدون انفسهم متساوين، نظريا في الاقل، اما الحلفاء فهم افراد او قبائل جاءوا من خارج القبيلة طلبا للحماية والامن، واخيرا العبيد الذين يعملون في الامور اليدوية ومعاونة اسيادهم ولا يشتركون في الحروب[2].

وتقسيم العلي وان كان يحدد الفئات الاجتماعية ولكنه لا يلمس ولا يشير الى التفاوت الاقتصادي، لذا نرى ان التقسيم الاول الذي اوردناه اكثر واقعية بالنسبة لنا في الاقل لمعرفة التفاوت الاقتصادي بين فئات القبيلة.

---

(١) د. علي ابراهيم حسن: التاريخ الاسلامي العام، ص٤٩٣.
المرباع: ربع الغنيمة التي يستولي عليها الجيش.
الصفايا: جمع صفية وهي الاشياء التي كان يصطفيها الرئيس لنفسه من خيار ما يغنم.
النشيطة: ما اصابه الجيش في طريقه قبل ان يصل الى مقصده.
الفضول: ما فضل فلم ينقسم، واصطفى النبي (ص) سيف منبه بن الحجاج ذا الفقار يوم بدر.

النقيعـة: كان للرئيس في الجـاهليـة، النقيعة، وهي بعير ينحره قبل القسمة فيطعمه الناس وقد سقط في الاسلام. (=)

(=) الحكم: وهو ان يبارز الفارس فارسا قبل التقاء الجيش ويأخذ سلبه، فالحكم فيه الى الرئيس.

(٢) د. صالح احمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ص١٣٤ - ص١٣٥.

جـ ـ اثر التفاوت في الثروة في المجتمع البدوي ورد الفعل:

يبدو ان التجارة قد اخترقت كما بينا من قبل بنية المجتمع القبلي ـ المشارك في العملية التجارية ـ فظهر تفاوت في الملكية الخاصة أملى بالضرورة تفاوتا في المعيشة وتمايزا اجتماعيا ضمن القبيلة على مستوى الافراد، فانقسمت الى اغنياء وفقراء بالنسبة للاحرار اضافة الى وجود انقسام بين الاحرار والعبيد. وقد كان هذا التفاوت غير منسجم مع قيم المجتمع البدوي، ويقدم لنا الشعر الجاهلي اشارات دقيقة تدين هذا التفاوت في الثروة وترفض الواقع الجديد غير المتسق مع الحياة القبلية، فالاعشى يقول:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا[1]

واذا سلمنا بأن الشعر موقف ذاتي وانفعالي من العالم والاشياء، فلنا ان نقر في نفس الوقت ان الشاعر فرد يعبر عن ضمير الجماعة عبر اقنعة شتى تحول الذاتي الى موضوعي، وعليه تصبح صرخة الاعشى احتجاجا اجتماعيا معبرا عن ازمة الحياة في قبيلته، نتيجة اختلال القيم. ويعزز موقفنا هذا ان الاختلال نتيجة التفاوت الاقتصادي قد حدا بطرفة بن العبد ـ بعد أن ضيق عليه اعمامه وأبوا ان يقسموا له ما تركه ابوه[2]، الى فضح الحس التجاري وتفاقم دور الملكية وتأثيرهما السلبي على القرابة بحيث حلت الفائدة محلها وانحسر دور القرابة التي اورثت الشاعر الظلم:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند[3]

---

(١) الاصفهاني، الاغاني، جـ٨، ص٨٣.

(٢) ديوان طرفة بن العبد، ص٦.

(٣) ديوان طرفة، ص٣٦. «ان احساس طرفة بن العبد بالاختلال الاقتصادي في الحياة البدوية جعله يهاجم البخلاء ويضع امامهم فكرة ان الموت سيصطفي اموالهم موحيا بأن الكريم ابقى ذكرا من البخلاء:

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى في البطالة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

ديوان طرفة، ص٣٣ ـ ص٣٤

ان الاحساس بظهور هذا الاختلال بين الناس والتفاوت في الثروة قد جعل كثيرا من الشعراء يوازنون بين الغنى والفقر ويتخذون منهما موقفا حادا، والواقع ان ديوان الحماسة يضج بين ايدينا شواهد كثيرة في هذا المجال[1].

وديوان عروة بن الورد يضج برفض الفقر وادانة الاغنياء، فهويرى ان المال مهابة والفقر مذلة[2] وشر الناس في نظر المجتمع هو الفقير:

دعيني للغنى اسعى فأني   رأيت الناس شرهم الفقير[3]

ويبدو الفقر كائنا مخيفا عند السليك:

وخوفه ريب الزمان وفقره   بلاد عدو حاضر وجدوب[4]

وفضل شاعر الموت على حياة الفقر والشظف:

فللموت خير من حياة يرى لها   على المرء ذي العلياء مس هوان[5]

ان النماذج الشعرية التي اوردناها للتمثيل وليس للحصر تقدم اشارات موحية عن وجود تفاوت في الثروة بين ابناء المجتمع البدوي، كما تبين رد فعل الشعراء ضد ذلك على المستوى الفردي واحساسهم، بالخلل الذي احدثته التجارة في احتواء الاقتصاد والمجتمع البدوي ـ المشارك في العملية التجارية ـ الذي ولد تفاوتا في الملكية والثروة.

ويظهر ان قدرة الاصوات الفردية على التغيير، كانت محدودة لان الواقع الموضوعي المتحول كان يفرض قوانينه، الّا ان ذلك لم يحل دون محاولة التخفيف من حدة التفاوت في الثروة اذ لجأ الشعراء ـ كأصوات معبرة عن ضمير الجماعة ـ

(١) ابو تمام، ديوان الحماسة، جـ١، ص٣٠٢، ص٣٢٠، جـ٢، ص٤٧.

(٢) ديوانا عروة بن الورد والسملأال، ص٢٤، الاصفهاني، الاغاني، جـ٢، ص١٩١.

(٣) ديوانا عروة بن الورد والسموأل، ص٤٥.

(٤) الاصفهاني، الاغاني، جـ١٨، ص١٣٨.

(٥) المبرد، الكامل، جـ١، ص٣١٥.

الى تمجيد الكرم والبذل وذم البخل والبخلاء انسجاما مع معطيات الحياة البدوية باصولها القائمة على النجدة والمروءة والكرم[1].

د ـ ظاهرة الصعاليك:

لقد اسهم التفاوت الاقتصادي واختلاف توزيع الثروة بين الناس، في خلق ظاهرة اجتماعية بارزة في الحياة العربية، هي ظاهرة الصعاليك، ومع ان الفقر لم يكن السبب الوحيد في ظهور الصعاليك، الاّ انه كان سببا قويا شارك اسبابا اخرى في تعميق هذا الوجود الخاص للصعاليك، واذا كان احد الباحثين يرى ان حركة الصعاليك كانت بسبب ظاهرة الخلع[2] فان آخرين يرجعون الحركة الى سبب اقتصادي[3]، اذ كانوا يعانون من الفقر، ونعتقد ان من أسباب ظهور حركة الصعاليك، هو معاناتهم من ناحية النسب واللون ايضا. فتأبط شرا نسبة غير دقيق[4] والسليك بن السلكة ابن حبشية سوداء[5]، وخفاف بن ندبة ولدته امرأة سوداء ايضا[6] وربما كان بعض العرب يعدون اللون الاسود لونا غير محبب[7] وكان بعضهم يلجأ احيانا الى عدّة علامة تدل على عدم سلامة النسب[8] وقد ترتب على ذلك ان دعي بعض الشعراء الصعاليك بالاغربة[9].

ومسألة النسب كمشكلة كان يعاني منها البدوي، لم تقتصر على ابناء السوداوات فقط، بل تعدت ذلك الى احساس شاعر مثل عروة بن الورد بأنه دون

---

(١) ابو تمام، ديوان الحماسة، جـ٢، ص٣٣٢، ص٢٩٠، ص٣٣٥.

(٢) ريجيس بلاشير، تاريخ الأدب العربي، جـ١، ص٤١.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية، ص٤٤٠، حسين مروّة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، ص٢٠٩.

(٤) الاصفهاني، الاغاني، جـ١٨، ص٢٢١.

(٥) المبرد، الكامل، جـ١، ص١١٨، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ١، ص٢٨١.

(٦) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ١، ص٢٥٨.

(٧) رسائل الجاحظ، جـ٢، ص١٧٨.

(٨) الاصفهاني، الاغاني، جـ١٣، ص٥.

(٩) ابن منظور، لسان العرب، جـ٢، ص١٣٨. مادة: غرب، هبة الله ابو البقاء، المناقب المزيدية في اخبار الملوك الاسدية، ص٤٢.

بني قومه، لإن امه من قبيلة نهد التي تعَد اقل شرفا من عبس. وفي هذا الصدد يقول:

ما بي من عار أخـال علمـتـه سوى أنّ اخـوالـي، اذا نسـبـوا نهـد[1]

ان ما سبق يجعلنا نقول بأن ظاهرة الصعاليك كانت محكومة بدوافع تتلخص في الفقر والخلع والنسب غير الشريف واللون الاسود.

هـ ـ الفئات الاجتماعية في الحواضر:

١ـ الفئات الاجتماعية في اليمن:

المحنا سابقا الى ان الاوضاع الاقتصادية في اليمن اكثر تطورا من بقية ارجاء شبه الجزيرة العربية الاخرى، لذا كان طبيعيا ان تنشأ فئات عديدة فيها وان يكون التفاوت الاقتصادي بارزا بين هذه الفئات، فنحن نجد في اليمن فئة رجال الدين في قمة الهرم الاجتماعي اذ كان ـ الكهان ـ يشرفون على تأجير الارض الخاصة بالمعبد للمزراعين وكانت الضرائب تجبى باسمه وتساوي العشر في الحاصلات الزراعية[2] يليهم في المنزلة السادة والاشراف ووجوه القوم الذين كانوا يتمتعون بامتيازات عديدة[3] ثم يأتي المحاربون وهم فئة احترفت الخدمة العسكرية وعاشت منها[4] وبعدهم تأتي فئة التجار الذين كانت لهم تجارتهم في البر والبحر وقوافلهم ورقيقهم الذي يؤدي الواجبات لهم، وكان للتجار دورهم المهم في تاريخ اليمن اقتصاديا، اذ كانت الحكومة تعتمد على مصدر الضرائب المفروضة عليهم[5].

اما الفئات الدنيا في مجتمع اليمن فتتكون من الخدم والاجراء[6]، واخيرا فئة العبيد الذين كانوا في اسفل الهرم الاجتماعي، وقد المحنا سابقا الى انهم كانوا

(١) ديوانا عروة بن الورد والسموأل، ص٢٦.

(٢) محمد عبد القادر بافقيه، تاريخ اليمن القديم، ص٢١٥.

(٣) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ٤، ص٥٤٦، ص٥٤٧.

(٤) المرجع نفسه، ص٥٤٨.

(٥) المرجع نفسه، جـ٤، ص٥٢٠.

(٦) المرجع نفسه، ص٥٥٠.

يستخدمون في الزراعة اضافة الى الاعمال ذات الطابع الخدمي، ويظهر ان عددهم كان كبيرا موازنا بما هو عليه في بقية انحاء شبه جزيرة العرب بحكم وجود دول مركزية واقتصاد متطور قياسا ببقية المناطق الاخرى في شبه الجزيرة، ولعل ما يرجح صحة اعتقادنا هو ان احد ملوك اليمن واسمه ذو الكلاع ملك حمير قد وفد على ابي بكر ومعه الف عبد دون من كان معه من عشيرته[1] ومع ان المسألة تتعلق بملكية ملك للعبيد وهي حالة فردية، الّا انها تقدم لنا صورة تقريبية لكثرة العبيد في اليمن، غير ان مجتمع اليمن قد عرف العبودية كظاهرة اجتماعية وليس كنظام اجتماعي متكامل.

٢ـ الفئات الاجتماعية في حواضر الحجاز:

برز التفاوت في الثروة والانقسام الاجتماعي في حواضر الحجاز ايضا، فمكة التي كانت مدينة تجارية كانت تضم فئة التجار الذين كانْ منهم التاجر الكبير والتاجر الصغير وما يقع بينهما، وكانت تضم الغني والفقير المعدم اضافة الى طبقة وسطى من الاحرار تقع بين الاثنين. كما وجدت فئة العبيد فيها وكانت تضرب عليهم اجورا يومية[2] وضمن نفس القياس وجد في الطائف القريبة من مكة التجار والمزارعون والعبيد، ونفس الامر ينطبق على يثرب مع ملاحظة ان عدد المزارعين كان كبيرا وحالتهم تتصف بالكفاف، واذا كان هنالك تفاوت بين الناس في يثرب والطائف، الّا انه بالتأكيد دون حدة التفاوت في مكة بحكم ان الزراعة تعمل على تجزئة الثروة وتقلل من الفوارق، على حين تسعى التجارة لخلق تفاوت عن طريق تنمية الثروة.

من هنا جاز لنا ان ندعي بأن المجتمع قبل الاسلام، كان يقاسي من اختلال مرده التفاوت في الثروةواختلاف دور الغني عن الفقير من حيث القيمة والفاعلية، ومع ان المجتمع كان يعاني من غياب العدالة الاجتماعية الّا انه لم يصل الى درجة تطور طبقي صريح استكملت فيه الطبقة مقوماتها. اذ ان القرابة وطبيعة الموقف

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٢٩٩.

(٢) ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ص٧. الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص٤٦.

النفسي للعربي في نظرته الى الثروة وبالتالي حركية مصدر الثروة المتأتية عن الغزو او التجارة، قد خففت ولطفت من التشكل الطبقي وأخرت تطوره.

و ـ عمل الرقيق:

أشرنا سابقا الى وجود فئة العبيد في المجتمع العربي قبل الاسلام، والواقع ان مصدر العبودية حينذاك كان يأتي من:

١ـ الحروب والاسرى الذين يصبحون ارقاء.

٢ـ التجارة.

٣ـ العجز عن تسديد الديون الذي يؤدي بالانسان احيانا الى ان يتحول الى عبد[١].

ويبدو ان العرب كانوا يبيحون استرقاق العربي للعربي فلم يحرموا كالرومان استعباد الروماني للروماني[٢] وسنرى فيما بعد ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد قام باجراء قومي دقيق حين الغى استرقاق العربي، مع ملاحظة ان الاسلام قد حرم استرقاق المسلم. يمكن لنا ان نفترض ان حالة العبيد كان رديئة، وكانوا يعيشون في اوضاع صعبة ويعانون من سوء الحياة التي يحيون بدلالة انهم قد استجابوا بسرعة للاسلام لانه كان يحمل لهم دعوة خلاص وتخفيف من اوضاعهم القاسية وخير شاهد على ذلك انهم كانوا قريبين من نفس النبي (ص)[٣].

لقد تاجر اهل مكة بالرقيق واستخدموا الرجال بعد ضرب اجور يومية عليهم، وكذلك ضربت على الاماء منهن اجور ترفيه[٤]، واذا ما عرفنا ان هند بنت عبد المطلب كما قيل ـ قد اعتقت في يوم واحد اربعين رقبة[٥] فلنا ان نفترض بأن

(١) احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، ص٣٧.

(٢) د. صبحي الصالح، النظم الاسلامية، نشأتها وتطورها، ص٤٦٧.

(٣) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص١٥٦، ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ١، ق١، ص١٣٣. الاصفهاني، الاغاني، جـ٦، ص١٩٥ جاء في شرح كتاب السير الكبير للشيباني في جـ١، ص٣٤١، ان النبي (ص) قال يوم حصار الطائف: «ايما عبد خرج الينا مسلما فهو حر، فخرج اليه سبعة اعبد فاعتقهم، وكانوا يسمون عتقاء الله».

(٤) ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ص٧.

(٥) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص٤٦.

عددهم كان كثيرا، كذلك عرفت الطائف العبودية[1]، اضف الى ذلك ان المدينة (يثرب) قد ضمت العبيد ايضا[2]. وكانت نسبة العبيد في اليمن اكثر من غيرها قياسا لشبه جزيرة العرب[3]، وربما يعود السبب في ذلك الى ان رقيق شرق افريقيا كان يؤتى به عن طريق اليمن بواسطة كبار تجاره.

ومع هذا فقد بقيت العبودية ظاهرة مرافقة اذ لم تشكل في المجتمع العربي الجاهلي نظاما موحدا وشاملا لمجموع قطاعات الحياة الاجتماعية بل ظلت ظاهرة مرتبطة بالعمل التجاري ومتغلغلة في المجتمع، اكثر من ارتباطها بالاعمال الزراعية والعمرانية من سدود ومنشآت مختلفة[4]، ولم تكن العبودية متأتية عن وجود طبقتي الاسياد والعبيد كما كان في روما واثينا مثلا.

ومع أقرارنا بأن العبودية كانت ظاهرة مرافقة وليست نظاما اجتماعيا متكاملا، الااننا نعتقد بأن العبيد قد أدوا دورا في الزراعة، فاذا استثنينا اليمن التي كانت تستخدم العبيد في الزراعة كما بينا من قبل، فان حواضر الحجاز، بالذات قد عرفت استخدام العبيد في الزراعة والامر الذي يعزز اعتقادنا يكمن في ان العرب قبل الاسلام قد عرفوا في الحجاز والجزيرة العربية الجذور الاولى لنشأة الاقطاع، وتسعفنا القطائع التي منحها النبي (ص) لكثير من سكنة الحجاز وجزيرة العرب. في تأكيد حقيقة تتلخص في ادراك العرب لقيمة الارض المقطعة[5].

---

(١) الشيباني، شرح كتاب السير الكبير، جـ١، ص٣٤١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٢١٨ ـ ص٢٢٠.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٢٩٩.

(٤) د. طيب تيزيني، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، ص١٤٦.

(٥) لمزيد من الاطلاع على القطائع التي منحها النبي (ص) لبعض رؤساء القبائل العربية يراجع: ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص٥٧٧. ابويوسف الخراج، ص٦١. ابن آدم، الخراج، ص٩١. البلاذري، فتوح البلدان، ص١٠٣. ابن سلام، الاموال، ص٢٨١ ـ ص٢٨٢. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص٢٠٥. ابن دريد، الاشتقاق، ص١٨٢. الثعالبي، ثمار القلوب، ص١٠١.

ولنـا ان نفتـرض ان اطـلاع تجـار قريش والمـدينـة والطائف على حضارات الـدول المجـاورة التي تستخـدم العبيد قد جعلهم يدركون قيمة الاستفادة من عمل العبيـد سيمـا وان بعضهـم كان يمتلك ارضين ، وربمـا أجـر العبيـد للذين يمتلكون الارض بحكم وجود ضريبة عمل يومية عليهم من قبل اسيادهم المالكين كما اشرنا قبـل قليـل، اي ان الـواقـع المـوضـوعي جعلهم يستخـدمـون العبيد في الزراعة. والحق أن ما يعزز هذا الافتراض هو انه قد كان «من اصناف العبيد عندهم ـ القن ـ وهو العبد الذي يعمل في الارض ويباع معها ويشبه ما يعرف باسم في المملكة الرومانية[1]، لابل ان عمل العبيد في الزراعة كان واردا فقد عمل سلمان في رعاية النخيـل واعتق بعـد مكـاتبـة مالكـه اليهودي على ثلاث مائة نخلة يحييها سلمان له اضافة الى اربعين اوقية[2] كما استخدم اكثر من صحابي العبيد في عملية احياء الارض[3]. وعليه فلا يستبعد ان عرب ما قبل الاسلام الذين كانت لهم اراضيهم قد ادركـوا قيمـة عمـل العبيـد فاستخـدمـوهـم ، ذلـك ان الفتـرة بين استخـدامهم زمن الراشدين وفترة السابقة لوجودهم قبل الاسلام ، ليست بعيدة.

الاوضاع الاقتصادية في مدن الحجاز:

أ ـ الاوضاع الاقتصادية في مكة:

يبـدو ان تطـور مكـة الاقتصـادي يتمثـل في ان سكـانها في البداية كانوا بدوا يغيرون على القوافل المارة بالقرب منهم[4] واصبحوا وسطاء في مرحلة تالية ، وأخيرا انتقلوا من مرحلة الوساطة الى التجارة العالمية واصبحت مكة مدينة مركزية في التجارة[5].

(١) جرجي زيـدان، تاريـخ التمـدن الاسـلامي، جـ٤، ص٣٠١ وربمـا استخدم العبيد لنقص الايدي العاملة. د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ٧، ص٥٥٤.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٢١٨ ـ ص٢٢٠.
(٣) ابن قتيبة، المعارف، ص٣٢١. السمهودي، وفاء الوفا، جـ٢، ص٢٨٠.
(٤) د. علي ابراهيم حسن، التاريخ الاسلامي العام، ص١٠٠.
(٥) O'LEARY, ARABIA BEFORE MUHAMMAD, P182

ولعل هذا الازدهار التجاري من جملة اسباب عدّها ام القرى واعظم مدن الحجاز خطرا[1]، ولم يكن غريبا ان تكون مكة التي وصفها القرآن الكريم بأنها. . واد غير ذي زرع . . معتمدة على التجارة بالدرجة الاولى اذ لم تكن فيها مياه جارية لان اكثر مياههم من السماء[2] وهي بلد ليس فيه زرع ولا ضرع[3] لذا كان طبيعيا بالنسبة لهم ان يمارسوا التجارة لاسيما ان الظروف الدولية كانت في صالحهم اذ كانت الدولتان الساسانية والبيزنطية في صراع وحروب أثرت على طرق التجارة التي نهضت مكة للهيمنة عليها، ومن هنا ركزوا على الاعمال التجارية وتركوا السبي بسبب قدرتهم على عقد تحالفات مع العرب في الجزيرة اذ كان لهم وكلاء في تبالة وجرش ونجران وغيرها من المدن التجارية، وكانت مكة تقوم بدور الوسيط بين عالمين، شأنها في ذلك شأن تدمر بالنسبة للبارثيين والرومان، وقد اتاح موقع مكة الجغرافي من جهة، ثم حيدة قريش من جهة اخرى لها الفرصة لتحقيق نجاح واسع النطاق في هذا المجال[4] والواقع ان مكة كانت تحرص على سياسة الحياد وقد كانت لقاحا لم تؤد اتاوة قط ولا ملكها ملك[5]وقد قاومت محاولة الاحتواء التي اراد ان يقوم بها قيصر من خلال تنصيب عثمان بن الحويرث ملكا عليها وجعلها خاضعة له، ولذا دبرت عملية اغتياله بأن استعانت بمن دس له سما[6].

ويظهر ان قريشا قبل ان تتحول الى التجارة كانت تعيش في ضنك اذ «انقطعت عند البيت، وكانت العرب التي حولها تمنعهم من الخروج في طلب المعاش، ولم يكن لهم عيش الاّ ما يأتي الموسم ايام الحج، فلما نشأ بنو عبد مناف اخذوا العرب بالسياسة والمهاداة الى ان انقادوا لهم وفتحوا الطريق لسفارهم حيث

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، جـ١، ص١٨٦. المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص٦٩، ص٧١.

(٢) ابن حوقل، صورة الارض، ص٣٧.

(٣) ابن رستة، الاعلاق النفيسة، ص٢٦. الاصطخري، المسالك والممالك، ص٢٣.

(٤) د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في الجاهلية، ص٣٥٧.

(٥) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص١٨.

(٦) الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش واخبارها، ص٤٢٥، ص٤٢٦، ص٤٢٧، ص٤٢٨. هبة الله ابو البقاء، المناقب المزيدية في اخبار الملوك الاسدية، ص١٤.

شاءوا»[1] وتفيد رواية ان هاشم بن عبد مناف أول من اخذ الايلاف وتبعه اخوته في ذلك والايلاف ـ انما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ، ويحمل قريشا مؤونة الاعداء ، فكان ذلك اصلاحا للفريقين ، اذ كان المقيم رابحا ، والمسافر محفوظا ، فأخصبت قريش وأتاها خير الشام واليمن والحبشة[2] .

ويشير كستر الى ان «الايلاف كان قد اقيم على اساس الحمس ، والحمس هم النخبة التي تمتاز بصلاتها الوثيقة بالمكيين ، عن طريق طقوسهم وعاداتهم . وكلا النظامين الحمس والايلاف كان له مغزى اقتصادي ، كما ان الصبغة الدينية ليست غريبة[3] ، ويحدد ابن حبيب قبائل الحمس من العرب بقريش وكذلك خزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشا ، وكل من ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب[4] ، ولعل هذا التشدد في الدين من قبل قريش كان يخفي وراءه هدفا يتلخص في اشعار العرب بالحاجة الى قريش قال ابن عباس : فكانت قبائل من العرب من بني عامر وغيرهم يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل . فاذا بلغ احدهم الى باب المسجد قال للحمس : من يعير مصونا؟ من يعير معوزا؟ فان اعاره احمسي ثوبه طاف به ، والاّ القى بباب المسجد ، ثم دخل للطواف ، فطاف بالبيت سبعا عريانا[5] .

ويربط الحوت بين ظاهرة الحمس ورغبة قريش في تصريف بضائعهم فيقول : «وليس بعيدا ان يكون وراء اشتراطهم هذا ، وأعني تحريمهم على الناس

---

(١) ابن سعيد الاندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، جـ١ ، ص٣٢٩ . يبدو التحليل الذي يقدمه ابن سعيد بشأن تطور قريش ، منطقيا ، ويتقدم على التفسير التقليدي الذي يراه الثعالبي في ـ ثمار القلوب ـ ص١١ ـ ص١٢ ، حيث يقول عن قريش : «واعجب من ذلك انهم من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشدد في الدين ، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الاموال. فلما زهدوا في الغصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة . . » .

(٢) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص١١٥ ـ ص١١٦ .

(٣) كستر ، الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية ، ص٧١ .

(٤) ابن حبيب ، المحبر ، ص١٧٨ .

(٥) الازرقي ، اخبار مكة ، جـ١ ، ص١٨٢ .

أكل ما جاءوا به من طعام من الحل، وطوافهم الا في ثياب احمس، سبب آخر غير التحريم والتحليل، الا وهو رواج ما عندهم في مواسم الحج من مأكول وملبوس»[1].

لقد استفادت مكة لا من موقعها الجغرافي فحسب، وانما من وجود الكعبة فيها ايضا ولعل نظرة العرب الى قريش قد ازدادت احتراما بعد فشل حملة ابرهة اذ بدت مكة محمية من الله الذي قاتل عن قريش وكفاهم مؤونة عدوهم، وربما في هذا يكمن سبب تسمية العرب لقريش بأنهم من اهل الله واسبغت عليهم مكارم شتى[3] والواقع ان مكة لم تنفرد بوجود كعبة فيها اذ عرف العرب في جاهليتهم اكثر من كعبة فقد كانت هنالك كعبة في الحضر[4] كما كان لحمير ريام، وكانوا يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح[5]، ووجدت كعبة بنجران واخرى لاياد بسنداد من ارض بين الكوفة والبصرة[6] ومن الطريف ان نذكر ان بعض العرب كانوا يدركون العلاقة بين ازدهار قريش التجاري ووجود الكعبة فيها، فقد كان رجل من جهينة يقال له عبد الدار بن حديث، قال لقومه: هلّم! نبني بيتا نضاهي به الكعبة ونعظمه حتى نستميل به كثيرا من العرب فأعظموا ذلك وأبوا عليه[7].

كانت التجارة السمة الاساس في اقتصاد قريش[8]، وقد امتد حجم تجارة مكة الى اليمن والشام والحبشة والعراق[9] وامتلك بعض اسياد مكة اراضي في

(١) محمود سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص١٦٢.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص١٣٩. الازرقي، اخبار مكة، ٢جـ٢، ص١٥٢.

(٣) ابن حبيب، المنمق، ص١١، ص١٢، ص١٣.

(٤) فؤاد سفر وزميله، الحضر مدينة الشمس، ص٣٣٤.

(٥) ابن الكلبي، الاصنام، ص١١.

(٦) المصدر نفسه، ص٤٤ - ص٤٥.

(٧) المصدر نفسه، ص٤٥.

(٨) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص١٨٨. المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٣. ابن حبيب، المحبر، ص١٦٢ - ص١٦٣.

(٩) ابن هشام، المصدر نفسه، ق١، ص٥٦. البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص٥٩. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٤، ص١١١، جـ٦، ص٩٤.

الطـائف كانت تزرع فيهـا بعض المحـاصيـل[1]. ويبدو معقولا ان يسيطر المكيون على التعدين وما يقترن به من مشاريع اخرى على الطرق القريبة منهم[2].

حصـل المكيـون على مردودات ماليـة من خلال الضـرائب المفـروضة على التجار اذ كانوا يعشرون من يدخل مكة من تجار الشام، ولا نعرف ان كانت تقتسم بين ملأ مكة ام توضع في خدمة الكعبة ضمن الهدايا المقدمة اليها؟ ويبدو ان مال الكعبـة الـذي كانت تهـديه العرب من حلي وذهب او فضة اوغير ذلك قد سرق اكثر من مرة[3] ومهمـا يكن من امـر فان تصـريف تلك الضـرائب يظل غامضا، وقد رجح الدكتور عبد المنعم رشاد في مناقشته لهذا البحث، امكانية صرفها على الرفادة والسقاية.

عقدت قريش احلافا عديدة مع الكثير من القبائل العربية كانت تستهدف من ورائها ضمان سير العملية التجارية[4]، وربما كان الحلف القائم بين قريش وتميم من أقـوى هذه الاحـلاف[5] وتتضـح قوته في ان الواجبات المعهود بها الى تميم في مكة وفي اسواق مكة، دليل مقنع على الدور المهم الذي لعبته تميم في ترسيخ قوة مكة الاقتصادية. كانت تميم مقلدة سلطة الافاضة في مكة نفسها مع الاشراف على سوق عكاظ[6].

ان الصراع على السيادة والسيطرة، ظاهرة بارزة ضمن التركيب العشائري في مكـة، فالمنـافـرات الكثيـرة بين زعمـاء قريش كانت تخفي داخلها رغبة في المنعة الاقتصـاديـة، فقـد كان حلف المطيبين وحلف لعقـة الدم قد استهدفا تسوية

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٨. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص٢٢.

(٢) مونتجمري وات، الفكر السياسي الاسلامي، المفاهيم السياسية، ص٩ ـ ص١٠.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص١١٤. الازرقي، اخبار مكة، جـ١، ص٢٤٤.

(٤) ابن حبيب، المنمق اذ يورد لنا بين ص٢٧٥ ـ ص٣٠٠ اشارات كثيرة لاحلاف قريش مع العرب على المستوى الفردي والجماعي، ويقدم لنا د. ابراهيم بيضون مسحا واسعا لاحلاف قريش مع القبائل، الحجاز والدولة الاسلامية، الصفحات ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١.

(٥) ابن حبيب، المحبر، ص١٨٢.

(٦) كستر، الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية، ص٧٦ ـ ص٧٧.

(٧) ابن حبيب، المنمق، ص٩٤، ص١٢٠ المقريزي، النزاع والتخاصم، ص٧ـ ص٩.

اقتصادية «فمشت السفراء بينهم حتى اصطلحوا على ان لبني عبد مناف السقاية والرفادة ـ ولبني عبد الدار بن قصي اللواء والحجابة»(١)، ومع ان حلف الفضول قد نشأ ـ كما تخبرنا مصادرنا التاريخية ـ رغبة في نصرة المظلومين والاخذ لهم بحقوقهم ان اغتصبت داخل مكة(٢)، الاّ ان وات يقدم لنا تفسيرا اقتصاديا معقولا لنشأته اذ يقول: «ان السبب الذي يذكر وهو رفض سهمي ان يدفع ثمن بضاعة اشتراها من تاجر يمني وصدى هذا الحادث، كل ذلك يوحي باتجاه سياسي جديد ذي مغزى وهو محاولة القبائل الموسرة ان تخرج اليمنيين من تجارة الجنوب وحصرها في ايديهم، وبهذا نفهم رد فعل هاشم وسائر القبائل التي تكوّن الحلف، اذ لم يكن لهذه القبائل من المال ما يمكنها من ان ترسل قوافلها الى اليمن بل كانت تستفيد من المفاوضة مع التجار اليمنيين في مكة، هذا ما يمكننا افتراضه، فاذا ما اصبحت القوافل المتجهة الى اليمن: أكملها تحت سيطرة القبائل كعبد شمس ومخزوم فقدت القبائل الاقل شأنا جزءا كبيرا من تجارتها، ولم تجد البضائع التي تحملها الى سورية فيطلب اليها المشاركة في القوافل بالشروط التي يضعها التجار الموسرون فلا يترك ذلك لها سوى ربح ضئيل(٣).

ويتجلى انقسام المجتمع المكي في تشكيلة قريش البطاح وقريش الظواهر، فقريش البطاح هم لباب وسراة مكة(٤) وفيهم العز والنبوة والخلافة ومجاورة الكعبة(٥) ومع ان قريش الظواهر كانوا يفخرون على قريش البطاح لظهورهم للعدو ومقارعة

(١) ابن حبيب، المحبر، ص١٦٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص١٣٤. ابن حبيب، المحبر، ص١٦٧. ابن قتيبة، المعارف، ص٦٠٤. الثعالبي، ثمار القلوب، ص١٤٠. المسعودي مروج الذهب، جـ٢، ص٢٧٠ ـ ص٢٧١.

(٣) مونتجمري وات، محمد في مكة، ص٣٩.

ويقول د. صالح احمد العلي، ص٢٦٧ من كتابه ـ محاضرات في تاريخ العرب ـ: «لعل الدافع للفجار هو خشية قريش وحليفتها كنانة ان تخرج يدها من التجارة».

(٤) الثعالبي، ثمار القلوب، ص٩٦.

(٥) ابن سعيد الاندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، ص٣٢٦.

الجيوش[١]، فانهم كانوا بادية لقريش البطاح. ولو لم يكن الامر سيئا لما ابطله الاسلام[٢]، وربما كان الاساس الذي قام عليه هذا التصنيف يستند الى الوضع المالي والاقتصادي والاجتماعي اضافة الى الامتياز الديني لمجاورة مكة. وليس الى القيم القبلية.

ان تسمية قريش بأهل الله ورعايتها للكعبة وبالتالي نمو تجارتها واحلافها قد جعل من قريش قبيلة ارستقراطية تضع نفسها فوق سائر القبائل العربية.

كان من الطبيعي ان يؤثر اقتصاد قريش التجاري في الاقتصاد البدوي، فالحبال التي عقدت مع كثير من رجال القبائل واحلافهم مع الدول المجاورة، قد عملتا على تحقيق ارباح لمن كان يعمل في التجارة من البدو كما ضمنت تشغيل بعض البدو في خدمة وحراسة القوافل.

ان اتجاه قريش لتأكيد قوتها عن طريق زيادة الثروة قد أدى «الى استغلال شديد للضعفاء والفقراء، واوجد تباينا اجتماعيا قلقا واكد النظرة الفردية المستغلة، كما انه زعزع من ناحية ثانية المفاهيم القبلية، واضعف الروح الجماعية القبلية ووسع الفجوة بين قريش البطاح وقريش الظواهر»[٣]. وقد أدى الانتقال من اقتصاد بدوي الى اقتصاد تجاري في مكة الى اختلال في القيم الاجتماعية والحياة العامة، فأساس الاقتصاد قد تبدل ولكن قيم القبيلة بقيت وظلت في تعارض معه بحكم ان التجارة تولد النزعة الفردية وتضعف من روابط القرابة ضمن القبيلة[٤]، ويبدو ان تقاليد السخاء قد ضعفت في ظل مجتمع مكة[٥]، فخلق ذلك الاحساس بفقدان الامن المتأتي عن روابط القرابة، او انه اصبح ضعيفا ولم يعد قيمة قوية كالسباق.

(١) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص٤٠.

(٢) المصدر السابق، ص٣٦٩.

(٣) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص١١.

(٤) يقول آرنست فيشر «كان معنى زيادة الثروة الاجتماعية في كثير من الحالات زيادة فقر الانسان وكان هناك شعور ضمني صامت بأن الفردية خطيئة جوهرية» الاشتراكية والفن، ص٦٩، وترافق مع النزعة الفردية احساس بالتضامن داخل العشيرة الواحدة في نفس الوقت، الاصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص١٥.

(٥) مكسيم رودنسون، الاسلام والرأسمالية، ص٤٣.

ب ـ الاوضاع الاقتصادية في الطائف:

اذا كانت مكة تقع في واد غير ذي زرع وجل اعتمادها على التجارة كما اسلفنا، فان الطائف تقع في ارض كثيرة الشجر والثمر والماء[٤] ويبدو ان وضع الزراعة فيها قد جعلها تزود مكة بالحنطة والفواكه والزبيب اضافة الى تصديرها بعض المنتوجات الزراعية الفائضة عن الحاجة الى بعض الاماكن من جزيرة العرب واشتهرت الطائف بوجود مدابغ فيها كانت تدبغ الجلود[٢] ولعله قد قامت فيها صناعة للخمور بسبب كثرة الاعناب. وعمل اهل الطائف في الحرف اليدوية يرجح صحة ما ذهبنا اليه حين تحدثنا عن الصنائع والمهن عند العرب في ان الواقع الموضوعي والضرورات العملية تحترم الموقف النظري والاخلاقي من الحرف.

عمل اهل الطائف في التجارة وقد وصل احد ابنائها ـ المغيرة بن شعبة ـ الى الاسكندرية وافداً على المقوقس[٣]كما كانت لهم صلات تجارية مع العراق والشام[٤] اضافة الى اليمن، وقد كان سوق عكاظ يقام في اقليم الطائف.

لقد استمدت الطائف قوتها من اعتدال المناخ وخصوبة الارض والموقع الذي يتوسط طرق التجارة[٥]، واذ اضفنا الى ذلك كثرة وقوة ابنائها على المستوى

---

(٤) ابن حوقل، صورة الارض، ص٣٩. المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص٧٩. الاصطخري، المسالك والممالك، ص٢٤. الحموي، معجم البلدان، ص٩. عرام بن الاصبغ السلمي، اسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى، ص٤٢٠. ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة، ص٢٥.

(١) المقدسي، المصدرنفسه، ص٧٩. الاصطخري، المصدر نفسه، ص٢٤. ابن حوقل، المصدر نفسه، ص٣٩. البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٨.

(٢) المقدسي، المصدر نفسه، ص٧٩. الحموي، المصدر السابق، ص٩. ابن المجاور، المصدر السابق، ص٢٥.

(٣) ماسينيون، خطط الكوفة، ص٣٧.

(٤) الاصفهاني، الاغاني، جـ١٩، ص٧٥.

(٥) حمد الجاسر، قطر الطائف ومؤرخوه، ص١.

الحـربي ـ جاز لنـا ان نتقبـل امكـانية وجود صراع على النفوذ بينها وبين قريش التي كانت تتطلع الى مد نفـوذهـا الى الطـائف والهيمنة على بعض الاماكن الخصبة فيه ونحن لا نعـدم وجـود اشـارات الى هذه الرغبة في الاستحواذ على الاراضي الجيدة في الطـائف وامتـلاكهـا من قبل القريشيين[1]، وازاء ذلك كان اهل الطائف يسعون الى الاستقـلال الاقتصـادي عن قريش والسيطـرة على التجارة ومحاولة انتزاع الدور المـركـزي منهـا[2]، وقـد قاد هذا التنـافس بين اهل مكة واهل الطائف بأن عمدت الاخيـرة الى محـاولـة جلب القوافل اليهم. وجعل مدينتهم مركزا للتجار يستريحون فيه، وقد نجحوا في مشروعهم هذا نسبيا حين استولى الفرس على اليمن. وتمكنوا فيـه من طرد الاحباش فسلكت قوافـل كسـرى التجـارية ولطائم ملوك الحيرة طريق الطـائف الى اليمن[3] واذا عرفنـا ان حرب الفجـار قد نشأت بين قريش وثقيف[4] أمكن لنـا ان نؤيـد الـرأي الـذي يرجـع سبب هذه الحـرب الى رغبـة قريش ـ التي شجعت عمدا حليفا لها لمهاجمة قافلة تضم لطائم النعمان وتتجه من الحيرة ـ في غلق طريق الحيـرة ـ الطـائف ـ اليمن، او السيطـرة عليهـا، وقد كان النجاح حليف قريش التي خرجت من الحرب منتصرة[5].

يعتقـد ان الانقسـام الـداخلي القبلي الـذي كانت تعاني منه الطائف بسبب الصـراع بين عشـائرهـا ووقـوف الاحلاف ـ عوف ـ في صف ووقوف بني مالك في صف آخـر[6]. وتمكن اهـل مكـة من مد نفـوذهم الاقتصـادي الى الطـائف باقراض

(١) ابـن حبيـب، المنمق، ص٢٨٠ ـ ص٢٨١. الاصفهـاني، المصـدر السـابق، جـ١٨، ص٢١٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٨.
(٢) د. ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية، ص٣٨.

(٣) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ٤، ص١٥٣.
(٤) ابن حبيب، المنمق، ص٢٠٩.
(٥) مونتجمري وات، محمد في مكة، ص٣٩.
(٦) الشيـخ محمـد سعيـد حسن كمـال، قبـائـل الطـائف، ص٣٩٥. لمـزيد من التفاصيل عن الانقسام الداخلي القبلي في الطائف واضعاف ثقيف بسبب ذلك يراجع البحث المشار اليه اعلاه والمنشور في مجلة ـ العرب ـ جـ٥د شباط ١٩٦٨.

المـال لرؤسـائهـا وشـراء الاراضي ، واخيـرا نجـاح قريش في السيطرة على التجارة الداخلية وتحول مدينتهم الى سوق الحجاز المركزي ، ومن ثم حاجة الثقفيين ازاء ذلـك الى تصـريف انتـاجهم الزراعي وتسويقه في مكة[1] كانت اهم الاسباب التي جعلت قريشـا تمتلك السيطـرة ، كمـا جعلت ثقيفـا تعتـرف بالامـر الواقع وبصدارة منـافستهـا قريش كحليفـة عضوية لها بسبب وحدة المصالح بين قريش وثقيف التي جعلتهمـا يقتسمـان النفـوذ قبيل الاسلام فكان ان سيطرت قريش على تجارة الشام وتـركت للطـائف تجـارة اليمن في ظل هيمنة الاولى . ولم يفد دهاء ثقيف ازاء خبرة ومهـارة تجـار قريش المتأتيـة عن ارث ضخم في هذا المجـال[2] ونتيجة لذلك فقد توثقت الصلة بين قريش وثقيف قبيـل الاسـلام وكـانت قويـة بحيث تم اختـلاط ومصاهرة واشتراك في الاموال بين القبيلتين[3]. وبقيت الصلة قوية في ظل الاسلام فيما بعد فكانت الطائف ـ مخلافا من مخاليف مكة[4].

لعـل طمـوح ثقيف نحو السيادة الذي جعلها تدل ابرهة على الطريق المؤدية الى مكـة[5] لم يخفت ، والـدليـل على ذلـك «ان التطـرف الثقفي ازاء الـدعـوة الاسـلاميـة ، كان يلتقي وهـذا الطموح الذي احبط في زمن السيادة القرشية ، فكان ذلـك المـوقف المتصلب ومعـه تلك المحـاولـة المستميتـة ، حتى بعد سقوط مكة واستسـلام الحلفـاء الكبـار ، اذ اعتقـدت الطائف لخطأ في التقدير ـ انها قادرة ربما على تزعم التيـار المنـاهض لدولة ـ المدينة ـ كبديل لمكة ووراثة زعامتها المنهارة ، ولقـد كانت نواة هذه الجبهـة في التحـالف الثقفي ـ الهـوازني ، الـذي شعر بفداحة الخطر على مصالحه المهددة ، فخاض حربا يائسة ضد النظام الجديد»[6].

(١) د. ابراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ، ص٣٩ .
(٢) د. ابراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ، ص٣٨ـ ص٣٩ .
(٣) الشيخ محمد سعيد حسن كمال ، قبائل الطائف ، ص٤١٩ .
(٤) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص٤٢٠ .
(٥) ابن هشـام ، السيـرة النبـويـة ، ق١ ، ص٤٧ . وقـد أفادني د. عبد المنعم رشاد اثناء مناقشته الـرسـالـة بامكـانية وضع مثل هذا الخبر تشنيعا بثقيف ، اذ ان تجار اليمن كانوا يعرفون مكة اضافة الى معرفة البدو ذلك .
(٦) د. ابراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الاسلامية ، ص٣٩ .
«من الجـديـر بالـذكـر ان بعض اصنـام المشـركين المهمـة كانت موجودة في الطائف وقد هاجمها القرآن ، مما يدل على انها كانت تحاول ان تكون مركزا دينيا» .

كانت الطائف صورة مصغرة لمكة برغم وجود اختلاف عنها كما بينا، الّا ان التفاوت الاقتصادي في الطائف كان أقل وطأة من مكة. صحيح ان التجارة فيها تخلق نزعة فردية وفروق في الثروة، الا ان اعتماد الطائف على الزراعة في نفس الوقت يخفف من حدة التفاوت بين الفئات الاجتماعية.

ادت الطائف دورا في احتواء الاقتصاد البدوي ليس عن طريق التجارة فحسب وانما عن طريق تصدير ما فاض من منتجات زراعية وحرفية، وهذا التأثير قد انعكس على المناطق القريبة والبدو المسهمين في العملية التجارية.

جـ ـ الاوضاع الاقتصادية في يثرب (المدينة):

كانت يثرب واقعة في حرة سبخة من الارض وذات بساتين ونخل ومياه[1] مما أضفى عليها سمة زراعية بالدرجة الاولى ومنحها صفة المجتمع المستقر، وقد كان مرد خصبها يعود الى ان تفكك الصخور البركانية يحافظ على خصوبة الارض، اضف الى ذلك ان توفر مياه الآبار تساعد عليها، غير ان ذلك لا يعني ان الزراعة كانت وحدها مصدر عيش سكانها اذ عرفت فيها بعض الحرف والصنائع التي اعتمدت على الانتاج الزراعي، وكان ليثرب تجارتها ايضا فقد عرفوا التجارة مع الشام[3] ومكة[4]، واعراب البادية[5] ويبدو أنها قد تمكنت من تصدير بعض المنتوجات المحلية الزراعية الى الكثير من الاماكن اذ كانت تصدر حبّ البان[6] وقد وجد في يثرب اكثر من سوق موسمي ومحلي[7].

---

(١) ابن حوقل، صورة الارض، ص٣٧، المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص٨٠، الاصطخري، المسالك والممالك، ص٢٣.

(٢) Dermenghem, The life of Mahomet, P.P 11-12

(٣) الواقدي، فتوح الشام، جـ١، ص١٦.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٤٥٠.

(٥) السمهودي، وفاء الوفا، جـ١، ص٢٣٤.

(٦) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص٢٥.

(٧) المصدر السابق، جـ١، ص٥٣٩ ـ ص٥٤٠، جـ٢، ص٣٢٥. د. صالح احمد العلي، خطط المدينة المنورة، ص١١١٨.

ويبدو ان انشغال الاوس والخزرج بالحروب فيما بينهم قد شغلهم عن العناية بالزراعة والتجارة، قياسا بأهل مكة والطائف، والواقع ان علاقة الاوس والخزرج باليهود مسألة مهمة تستحق ان نقف عندها وخاصة على المستوى الاقتصادي اذ لا نكاد نكون مبالغين اذا ذهبنا الى ان سكان يثرب اليهود قد تحولوا «من محترفين للزراعة الى مستثمرين لها، ومموليين لبعض حاصلاتها عبر المزارعين العرب الذين نزلوا في ضواحي يثرب»[1].

ويكتسب الرأي المشار اليه في اعلاه قوة من خلال اكثر من اشارة دقيقة وجدت في مصادرنا التاريخية اذ «اقامت الأوس والخزرج في منازلهم التي نزلوها بالمدينة في جهد وضيق في المعاش ليسوا باصحاب إبل ولا شاء لان المدينة ليست بلاد نعم وليسوا باصحاب نخل ولا زرع وليس للرجل منهم الا الاعذاق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من ارض موات والاموال لليهود»[2]. ونجد تفصيلا لطبيعة العلاقة الاقتصادية والسياسية بين الاوس والخزرج واليهود في النص الآتي:

«اقامت الاوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الاموال والآطام والنخيل في ايدي اليهود ووجدوا العدد والقوة معهم فمكثت الاوس والخزرج ماشاء الله. ثم انهم سألوهم ان يعقدوا بينهم جوارا وحلفا يأمن به بعضهم من بعض ويمتنع به(*) بعضهم من بعض ويمتنعون به ممن سواهم. فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا فلم يزالوا على ذلك زمانا طويلا. وأمرت الاوس والخزرج وصار لهم مال وعدد، فلما رأت قريظة والنضير حالهم خافوهم ان يغلبوهم على دورهم واموالهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذي كان بينهم»[3].

---

(١) د. ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية، ص٤٠.

(٢) الاصفهاني، الاغاني، جـ١٩، ص٩٥ ـ ص٩٦، ابن رستة، الاعلاق النفيسة، ص٦٣.

(*) في الاصل: يمتنعون، والصحيح ماهو مثبت في اعلاه.

(٣ السمهودي، وفاء الوفا، جـ١، ص١٢٥.

يشير د. ابراهيم بيضون في دراسته: الدولة الاسلامية الاولى، دراسة في التكوين، وفي ص١٤ الى ان الخلل الاقتصادي بين الاوس والخزرج وبين اليهود كان قد رافقه اختلال موازين «الثروة لمصلحة فريق ـ اليهود دون آخر ـ العرب، وشعور الاوس والخزرج بالاستغلال اليهودي المتجسد في موقف المزارع نحو المرابي الذي يستأثر باتعابه».

وحين تفاقم الصراع بين العرب واليهود لجأت الأوس والخزرج الى مكة والطائف سعياً وراء نصرة أبناء قومهم : «فلما ضرستهم الحرب وألقت بركها عليهم وظنوا انها الفناء، واجترأت عليهم بنو النضير وقريظة وغيرهم من اليهود، خرج قوم منهم الى مكة يطلبون قريشا لتقويتهم ويعزوا فاشترطوا عليهم شروطا لم يكن فيها مقنع، وكان المشترط عليهم ابو جهل بن هشام المخزومي، وقد قيل ان قريشا قد كانت اجابتهم حتى قدم ابوجهل من سفر له وكان غائبا فنقض الحلف واشترط عليهم شروطا لم يقنعوا بها ثم صاروا الى الطائف فسألوا ثقيفا فأبطأوا عنهم فانصرفوا[1]، ونعتقد ان لا مبالاة مكة والطائف بشأن الاوس والخزرج في صراعهم مع اليهود سياسيا واقتصاديا، تكمن في عدم المصلحة المشتركة بينهم وبين الاوس والخزرج. على العكس من تحالفهما القائم على المصلحة. اضافة الى عدم نضج حسهما القومي وشعورهما بالتهديد، وقد تكون لا مبالاة مكة والطائف رغبة منهما في انهاك الاوس والخزرج وابعادهما عن المنافسة التجارية.

يرجع د. السيد عبد العزيز سالم استفادة اليهود من الاوس والخزرج الى سبب وجيه وان كان يلطف من استغلال اليهود الذي يقول عنهم: «.. لعلهم كانوا يفكرون في الافادة من خبرات هؤلاء الوافدين من عرب اليمن في المجال الزراعي وهي خبرات اكتسبوها منذ القدم في اراضيهم اليمنية التي هاجروا منها فأرادوا ان يتخذوا منهم اعوانا في فلاحة الارض، ويصطنعونهم في الاعمال التجارية التي برع عرب الجنوب فيها، فيشتغلون لحسابهم، وبذلك تنمو ثرواتهم وتزداد اموالهم»[2] ولم يكن هذا الامر غريبا على اليهود الذين كانوا اذا صرموا نخلهم. «.. جاءتهم الاعراب بركايبهم فيحملون لهم عروة بعروة الى القرى فيبعيون يكون لهذا نصف الثمن ولهؤلاء نصفه»[3]. واذا عرفنا ان قريظة والنضير كانوا مسيطرين على يثرب[4]، وان الاوس والخزرج كانوا يؤدون خراجا لهم ومن ثم اصبحت لهم

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص٣٢.
(٢) د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية، ص٣٩٨.
(٣) السمهودي، وفاء الوفا، جـ١، ص٢٣٤.
(٤) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٢٨.

السيطرة والخروج عن التبعية اقتصاديا وسياسيا، اصبح يسيرا فهم تفجير اليهود للصراعات الداخلية بين الاوس والخزرج وجرهما الى حالة دائمة من الحرب من خلال دعم قبيلة ضد اخرى وقد تمثل هذا الصراع في - الايام - التي كانت حروبا بين العرب.

ان احد اسباب انكفاء يثرب على ذاتها هو عمق التناقضات القبلية فيها التي كانت ترجع احيانا الى عامل اقتصادي، اذ كان الصراع يبدأ عندما تحتل الأوس بقعة خصبة او تفعل الخزرج ذلك، سبب آخر اضعف يثرب هو عدم تجانس التركيب السكاني فيها على المستوى الديني والسياسي، فهي مدينة تضم العرب الوثنيين - وان كنا لانعدم بين سكانها من كان يعيش قلقا دينيا يقربه من التوحيد مثل ابي عامر الراهب واتباعه[1] واليهود الذين كانوا اصحاب رسالة سماوية. ومعروف لدينا طبيعة التهديد الذي كانت تهدد به اليهود عرب يثرب بشأن ظهور نبي يهودي سيذبح العرب، اضافة الى حسهم بالتعالي نتيجة لفكرهم المتقدم على الفكر الوثني.

ويبدو ان الزراعة في يثرب لم تكن لتكفي حاجة السكان الذين كانوا في ازدياد وحاجة الى التموين بالمواد الغذائية[2].

كانت يثرب تعيش ازمة شبيهة بأزمة مكة بسبب عدم التوافق بين القيم البدوية ومتطلبات الاستقرار الزراعي الحضري، واذا كانت وحدة المصالح التجارية لقريش قد أدت الى نوع من الوحدة القبلية، فان التناقضات في مجتمع يثرب وانعدام عامل موحد يجمع صفات الناس - كالتجارة في مكة مثلا - اضافة الى ان الاسرة في المجتمع الزراعي هي «الاساس في الانتاج، قد حالت دون التجانس وأدت الى الصراع[3] واذا كانت القبيلة في الصحراء تدافع عن الفرد جماعيا، فان هذا القانون يخلق صدامات دموية في المجتمعات المستقرة، وهذا ماكانت تعاني

---

(١) د. هاشم الملاح، المنافقون في مدينة الرسول، ص٤٨١.
(٢) احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، ص٣٥٩ - ص٣٦٠.
(٣) د. نبيه عاقل، مشكلة الحكم في الاسلام بعد وفاة الرسول (ص)، ص١٠.

منه يثرب نظرا لامكانية قيام اصطدام يومي متكرر وهذا يعني ان الجماعة المستقرة الثابتة تحتاج سلطة عليا لحفظ الامن على المستوى الفردي والجماعي بين المتنازعين، وقد كانت يثرب تعاني من انعدام السلطة نتيجة لغياب الجبهة الواحدة مما مهد الظروف للنبي (ص) الذي كان يعرف طبيعة الازمة فيها والحلول البديلة.

لقد افتقدت يثرب الزعامة البارزة على المستوى الذي يؤهلها لمنافسة مكة التي احسنت الاستفادة من الدين لنمو اقتصادها. ومع ان الاولى كانت بحكم موقعها الجغرافي ووجود زراعة فيها، مرشحة لمشاركة مكة تجاريا ان لم نقل منافسة لها. الّا ان تناقضاتها الداخلية وبقاء اليهود فيها قوة فاعلة حتى زمن النبي (ص) اخر امكانية قيامها بأي دور ديني متميز سواء كان وثنيا او يهوديا بسبب غياب التجانس في العقيدة او المصلحة بين قبائل المدينة[1].

---

(١) د. ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية، ص٤٥.

من الاسئلة التي تلح عليّ باستمرار، سؤال يتلخص في: لماذا لم تكن في المدينة آلهة مهمة على غرارما كان في مكة او في الطائف على اقل تقدير؟ وهل ان الانقسام الديني في يثرب كان يحول دون ذلك؟ ام ان سكان يثرب لم يكونوا مهرة بما فيه الكفاية ليدركوا جدل العلاقة بين الاقتصاد والدين في تلك المرحلة؟ وان كانوا كذلك فكيف نفسر مبايعتهم للنبي (ص) وفتح يثرب له؟!.

الفصـل الثـاني:

التحـولات الاقتصـاديـة التي احـدثها الاسلام في شبه جزيرة العرب

١- المبادىء التي جاء بها الاسلام في المجال الاقتصادي:

أ - الملكية لله

ب - ان الانسان مستخلف

جـ - اقرار الملكية الفردية

ضوابط تحديد الملكية:

١ - تحريم الربا

٢- الميراث

٣- الصدقة

٤- الكفارات

٥- تحريم كنز الاموال

د - الرق حالة مؤقتة في حياة الانسان

٢- الموارد المالية لدولة المدينة:

أ - الغنائم

ب - الجزية

جـ - الصدقات

٣- مظاهر النشاط الاقتصادي في زمن النبي (ص):

أ - التجارة والنشاط التجاري

ب - الزراعة والارض:

١- قطائع النبي (ص)

٢ـ مسألة كراء الارض
٣ـ معاملة الارض العربية
٤ـ الحمى
جـ ـ البداوة والرعي

٤ ـ الاجراءات الاقتصادية التي قام بها النبي (ص) وابعادها الاجتماعية السياسية :
أ ـ المؤاخاة
ب ـ الأسس الجديدة بشأن الميراث
جـ ـ اعطاء المهاجرين الفقراء من اموال بني النضير
د ـ توجيهات الرسول بشأن اهل الصفة
هـ ـ تعزيز الوضع المادي للمؤلفة قلوبهم
و ـ حرمان الاعراب من الغنيمة
ز ـ اخذ خمس غنائم الغزو من القبائل العربية
ح ـ اعادة القبائل العربية المهاجرة الى اماكنها الاولى

١ـ المبادىء التي جاء بها الاسلام في المجال الاقتصادي:

كان الاسـلام يتضمن دعـوة تقـوم على أسـاس تنسكي قوي[٦] والحق ان الشـواهـد التـاريخية على مستوى النص القرآني والسنة النبوية يدعمان هذه الفكرة ويشيران الى طابع الزهد في الاسلام، وعَدّ الدنيا فانية وخطوة نحو العالم السرمدي الابقى الذي هو الآخرة. فعلى مستوى القرآن الكريم تتجسد فكرة الزهد في الدنيا في اكثر من آية قرآنية، اذ يقول تعالى: «وما الحياة الدنيا الّا متاع الغرور»[٤]. على حين تشير افعال وأقوال النبي (ص) الى هيمنة فكرة الزهد على شخصيته، فقد روى انـه (ص) قد «دخـل على عثمـان بن مظعـون وهـو في المـوت فأكب عليـه يقبله، ويقول: رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك»[٥] ولا يجب ان يتبـادر الينـا ان الـزهد في الاسلام يدعو الى الانقطاع عن الدنيا، وانه كان خاليا من الموقف الاجتماعي لان الدعوة الى الزهد كانت تحتوي على مقاومة لمظاهر الثراء الشـديـد، اذ روى ان النبي (ص) قال: «تبـاً للذهب. تباً للفضة، فشق ذلك على اصحاب النبي (ص) فقالوا: اي مال نتخذ؟ فقال عمر (رض) انا اعلم لكم ذلك. فقـال يا رسـول الله ان اصحـابـك قد شق عليهم فقالوا: اي مال نتخذ؟ قال: لسانا ذاكـرا وقلبـا شاكـرا، وزوجـة مؤمنـة تعين احـدكم على دينه» (فالدنيا في نظر النبي (ص) «سجن المؤمن وجنة الكافر») ، وربما كانت الدعوة الى الزهد لا رغبة في عدم اخـذ الانسـان نصيبـه من دنياه، لان الاسلام يقر الملكية الفردية كما يجب ان يرى نعمـة الله ظاهـرة على عبيـده، بل ان اتجاه الزهد كان منطقا من فكرة ان المال الزائد قد يلهي من ذكر الله وبذلك تصبح الثروة خطيئة.

(١) س. د. جواتياين، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية، ص٢٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.
(٣) سورة لقمان، الاية ٣٣.
(٤) سورة الحديد، الاية ١٤.
(٥) ابن حنبل، كتاب الزهد، ص١١.
(٦) المصدر نفسه، ص١٩. الماروردى، ادب الدنيا والدين، ص٢٢١.
(٧) ابن ماجة، السنن، جـ٢، ص١٣٧٨.

كمـا كان يستهـدف حث الاغنيـاء عن الانفاق وعدم ايلاء اهمية كبيرة للثروة فقد قال النبي (ص) لعبد الرحمن بن عوف: «.. يا ابن عوف انك من الاغنياء ولن تدخـل الجنـة الا زحفـا فاقرض الله يطلق لك قدميك، قال امن كله أجمع يا رسول الله. قال نعم، قال فخـرج ابن عوف وهـو يهتم بذلـك فأرسـل اليه رسول الله (ص) فقال: ان جبريل قال مر ابن عوف فليضف الضيف وليطعم المسكين وليعط السائل ويبدأ بمن يعول فانه اذا فعل ذلك كان تزكية ماهو فيه»[1] واكد له ان الرغبة في المال تؤخـر المؤمن عن الـوصـول الى الجنـة»، وقـال (ص) يوما لعبد الرحمن ابن عوف (رض): ما بطأ بك يا عبد الرحمن - قال وما ذاك يا رسول الله، فقال ص: انك آخر اصحـابي لحـوقا بي يوم القيامة، فأقول ما حبسك عني، فيقول المال كنت محاسبا محبوسا حتى الآن»[2].

وتـرتـب على موقف الـزهد حرص النبي (ص) على ابعاد بعض الصحابة عن الامارة التي تمكن الانسان من الحصول على الثروة. تحصينا لهم وحماية لانفسهم

وتـرتـب على موقف الـزهد حرص النبي (ص) على ابعاد بعض الصحابة عن الامارة التي تمكن الانسان من الحصول على الثروة. تحصينا لهم وحماية لانفسهم
من الوقوع في خطيئة حب الدنيا ومباهجها المادية، فيروى انه قد حجب الامارة عن ابي ذر[3] وانـه قال للعبـاس عنـدمـا سأله الولاية: «يا عباس يا عم النبي (ص) قليل يكفيـك، خيـر من كثيـر يرديك، يا عباس يا عم النبي (ص) ان الامارة اولها ندامة، وأوسطهـا ملامـة، وآخـرهـا خزي يوم القيامة، فقال العباس: يا رسول الله، إلّا من عدل، فقال رسول الله (ص): كيف تعدلون مع الاقارب؟[4] وقد كان النبي (ص) يشعر بالحزن عندما يرى بعض الصحابة يمتلكون ثروات كبيرة ولا ينفقون منها على المحتـاجين[5]. وارتبـط بهذا تأكيد حق الفقراء في مال الاغنياء اذ قال (ص): «ان

(١) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٩٣.

(٢) الشيباني، الاكتساب في الرزق المستطاب، ص٢٩.

(٣) ابو يوسف، الخراج، ص٩.

(٤) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص٢٢٠.

(٥) مسلم، صحيح مسلم، جـ٢، ص٦٨٦.

الله فرض على الاغنياء ما يكفي الفقراء، فان جاع الفقراء كان حقيقا على الله ان يحاسب اغنياءهم ويكبهم في نارجهم على وجوههم»[1] والواقع ان الزهد في الدنيا والثروة رافق تعاطف النبي (ص) مع الفقراء والمستضعفين وتقريبهم منه، فمن جهة كان يأمر بتقديم «الوضيع على االشريف، والضعيف على القوي»[2] ويتضامن معهم كما حصل عندما وقف في صف عمار بن ياسر حين بناء المسجد وخصومته لبعض كبار الصحابة[3] ومن جهة اخرى كان يؤازرهم ويتعاطف معهم، اذ «كان رسول الله (ص) اذا جلس في المسجد، جلس اليه المستضعفون من اصحابه: عمار بن ياسر، وخباب ابن الارت، وصهيب بن سنان، وبلال بن رباح، وأبو فكيهة، وعامر بن فهيرة، واشباههم من المسلمين، فتهزأ قريش بهم ويقول بعضهم لبعض: هؤلاء جلساؤه كما ترون، قد منّ الله عليهم من بيننا[4] ومن المنطقي ان يتبنى هؤلاء المستضعفون موقف زهد من الدنيا، لا بل ان من الطبيعي ان يكون للحوار مع بعضهم اثره في تقوية اتجاه الزهد، ولعل تسرب بعض الافكار الخاصة بالزهد والموقف الاجتماعي قد جاء عن طريق بعض الصحابة الذين كانت لهم تجاربهم الفكرية والروحية العميقة قبل الاسلام[5].

ان هذا يجعلنا نفترض ان إتجاه الزهد في الاسلام وان كان قد وقف ضد الانجراف وراء ثمرات المادة في الدنيا، فانه كان يتضمن دعما نفسيا للمستضعفين وشجبا للترف والمترفين، اي انه تضمن بعدا اجتماعيا ولم تكن الغاية منه الانقطاع عن الدنيا او الوقوع في - رهبنة - بقدر ما كان منسجما مع المبادىء الاخلاقية للاسلام.

ان تعاطف النبي (ص) مع الضعفاء الذي تحدثنا عنه قبل قليل، يدعونا الى البحث في الخلفية الاجتماعية والاقتصادية للمسلمين الاوائل، فمن قائل ان الضعفاء من المسلمين الاوائل لم يكن لهم دورهم في نشر الاسلام وان الاسلام قد

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص٨١.

(٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص٣٠.

(٣) ابن رستة، الاعلاق النفيسة، ص٦٥.

(٤) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص١٥٦.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٢١٦.

انتشر بفضل اغنياء قريش في مكة واغنياء الانصار في المدينة[1]، ومن قائل ان **جماعة المسلمين الاوائل في مكة قد ضمت عددا من العبيد والضعفاء وبعض** الافراد من بيئات كادحة، وان النبي (ص) كان في مكة وليس معه الا خمسة اعبد وامرأتان وأبو بكر[2] والحق ان لا الرأي الاول صحيح، وليس الرأي الثاني بصحيح، فمن خلال قائمة اسماء المسلمين الاوائل التي يقدمها لنا ابن هشام والمقدسي[3] يتضح لنا ان المسلمين الاوائل كانوا من الفقراء والتجار والاحناف، فالفقراء بحكم كونهم اغلبية في كل مجتمع، ونظرا لان الاسلام قد وعد بالمساواة وتلطيف اوضاعهم كانوا يشكلون نسبة تستحق العناية، يؤكد هذا اجابة ابي سفيان لهرقل ملك الروم عندما سأله عن اتباع النبي «قال فاخبرني عن اتباعه منكم، من هم؟ قال: قلت الضعفاء والمساكين والاحداث من الغلمان والنساء، واما ذوو الاسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم احد»[4] وقول النبي (ص) لعدي بن حاتم الطائي: «يا عدي بن حاتم، انما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم! فوالله ليوشكن المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه»[5] اما فئة التجار فكان منهم ابو بكر وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف، وهذه الفئة ربما كان بعضها يدرك ان الاسلام سيتجاوز حكومة الملأ المكية، على حين وجد في صفوفها من خشي على روحه ان تتلوث بسبب النزعة الفردية في التجارة «وكان سبب اسلام خالد بن سعيد بن العاص بن امية انه رأى في المنام انه على شفير نار وأبوه يدفعه فيها ومحمد يدفعه عنها. . »[6] كما كان بين المسلمين الاوائل بعض

---

(١) د. صبحي الصالح، النظم الاسلامية، نشأتها وتطورها، ص٦٨.

(٢) هادي العلوي، في الدين والتراث، ص٧٦.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٢٤٩ - ص٢٦٢. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٤، ص١٤٥ - ص١٤٦.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص٦٤٨. الاصفهاني، الاغاني، جـ٦، ص٩٥.

(٥) الطبري، المصدر نفسه، جـ٣، ص١١٤.

(٦) المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٥، ص٩٦ «كما وجد بين صفوفها من ضاقت نفسه مما كان عليه قومه من تفرق وضلال، د. هاشم الملاح، دور العقيدة الاسلامية في تحقيق وحدة العرب الاولى، ص٦٤٢.

القلقين روحيـا الـذين رفضـوا عبـادة الاوثـان واقتـربوا من التوحيد، مثل عبدالله بن جحش، وعثمـان بن مظعـون. وهنـالـك ظاهـرة تستحق الانتبـاه اليهـا في تشكيلة المسـليمن الاوائـل، تتلخص في ان ماكـان يجمع هذه الفئات جميعا هو انهم كانوا من الشبـاب وهنـالـك اكثر من دليل على ذلك. «دعا رسول الله (ص) الى الاسلام سرا وجهـرا فاستجـاب لله من شاء من احـداث الـرجال وضعفاءالناس»[1] فالاسلام بهـذا المعنى كان دين الشبـاب وعقيـدتهم الجـديـدة، وينسجم مع هذا قول النبي (ص): «جئت بالحنيفية السمحاء فحالفني الشباب وخالفني الشيوخ».

وهـذا يعني ان اتبـاع النبي (ص) في مكـة كانوا شبابا مما يجعل من الاسلام ضمن مرحلته التاريخية عقيدة تجدد وقوة[2].

يبدو ان تقريب النبي (ص) للمستضعفين وتعاطفه معهم ووقوفه ضد المترفين وارستقـراطيـة قريش واحتـواء الـدعـوة الاسلامية على بعض الابعاد الاجتماعية قد استنفـرت وألبت مشـركي مكـة ضده، ومـع اعتـرافنـا بوجـود اسباب دينية وسياسية واجتمـاعيـة وراء مقـاومتهم للاسـلام[1] الا اننـا سنركز على الدافع الاقتصادي لانه مجال بحثنا بالدرجة الاولى دون ان يعني ذلك التقليل من شأن الدوافع الاخرى او جعلهـا ثانـوية. ويظهر ان اغنياء وزعماء مكة كانوا أشد المناوئين للدعوة، وقد اشار القرآن الكريم الى هذا الامر، فقال تعالى: «وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من

---

(١) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ١، ق١، ص١٣٣. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص٦٤٨. الاصفهـاني، الاغـاني، جـ٦، ص٩٥. المقـدسي، البـدء والتاريخ، جـ٤، ص١٤٥ - ص١٤٦.

(٢) يقـول د. نزار عبـد اللطيف الحـديثي في كتـابـه «محـاضرات في التاريخ العربي» ص٧١ - ص٧٢: «استنفـرت مبـادىء التـوحيـد والمبـادىء الاجتمـاعية في الدعوة اهل مكة واثارت بينهم نوعين من التنـاقضـات: الاول - بين الشبـاب والشيـوخ من اهل مكة، الثاني: بين المستضعفين والعبيـد من جهـة، وبين مجتمـع الاثـرياء والسادة من جهة ثانية وقد ادت هذه التناقضات الى ان يكون انصار الرسول (ص) الاوائل من اهل مكة من الشباب وضعفاء الناس..»

(١) للمـزيـد من التفـاصيـل يراجع الفصل الحادي والعشرين المعنون (مقاومة المشركين للدعوة الاسلامية) ص٣٤٠ - ص٣٤٥ من كتاب د. صالح احمد العلي «محاضرات في تاريخ العرب».

نذيـر الا قال متـرفـوهـا : انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون»[٢] ونحن نجد في مصادرنا ما يشيرالى تصدي الاثرياء للدعوة اذ ان النبي (ص) « لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي انزل عليه، لم يبعدوا منه اول ما دعاهم، وكادوا يسمعـون له، حتى ذكـر طواغيتهم، وقـدم ناس من الطـائف من قريش لهم اموال، انكـروا ذلـك عليـه، واشتـدوا عليـه، وكـرهـوا ما قال لهم واغـروا به من اطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس، فتركوه الا من حفظه الله منهم، وهم قليل»[٣] ولما كانت قريش تعتمـد على التجـارة والحـج في كسب معـاشها فقد تخوفت على مصالحها الاقتصادية لانها ان اعتنقت الاسلام فسينفض من حالفها من العرب، ومن يقدس الكعبة ودين قريش الوثني مما يعني ان تجارتهم ستكسد وقد عبر القرآن الكريم عن تخـوفهـم على اقتصـادهـم وأمنهـم قال: «وقـالـوا ان نتبـع الهـدى معـك نتخطف من ارضنا . . »[٤] ويروى، ان هذه الحجة قد جاءت على لسان الحارث بن عامر بن نوفل بن عبـد منـاف الذي كان عظيم القدر في الجاهلية[٥] ولما كان مجتمع مكة حينذاك يرى ان قوة الانسان تتحدد بالثروة، وان النبي (ص) لم يكن من كبار الاثرياء، فقد اعتـرضـوا من منطلق طبقي على نبـوتـه «وقـالـوا لولا انزل هذا القرآن على رجل من القـريتين عظيم»[٦]، فكـان ان ارجـع القـرآن الكريم سبب التفاضل في الرزق الى الله، اي منحه بعدا قدريا كي يجرد المشركين من امتياز كثرة المال والبنين، ويقرر ان اختيار الله تعالى للنبي (ص) ينطلق من ارادة الله التي لا تولي اهمية للجاه والثروة في اضفـاء النعمـة على فرد دون آخـر «وقـالـوا نحن اكثـر امـوالا واولادا ومـا نحن بمعذبين. قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن اكثر الناس لا

---

(٢) سورة الزخرف، الآية ٢٢ ـ ٢٣ .

(٣) الواقدي، المغازي، جـ١، ص٢١ .

(٤) سورة القصص، الاية ٥٧ .

(٥) مؤرج بن عمرو السدوسي، كتاب حذف من نسب قريش، ص٤٣ .

(٦) سورة الزخرف، الآية، ٣١ .

يعلمـون . . »[1] وقـد فهم ابـو جهـل ان الـدعـوة الى النبـوة ستمنح بني هاشم نفوذاً وسيـادة اقتصـادية واجتماعية فقال العباس عم النبي (ص) : «اما رضيتم يابني قصي انكم ذهبتم بالحجابة والندوة، والسقاية، واللواء، حتى جئتمونا زعمتم بنبي منكم . . . »[2] ونحن نجـد في فهم ابي سفيـان بعـد فتـح النبي (ص) مكـة ما يعزز الفكـرة القـائلة بان انتصـار النبي (ص) والاسـلام ، كان يعني بالنسبـة لاحـد سادة قريش الكبـار احـراز مكـاسب عدة منهـا ، الامتيـاز الاقتصـادي ، اذ قال ابـو سفيان للعبـاس عـم النبي (ص) وهـو يرقب جيـوش المسلمين تتأهب لدخـول مكـة «لقـد اصبـح ملك ابن اخيـك الغداة عظيما . . فأجابه العباس . . يا ابا سفيان انها النبوة» قال فنعم اذن[3] ولم يكن خوف اثـريـاء الطـائف بأقـل من خوف اغنيـاء مكـة من الاسلام اذ انهم خذلوا النبي (ص) وتهجموا عليه بشدة[4].

ان وجود ابعاد اجتماعية في الاسلام، لا يجب ان يجعلنا نتصور وجود ميول اشتراكية فيه[5]، فالنبي (ص) لم يجلب مذهبا اجتماعيا بقدر ماكانت دعوته اخلاقية دينية روحية استهدفت ـ كبقية الاديان السماوية الاخرى ـ محاولة تغيير ظروف البشر الصعبـة عن طريق تأكيـد المـوقف الاصـلاحي ـ الاخـلاقي ، وليس عن طريق سن مذاهب وضعيـة تتـوجه لتغيير البنى الاقتصادية ورسم علاقة جديدة بين قوى الانتاج ووسائله، والحق ان الاسلام لم يكن نفيا لماكان قبله[6]، اذ انه قد نفى اشياء سابقة له كالـربـا ـ وعـدل في اشيـاء اخـرى كالرق والميراث ، اضافة الى انه احتفظ بامور اخــرى كمبـدأ احيـاء الارض المـوات ، مثـلا ، وفي كل الاحـوال كانت الـدعـوة الاسـلاميـة منبثقـة عن فكـرة دينية اخلاقية تسعى لتحقيق العدالة بين الناس لا عن

---

(١) سورة سبأ، الآية ٣٥ ـ ٣٦.
(٢) عروة بن الزبير، مغازي رسول الله (ص)، ص١٣٤ .
(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق٢ ، ص٤٠٣ ـ ص٤٠٤ .
(٤) المصدر السابق، ق١ ، ص٤١٩ ، المقدسي ، البدء والتاريخ ، جـ٤ ، ص١٥٥ .
(٥) هنري ماسيه ، الاسلام ، ص٤٤ .
(٦) ادونيس ، الثابت والمتحول، ص٣٥ .

طريق تغيير الاوضاع الاقتصادية وما يترتب عليها من علاقات وانما عن طريق ربط التغيير بالتوجيه الاخلاقي والتعامل مع البشر على أساس انهم سواسية دونما اعتبار للجاه والثروة، لانهم يخضعون جميعا لاله واحد، والدين بهذا المعنى استطاع ان **يؤدي وظيفته بصورة مباشرة بوصفه علاقات انتاج»[1]**

أ ـ الملكية لله:

تعد الملكية بشتى اشكالها سواء أكانت اموالا منقولة ام غير منقولة، لله تعالى الذي «له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى»[2]. فالخالق هو المالك الاصلي. . «ذلك الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير»[3]. فالمال بهذا المعنى هو مال الله. . «وآتوهم من مال الله الذي آتاكم»[4]. ويرتبط بالانفاق على المحتاجين والحث على ذلك «وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي احدكم الموت»[5] والله تعالى يرزق الناس ويضع ماله حيث يشاء» **والله يؤتي ملكه من يشاء»[6]«وقل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء»[7]**، فالملكية اذن تنبثق عنه وتقتضي ان توضع في مجالاتها المعينة التي يقررها والانفاق في سبيل الله ووفق مقتضى الشرع احد ابرز هذه المجالات، ولا يقتصر فهم ارجاع الملكية الى الله تعالى على القرآن الكريم، فالنبي (ص) قد اشار الى ذلك في اكثر من حديث لعل ابرزها «انت مالك السموات والارض» و«لا مالك الا الله»[8].

---

(١) جان شينو وزملاؤه، حول نمط الانتاج الآسيوي، ص٢٨٤.

(٢) سورة طه، الآية ٦.

(٣) سورة فاطر، من الآية ١٣.

(٤) سورة النور، من الآية ٣٣.

(٥) سورة المنافقين، من الآية ١٠.

(٦) سورة البقرة، الآية ٢٤٧.

(٧) سورة آل عمران، من الآية ٢٦.

(٨) أ. ي. وتسنك، المعجم المفرس لالفاظ الحديث النبوي، ص٢٥٦.

ويتكرر هذا الفهم في زمان الخلفاء الراشدين على لسان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) الذي قال: «اني انزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم من كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف»[1].

ويتجسد هذا الفهم عند الخليفة علي بن ابي طالب القائل: «انتم عباد الله، والمال مال الله. يقسم بينكم بالسوية، لافضل فيه لأحد على احد.. وما جاع فقير الّا بما متع به مال غني»[2].

ويبدو لي ان جعل الملكية لله سبحانه وتعالى، بقدرما هي موقف مبدئي اسلامي. فهي اجراء دقيق لا ينفصل عن طبيعة الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي نشأ في ظلها الاسلام، ذلك ان قيم ذلك العصر كانت تمجد الثروة وتعدّها من اسس القوة واثرياء قريش كانوا يفاخرون باموالهم ويعيبون على النبي واتباعه الفقر والحاجة، ولذا فان تجريدهم من امتياز الثراء وارجاع الثروة الى الله تعالى يدخل ضمن اطار المحاججة الكلامية بين النبي وبينهم، ويجعلهم دونما امتياز من جهة، كما يقوي موقف المسلمين الذين يؤمنون بأن «.. الله الغني وانتم الفقراء»[3] وبذلك تسقط حجج اثرياء قريش الذين ارادوا ان ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم»[4] والذين كانوا يعدّون الدعوة الاسلامية لا تتضمن جلب الثروة لهم وليست خير اوحجتهم في ذلك ان الاسلام لو كان يجلب لهم الفوائد لكانوا سباقين اليه ولما اقبل عليه الفقراء والضعفاء ومتوسطو الحال «وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونااليه..»[5].

نخلص من هذا الى ان الاسلام عندما ارجع اصل الثروة الى الله تعالى، اسقط حجج اثرياء قريش ورفع معنويات المسلمين، وبالتالي احتوى هذا الفهم

---

(١) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص١٩٨.

(٢) ابن ابي الحديد، نهج البلاغة، جـ٧، ص٣٧.

(٣) سورة محمد، من الآية ٣٨. بيد أن هذا لا يجب ان ينسينا الجانب الاخلاقي والاقتصادي في الاسلام.

(٤) سورة الزخرف، الآية ٣١.

(٥) سورة الاحقاف، من الآية ١١.

على فكـرة ان الانســان لا يتصـرف بمــالــه على هواه، بل تصـرف منفعة ونيابة ـ اي استخلاف *

لقد قادت هذه الفكرة الى جعل وتسمية مال الدولة، مال الله، وجيش الدولة جيش الله، ونسبت كل ما يتصل بالمصلحة العامة الى الله.

ب ـ ان الانسان مستخلف:

ترتب على فكرة اصل الملكية لله، ان جعل الانسان بمثابة وكيل، مستخلف بدلالة الآية «وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه»[1] ويلاحظ ان الاستخلاف يرتبط بضـرورة الانفـاق وعـدم حصـر الثروة، والاستخلاف يرد في اكثر من آية «وهو الذي جعلكم خلائف الارض»[2]. و«اذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة»[3] و«يا داؤد انا جعلناك خليفة في الارض»[4].

فالانســان مستخلف، نائب عن الله، وعليـه ان يتصرف وفق ما تقرر الشريعة لان حق المستخلف على المستــوى الفــردي والجمــاعي، حق انتفـاع باذن من المـالـك الاول الـذي هو الله تعـالى، وأي اخـلال في حق الانتفـاع واسـاءة بشأن التصرف في شريعة الله تعد خرقا لتعاليم الاسلام وتوجب سحب الاستخلاف.

---

* وقد فهم هذا المبدأ عامة المسلمين، فقال رجل لعمر بن الخطاب (رض) بعد ان رأى ما فرض على نفسـه من شدة: «يـا اميـر المؤمنين لو وسعت على نفسـك من مال الله تعالى؟ فقال له عمر: أتدري ما مثلي ومثل هؤلاء؟ كمثل قوم كانوا في سفر فجمعوا مالا وسلموه الى واحد ينفقه عليهم، فهـل يحـل لذلـك الـرجل ان يستأثر عنهم من اموالهم؟» ابن تيمية، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية، ص٣١.

وقال اعرابي لعمر بن الخطاب (رض):

«يـكـون عن حالـي لتسـألـنـه يوم تكـون الاعطـيـات هنّـه
ومـوقـف الـمـسؤول بيـنـهـنـه امـا الـى نار وامـا جنـة»

(١) سورة الحديد، الآية ٧.
(٢) سورة الانعام، الآية ١٦٥.
(٣) سورة البقرة. الآية ٣٠.
(٤) سورة ص، الآية ٢٦.

فالنبي هود يعلم عاد انهم استخلفوا بعد ان هلك قوم نوح: «واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح»[1]، لا بل ان النبي هود بعد ان اصيب بخيبة في اصلاح قومه حذرهم بأن استخلافهم سيلغى وسيمنح لمن يليهم: «فان تولوا فقد ابلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ان ربي على كل شيء حفيظ»[2] والقرآن الكريم يعلمنا ان مهمة عاد الاستخلافية قد انتهت اذ جاء على لسان النبي صالح لقومه تبشيرهم باستخلافهم وتحذيره اياهم من الخروج على ماهو مرسوم لمهمتهم في الاستخلاف: «واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا الاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين»[3]

وهذا التشديد في اهمية ان يكون المستخلف مطبقا لاوامر الله تعالى يظهر في آية تؤكد ان الخروج على اوامر الله في الاستخلاف تؤدي الى سحبه ممن يسيء التصرف واناطته بمن يواصل هذه المهمة: «ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء»[4] وبازاء ذلك يسبغ الله تعالى نعمة الاستخلاف على من يلتزم باوامره «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف من قبلهم»[5]، ويجوز لنا ان نفترض ان يراد القرآن الكريم لقصص الاقوام السابقة في الاستخلاف وتأكيد الآيات القرآنية ان انتفاء الاستخلاف رهن تطبيق الشريعة، بقدر ما كانت تعبر عن حالات سابقة من اجل الموعظة والحث على الالتزام بقيم الاستخلاف فانها كانت تعبر وفق دلالات معاصرة للاسلام عن سريان هذا الفهم على الاسلام نفسه في عصره ومرحلته التاريخية.

---

(١) سورة الاعراف، الآية ٦٩.

(٢) سورة هود، الآية ٥٧.

(٣) سورة الاعراف، الآية ٧٤.

(٤) سورة الانعام، الآية ١٣٣.

(٥) سورة النور، الآية ٥٥.

ولم يقتصر مبدأ الاستخلاف على ما ورد في القرآن الكريم، وانما امتد الى التطبيق العملي من قبل النبي (ص) الذي عبر عن هذا المبدأ بدقة، فقال: «انما انا خازن أضع هذا الامر حيث امرت»[1]، والاستخلاف يفضي الى المسؤولية فالخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد قال: «.. ان كل راع مسؤول عن رعيته»[2] والاستخلاف يعني ان يشرك الجميع في مال الله لان ذلك حق من حقوقهم، ونجد ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد عبر عن هذا المبدأ حيث قال: «.. والذي لا اله الا هو ثلاثا ما من الناس احد الاّ له في هذا المال حق اعطيه او منعه وما احد بأحق به من احد الا عبد مملوك، وما أنا فيه الا كأحدهم ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله (ص) فالرجل وبلاؤه في الاسلام والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناؤه في الاسلام والرجل وحاجته والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه»[3] وتطبيقا لهذا المبدأ كتب الى ابي موسى «أما بعد فاعلم يوما من السنة لا يبقى في بيت المال درهم حتى يكتسح اكتساحا حتى يعلم الله اني قد اديت الى كل ذي حق حقه»[4] وامتد نفس المبدأ زمن الراشدين فتجسد في قول الخليفة علي بن ابي طالب (رض) «انتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لافضل فيه لاحد على احد..»[5].

وقد فسر الزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ) آية «وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه»[6] وفق مبدأ الاستخلاف، فقال: «ان مراد الله سبحانه من هذه الآية هو ان يقول للناس: ان الاموال التي في ايديكم انما هي اموال الله.. جعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي اموالكم في الحقيقة، وما انتم الا بمنزلة الوكلاء والنواب»[7]، وعلى نفس المنوال سار ابن تيمية (٦٦١هـ ـ ٧٢٨هـ) فقال: «وليس

(١) ابو يوسف، الخراج، ص٤٩.
(٢) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٢١٠.
(٣) المصدر نفسه، جـ٣، ص٢١٥ ـ ص٢١٦.
(٤) المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص٢١٨.
(٥) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، جـ٧، ص٣٧.
(٦) سورة الحديد، الآية ٧.
(٧) الزمخشري، الكشاف، جـ٤، ص٦١.

لولاة الاموال ان يقسموها بحسب اهوائهم كما يقسم المالك ملكه، فانما هم امناء ونواب ووكلاء ليسوا ملاكا، كما قال النبي (ص): «اني والله لا اعطي احدا ولا أمنع احدا انما انا قاسم أضع حيث أمرت»[1].

جـ - اقرار الملكية الفردية:

يقر الاسلام الملكية الفردية على مستوى المبدأ ويعدها احدى نعم الله تعالى التي اوجدها لخير الانسان «قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون»[2]. ويشير القرآن الكريم الى ان حب الانسان للمال شديد «وتحبون المال حبا جما»[3] و«المال والبنون زينة الحيوة الدنيا»[4] بل ان المال والبنين مجال تفاخر وجاه عند الناس «اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد»[5] ومع هذا الاقرار للملكية الفردية الّا ان القرآن الكريم يعدها اساس فساد وجذر مشاكل «انما اموالكم واولادكم فتنة، والله عنده اجر عظيم»[6].

ان اعتراف الاسلام بالملكية كان طبيعيا في مرحلته التاريخية التي كانت قد شهدت وجود الملكية الفردية التي عرفت منذ ازمان سابقة للاسلام في نفس الوقت واذا كان القرآن الكريم قد اقر الملكية الفردية فان النبي (ص) قد اقر هذا المبدأ عمليا من خلال اجراءاته في توزيع الغنائم والصفايا[7] وفي تأمينه اهل نجران على اموالهم[8]، واقطاعه بعض الاراضي[9]، ونحن نجد ان الاسلام قد حمى الملكية

(١) ابن تيمية، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية، ص٣٠ - ص٣١.

(٢) سورة الاعراف، الآية ٣٢.

(٣) سورة الفجر، الآية ٢٠.

(٤) سورة الكهف، الآية ٤٦.

(٥) سورة الحديد، الآية ٢٠.

(٦) سورة التغابن، الآية ١٥.

(٧) ابو يوسف، الخراج، ص٢٢ - ص٢٣.

(٨) المصدر نفسه، ص٧٣.

(٩) المصدر نفسه، ص٦١. البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٤.

الفـرديـة بأن سن قانـون قطع يد السارق «والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما»[1] وقد روى ان النبي (ص) طبق هذا القـانـون عندما سرقت امرأة مسلمة وأقام الحد عليها برغم شفـاعـة بعض الصحـابـة[2]. وقد عدّ النبي (ص) الاعتداء على مال المسلم حراما فقال: «لا يحل مال امرىء مسلم الا بطيب نفس منه»[3]، وربط بين الايمان والحرص على ممتلكات الآخرين: «المؤمن من امنه المسلمون على دمائهم **وأموالهم**»[4].

ومـع ان النبي (ص) قد اقـر الملكيـة الفـردية ووضع ما يكفل حمايتها الاّ انه قصـرهـا على اشيـاء بسيطـة بمـا ينسجم ومبـدأ الاستخلاف وعدم الخروج عما هو مرسـوم للانسـان في الابتعـاد عن التـرف والغنى الفـاحش، اي ان الملكية الفردية يجب ان تؤمن احتياجات الانسان ولا تصل الى حد الاستغلال، ومال الانسان وفق هذا الفهم لا يتعدى سد الحاجة بدلالة الحديث النبوي الشريف: «يقول ابن آدم: مالـي! مالي! . . وان له من مالـــه ثلاث: ما أكـــل فافنى، أولبس فأبلى، اواعطى فاقنى» (٥) ومن هنا عدّ الانسان مسؤولا عن طريقة كسب ماله وسبل انفاقه (٦) وقـد منـع النبي (ص) الملكيـة الفـرديـة من الاضرار بالآخرين واوجب الغاء الضرر تأكيدا لمعنى اقتصار الملكية على حق الانتفاع وخدمة المجتمع اذ «اختصم رجلان من بياضة الى رسول الله (ص) غرس احدهما نخلا في ارض الآخر، فقضى رسول الله (ص) لصـاحب الارض بأرضـه، وامر صاحب النخل ان يخرج نخله منها قال: قال عروة فلقد اخبرني الذي حدثني قال: رأيتها وانه ليضرب في اصولها بالفؤوس، وانه لنخل عمّ حين اخرجه» (٧) وأقر النبي حق الدولة في نزع الملكية الفردية اذا

(١) سورة المائدة، الآية ٣٨.

(٢) ابو يوسف، الخراج، ص١٥٣.

(٣) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص٦١.

(٤) المصدر السابق، ص٢٨ ـ ص٢٩.

(٥) حديث رواه، مسلم والترمذي وابن حنبل، عن الاسلام وقضايا العصر، محمد عمارة، ص١٠٦.

(٦) ابو يوسف، الخراج، ص٤.

(٧) ابن آدم، الخراج، ص٨٧.

كانت متأتيـة عن اصـول غير معترف بها وكان صاحبها يبغي الفائدة له ويتجاوز على حق الآخـرين» وفي السنن ان رجـلا كانت له شجـرة في ارض غيـره وكـان صاحب الارض يتضـرر بدخـول صاحب الشجـرة فشكا ذلك الى النبي (ص) فأمره ان يقبل منـه بدلهـا اويتبـرع له بهـا فلم يفعل فأذن لصاحب الارض في قلعها وقال لصاحب الشجـرة انمـا انت مضـار»[1]. وسـار على نفس النهـج الخليفـة عمر بن الخطاب (رض) حين انتزع ارضا من مسلم عجز عن عمارتها التي كان ينبغي ان تعم بخيرها المجتمـــع» جاء بلال بن الحـارث المـزني الى رسـول الله (ص) فاستقطعـه ارضـا فأقطعها له طويلة وعريضة، فلما ولي عمر قال له: يا بلال انك استقطعت رسول الله (ص) ارضـا طويلة عريضـة فقطعهـا لك، وان رسـول الله (ص) لم يكن يمنع شيئا يسألـه، وانت لا تطيق ما في يديـك، فقال: اجل، فقال: فانظر ما قويت عليه منها فامسكـه، ومـالم تطق ومـا لم تقو عليه فادفعه الينا نقسمه بين المسلمين، فقال: لا افعل والله شيئا، اقطعينه رسول الله. فقال عمر: والله لتفعلن، فاخذ منه ما عجز عن عمـارتـه، فقسمـه بين المسلمين»[2] ويظهـر ان الخوف من الملكية وعدّها فتنة قد امتـد الى الخليفـة علي بن ابي طالب الـذي قال: «لـولا أن يضـرب بعضكم وجوه بعض لقسمت هذا السواد بينكم»[3].

وانسجاما مع مبدأ الا تكون الثروة الفردية فاحشة وان يسير الانسان وفق مهمته الاستخـلافيـة، نجـد ان النبي (ص) قد جعـل المـوارد ذات النفـع العـام لكـامـل المجتمع «المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار»[4].

ان الاسلام في معالجته قضية الملكية الفردية كان ينطلق من موقف اخلاقي يرى ان الشـرور الاجتمـاعيـة تعـود الى اختـلال العـلاقـة بين الانسـان والخالق، ولذا فان معالجاته للملكية الفردية كانت اخلاقية بالدرجة الاولى، ومع ان الدعوة الاسلامية

---

(١) ابن تيمية، الحسبة في الاسلام، ص٤.
(٢) ابن آدم، الخراج، ص٩٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٦.
(٤) ابو يوسف، الخراج، ص٩٦ - ص٩٧. الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٨٧.

قد «رفضت الفردية المطلقة التي تبغي الاحتكار والاستغلال وتكديس الثروة»[1] فان اقرار الاسلام لوسائل اقتناء الثروات والكسب بشكل شرعي من خلال تشجيعه العمل في التجارة والزراعة[2]، من شأنه ان يزيد الملكية الخاصة للانسان فيحدث الافتراق بين المثل الاعلى القرآني والسنة النبوية وبين الظروف العملية والموضوعية بما يتعلق بالملكية الفردية، فمن جهة يحاول الاولان تحديد هذه الملكية وجعلها ضمن نطاق تطمين حاجة الانسان على حين تسعى ظروف الاطلاق التي تخرج عن دائرة الشرع الى زيادة الثروة ونمو الملكية الفردية من جهة اخرى. وفي مقابل اطلاق الملكية الفردية وشرعية الاثراء والكسب الحلال، وضع الاسلام جملة ضوابط حاولت تحديد هذه الملكية ومنعها من الاتساع الذي يفضي الى خلق فوارق اقتصادية كبيرة بين فئات المجتمع، ونستطيع ان نجمل هذه الضوابط في الامور الآتية:

١- تحريم الربا:

عرف العرب قبل الاسلام الربا[3] وكان يعني الزيادة[4] اي الفائدة العالية المستغلة نتيجة قرض ولعل انتشار الربا في مكة والطائف والمدينة يعود الى عدم وجود منافذ اقتصادية لتشغيل رأس المال في الزراعة او الصناعة بسبب محدوديتهما فلجأ الناس الى استثمار ثرواتهم وتنميتها عن طريق الربا، ويلاحظ ان الاسلام قد عالج مشكلة الربا تدريجيا فلم يحبذه في الفترة المكية اذ لا ثواب له عند الله «وما اوتيتم من ربا ليربوا في اموال الناس فلا يربوا عند الله وما اوتيتم من زكوة تريدون وجه

---

(١) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص١٢.

(٢) ابن آدم، الخراج، ص١٣٢.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٧ - ص٧٥.

(٤) د. احمد الشرباصي، المعجم الاقتصادي الاسلامي، ص١٩٠.

يحاول بعضهم ايجاد تطابق بين الربا ونظام الفائدة في البنوك، وواضح ان الفائدة القائمة من اجل تثمير المال وادخاله في خدمة تنمية المجتمع لا يدخل ضمن طابع الاستغلال، على العكس من الربا الذي كان يأخذ طابعا استغلاليا حرمه الاسلام «يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة» سورة آل عمران، الآية ١٣٠.

الله فاولئـك هم المضعفـون»[1]، ورغم خلوهذه الآيـة من التهديد بالعقاب الآ انها تضمنت افضلية الزكاة على الربا وهذه مسألة مهمة في اعتقادي، اذ ان تثمير المال في الـزكـاة افضـل من تثميـره عن طريق الـربـا ممـا يدل على حث المسلمين على الانفـاق لاسبـاب اجتمـاعيـة واقتصـادية تتعلق بمساعدة المسلم لاخيه المسلم لا استغـلالـه عن طريق الـربـا. واذا كانت الآيـة لم تحبذ الربا في الفترة المكية، فان القرآن الكريم قد حرم الربا في الفترة المدنية، وعّد المرابين مخلين بشرط الايمان «يـا أيهـا الـذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين. فان لم تفعلوا فأذنـوا بحـرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون وان كان ذوعسـرة فنظـرة الى ميسـرة وأن تصدّقوا خيرلكم، ان كنتم تعلمون. واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»[2] وهنا ايضا نقف عنـد تفضيـل الصـدقـة على الـربا. ويظهر ان بعض المسلمين قد خلطوا بين **شرعيـة الـربـح والربا وعدوا الربا ربحا فظلوا يتعاملون به وكان ان ترتب على ذلك تصحيح القرآن الكريم لهذا الفهم الخاطيء وتحريم الربا بشكل قاطع: «احل الله البيـع وحـرّم الـرّبـا»[3] وفي الجانب العملي طبق النبي (ص) تحريم الربا فقال في خطبـة حجـة الـوداع بمكة: «الاكل دين ومال ومأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي الاسدانة البيت وسقاية الحاج»[4]، ولم يحرم النبي (ص) التعامل بالربا على المسلمين فحسب بل حرم التعـامـل به من قبـل غيـر المسلمين كما جاء في شرطه**

---

(١) سورة الروم، الآية ٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٧٨، ٢٨١.

(٣) سورة البقرة، الآية، ٢٧٥.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٥.

ويروى ابن هشام انه قد قال. . وان كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضي الله انه لا ربا، وان ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله»، السيرة النبوية، ق٢، ص٦٠٣.

لاهل نجران المتضمن». . ان لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به[1] «وعدّه من المنكرات[2]، وقرنه بالخطيئة» من شفع لاخيه شفاعة فأهدى له عليها هدية فقبلها فقد اتى بابا عظيما من ابواب الربا»[3] اي انه ادخل كل تعامل غير سليم في مجال الربا مما يشير الى تحريمه ورفضه كليا.

وفي ضوء ما سبق نرى ان رأي كاهن القائل ان الاسلام قد حرم الربا من الناحية النظرية[4] لا ينطبق على زمن النبي والراشدين، لانه قد اقترن باجراءات عملية صريحة. كما ان رأي مكسيم رودنسون الذي عدّ تحريم الربا «قاعدة عارضة دعت اليها ظروف مؤقتة»[5] لا ينسجم مع القرائن التاريخية بدلالة ان الربا لم ينسخ **قرآنياً او نبوياً واستمر التحريم مما يشير الى انه كان احد المبادىء وليس قاعدة مؤقتة.**

لقد سعى الاسلام من خلال تحريم الربا الى محاولة الحد من تفاقم الملكية الفردية، ولكنه في نفس الوقت بتحريمه الربا، سعى الى اضعاف عملية تراكم رأس المال في زمن النبي (ص) والراشدين في الاقل، مع ملاحظة ان المراحل التاريخية التالية شهدت تحايلا في اجراءات ربوية، والذي يهمنا هو الاعتراف بأن تحريم الربا - مع اسباب اخرى سنذكرها فيما بعد - قد اضعف الرأسمال الصيرفي ودوره في تحقيق التراكم.

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٧٥.
(٢) ابن تيمية، الحسبة في الاسلام، ص١٥.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٥.
(٤) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، ص٢٣٣.
(٥) مكسيم رودنسون، الاسلام والرأسمالية، ص٣٢.

٢ ـ الميراث (*)

اعتمد الاسلام الميراث احدى الوسائل التي تهدف الى تجزئة الثروة وتفتيت الملكيـة الفردية بحيث يكون توزيع الارث محققا للعدالة، اضف ان الميراث يؤدي الى عدم اتساع الهـوة الاقتصادية بين الفئات الاجتماعية، وقد اشار النص القرآني الى كيفية توزيع الارث[1]، ومن خلال الآيات القرآنية يتبين لنا ان الثروة تقسم بين اعـداد كبيـرة من الاقـارب، وهـذا يعني اتسـاع حق الانتفـاع ومنـع تركيـز الثروات الضخمة في يد فرد معين، اضافة الى انه يضيق الفرق الكبير في الثروة بين الفئات الاجتماعية ولعل الامر الذي يستحق ان نشير اليه بصدد الميراث هو تشريع الاسلام لحق الاقـارب الابـاعـد الـذين لا تصيبهم حصة من الميراث واهمية اعطاء اليتامى والمسـاكين منـه كمـا تبين الآيـة القـرآنية الكريمة: «واذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا»[2].

٣ ـ الصدقة: (**)

اعطاء الصدقة يعني الالتزام بضريبة اقرها الاسلام انسجاما مع المبدأ الذي يرى في امـوال الاغنيـاء حق الفقـراء بحكم ان المـال مال الله، وقـد اعتبرت فرضا وقـرنت في اكثـر من آيـة بالصـلاة «الـذين هم على صلاتهم دائمـون، والـذين في

(*) سيقتصـر حديثنـا على الميـراث من حيث كونـه احد الضوابط التي تسعى الى حصر الملكية الفـرديـة في شخص واحـد وتفتيتـه للثروة. اما الاسس الجديدة بشأن الميراث وعلاقتها بالاحوال الاقتصـاديـة والاجتمـاعيـة، فستطرق اليها عند الحديث عن الاجراءات الاقتصادية التي قام بها النبي (ص). ويـلاحـظ ان الهـدف الـذي صرح به القـرآن الكـريم من الميـراث، هو بر الاقرباء ومساعدتهم ولكن النتيجة غير المباشرة، كانت تفتيت رأس المال.

(١) تراجع سورة النسـاء، الآية (١١، ١٢، ٧٦).

(٢) سورة النساء، الآية (٨).

(**) نتنـاول هنـا الصـدقـة كضـريبة تسعى لتحديد الملكية الفردية. اما تنظيم جباية الصدقات والتطـورات السيـاسية والاجتماعية والاقتصادية بشأنها، فسيكون مجال حديثنا عن الموارد المالية لدولـة المـدينـة فيما بعد، وقد كان الهدف من الصدقة تزكية النفس وتكافل الجماعة وافضى هذا بشكل غير مباشر الى الحد من رأس المال.

اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم»[1] و«الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون»[2] و«اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله. ان الله بما تعملون بصير»[3] والقرآن الكريم يحث على الصدقة والانفاق ويضع لها اجرا كبيرا عند الله تعالى «ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضعف لهم ولهم اجر كريم»[4]، ويلاحظ ان نسبة صدقة الابل والبقر والغنم والتجارة والذهب والفضة هي ٥ر٢٪[5] وهي نسبة اقل من أن تؤثر كثيرا على الملكية الفردية في حالة الالتزام بها، ومن اجل ان يلتزم بها فقد شدد النبي (ص) على اعطائها وأبطل صلاة من لم يؤدها فقال: «من أقام الصلاة ولم يؤد الزكاة فلا صلاة له»[6] وفرض الصدقة يأتي لا لكي يحاول تحديد الملكية الفردية فحسب، وانما ليؤكد تضامن وتكافل المجتمع تحقيقا لمبدأ ان المال مال الله وان الانسان فيه مستخلف، ولان مال الله هو مال المجتمع فقد وجب على المستخلف ان يضعه في المكان المحدد له من قبل الخالق، وبغض النظر عن الالتزام بدفع هذه الضريبة من عدمه، فانها كانت تشير الى اهمية الانفاق ومساعدة المحتاجين من فقراء المسلمين وتستهدف تخفيف الثروة الفردية.

٤ ـ الكفارات:

انتهج الاسلام الكفارة لالغاء الذنب وازالته، وكانت احدى الوسائل البسيطة التي ساعدت على الحد من الملكية الفردية، فقد فرض عتق رقبة مسلم او صيام شهرين اضافة الى الدية في حالة القتل خطأ استنادا الى الآية الكريمة «وما كان

---

(١) سورة المعارج، الآية ٢٥.

(٢) سورة النمل، الآية ٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ١١٠.

(٤) سورة الحديد، الآية ١٨.

(٥) ابو يوسف، الخراج، ص٧٦، ص١٣٣ ـ ص١٣٤.

روى ابو يوسف ان عمر بن الخطاب جعل فيما سقى سيحا العشر وفيما سقى بالدالية نصف العشر والغى النخل عونا لاهل الارض، ص٨٥.

(٦) ابن سلام، الاموال، ص٣٥٤. ابو يوسف، المصدر نفسه، ص٨٠.

لمؤمن ان يقتل مؤمناً الّا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله الّا ان يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى اهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما»[1] كما اوجب اطعام عشرة مساكين او صيام ثلاثة ايام او العتق على من يحنث في اليمين، «لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوساط ما تطعمون أهليكم او كسوتهم او تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلثة ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم واحفظوا ايمانكم كدليل يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون»[2].

وقد كفر النبي (ص) عن اليمين[3] كما فرض العتق او صوم شهرين او اطعام ستين مسكينا على من اتى امرأته في رمضان وهو صائم[4]، ووجب اطعام مسكين على من يفطر في رمضان[5]، والتصدق على من أخل ببعض مناسك الحج بسبب المرض او الاحصار[6]، ومن خلال ذلك يتضح لنا ان الكفارات تنصب بالدرجة الاولى على عتق رقبة او الصيام او اطعام عشرة الى ستين مسكينا، وواضح ان عتق الرقاب او اطعام المساكين والصدقة من الامور التي تحاول ان تشيع التكافل وتساعد على ان تقلص المنكية الفردية.

٥ـ تحريم كنز الاموال:

برغم ان الاسلام اباح الربح وسهل سبل اقتناء الثروة من خلال وسائل الكسب المشروعة، الّا انه لم يستهدف ـ نظريا في الاقل ـ تنمية الثروات بشكل

---

(١) سورة النساء، الآية ٩٢.

(٢) سورة المائدة، الآية ٨٩.

(٣) ابن ماجة، السنن، جـ١، ص٦٨٢، ص٦٨٧.

(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص٥٣٤. وفرض عتق رقبة في كفارة الظهار «والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا» سورة المجادلة، الآية ٣.

(٥) تراجع سورة البقرة، الآية ٢٩.

(٦) تراجع سورة البقرة، الآية، ١٩٦.

كبيـر بحيث تخلق فروقـات واسعة بين فئات المجتمع من الناحية الاقتصادية، ولذا فقد انتبه الى اهمية تقييد الثروة عن طريق منع الاكتناز بحيث شن حملة قاسية على الـذين يدخرون اموالهم وجعل كنز الاموال خطيئة تستحق العذاب استنادا الى الآية الكـريمـة: «. . والـذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»[1] وتحريم الاكتناز وادخار الاموال قد اقترن بضرورة الانفاق التقاء مع مبدأ: ان المال مال الله وان الانسان فيه مستخلف «آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم اجر كبير»[2].

ويـلاحـظ تشـديـد القـرآن الكـريم على الانفاق في الكثير من الآيات كقوله تعـالى: «وانفقـوا من ما رزقكم من قبـل ان يأتي احـدكم المـوت فيقـول رب لولا اخـرتني الى اجـل قريب فاصـدق وأكن من الصلحين»[3] وقـوله «قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلواة وينفقوا مما رزقنهم سرا وعلانية من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال»[4] لا بل ان الانفاق عند الله تعالى ابقى واكثر خيرا من البخل الذي وقف منه القرآن الكريم موقف نقد وادانة: «ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتهم الله من فضله هو خيـرا لهم بل هو شر لهم سيطـوقـون ما بخلوا به يوم القيـامة ولله ميراث السموات والارض والله بمـا تعملون خبيـر»[5]، وقوله «فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»[6] وقد أكد النبي

---

(١) سورة التوبة، الآية ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة الحديد، الآية ٧.

(٣) سورة المنافقين، الآية ١٠.

(٤) سورة ابراهيم الآية ٣١.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٨٠.

(٦) سورة التغابن، الآية ١٦.

(ص) الانفـاق والسخـاء فقرر ان الكرم يقرب المؤمن من الجنة «السخاء شجرة في الجنـة من اخـذ منهـا بغصن مدّ به الى الجنـة»[1]. وذهب الى تحـديـد قرب وبعد الانسان من الله والناس من خلال الكرم او البخل» السخي قريب من الله قريب من النـاس، بعيـد من النـار، والبخيل بعيد من الله من الجنة قريب من النار، والجاهل السخي احب الى الله عز وجل من عابد بخيل وأدوأ الداء البخل»[2] عدّ البخل افظع الادواء في سنتـه (ص): «قـال النبي لبني سلمـة حين سألهم عمن هو سيـدهم؟ فقـالـوا: جدّ بن قيس على بخـل فيـه. فقـال: «فأي داء ادوأ من البخـل؟ سيـدكم الابيض الجعد: بشر بن البراء»[4].

نخلص من هذا الى ان الاسلام حاول ان يحد من تفاقم الملكية الفردية عن طريق تحريم الاكتناز والحث على الانفاق وتقاليد السخاء، ويجوز لنا ان نفترض ان **تحريم ومنع الادخار قد أخرّ ـ في حالة التطبيق الفعلي للتحريم ـ تجمع وتركز رؤوس** الاموال الواسعة مما حال دون توسيع الاستثمار النقدي بشكل يقود الى هيمنة رأس المـال مع ملاحظـة ان تحـريم الاكتناز لا يتوافق مع شرعية الاثراء والكسب الحلال في التجارة والزراعة التي أدت الى خلق ملكيات فردية كبيرة، وهذا الامر يشير الى افتراق بين الموقف النظري المبدئي والتطبيق العملي الواقعي.

د ـ الرق حالة مؤقتة في حياة الانسان:

ظهـر الاسـلام في مرحلة تاريخيـة، كانت ترتكـز على عمـل العبيد باشكاله المختلفـة وكـان الرقيق يشكلون فئة لها دورها في تيسير اسلوب معاش الناس، ومع هذا فان الاسـلام قد عدّ الـرق حالـة مؤقتـة وطارئة في حياة الانسان لان الاصل في نظره هو الحرية، ومن هنا وجدنا انفسنا امام عدة اجراءات تخفف من الرق وتسعى الى تقليصـه قدر الامكـان فالاسـلام قد الـزم من يقتـل مؤمنا خطأ، ومن يحنث في

---

(١) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٦.

(٣) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص٢٤٦.

يمينـه، ومن ظاهـر امرأته تم تراجع عن قراره، عتق رقبة[1] وعد الاسلام مهمة العتق من السممـات الموجبـة لشكـر الانسان لفضل خالقه . . الم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهـديناه النجـدين، فلا اقتحم العقبة وما ادراك ما العقبة فك رقبة او اطعام في يوم ذي مسغبـة»[2] وخصص نسبـة من الـزكـاة لتحرير الرقيق فقال تعالى : «انما الصـدقـات للفقـراء والمسـاكين والعـاملين عليهـا والمؤلفـة قلوبهم وفي الـرقـاب والغـارمين وفي سبيـل الله وابن السبيـل فريضـة من الله . والله عليم حكيم»[3] ومنح الاسلام الرقيق المسلمين الهاربين من اسيادهم في حالة الحرب الحرية[4] وأوصى النبي (ص) بحسن معـاملة الـرقيق لان روح الانسـان واحـدة[5] ومنع الحاق الاذى بهم وقـال : «من قتـل عبـده قتلنـاه، ومن جدعه جدعناه، ومن اخصاه اخصيناه»[6] وعلى مستوى التطبيق قام النبي (ص) بعتق اغلب الرقيق الذي كان بمعيته[7] ويبدو انـه اراد بذلـك ان يضـع تقليـدا في هذا المجـال يصلح ان ينتهجـه الآخرون اذ قد حاكاه ابو بكر في هذا الشأن عندما « . . اعتق معه على الاسلام قبل ان يهاجر الى المـدينـة ست رقـاب، بلال سابعهم»[8] ، ويمكن لنا ان نقرر بأن الاسلام قد لطف وخفف من الرق لاعلى مستوى الموقف المبدئي، فحسب وانما بحكم ان الاسلام قد وطـد السلم نسبيـا في الجـزيدة العربية خاصة بعد فتح مكة بحيث تقلص الغزو

(١) تراجع سورة النساء، الآية ٩٢، وسورة المائدة، الآية ٨٩، وسورة المجادلة الآية ٣.
(٢) سورة البلد، الآية ٨ ـ ١٤.
(٣) سورة التوبة، الآية ٦٠.
(٤) الشيباني، شرح كتاب السير الكبير، جـ ٣٤١.
(٥) الغزالي، احياء علوم الدين، جـ٦. ص١٠٣٣ ـ ص١٠٣٦.
(٦) ابن حنبل، المسند، جـ٥، ص١٢، (٦) اجزاء، القاهرة ١٣١٣.
(٧) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٣١١ وما بعدها، ابن قتيبة، المعارف، ص١٤٤ ـ ص١٤٩.
(٨) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٣١٨.

وعـرفت هذه الفتـرة العتق عن طريق المكـاتبـة وهي ان يفـرض مبلغ على العبـد ان سدده اصبح حرا، اذ يورد مالك بن أنس في الموطأ ص٦٨١ . . حدثني مالك انه بلغه ان ام سلمة زوجة النبي (ص) كانت تقاطع مكاتبيها بالذهب والورق».

فترتب على ذلك ضمور احد المصادر الخاصة بالرقيق، ويبدو ان الطابع المنزلي كان الاساس للرق في الاسلام - مما خفف من قسوته اذ اعتبر العبد كأنه أحد اعضاء العائلة[1]، ويؤكد هذا الرأي عمل العبد تسديدا للخراج المفروض عليه من قبل مالكه ضمن عمل منزلي بسيط. . فقد احتجم رسول الله (ص)، حجمه أبو طيبة، فأمر له بصاعين من طعام وكلم اهله فوضعوا عنه من خراجه[2].

ويبدو ان النبي (ص) لم يعط العبيد من اموال الفيء[3] والسبب في ذلك انهم في كفالة غيرهم ومسؤوليتهم غير مسؤولية الاحرار، اضافة الى ان الغنائم لم تكن كبيرة الى الحد الذي يسمح بشمول السيد وعبده مع ملاحظة ان هذا الاجراء كان دقيقا في مجال التنظيم الاقتصادي كي لا يحصل من يمتلك عددا من العبيد على حصص عديدة قياسا بمن لا يمتلك العبيد، وفي مقابل ذلك كان النبي (ص) يمنحهم من الهدايا التي تهدى اليه ومن سهمه في الخمس[4] .

ويظهر ان النبي (ص)قد عالج بدقة مشكلة الاسرى بحيث لم يسترقهم، منطلقا في ذلك من مضمون الآية الكريمة بشأن مصير الاسرى. . «اذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثختنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء، حتى تضع الحرب اوزارها»[5]، فمعالجة مشكلة الاسير هنا تتم اما باطلاقه دونما مقابل، او باخذ فدية منه، والواقع ان اجراءات النبي (ص) بشأن الاسرى كانت تؤكد عدم حصول رق في زمن النبي (ص) بسبب الحرب فقد اخذ فداء اسرى بدر[6]، ومن على بعضهم[7] وعندما اسر بني المصطلق عام ٦ للهجرة[8] اعتقهم فيما بعد ومن

---

(١) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، ص١٦٣.
(٢) ابن سلام، الاموال، ص٧٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٤٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٤٣ - ص٢٤٤.
(٥) سورة محمد، الآية ٤.
(٦) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص٤٦.
(٧) ابن سلام، الاموال، ص١١١.
(٨) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص٤٢.

عليهم[1] وافتتح خيبر عام ٧ للهجرة[2] وكان الفتح عنوة ولكنه منّ على اهلها ولم يسترقهم[3] وكذلك فعل حين افتتح مكة اذ لم يسترق سكانها[4].

من هذا نخلص الى ان الاتجاه العام للنبي (ص) كان ضد استرقاق الاسير، وانـه قد عالـج مشكلة الاسـرى وفق ما قرره القرآن الكريم من خلال المن او الفداء ممـا قلص من حجم الـرقيق في حيـاتـه. اما استرقاق الاسرى الذي ظهر بعد حياته وفي مرحلة الفتوح بالذات فان مردها يعود في تقديرنا الى ان المن والفداء قد فهما بقصرهما على العرب فقط، وقد تبنى هذا الفهم يحيى بن آدم «كانوا اهل مدينة من العـرب الـذين لا يسترقون»[5] وابن سلام القائل: «فهذه احكام الاسارى: المن، والفـداء، والقتـل، وكـانت هذه في العـرب خاصـة، لان لارق على رجالهم»[6]. وواقع الحال ان دلالة الآية غير ذلك اذ انها عامة شاملة لجميع الكافرين، ويبدو لي ان حكمي القتـل والاستـرقاق كانا استجابة للظروف الجديدة واعتماد مبدأ المعاملة بالمثل مع الاقوام الذين كانوا يقتلون ويسترقون المسلمين.

ان موقف النبي (ص) من استـرقـاق الاسـرى واجـراءاتـه في المن عليهم وفدائهم تناقض الرواية التي تذهب الى انه قد قتل اسرى بني قريظة من الرجال البـالغين[7] فهـذا الاجـراء يبـدو غريبا في نهجه ويضعنا امام الشك بصحة الرواية، فالايـة القـرآنيـة في بني قريظـة لا تشيـر الى عملية القتل الجماعي، «وانزل الذين ظاهـروهم من اهـل الكتـاب من صيـاصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا»[8]، كما ان سياسته مع يهود خيبر وبني قينقاع والنضير، اضافة الى

(١) ابن سلام، الاموال، ص١٤٠.

(٢) خليفة بن خياط، ص٤٥.

(٣) المصدر السابق، ص١١٠، ابن آدم، الخراج، ص٣٧.

(٤) ابن سلام، المصدر نفسه، ص١٠٦ «كـذلـك منّ النبي على اسـرى هوازن» المـاوردي، ص١٣٥ ـ ص١٣٦.

(٥) ابن آدم، الخراج، ص٢٨.

(٦) ابن سلام، المصدر السابق، ص١٣٣.

(٧) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٢٤٠.

(٨) سورة الاحزاب، الآية ٢٦.

اهـل مكـة وهـوازن لـم تضعنـا امـام معالجة بالشكل الذي روي عن قتل اسرى بني قريظة ، وقد بين الدكتور وليد عرفات في بحث له عدم صحة هذه الواقعة وقدم ادلة على بطـلانهـا ، لعـل ابرزها ان القرآن الكريم لا يتضمن نصا يدل على قتل (٦٠٠ الى ٩٠٠) من بني قريظة . كما ان قتلهم مخالف لقواعد الاسلام لقوله تعالى : «ولا تزر وازرة وزر اخرى» وبـالتـالي فان القـاعـدة في معاملة الاسير هي المن او الفداء اضـافـة الى انـه ليس من المعقول ان يقتل هذا العدد في سوق المدينة ، ثم لا نجد اثرا باقيا او اشارة واضحة الى موضع القتل مع ملاحظة وجود اسماء اشخاص معينين قتلوا . ومن المنطقي ان هؤلاء فقط هم الذين عوقبوا بالقتل وهم زعماء حركة العداء للاسلام . واخيرا فان مصادر القصة قد اخذت من قبل رواة يهود اسلموا وادخلوا هذه القصة الملفقة[1] ، ومما يعزز ان الخبر قد رواه يهود هو اخذه عن عطية القرضي كما جاء في كتاب الاموال بشأن القصة التي في اعلاه[2] .

ولنـا ان نقـرر بأن الاسـلام قد عدّ الـرق حالـة طارئـة وان حريـة الانسان هي الجـوهـر وانـه قد انحسـر نسبيا زمن النبي (ص) استنادا الى المبادىء التي صحبت الاجـراءات العمليـة للحـد منه والسعي نحو الغائه بالتدريج ، ومن هنا يكتسب رأي سيديو القائل . . «ومن الحق ان يؤاخذ محمد على ابقائه الرق في بلاد العرب . فما كان احد ليخالف شريعته في ابان سطوته لو اعلن حرية الموالي من المسلمين»[3] حمـاسـا لا يولي طبيعة المرحلة التاريخية ما تستحق . اذ ان تحرير الرق دفعة واحدة كان يمكن ان يقـوض النظـام الاجتمـاعي والاقتصـادي ، وربمـا عرض التجـربـة للاخفـاق بحكم ان الـرقيق كان يؤدي دورا مهمـا في الحيـاة الاقتصـاديـة ويـرتبـط بالاسس الاجتماعية للنظام القبلي ، ولا ادل على اهمية عمل الرقيق وارتباطه بحياة الناس من ان النبي (ص) كان له عبيده ومواليه ، وكان يعتق منهم بين فترة باخرى ، ولـذا فان تلطيف الـرق وتضييق سبـل الحصول عليه كان ضمن مرحلته التاريخية ،

---

(١) د. وليـد عرفـات ، ضوء جديـد على قصـة بني قريظـة ويهود المدينة ، ص٧٨٩ ، ص٧٩٠ ، ص٧٩١ . وينصـح لمن اراد التـوسـع ان يراجـع كل البحث المنشـور في بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ٢٥ آذار ١٩٧٣ . اصدار وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٧٤ .

(٢) ابن سلام ، الاموال ، ص١٣٠ .

(٣) سيديو ، تاريخ العرب العام ، ص١٠٠ .

عمليـة ذات طابـع اصـلاحي اخـلاقي . ويكفي ان نشير بأن الاسلام لم ينقل العبد الى مرحلة القن كما كان شأنه في مجتمعات سابقة انتقلت من النظام العبودي الى النظام الاقطاعي ، وانما حاول ان يخفف من سوء اوضاع الرقيق وان يفتح لهم سبلا جديـدة تنقلهم الى وضـع الحـريـة التي كانت الاصـل في الاسلام ، كما ان مسألة تحرير الرقيق بشكل شامل لم تكن قد عرفت الآ في العصر الحديث .

٢ ـ الموارد المالية لدولة المدينة :

بعد ان استقر النبي (ص) في المدينة (يثرب) بدأت الدولة العربية الاسلامية في الظهـور، وكـانت الاموال من العوامل الحاسمة في تغذية دولة المدينة ، ومع ان هذه الاموال كانت تشكل ايراد الدولة الآ انها كانت قليلة نوعا ما ، اذ انحصرت في الغنـائم والصـدقـات والجزية . وسنرى ان هذه الموارد كانت بسيطة نقول هذا برغم اقرارنا بأن حاجة المسلمين حينذاك ومستلزمات النفقات كانت بسيطة ايضا ، وعليه **فقد أدت هذه الموارد المالية دورها في ارساء الدعائم الاولية لاقتصاد دولة المدينة ، ويمكن لنا ان نجملها في :**

أ ـ الغنائم :

كانت الحـالـة الاقتصادية للمهاجرين المسلمين غير حسنة ، بشكل عام[١] ، بسبب اخـراج قريش لهم من مكـة وتـركهم دورهم واموالهم هناك ، وصحبت حاجة بعض المهـاجـرين للمـال الـرغبـة في تأمين مصـدر مالي يسهم في ارساء الاسس الاقتصـاديـة لدولـة المدينة ، فأمست هذه الحاجة ضرورة اتيح لها ان تتحقق عندما **اذن الله تعـالى للمسلمين بقتـال المشـركين في قولـه : «اذن للذين يقـاتلون بانهم** ظلمـوا ، وان الله على نصـرهـم لقـديـر ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق ، الا ان يقـولـوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا»[٢] ، وعدّ هذا الامر جهادا فارتبط به حرمان اعراب

(١) مما يدل على ذلك قول عبدالله بن عمر (رض) : «ما شبعنا حتى فتحت خيبر» ، الدياربكري ، تاريخ الخمس ، جـ٢ ، ص٥٦ .

لا بل ان المسلمين ظلوا في حاجة ولم تكن الغنائم كثيرة بحيث تسد احتياجاتهم حتى فتح مكة عام ٨ للهجرة اذ استعار النبي (ص) اسلحة من صفوان بن امية لغزوة حنين ، عروة بن الزبير ، مغازي رسول الله (ص) ص٢١٣ .

(٢) سورة الحج ، الآية ٣٩ ـ ٤٠ .

المسلمين من الغنائم (الغنيمة والفيء) الّا في حالة اشتراكهم مع المسلمين في قتال الكفار اذ جاء عن النبي (ص) انه «ليس لهم في الفيء والغنيمة شيء الّا ان يجاهدوا مع المسلمين، فمن لم يجاهد مع المسلمين ولم يك فقيرا اوشغل بتجارة، اوعمل اوغير ذلك، فلا شيء له من الغنيمة والفيء، الّا ان تصيبه حاجة فيدخل مع اهل الحاجة»[1]، واستنادا الى سورة الحج التي اذنت للمسلمين بالقتال بدأ النبي (ص) حصارا اقتصاديا لمكة اثر فيها كثيرا وجعلها تغير طريق الشام الى طريق العراق. . كانت قريش قد حذرت طريق الشام ان يسلكوها، وخافوا من رسول الله واصحابه، وكانوا قوماً تجارا. فقال صفوان بن امية: ان محمدا واصحابه قد عوّروا علينا متجرنا»[2] وبرغم انهم سلكوا طريق العراق فان اصحاب النبي (ص) كانوا يصيبون منهم[3] واستعان النبي (ص) بأبي نصير ومن معه لفرض حصار اقتصادي والقيام ببعض العمليات العسكرية ضد قريش حتى ضجت منه وسألت النبي (ص) ان يؤويهم الى المدينة ملتمسة الرفق بحق الارحام معه، ففعل[4] وقد عبّر ابو سفيان فيما بعد عن اثر حروب النبي (ص) ومحاصرته قريشا على اقتصاد المكيين فقال: «. . كنا قوما تجارا وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله (ص) قد حضرتنا حتى تهتكت اموالنا. .»[5].

وكان من الطبيعي ان ينتج عن حروب النبي (ص) غنائم يتوجب قسمتها على المسلمين وفق تعاليم القرآن الكريم وتنفيذ النبي (ص) بحيث ان طريقة التقسيم صارت تقليدا يتبع في المراحل التالية.

كانت الغنائم مقسمة الى فيء وغنيمة. فاما الفيء فهوكل مال وصل من المشركين عفوا من غير قتال ولا ايجاف خيل ولا ركاب[6]. اما الغنيمة فهي ما حصل عليه المسلمون عنوة وقهرا[7].

---

(١) ابن آدم، الخراج، ص١٩.

(٢) الواقدي، المغازي، جـ١، ص١٩٧.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص٥٠.

(٤) المصدر نفسه، ق٢، ص٣٢٤.

(٥) المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٦، ص٩٤.

(٦) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٢٦.

(٧) المصدر نفسه، ص١٣٧.

ان اول غنيمة حصل عليها المسلمون كانت بعض ابل لقريش محملة أدما وتجارة ـ بمكان يقع بين مكة والطائف يدعى ـ نخلة ـ حصل عليها عبدالله بن جحش وبعض المسلمين[1] ويقال ان عبدالله بن جحش قد قسم الغنيمة بين اصحابه وعزل الخمس للنبي (ص) قبل ان يفرض الله تعالى الخمس من المغانم[2].

وفي السنة الثانية للهجرة، كانت معركة بدر التي غنم فيها المسلمون اموالا وسلاحا، وقد حدث خلاف في توزيع الغنيمة بين المسلمين اذ انقسم المسلمون الى ثلاث فئات، فئة كانت تقاتل، وفئة تجمع الغنائم، وفئة تحمي النبي (ص) من العدو، وكانت كل فئة ترى انها احق من الاخرى بالغنيمة[3] كما كان بعضهم يعتقد ان للقوي حصة اكبر من الضعيف «اختلف الناس في الغنائم يوم بدر، فأمر رسول الله (ص) بالغنائم ان ترد في المقسم، فلم يبق منها شيء الاّ ردّ، فظّن اهل الشجاعة ان رسول الله (ص) يخصهم بها دون غيرهم من اهل الضعف»[4].

ونظرا لهذا الاختلاف فقد جمع الرسول الغنيمة عنده ونزلت الآيات الاولى من سورة الانفال(يسألونك عن الانفال. قل الانفال لله والرسول، فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم، واطيعوا الله والرسول ان كنتم مؤمنين) فكان عبادة بن الصامت، اذا سئل عن الانفال، قال: فينا معشر اهل بدر نزلت، حين اختلفنا في النفل يوم بدر، فانتزعه الله من ايدينا حين ساءت فيه اخلاقنا. فرده على رسول الله (ص) فقسمه بيننا عن بواء ـ يقول: على السواء، وكان في ذلك تقوى الله وطاعته،

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص٢٢، مؤرج بن عمرو السدوسي، كتاب حذف من نسب قريش، ص٤٣، ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٦٠٥. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص٢.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص٢٢، ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٦٠٣.

(٣) الواقدي، المغازي، جـ ١، ص٩٨، ابن سلام، الاموال، ص٣١٥ ـ ص٣١٦.

(٤) الواقدي، المصدر نفسه، جـ١، ص٩٩.

وطاعة رسول الله (ص) وصلاح ذات البين[1] وهذا يعني ان غنيمة بدرقد قسمت بين المسلمين سوية ولم تخمس، ثم نزلت فيما بعد بقية الآيات من سورة الانفال التي بينت طريقة تقسيم غنيمة الحرب. . ثم اعلمهم مقاسم الفيء وحكمه فيه، حين احله لهم، فقال: «. . واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله، وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير»[2] ويبدوان تساهل بعض المسلمين في قتل مشركي مكة وسعيهم وراء اسرهم رغبة بالفداء قد عدّ خطيئة اذ «عاتب الله عز وجل النبي (ص) والمؤمنين فيما أسروا وكره الذين صنعوا الّا يكونوا أثخنوا بالقتل، فقال عز وجل: ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة»[3] وقد قسم النبي (ص) غنائم بدر، للفارس سهمان وللراجل سهم[4].

وبعد بدر بشهر، نقض يهود بني قنيقاع العهد الذي بينهم وبين النبي (ص) فاجلاهم عن المدينة[5] وقسم اموالهم بين المسلمين استنادا الى سورة الانفال الآيات الخاصة بتقسيم الغنائم[6].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٦٦٦ - ص٦٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ق١، ص٦٧٢.

(٣) عروة بن الزبير، مغازي رسول الله (ص)، ص١٤٥.

(٤) ابو يوسف، الخراج، ص١٨. المسعودي، التنبيه والاشراف، ص٢٠٥.
وقد ضرب النبي (ص) لابي ذر واخيه ستة اسهم، اربعة لفرسيهما وسهمين لهما، فباعا الاسهم بحنين ببكرين، ابو يوسف، م. ن: ص١٩.
ويبدو ان اقرار الفقهاء للضرب لفرسين لا اكثر، قد جاء ليحول دون حصول من يمتلك خيولا تسهم في الجهاد اوتؤجر، على غنائم اكثر من غيره. ابويوسف، م. ن، ص١٩. ابن آدم، الخراج، ص١٨. قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٢٣٧.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٠. ابن سلام، الاموال، ص٢٠٧.

(٦) سورة الانفال، الآية ١١.

ويقال ان غنيمة بني قينقاع ، أول غنيمة خمست في الاسلام[1]، ويبدو ان سهم النبي في الخمس قد وجد جذوره في حق شيخ القبيلة قبل الاسلام في ربع الغنيمة «وكانت الجاهلية يأخذ الرئيس. اذا غزا الربع ، وعليه الزاد والمزاد. فجاء الاسلام بأخذ الخمس»[2].

وقد كان من أسباب هزيمة المسلمين في معركة احد في السنة الثالثة للهجرة، هو طمع بعض المسلمين في الغنائم[3].

وفي السنة الرابعة للهجرة، افتتح النبي (ص) ارض بني النضير دونما قتال، فكانت اول ارض فتحها الله على يديه[4]، وعدّت اموال بني النضير خالصة لرسول الله (ص)، وكان يزرع تحت النخل في ارضهم فيدخل من ذلك قوت اهله وازواجه سنة، وما فضل جعله في الكراع والسلاح[5] وعوملت ارض واموال بني النضير على انها فيء استنادا الى الآية الكريمة: «ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى فلله والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم، وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله ان الله شديد العقاب»[6].

---

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص١٣٩. المسعودي، التنبيه والاشراف، ص٢٠٧.

(٢) مؤرج بن عمرو السدوسي، كتاب حذف من نسب قريش، ص٦. ابن هشام السيرة النبوية، ق٢، ص٥٧٨ الواقدي، المغازي، جـ١، ص١٧ ـ ص١٨ وقد حدث تغيير في سهم النبي (ص) في زمن الراشدين سنتطرق اليه في حينه.

(٣) الواقدي، المصدر نفسه، جـ١، ص٣٢٣ ـ ص٣٢٤.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٠.

(٥) المصدر نفسه، ص٣١. عروة بن الزبير، مغازي رسول الله (ص)، ص١٦٧.

(٦) سورة الحشر، الآية ٧ «كانت هذه الآية الاصل في تشريع الفيء».

ويلاحظ ان تقسيم النبي (ص) لاموال بني النضير قد شمل المهاجرين دون الانصار[1] لان الاوائل كانوا في حاجة مما ينم عن موقف اجتماعي يستهدف عدم توسيع الفوارق الاقتصادية من جهة، والتضامن مع المحتاجين من جهة اخرى «فلما غنم رسول الله (ص) بني النضير دعا ثابت بن قيس بن شمّاس فقال: «ادع لي قومك! قال ثابت: الخزرج يا رسول الله؟ قال رسول الله (ص): الانصار كلها، فدعا له الأوس والخزرج، فتكلم رسول الله (ص) فحمد الله واثنى عليه بما هو اهله، ثم ذكر الانصار وما صنعوا بالمهاجرين وانزالهم اياهم في منازلهم وأثرتهم على انفسهم، ثم قال: ان احببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله عليّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم واموالكم، وان احببتم اعطيتهم وخرجوا من دوركم. فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا: يارسول الله، بل تقسمه للمهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا»[2] الاّ ان هنالك من يرى انه قد اعطى بعض كبار الصحابة ارضا من اموال بني النضير ولكن التوزيع كما يبدو، كان محدوداً «وكان ممن اعطي ممن سمّي لنا من المهاجرين ابو بكر الصديق (رض) بئر حجر، واعطى عمر بن الخطاب (رض) بئر حرم، واعطى عبد الرحمن بن عوف سؤالة، وهو الذي يقال له مال سليم. واعطى صهيب بن سنان الضراطة، واعطى الزبير بن العوام وابا سلمة بن عبد الاسد البويلة. وكان مال سهل بن حنيف وابي دجانة معروفا، يقال له مال ابن خرشة، ووسع رسول الله (ص) في الناس منها»[4].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص١٩٢. ويقول في نفس المكان: وخلوا الاموال لرسول الله (ص) فكانت لرسول الله (ص) خاصة، يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله (ص) على المهاجرين الاولين دون الانصار، الاّ ان سهيل بن حنيف وابا دجانة سماك بن خرشة ذكرا فقراً، فاعطاهما رسول الله (ص)».

(٢) الواقدي، المغازي، ق١، ص٣٧٩.

يلاحظ هنا ان النبي (ص) كان يسعى لاضعاف العصبية القبلية، والوصول الى تأكيد انتساب العربي المسلم، لأمته، اي انه كان يؤكد فهما قوميا دينيا في نفس الوقت.

(٣) ابو يوسف، الخراج، ص٦٨ - ص٦٩.

(٤) المصدر السابق ق١، ص٣٧٩ - ص٣٨٠.

وحـاصـر النبي (ص) عام خمسـة للهجـرة، بني قريظـة بسبب تعـاونهم مع مشركي مكة في غزوة الاحزاب، وقسم اموالهم بين المسلمين[1] ولم يقسم الارض[2] وروى ان فيء بني قريظـة ـ اول فيء وقعت فيه السهمـان بعـد اخـراج الخمس، فكان للفارس ثلاثة اسهم، للفرس سهمان ولفارسه سهم[3].

وبعـد صلح الحـديبية، توجه النبي (ص) عام ٧ للهجرة الى خيبر فأخضعها بعد قتال شديد[4]، وقد طرأ بعد جديد في خيبر، فرغم انها اخذت عنوة الا انها لم توزع وفق ما شرعتـه سورة الانفـال بشأن الغنيمـة ولم يطرد اليهود، بل ان اهل خيبر عوملوا على النصف مما تخرج الارض[5] ويبدو ان التوزيع قد تضمن توزيع اسهم غلة الارض وليس الارض[6]، وقـد وزعت غنـائم خيبر والاسهم على اهل الحديبية دون الاعـراب الـذين كانوا قد تخلوا عن دعم النبي عندما اتجه الى مكة للحج قبل الحديبية، وقد كان النبي (ص) حاسما مع الاعراب عندما ارادوا الخروج معه الى خيبـر لسبب اقتصـادي هو الـرغبـة في الغنيمـة، اذ أكـد لهم ان لا نصيب لهم في الغنيمـة، وان من اراد الجهـاد منهم فليأت «فقـالـوا نخرج معك الى خيبر، انها ريف الحجاز طعاما وودكا واموالا. فقال رسول الله (ص): لا تخرجوا معي الآ راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا»[7].

واعتبر نصف فدك خالصا للنبي (ص) لانه لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب[8] اذ انهم صالحـوا النبي (ص) وطلبـوا منـه ان يعـاملهم مثـل معـاملته اهل خيبر على

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٤ ـ ص٣٥، ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص٢٤٠.
(٢) ابو يوسف، الخراج، ص٦٨ ـ ص٦٩.
(٣) ابن هشام، المصدر السابق، ق٢، ص٢٤٥.
(٤) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٦٩ ـ ص١٧٠.
(٥) ابو يوسف، الخراج، ص٩٠. ابن سلام، الاموال، ص٨٦.
(٦) المصدر نفسه، ص٨٩.
(٧) الواقدي، المغازي، ق٢، ص٦٣٤، ص٦٨٤.
(٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٢. ابن سلام، الاموال، ص٧.

نصف الارض بترتبها[1] وكان يصرف ما يأتيه منها الى ابناء السبيل[2] ، اي انها كانت فيئا .

اما وادي القرى فان النبي (ص) بعد عودته من خيبر دعا اهلها الى الاسلام فامتنعوا من ذلك وقاتلوا، ففتحها رسول الله (ص) عنوة وغنمه الله اموال اهلها وأصاب المسلمون منهم اثاثا ومتاعا فخمس رسول الله (ص) ذلك، وترك النخل والارض في ايدي اليهود وعاملهم على نحو ما عامل عليه اهل خيبر[3] ويلاحظ ان النبي (ص) لم يقسم بين المسلمين لا ارض بني النضير ولا خيبر ومكة ووادي القرى رغم انها فتحت عنوة، مما يشير الى ان طبيعة فتح الارض لا يقرر قسمتها: وهذه مسألة لها اهميتها عند الحديث عن مشكلة الارض زمن الراشدين.

وافتتح النبي (ص) مكة عام ٨ للهجرة، ولم يغنم منها مالا[4] فوّجه المسلمين الى هوازن وثقيف اللتين كانتا تشكلان تيارا بدويا قويا يقف ضد الدين ذي الطابع الحضري - الاسلام -[5] وقد احرز المسلمون نصرا في حنين نتج عنه غنائم كثيرة ويبدو انه حصل تأخير في تقسيم الغنائم فألحت الاعراب على النبي (ص) في التقسيم فقرعهم قائلاً: «لو كان عدد هذه العضاه نعما لقسمت بينكم، ثم لا تجدوني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا»[6] وكان اعطاء النبي (ص) الكثير من الغنائم لأهل مكة ما جعل الاعراب يجدون في انفسهم فقال احدهم للنبي (ص): «لم ارك عدلت»[7] فأجابه النبي (ص): «ويلك فمن يعدل اذا لم اعدل؟ قال عمر: يا رسول الله أيذن لي انْ اضرب عنقه! قال: دعه، ان له اصحابا . . »[8] وتضافر اعطاء

(١) البلاذري، المصدر نفسه، ص٤٢. ابن حبيب، المحبر، ص١٢٢.

(٢) البلاذري، المصدر نفسه، ص٤٢.

ويقول البلاذري في ص٤٦ من فتوح البلدان: «وقد كان رسول الله (ص) اعطى فاطمة بنت رسول الله (ص) فدك وتصدق بها عليها».

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٧.

(٤) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٦٤.

(٥) الواقدي، المغازي، جـ٣، ص٨٨٥. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص٥٣. ويروى الطبري في جـ٣، ص٧٠ من تاريخ الرسل والملوك، ان هوازن وثقيف «جاءوا لمحاربة لبني عامدين».

(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص٤٩٢. المصدر نفسه، جـ٣، ص٩٤٢-٩٤٣.

(٧) ابن هشام، المصدر نفسه، ق٢، ص٤٩٦.

(٨) الواقدي، المغازي، جـ٣، ص٩٤٨.

اهـل مكـة الكثيـر من الغنـائم مع اعطـاء النبي (ص) للمؤلفة قلوبهم[١] على خلق خوف في صفوف الانصار من ان يظل النبي في مكة، وقالوا: «نحن اصحاب موطن وشدة، فآثر قومه علينا وقسم قسما لم يقسمه لنا وما نراه فعل هذا الا وهو يريد الاقامة بين اظهرهم»[٢] وقد عالج النبي (ص) هذه المشكلة واسترضى الانصار بمدحهم، ومنحه امتيـاز وجـوده بينهم دائمـا مشيـرا الى انـه (ص) حصتهم، على حين تكون الامـوال حصـة الآخـرين[٣]. وقـد اصـاب النبي (ص) والمسلمون سبيا واسعا في حنين فأمر النبي برد السبي بعد ان اختارت ثقيف ابناءها ونساءها وعوض من تردد في رد السبي قائـلاً: «امـا من تمسـك منكم بحقـه من هذا السبي فله بكل انسان ست قلائص فردوا الى النـاس ابنـاءهم ونسـاءهم»[٤]. ويلاحظ ان النبي (ص) تشجيعا للمسلمين على الجهاد قد قضى بالسلب للقاتل فقال في حينه: «من قتل رجلا فله سلبه»[٥] وقد قتل ابو طلحة عشرين رجلا، واخذ اسلابهم»[٦]، وقد خمس عمر بن الخطاب السلب[٧].

وقـد كان للنبي (ص) بعض الامـوال الخـالصة من الغنائم وهي ثلاثة انواع: «مـا افـاء الله على رسـولـه من المشركين، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب وهي فدك واموال بني النضير[٨] ويضيف اليها البلاذري خيبر[٩] عادا خيبر من الصفـايـا التي كان يصطفيها من كل غنيمة قبل ان يقسم المال[١٠] اما الحق الثالث

(١) الاصفهاني، الاغاني، جـ١٣، ص٦٩. الواقدي، المغازي، جـ٣، ص٩٥٧.

(٢) الاصفهـاني، المصـدر نفسـه، جـ١٣، ص٦٩. عروة بن الـزبيـر، مغازي رسول الله (ص) ص٢١٨ - ص٢١٩.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص٤٩٨.

(٤) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٣٤ـص١٣٥.

(٥) ابن سلام، الاموال، ص٣٠٨ - ص٣٠٩.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٠٩. ابن قتيبة، المعارف، ص٢٧١.

(٧) ابن سلام، المصدر نفسه، ص٣١٠.

(٨) ابن سلام، الاموال، ص٧، قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٢٠٥.

(٩) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٣.

(١٠) ابن سلام، المصدر السابق، ص٧. قدامة بن جعفر، المصدر السابق، ص٢٠٥.

فهو الخمس بعدما توزع الغنيمة وتخمس[1] وقد الغي الخمس في زمن الراشدين[2] كما عدت حقوق النبي (ص) حقوق الامة وصارت في بيت المال[3] ، ويذكر ان النبي (ص) كان يعطي من الخمس للفقراء والمحتاجين, فقد سأله رجلان ان يعطيهما من خمس بني المصطلق فقال: «. . ان شئتما اعطيتكما منه ولاحظ فيه لغني ولا لقوي مكتسب»[4].

كان النبي (ص) يريد أن يوحد الحياة العربية على المستوى القومي والديني والسياسي والاقتصادي . وقد ازداد الشعور عند العرب بأنهم شعب واحد يختلف عن بقية الشعوب خلال الفترة التي قضاها النبي (ص) في المدينة[5] ويجوز لنا ان نفترض بأن حاجة الدولة العربية الاسلامية الى اقتصاد متين وسيادة السلم في الجزيرة العربية ، قد حدت بالنبي (ص) الى محاولة ترسيخ الاساس الاقتصادي لدولة المدينة التي ماكان لها ان تحقق قوتها وسيادتها دون اقتصاد متين .

وفي ظل ظروف الجزيرة الاقتصادية ، كان صعبا توفر هذا الشرط ، ولذا لم يكن بد من البحث عن أساس اقتصادي يحقق التكامل السياسي والاقتصادي ، وقد كان هذا الاساس موجودا في الاراضي العربية التي احتلها الفرس والروم . واذا ادركنا ان الغنائم أساساً كانت قليلة وانها قد تقلصت بفضل سيادة سلم نسبي في الجزيرة العربية ، وانها في كل الاحوال لم تكن كافية لدولة تنمو ولأمة بدأت تحاول الخروج عن ظروفها الصعبة ، أمكن لنا أن نفهم معنى توطيد النبي (ص) لصداقته مع القبائل العربية باتجاه العراق[6] وتوجهه نحو الشمال في محاولة لتحقيق أساس

(١) ابن سلام ، الاموال ، ص١١ .
(٢) ابو يوسف ، الخراج ، ص١٩ .
(٣) ابو يوسف ، المصدر نفسه ، ص٢١ . قدامة بن جعفر ، الخراج وصنعة الكتابة ، ص٢٠٥ .
(٤) الشيباني ، شرح كتاب السير الكبير ، جـ٣ ، ص١٠١٤ .
(٥) مونتجمري وات ، محمد في مكة ، ص٤٤ .
(٦) المرجع نفسه ، ص٢١٩ .

متين لاقتصاد الدولة العربية الاسلامية. ولحماية هذه الدولة من اخطار الاجنبي متمثلا في الروم[1] وكانت غزوة تبوك عام ٩ للهجرة خير ممثل لهذا الاتجاه الذي اجمله النبي (ص) في قوله للجد بن قيس احد بني سلمة: «يا جد، هل لك العام في جلاد بني الاصفر؟»[2] اي في قتال الروم، مما يشير الى ان حاجة الدولة العربية الاسلامية المرتبطة بحاجة الامة الى النهوض، كانت تسير في الاتجاه الموضوعي لتطور التاريخ.

ب ـ الجزية:

الجزية ضريبة فرضت على رؤوس اهل الذمة، استنادا الى الآية الكريمة: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون»[3] وقد عدّت الجزية ضريبة، نظير حماية المسلمين لاهل الذمة وحفظهم لممتلكاتهم، وعوضا عن الجهاد مع المسلمين الذين يتولون حمايتهم، وقد فرض النبي (ص) هذه الضريبة على اليهود والنصارى والمجوس، فعندما اسلم اهل تبالة وجرش

---

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص١٦٥.

يورد الواقدي في المغازي، جـ١، ص٤٠٣، ان النبي (ص) علم: «ان بدومة الجندل جمعا كثيرا وانهم يظلمون من مرّ بهم من الضافطة وكان بها سوق عظيم وتجار وضوى اليهم قوم من العرب كثير، وهم يريدون ان يدنوا من المدينة».

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص٥١٦.

ويروى الطبري ان النبي (ص) بعث عام ٨ للهجرة عمرو بن العاص يستنفر الناس الى الشام. ثم حدثت غزوة مؤتة عام ٨ للهجرة بسبب جمع هرقل ملك الروم حشودا كبيرة، وعندما خسر المسلمون في مؤتة، كان لابد للنبي (ص) ان يرد على التحدي فجهز غزوة تبوك لقتال الروم «تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٣٢، ص٣٧، ص٣٩، ص١٠١.

(٣) سورة التوبة، الآية ٢٩.

وتجدر الاشارة الى ان الجزية كان معمولا بها قبل الاسلام حينما كانت بعض القبائل تبسط نفوذها على قبائل ضعيفة وتفرض الحماية عليها لويس يونغ، العرب واوربا، ص٤٥.

اقـرهـم النبي (ص) على ما أسلموا عليه و[illegible] كل حالم ممن بهما من اهل الكتاب دينارا واشترط عليهم ضيافة المسلمين[1].

وصالح النبي (ص) اهل تبوك على الجزية بأن جعل على كل حالم دينارا في السنة فبلغ ذلك، الى ثلاثمائة دينار. واشترط عليهم ضيافة من مر بهم من المسلمين[2] على حين صالح اهـل اذرح على مائة دينار في كل رجب[3] وضرب على اهـل الجـربـاء الجـزية وصالح اهل مقنا على ربع عروكهم وغزولهم والعروك خشب يصطـاد عليـه وربـع كراعهم وحلقتهم وعلى ربـع ثمـارهم وكـانـوا يهـوداً[4] وفرضت الجزية على اكيدر صاحب دومة الجندل[5] وعلى اهالي نجران، وكانوا من النصارى[6] وحددت بالفي حلة في صفر والف حلة في رجب، وضيافة المسلمين لشهرواحد[7]، وصولح اهل اليمن على الجزية[8]وكانت دينارا وافيا او قيمته من المعـافـر، اوعرضـه ثيابا على كل حالم ذكر او انثى[9] وعومل مجوس البحرين مثل معـاملة اهـل الكتـاب من اليهـود والنصارى ففـرضت عليهم الجزية[10] ويظهر ان

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٧٠. ويلاحظ هنا ان حق الضياغة قد اقر زمن النبي (ص) وقد فرض على قبيلة بارق «من مرّبهم من المسلمين في عرك اوجدب فله ضيـافـة ثلاثـة ايـام»، د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص١٩٨ - ص١٩٩.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٧١.

(٣) المصـدر نفسـه، ص٧١، ابن سلام، الاموال، ص٢٣. د. محمـد حميـد الله، مجمـوعة الوثائق السياسية، ص٩٠.

(٤) البلاذري، المصدر نفسه، ص٧١, د. محمد حميد الله، المرجع نفسه، ص٩١.

(٥) المصدر نفسه، ص٧٢. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص١٠٩. تاريخ خليفة بن خياط، جـ١، ص١٥٦.

(٦) البـلاذري، المصـدر نفسـه، ص٧٥. ابن سلام الاموال، ص٣٣. الطبري المصدر نفسه، جـ٣، ص١٤٧.

(٧) البلاذري، المصدر نفسه، ص٧٥.

(٨) البلاذري، المصدر نفسه، ص٨٠. ابو يوسف، الخراج، ص٥٩.

(٩) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص١٢١.

(١٠) ابـو يوسف المصـدر السابق، ص١٣١. ابن سلام، الاموال، ص٣٣. الطبري، المصدر نفسه، جـ٣، ص٢٩.

معـــاملة المجـوس كأهـل الكتـاب قد اصبحت حديث بعض اعـداء الاسـلام من المنـافقين، اذ قال منـافقـو العـرب: «زعم محمـد انـه لا يقبـل الجزية الاّ من اهل الكتـاب، وقـد قبلهـا من مجوس هجروهم غير اهل الكتاب، فنزلت: يا أيها الذين آمنـوا عليكم انفسكم لا يضـركم من ضل اذا أهتـديتم»[1] ونجد في معاملة مجوس هجر كأهل كتاب نصاً يتضمن توصية النبي (ص) للمنذر بن ساوى بأن يفرض على كل رجـل ليست له ارض، اربعـة دراهم وعبـاءة[2]، فهـل كان هذا يعني ان الجزية على مجوس هجر كانت تراعي الفوارق الاقتصادية بين الفئات الاجتماعية من حيث ان جزية من يمتلك ارضا تختلف عن غيره؟ نعني الاّ يضعنا هذا النص امام امكانية فرضية ترى ان النبي (ص) قد تعامل مع اهل الارض وفق طريقة تختلف عن طريقة تعامله مع من لا يمتلك ارضا؟.

نخـرج من خلال حديثنـا عن الجزية، ببعض الملاحظات التي تتلخص في ان النبي(ص) كان يأخذ الجزية عينا ونقدا، كما اخذها شاملة للنوعين وانها كانت بسيطـة على مستـوى النقـد ولا تتعـدى دينارا واحدا على الفرد السوي، وان هنالك عدم تمييـز بين الغني والفقيـر في دفعها، اذ انها كانت واحدة بالنسبة للجميع، كما اننـا لا نعثـر على نص صريـح يشيـر الى اعفـاء العـاجـزين اورجال الدين من دفع الجزية، وسيتضح لنا فيما بعد ان مقدار الجزية قد اختلف، كما وضعت وفق طريقة تعتمـد مراعـاة الفـرق بين الفئـات الاجتماعية، واعفاء العاجزين ورجال الدين من دفعهـا ونعتقـد ان بعض هذه الاجـراءات التي استجدت كانت بسبب ادراك العرب المحـررين، ان سكنـة البـلاد المحـررة يشتركون معهم في روابط كثيرة لعل اهمها الرابطة القومية بدلالة ان الدولة العربية الاسلامية لم تفرض الاسلام عليهم، وبهذا كانت تتجـه اتجـاها قوميا ضمن توجهها الديني. ناهيك عن ان كثيرا من اهل الذمة قد ساعـدوا العـرب في حروب التحرير من الاجنبي مع ملاحظة ان الاسلام اعترف منذ البداية بالاديان السماوية وأكد اشتراكها معه في اصول العقيدة والقيم الاخلاقية.

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٩٠.

(٢) د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص١١٩.

ولنا ان نشير بأن الجزية زمن النبي (ص) وان كانت قد وفرت موردا لدولة المدينة، الّا ان هذا المورد لم يكن كبيرا اذ بقيت الجزية قائمة على التراضي وموافقة الطرفين.

جـ - الصدقات (الزكاة):

اقر الاسلام الصدقة من منطلق ان للفقراء حقا في اموال الاغنياء الذين ينوبون عن المالك الاول الذي هو الله تعالى، وقد ذكرت الزكاة في اكثر من آية مكية، فقد قال تعالى: «الذين لا يؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم كافرون»[1] وقال: «وما أمروا الّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيّمة»[3]. ويبدو ان الصدقة بمكة كانت طوعية، اختيارية، وانها قد اصبحت فرضا محددا في المدينة بعد الهجرة مما يوحي بازدياد متطلبات الدولة المادية وحاجتها الى المصاريف، ويرى وات ان اسم الزكاة قد اطلق على الصدقات الرسمية، على حين احتفظت الصدقة بمعنى الهبات الاختيارية[4]. وقد فرضت الزكاة على المسلمين من خلال عدة نصوص في القرآن الكريم «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله. ان الله بما تعملون بصير»[5] وقوله تعالى: «الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون»[6]، ومما يدلل على اهمية الصدقة في الفترة المدنية ان القرآن الكريم قد فرضها على من يتحدث الى النبي (ص) فقال تعالى: «اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة»[7] ويظهر ان الحالة الاقتصادية لاوضاع المسلمين في المدينة لم تكن حسنة[8] مما اوجب تأكيد الصدقة لمعالجة الاحوال الاقتصادية

(١) سورة فصلت، الآية ٧. «تجدر الاشارة الى ان القرآن الكريم لم يحدد مقدار الصدقات».
(٢) سورة المزمل، الآية ٢٠.
(٣) سورة البينة، الآية ٤.
(٤) مونتجمري وات، محمد في المدينة، ص٣٨٦.
(٥) سورة البقرة، الآية ١١٠.
(٦) سورة النمل، الآية ٣.
(٧) سورة المجادلة، الآية ١٢.
(٨) مالك بن انس، الموطأ، ص٨٠٤ - ص٨٠٥.

ويحتمل ان يكون بعض المسلمين قد استثقل كدية الصدقات، ونسبة الانفاق فسألوا النبي (ص) عما ينفقون، فنزلت الآية الكريمة التي تحدد بحسم ان الانفاق، هو انفاق ما زاد عن الحاجة «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو»[1] وقد اشار الفخر الرازي الى ذلك فقال: «.. كان الناس لما رأوا الله ورسوله يحضان على الانفاق ويدلان على عظيم ثوابه، سألوا عن مقدار ما كلفوا به، هل هو كل المال او بعضه، فأعلمهم الله ان العفو مقبول»[2] ولعل بعض المسلمين قد حاول التهرب من دفع العفو وعده كثيرا، وازاء هذا الموقف كان للقرآن الكريم حكمه في تحريم الكنز والتهديد بالعذاب لمن لا يستجيب في انفاق العفو، فقال تعالى: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»[3] وبقي النبي (ص) حتى الاعوام الاخيرة من حياته يؤكد ان اكثر الناس غنى ممن لا ينفقون ويعطون الصدقة، اكثر الناس عذابا وأشدهم خسرانا[4] وشدد القرآن الكريم على عدم الحاق الاذى بالمتصدق عليه من قبل المصدق، فقال: «قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى»[5] واعتبر المن بالصدقة ابطال لها فقال: «يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى»[6] وقد بيّن الله تعالى مصارف الزكاة، فقال: «انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل. فريضة من الله والله عليم حكيم»[7]. ويبدو لي ان هذه المصارف كثيرة، ولعل هذا الامر قد حدا بالنبي (ص) ان يرس عماله على الصدقات الى القبائل العربية، بعد

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٩.

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير، جـ٦، ص٤٨ - ص٤٩.

(٣) سورة التوبة، الآية ٣٤، ٣٥.

(٤) سنن الترمذي، الجامع الصحيح، جـ٣، ص١٢ - ص١٣.

(٥) سورة البقرة، الآية ٢٦٣.

(٦) سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

(٧) سورة التوبة، الآية ٦٠. تجدر الاشارة الى ان ربيعة بن الاسود اليشكري كان قد اوقف نخلا له لابن السبيل قبل الاسلام، ابن حبيب المحبر، ص٢٤٢.

فتح مكة، وحصرا في الفترة الواقعة بين السنة التاعة والعاشرة للهجرة[1] وقد انتهج النبي (ص) طريقتين في تحصيل الصدقات، الاولى ان تؤخذ من اغنياء القبائل ضمن القبيلة الواحدة فترد على فقراء نفس القبيلة» . . فأخذ الصدقة من اغنيائهم وردها على فقرائهم»[2] مما يفسر قلة الصدقات الواردة الى المدينة، والطريقة الثانية ان يحمل ما زاد عن ذلك الى المدينة بدلالة قوله لقبيصة بن المخارق: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فاما ان نعينك عليها، وأما ان نحملها عنك»[3] اضافة الى ان عدّي بن حاتم قد حمل صدقات قومه بعد النبي (ص) الى ابي بكر في ايام الردة[4] وقد كانت الصدقات تؤخذ عينا ـ ويفسر سبب ذلك العلي قائلا: «كان الاساس الرئيس في اقتصاد الصحراء هو الاقتصاد الطبيعي اي القائم على المبادلة بالنوع لا بالنقود، لان النقود كانت قليلة عند البدو، وان الثروة الحيوانية الرئيسية هي الابل والماشية ـ الغنم ـ وكذلك البقر التي توجد بكميات قليلة»[5] .

ويجد بعض الباحثين اصول الصدقات في الاديان الاخرى كاليهودية والمسيحية، وانها كانت تجمع من قبل رجال الدين لتدفع للمساكين، وان العرب قبل الاسلام كانت تقدم صدقات للآلهة[6] على حين يرجع فيليب حتى جذرها الى مبدأ العشر الذي كان تجار عرب الجنوب يؤدونه للآلهة قبل بيع طيوبهم[7] ويشاركه هذا الرأي محمد عبد القادربافقيةالذي يقول ان العشر كان يذهب الى المعبد كي يقوم بواجبات الضيافة تجاه الاغراب الذين يأتون الى هناك من مسافة طويلة[8] وهذا

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص٦٠٠. الواقدي، المغازي، جـ٣، ص٩٧٣ خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص٥٨، ص٦٣، ص٦٤. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣،ص١٢٣.

(٢) ابن سلام، الاموال، ص٥٩٥. الطبري، المصدر نفسه، جـ٣، ص٩٥.

د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص١١٦.

(٣) ابن سلام، المصدر نفسه، ص١٩٢١.

(٤) المصدر نفسه، ص١٩٢٧.

(٥) د. صالح العلي، تنظيم جباية الصدقات في القرن الاول الهجري، ص٨٦٩.

(٦) د. عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ج١، ص١٣٤.

(٧) فيليب حتى وزميله، تاريخ العرب ـ مطول ـ ص١٨٢.

(٨) محمد عبد القادر بافقيه: تاريخ اليمن القديم، ص١٨٣.

الـرأي يمكن ان يؤخـذ به من ناحية التشابه في بعض مصارف الزكاة كالصرف على ابن السبيـل الـذي يشبه الصرف على الاغراب اذ انهما يشتركان في كونهما قد حلا رعاية الآلهة.

ان النبي (ص) لم يكن يأخـذ الصـدقـة لآل بيتـه، اذ قال: «لا تحل الصدقة لآل محمـد انمـا هي اوسـاخ النـاس»[1] واعتقـد ان هذا الاجراء لم يكن بسبب ان لاقارب النبي (ص) سهمهم من الغنيمة والفيء فحسب، وانما صدر عن رغبة النبي (ص) في عدم فسح المجال للمسلمين الآخرين في اعطاء الصدقات لاقاربه تقربا منـه ومنهم بحيث يؤثـر ذلـك على الآخـرين، خاصـة ان كانت الصـدقة سرا، كما يمكن ان يثير استياء المحتاجين من المسلمين.

ويمكننـا ان نقـول ان الاسـلام في فرضـه الصـدقـة، كان يتـوخى مصلحـة المحتاجين، كما ان التركيز على اهمية الانفاق وشجب الاكتناز، استهدف تخفيف الفوارق بين الفئات الاجتماعية وخلق حالة من التكافل الاجتماعي.

٣ـ مظاهر النشاط الاقتصادي في زمن النبي (ص):

أ ـ التجارة والنشاط التجاري:

ولـد الاسـلام في بيئـة مكة الحيوية التجارية، فأخذ التقاليد التجارية بعد أن طهـرهـا ممـا كان يشـوبها من رواسب لا تنسجم مع اخلاقية الاسلام، وساعد على رفع قيمة التجارة في نظر المسلمين ان النبي (ص) قد عمل فيها[2]، وان كثيرا من المسلمين الاوائـل كانـوا تجـارا[3] وقد عدّت التجارة من قبل النبي (ص) من اطيب كسب المؤمن[4] وربـط الانفـاق من الطيبـات بالتجارة[5] ووضع النبي (ص) التاجر

(١) مالك بن أنس، الموطأ، ص٨٤٨. الشيباني، الاكتساب في الرزق المستطاب، ص٦٠.

(٢) الشيباني، الاكتساب في الرزق المستطاب، ص١٨.

(٣) الجاحظ، البخلاء، ص١٩٣. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٢، ص٢٧٧.

(٤) الشيباني، شرح كتاب السير الكبير، جـ٣، ص١٠١٢.

(٥) ابن آدم، الخراج، ص١٣٢.

الامين في مرتبة المؤمنين يوم القيامة، فقال: «التاجر الامين مع الكرام البررة يوم القيامة»[1] ويقدم لنا القرآن الكريم ادلة كثيرة على تغلغل اثر التجارة في حياة المسلمين فيقول عن المؤمنين انهم «يرجون تجارة لن تبور»[2] ويعد الكافرين قد خسروا فيقول: «اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم»[3]، ويصف من يسعى لرضى الله فيقول: «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله»[4] ويحفز المسلمين على الايمان، فيقول: «هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم: تؤمنون بالله . . »[5] ونظراً لكون التجارة قد شغلت بعض العرب عن ذكر الله، فقد امتدح الله تعالى المسلمين الذين لا يغفلون عن ذكره بسبب التجارة فقال: «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . . »[6] وما أوردناه يقع ضمن دائرة التمثيل لا الحصر لوجود آيات اخرى في هذا المجال، ونحن نعثر على واقعة في زمن النبي (ص) تدلل بقوة على تأثير التجارة في حياة الناس، فقد حدث ان النبي (ص) كان يعظ المسلمين في مسجد المدينة فاقبلت قافلة تجارية من الشام فخشى المصلون ان يسبقوا اليها فيفوتهم الربح، فغادروا المسجد وتركوا الرسول مع اثني عشر مسلما فقط[7] وعلى اثر ذلك نزلت الآية القرآنية «واذا رأوا تجارة اولهوا انفضوا اليها وتركوك قائما»[8] وقد نظم القرآن الكريم والحديث الشريف احكام البيع والشراء والديون[9] وحرمت اشكال رديئة من التجارة لا تنسجم مع قيم الاسلام مثل الاحتكار والربا وتجارة البغاء، فقال تعالى: «ولا تكرهوا

(١) الشيباني، الاكتساب في الرزق المستطاب، ص٣٧.
(٢) سورة فاطر، الآية ٢٩.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٦.
(٤) سورة البقرة، الآية ٢١٧.
(٥) سورة الصف، الآية ١٠، ١١.
(٦) سورة النور، الآية ٣٧.
(٧) البخاري، صحيح البخاري، جـ٣، ص٧٣.
(٨) سورة الجمعة، الآية ١١.
(٩) سعيد الافغاني، اسواق العرب في الجاهلية والاسلام، ص٣١.

فتيـاتكم على البغـاء ان اردن تحصنـا»[1] كمـا حرمت تجارة الخمور اذ اهرق النبي (ص) الخمر في الاماكن التي عثر عليها فيها[2].

ويظهر ان النشاط التجاري في المدينة قد ازداد بعد هجرة النبي (ص) بسبب ضمـور تجـارة مكـة التي هددت عسكـريا من قبل المسلمين وبقيت محدودة للفترة الواقعة بين بدر والحديبية، كما ان محاولة اليهود لضرب وحدة العرب المسلمين[3] وائتمارهم مع قريش في غزورة الاحزاب[4] واستفزازهم الاقتصادي للمسلمين، فقد ضرب رسول الله (ص) قبة في موضع بقيع الزبير فقال هذا سوقكم فاقبل كعب بن الاشـرف فدخلهـا وقطـع اطنابها، فقال رسول الله (ص) لا جرم لانقلنها الى موضع هو أغيـظ له من هذا، فنقلهـا الى موضـع سوق المـدينـة، ثم قال هذا سوقكم لا تتحجـروا ولا يضـرب عليه الخراج»[5] كانت هذه المحاولة من جملة الاسباب التي اوجبت اخـراجهم من المـدينـة، فكـان ان انتعشت تجارة المدينة واصبحت بأيدي العرب المسلمين.

لقـد جلب المهـاجرون المسلمون الى المدينة، خبرة المكيين العريضة في مجال التجارة، فكان ان اصبحت التجارة وسيلة عيشهم بالدرجة الاولى. يؤكد هذا قول ابي هريرة «ليقولون ما للمهاجرين والانصار لا يحدثون بمثل حديثي فسأخبركم ان اخـواني من الانصـار كان يشغلهم عمـل اراضيهم، وان اخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالاسواق»[6] وتنصب شهادة عمر بن الخطاب (رض) في نفس

(١) سورة النور، الآية ٣٣.
(٢) ابن سلام، الاموال، ص١٠٢ ـ ١٠٣.
(٣) ابن هشام، السيطرة النبوية، ق١، ص٥٥٥.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص٥٦٥. الواقدي، المغازي، جـ٢، ص٤٤٣.
(٥) السمهودي، وفاء الوفا، جـ١، ص٥٤٠. ونحن نرى ان النبي (ص) قد اطلق تسمية التجار بعـد ان كانـوا يدعـون سماسرة وسعى الى تهذيب التجارة من الخداع فقد روى. . «عن البراء بن عازب قال: أتانا رسول الله (ص) ونحن في السوق، وكنا نسمى السماسرة، « » فقال يا معشر التجار! اخلطوا بيعكم هذا بصدقة، فانكم تكثرون الحلف» الواسطي، تاريخ واسط، ص١٥٥.
(٦) البخارى، صحيح البخارى، جـ٣، ص٦٨. الكتاني، التراتيب الادارية، جـ٢، ص١٠٢.

الخـط حين قال: «اخفي عليّ من امـر رسـول الله (ص)، الهـاني الصفق بالاسواق يعني الخـروج الى التجـارة»[1] وقـد تمكن اكثـر من صحـابي زمن النبي (ص) من تنميـة مالـه عن طريق التجـارة[2] وكـانت التجـارة مع الشـام بالدرجة الاولى[3] كما وجـدت تجـارة بين المـدينـة وبعض القبـائل العربية[4] ويلاحظ ان النزعة التجارية كانت قويـة بين صفـوف المسلمين، ويبرز هذا في شراء اسهم خيبر: «ان رسول الله (ص) اشتـرى من رجـل من بني غفـار سهمه بخيبر ببعيرين ثم قال له النبي (ص): اعلم ان الـذي اخـذ منـك خيـر من الـذي اعطيك، والذي اعطيك دون الذي آخذ منـك وان شئت فخـذ وان شئت فأمسـك: فأخـذ الغفاري. وكان عمر بن الخطاب يشتري من رسول الله في سهم، وأخذ من اصحابه وهم مائة، وهو سهم أوس وكان يسمى سهم اللفيف حتى صار لعمر بن الخطاب وابتاع محمد بن مسلمة من سهم اسلم سهمانا...»[5].

ومـع ان النبي (ص) تبنى موقفـا اخـلاقيـا دينيـا للاسعـار لا علاقة له بمعرفة القـوانين الاقتصـاديـة المـوضـوعية «ان السعر غلا في زمن رسول الله (ص)، فقال النـاس لرسـول الله (ص) ان السعـر قد غلا فوظف وظيفـة نقـوم عليهـا، فقـال ان الـرخص والغـلاء بيـد الله ليس لنـا ان نجوز أمر الله وقضاءه»[6]، فأنه قد قام بعملية توحيـد المكـاييـل والمـوازين الخـاصـة بدولة المدينة فعّد «الميزان ميزان المدينة، والمكيـال مكيـال مكـة»[7] ولم يأخـذ العشـور من التجـار[8] ربما بسبب الرغبة في تشجيـع التجـارة من جهـة، والحرص على ان تمون الدولة الجديدة بما تحتاج عن

---

(١) البخاري، المصدر نفسه، جـ٣، ص٧٢.
(٢) الطبراني، المعجم الكبير، جـ١، ص١٢٩.
(٣) الطبراني، المصدر نفسه، جـ١، ص١١٠. ابن قتيبة، المعارف، ص١٦٧.
(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص١٠٣.
(٥) الواقدي، المغازي، جـ٢، ص٦٩٠، ٦٨٠.
(٦) ابو يوسف، الخراج، ص٤٩.
(٧) ابن سلام، الاموال، ص٥٢٠.
(٨) المصدر نفسه، ص٥٣٠.

طريق التجار خاصة وان المدينة كانت تعاني من ازدياد سكاني ، وهذا يعني انه لم تكن هنالك ضريبة على التجارة .

بقيت هنالك مسألة مهمة بما يتعلق بالتجارة ، واعني بذلك تجارة المدينة مع الشام اذ يبدو ان التجار الذين كانوا يفدون على المدينة ، كانوا يظلمون من قبل صاحب دومة الجندل ، وانهم يضايقون التجار العرب المسلمين في نفس الوقت ، فقد ذكر للنبي (ص) : «ان بدومة الجندل جمعا كثيرا . وانهم يظلمون من مر بهم من الضافطة ، وكان بها سوق عظيم وتجارة ، وضوى اليهم قوم من العرب كثير ، وهم يريدون ان يدنوا من المدينة»[1] .

وهذا يعني ان تجارة المدينة كانت مهددة اوبعبارة اخرى ان المصالح التجارية والسياسية لدولة المدينة ، كانت في خطر ، وازاء هذا ولدفع الخطر عن المدينة وحماية للنفس وسعيا وراء تأمين التجارة ، يمكن ان يفهم سبب توجه النبي (ص) الى الشمال .

ب ـ الزراعة والارض:

شجع الاسلام الزراعة وعدّها النبي (ص) من اطيب كسب المؤمن[2] وقد ذهب الشيباني فيما بعد الى ان «الزراعة افضل من التجارة لانها اعم نفعا ، فبعمل الزراعة يحصل ما يقيم المرء به صلبه ، ويتقوى على الطاعة وبالتجارة لا يحصل ذلك ولكن ينمو المال[3] .

وقد اكتسبت الزراعة اهمية لأن النبي (ص) قد ازدرع في الجرف وكان يقول: اطلبوا الرزق تحت خبايا الارض[4] كما ان العمل الرئيس للانصار تمثل في الزراعة[5] ويظهر انه قد وجد عمال زراعيون بنسبة قليلة ، فسلمان كان عاملا زراعيا

---

(١) الواقدي ، المغازي ، جـ١ ، ص٤٠٣ .

الضافطة : جمع ضافط ، وهو الذي يجلب الميرة والمتاع الى المدن والمكاري الذي يكرى الاحمال وكانوا يومئذ قوما من الانباط يحملون الى المدينة الدقيق والزيت .

(٢) الشيباني ، شرح كتاب السير الكبير ، جـ٣ ، ص١٠١٢ .

(٣) الشيباني ، الاكتساب في الرزق المستطاب ، ص٣٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص١٨ ، ص٣٧ .

(٥) البخارى ، صحيح البخارى ، جـ٣ ، ص٦٨ ، الكتاني ، التراتيب الادارية ، جـ٢ ص١٠٢ .

اربعين اوقية[1]، والخليفة علي بن ابي طالب يشهد بأنه قد عمل في مجال الزراعة فيقول: «جئت الى حائط او بستان فقال لي صاحبه دلوا وتمرة فملوت دلوا بتمرة فملأت كفي ثم شربت من الماء ثم جئت الى رسول الله (ص) بملء كفي فأكل بعضه وأكلت بعضه»[2] ويفترض ان بعض المهاجرين قد عملوا عند الانصار في الزراعة.

واذا اخذنا بما اورد الواقدي عن اهل خيبر بعد فتحها.. وانما بقي قوم لا اموال لهم وانما لهم عمال ايديهم[3] جاز لنا ان نفترض ان اهلها صاروا عمالا زراعيين اتفقوا مع المسلمين على النصف[4]، كذلك كان شأن اهل فدك[5] وهذا الاجراء يشكل تطورا جديدا في معاملة النبي (ص)، اذ لم يطرد اهل خيبر من اراضيهم كما حدث بالنسبة لحالات سابقة وانما ابقاهم، وربما كان سبب ذلك رغبة النبي (ص) في الّا ينشغل المسلمون بالارض عن الجهاد، ولا سيما ان معركتهم مع مشركي قريش لم تكن قد حسمت بعد، نقول هذا لقناعتنا بأن المسلمين كانوا قد ادركوا مبكرا الاهمية الكبيرة للارض، يدل على ذلك اتجارهم في اسهم خيبر.[6].

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٢١٨ ـ ص٢٢٠.
(٢) ابن حنبل، كتاب الزهد، ص١٣١.
(٣) الواقدي، المغازي، جـ٢، ص٧١٣.
(٤) ابو يوسف، الخراج، ص٥١.
(٥) المصدر نفسه، ص٥١.
(٦) الواقدي المغازي، جـ٢، ص٦٩٠.

١ـ قطائع النبي (ص):

اقطع النبي (ص) لعديد من الصحابة ارضا فقد اقطع ابا بكر واقطع عمر (رض) واقطع الزبير[١] واقطع عمار بن ياسر[٢] واقطع عليا (رض) اربع ارضين: الفقيرين وبئر قيس والشجرة[٣] واقطع بعض شيوخ القبائل كزيد الخيل[٤] ومجاعة بن سلمى من اهل اليمامة[٥] مشمرج بن خالد السعدي من عبد القيس[٦] ويلاحظ ان قطائع النبي (ص) كانت محدودة ولا اسراف فيها وانها كانت غالبا من الارض الموات. فقد اقطع مجاعة اليمامي ارضا مواتا[٧] واقطع فرات بن حيان من موات الارض[٨].

كما كان اقطاعه للصحابة في المدينة يتدرج ضمن نفس الاتجاه «وكان رسول الله (ص) يقطع اصحابه هذه القطائع فما كان في عفائن الارض فانه اقطعهم اياه وما كان من الخطط المسكونة العامرة فان الانصار وهبوه له فكان يقطع من ذلك»[٩] وقد وردت اشارة الى ان النبي (ص) اقطع الزبير ارضا فيها نخل[١٠] اي عامرة، ويسجل البلاذري وابن سعد خبرا مخالفا عن انس بن عياض يرى فيه ان الارض التي اقطعت للزبير كانت مواتا[١١] ويبدو ان خبر اقطاع الزبير ارضا ذات نخل

(١) ابو يوسف، الخراج، ص٦١.
(٢) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص١٧٩.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٧.
(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص٥٧٧. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ١، ص٢٠٥. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص١٤٥.
(٥) المصدر السابق، ص١٠٣.
(٦) د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص١٢٧.
(٧) قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٢٨١.
(٨) ابن سلام، الاموال، ص٢٨١.
(٩) السمهودي، وفاء الوفا، جـ١، ص٥١٨.
(١٠) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٤. ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٧٢ـ ص٧٣.
(١١) البلاذري، المصدر نفسه، ص٣٤. ابن سعد، المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص٧٢ ـ ص٧٣.

لم يكن منسجما مع اتجاه النبي (ص) في منح القطائع من الارض الموات مما حدا بابي عبيد القاسم بن سلام ان يقول: «اما اقطاع النبي (ص) ارضا ذات نخل وشجر فانا نراها الارض التي كان رسول الله (ص) اقطعها الانصاري فأحياها وعمرها ثم تركها بطيب نفس منه، فقطعها رسول الله (ص) للزبير، فان لم تكن تلك فلعلها مما اصطفى رسول الله (ص) من خيبر، فقد كان له من كل غنيمة الصفي وخمس الخمس.. فان كانت ارض الزبير من ذلك نسي - النبي (ص)، يعطيها من شاء عامرة وغير عامرة، ولا اعرف لاقطاعه ارضا فيها نخل وشجر وجها غير هذا»[1] والواقع ان النبي (ص) قد حث على احياء الموات، فقال: «من احيا ارضا ميتة فهي له»[2] والحقيقة ان احياء الموات وان كان يعني من ناحية استثمار الارض لخدمة تنمية الموارد المالية، الّا انه م التصرف الكامل فيها[3].

ويلاحظ ان النبي (ص) كان يراعي المصلحة العامة في منح هذه القطائع فقد اقطع اوفى بن موله العنبري «الغمم واشترط عليه ان ابن السبيل اول ريان»[4]. واسترجع ما اقطع ابيض بن حمّال المازني لانه رأى في ذلك اضرارا بالمسلمين، اذ قيل للرسول (ص): يا رسول الله اتدرى ما اقطعت له؟ انما اقطعته الماء العدّ. قال: فرجعه منه»[5] كما استرجع ارضا لم يستطع صاحبها ان يوفق بين العمل فيها وبين معرفة شروط الدين[6] انسجاما مع تحفظ النبي (ص) عن امتلاك الارض

(١) ابن سلام، الاموال، ص٢٧٩.

(٢) ابو يوسف، الخراج، ص٦٥. ابن آدم، الخراج، ص٩٠.

يتحدث الشافعي عن قطائع النبي (ص) في كتابه الام، جـ٤، ص٥٠، قائلا: «ان النبي (ص) اقطع الناس بالمدينة وذلك بين ظهراني عمارة الانصار من المنازل والنخل فلم يكن بالعامر لهم منع غير العامر، ولو كان لهم لم يقطعه الناس».

(٣) ابن آدم، المصدر نفسه، ص٩٠.

(٤) السمهودي، وفاء الوفا، جـ٢، ص٣٥٣. د. محمد حميد الله، مجموعة الوثئق السياسية، ص٢١٥.

(٥) ابن سلام، الاموال، ص٢٧٦.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٧٢ - ص٢٧٣.

والاثراء الواسع ويتضح ان قطائع النبي (ص) من الارض كانت لمصلحة الضعفاء والمحتاجين بشكل عام . . «لما قدم رسول الله (ص) المدينة اقطع الناس الدور فقال حي من بني زهرة يقال لهم بنو عبد بن زهرة نكب عنا بن ام عبد فقال رسول الله (ص) : فلم ابعثني الله اذا؟ ان الله لا يقدس امة لا يؤخذ للضعيف فيهم حقه»[1].

كما ان هذه القطائع استهدفت تألف بعض الناس على الاسلام، والحث على عمارة الارض[2] ، وقد بين لنا كلود كاهن الفرق بين القطائع والاقطاع ، فقال : «اما الملكيات التي منحتها الدولة للمنتفعين الافراد في شروط قريبة من الملكية فقد سميت ـ بالقطاعي ـ ولابد من الوقوف قليلا عند معنى هذه الكلمة لانهم كثيرا ما اخطأوا في فهم هذه المؤسسة وخلطوا بينها وبين ما يسمى بالاقطاع ـ وهي كلمة من نفس الاشتقاق ـ فالقطيعة بمعناها الاساس ارض تقتطعها الدولة من املاكها وتمنحها دونما تحديد للمدة في غالب الاحيان، الى رجل مسلم يمارس فيها عمليا جميع امتيازات المالك ولكنه يتحمل ايضا جميع اعباء المالك المسلم اي ان له فيها حقوق المالك وليس له فيها اي حق من حقوق ـ السيادة ـ وهو ملتزم باستثمار الارض او ـ احياء الارض الموات ـ وهذا لا يعني ان يعمل فيه شخصيا . بل عليه ان يعهد بها الى اناس قادرين وفي شروط مناسبة والّا نزعت منه الارض ومنحت لمنتفع آخر يحسن استثمارها . كذلك يخضع المالك لاشراف الادارة والدولة . وهو اشراف نظامي على شؤون القطيعة ـ كما هي الحال في ارض ملكية : كما انه ملزم باداء

(١) الشافعي، آلام، جـ٤، ص٥٠.

(٢) ابو يوسف، الخراج، ص٦٢. كما كان النبي (ص) يقطع احيانا لكي يرفع الظلم عن بعض القبائل « . . نزل ـ المقصود النبي(ص) ـ بذي المروة فاجتمعت اليه جهينة من السهل والجبل يشكون اليه نزول الناس بهم وقهر الناس عند المياه فدعا اقواما فاطعهم وأشهد بعضهم على بعض بأني قد اقطعتهم وأمرت ان لا يضاموا ودعوت لكم وأمرني حبيبي جبريل ان اعدكم حلفاء . . » السمهودي، وفاء الوفا، جـ٢ ، ص٣٧٣.

العشر الواجب على كل مسلم. وقد تكون القطيعة احيانا ارضا واسعة جدا. واحيانا اخرى محددة بجزء من القرية، اوباحدى عقارات المدينة. مما يكفي صاحب الامتياز حتى يعيش عيشة شريفة، وبذلك نرى انها لا تشبه ابدا ـ الاقطاع ـ الذي كان صاحبه حرا من كل ضريبة. وقادرا على ممارسة السلطة الادارية فيه»[1].

ويلاحظ ان بعض الصحابة قد اولوا اهمية بالغة زمن النبي (ص) الى قيمة الارض مبكرا، فكان جذر ثرواتهم قد وجد منذ هذه الفترة كالزبير بن العوام الذي اقطعت له اكثر من ارض[2] لا بل انه كان يسأل النبي (ص) ان يقطعه فيفعل، كما حدث حين اعتذر واحد الانصار عن عمارة ارضه[3] ونجد انه كان معنيا بعمارة الارض والعمل الزراعي[4] وهذا الامر لابد ان يكون من اسباب تراكم الثروة التي تفاقمت زمن عثمان بن عفان والتي وجدت اصولها في الاقل بالنسبة للزبير، منذ زمن النبي (ص) مما له شأنه في الفترات اللاحقة. وبشكل عام كانت القطائع في زمن النبي (ص) خاضعة لمصلحة المسلمين ومحكومة باعتبارات سياسية كتألف بعض زعماء القبائل، او اعتبارات تخص التشجيع على عمارة الارض واصلاح الموات لصالح اقتصاد المسلمين.

(١) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، ص١٧٨.

(٢) ابو يوسف، الخراج، ص٦١، ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٧٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٤. ابن سلام، الاموال، ص٢٧٩ ابن قتية، المعارف، ص٢٢٠.

(٣) ابن سلام، المصدر نفسه، ص٢٧٢ ـ ص٢٧٣.

(٤) ابن آدم، الخراج، ص١٠٦ ـ ص١٠٧.

٢ـ مسألة كراء الارض:

ترتبط مسألة كراء الارض بالزراعة والقطائع، وقد روى عن النبي (ص) انه قد نهى عن كراء الارض، فقد جاء ان . . ابن عمر (رض) كان يكري مزارعه على عهد النبي (ص) وابي بكر وعمر وعثمان . وصدرا من امارة معاوية، ثم حدث عن رافع بن خديج ان النبي (ص) نهى عن كراء المزارع فذهب ابن عمر الى رافع . . فسأله فقال نهى النبي (ص) عن كراء المزارع فقال ابن عمر قد علمت انا كنا نكري مزارعنا على عهد رسول الله (ص) بما على الاربعاء وبشيء من التبن»[1]. ثم ترك ابن عمر كراء الارض بعد سماعه كلام رافع بن خديج[2] وعلق على ذلك بقوله: «كنت اعلم في عهد رسول الله (ص) ان الارض تكرى»[3] وبرر الترك بامكانية ان يكون النبي (ص) قد احدث في ذلك شيئا لم يكن يعلمه[4] وقد ذهب اكثر من باحث معاصر الى ان النبي (ص) قد الغى كراء الارض[5]. وأجدني هنا اختلف مع الرأي القائل بأن كراء الارض قد منع زمن النبي (ص) اذ ربما اوردت رواية رافع بن خديج من قبل الفقهاء، ورجال الحديث لاعتبارات تتعلق بالتقوى والرغبة في الحد من التوسع في كراء الارض في عصرهم، فعبدالله بن عمر يعترف بأنهم كانوا يكرون الارض زمن النبي (ص) اما ان يكون ابن عمر لم يسمع بنهي النبي (ص) عن كراء الارض وهو الرجل الذي روى عن النبي (ص) الاحاديث العديدة فأمر مستبعد واذا سلمنا جدلا بأنه لم يسمع بذلك فان اعترافه بأنهم كانوا يكرون الارض زمن الراشدين . يجعلنا لا نتقبل فكرة ان الخلفاء الاربعة وهم من المقربين من النبي (ص) لم يسمعوا بنهي النبي (ص) عن كراء الارض .

(١) البخاري، صحيح البخاري، جـ٣، ص١٤١ ـ ص١٤٢ .

(٢) مسلم، صحيح مسلم، جـ٣، ص١١٧٨ .

(٣) المصدر السابق، جـ٣، ص١٤٢ .

(٤) المصدر نفسه، جـ٣، ص١٤٢ .

(٥) محمد عمارة، الاسلام وقضايا العصر، ص١١٢ ، خالد محيي الدين، محمد نظرة عصرية جديدة ـ ص٤٢ ـ ص٤٣ .

٣ـ معاملة الارض العربية :

فرضت ضريبة العشر على الارض التي تروى بشكل طبيعي ونصف العشر على الارض المروية بآلات الري . وكان هذا شأن معاملة اراضي الجزيرة العربية التي اصبحت تابعة لدولة المدينة زمن النبي (ص)[1] ويلاحظ ان هذا الاجراء وان كان خاصا باقليم معين الاّ انه ينطوي على دلالة قومية تراعي العرب وتسعى لتخفيف الضريبة عنهم وصولا الى خلق حوافز مادية تؤدي الى تنشيط العمل في المجال الزراعي ، ولا سيما انه لم تكن هنالك أمطار كافية للزراعة في الجزيرة ولا انهار ولذا اعتمدت الزراعة على حفر الآبار واستخدام الآلة في السقي .

٤ ـ الحمى :

عرفنا سابقا ان بعض سادة القبائل العربية كانو يحمون اراضي خاصة بهم وبقبيلتهم للرعي ولم يدعوا غيرهم يتواجدون فيها ، فجاء النبي (ص) ليقرر ان : «لا حمى الا لله ولرسوله»[2] اي اقرار اتجاه بأن للدولة وحدها ان تحمي اراضي لاغراض الامة[3] مثل الخيل الغازية في سبيل الله[4] وابل الصدقة ، وقد حمى النبي (ص) بالمدينة وصعد جبلا بالبقيع[5] ومع ان النبي (ص) قد قال : لا حمى الا في ثلاث : ثلة البئر وطول الفرس وحلقة القوم»[6] الاّ انه قد حمى لبعض الافراد مثل

(١) ابن آدم ، الخراج ، ص٢٦ ، مسلم ، صحيح مسلم ، جـ١ ، ص٦٧٥ .
عبد العزيز الدوري ، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام ، ص٧٥ .
(٢) ابن سلام ، الاموال ، ص٢٩٤ .
(٣) د. عبد العزيز الدوري ، المرجع السابق ، ص٧٦ .
(٤) المصدر السابق ، ص٢٩٨ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٣ .
(٥) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص١٨٥ .
(٦) ابن آدم ، الخراج ، ص١٠٤ .

ثلة البئر : ان يحفر الرجل بئرا في موضع ليس بملك لاحد ، فيكون له من حوالي البئر من الارض ما يكون ملقى لثلة البئر وهو ما يخرج من رابها ويكون كالحريم لها لا يدخل فيه احد عليه حريما للبئر .

الطول : بكسر الطاء وفتح الواو ، الحبل الذي يطول للدابة فترعى فيه ، يعني لصاحب الفرس ان يحمي الموضع الذي يدور فيه فرسه المشدود في الطول .

حلقة القوم : اي لهم ان يحموها حتى لا يتخطاهم احد ولا يجلس في وسطها .

هلال بن عامر بن صعصعة اذ «جاء هلال الى رسول الله (ص) بعشور نخل له، وسأله ان يحمي له واديا يقال له سلبه، فحماه له»[1] ويبدو ان الحمى كان مهما اذ نرى ان هنالك من يتولاه. فقد روى « . . ان النبي (ص) ولى العقيق لرجل اسمه هيصم المزني»[2] وتجدر الاشارة الى ان حصر حق الحمى» في يد الدولة قد قضى على سلطة المشايخ والمتنفذين وأزال احد اسباب المنازعات حول بسط السلطة على الاراضي.

جـ ـ البداوة والرعي:

دعا الاسلام الى الاستقرار والحياة المدنية، فقد ظهر في بيئة مكة الحضرية وكانت توجيهاته وتعاليمه حضرية في اسسها فوقف ضد تيار البداوة وضد اتجاهاتها في كثير من الامور الرئيسية[3] وهذا الموقف السلبي من البداوة. يتضمن في تقديري اتجاها قوميا اذ ان حياة المدنية تدعو الى التئام الشمل ووحدة الجماعة والالتزام بفكر مركزي على العكس من حياة البدو القائمة على الفرقة والفردية والخروج عن التعاليم ذات الصبغة التوحيدية، وفي ضوء ما سبق نستطيع ان نقرر ان موجة البداوة قد انحسرت نسبيا، في الاقل لدى القبائل البدوية القريبة من سلطة المدينة كما ان سيادة السلم الاسلامي قد قلل من فرص الغزو وقلص من حياة التبدي، اضف ان تحريم الاسلام غزو المسلم للمسلم يدل على تخفيف البداوة، واذا كانت الحياة القائمة على الاقتصاد الرعوي قد بقيت في زمن النبي (ص) على ماكانت عليه، فان حدة البداوة قد خفت نسبيا بحكم ان الاسلام في اساسه دين يشجع الحياة الحضرية، كما ان انتشار القيم الاخلاقية الاسلامية اضعف روح البداوة.

(١) د. محمد حميدالله، مجموعة الوثائق السياسية، ص٢٧٦.

(٢) السمعودي، وفاء الوفا، جـ٢، ص٢٠٩.

(٣) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، ص٣٧. د. عبد العزيز الدوري، الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب، ص٦٢. ويقول كرنباوم في: الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية، ص٣٦ ان الاسلام «يحول من تسيب البدوي الى نظام ساكني المدن».

وليس لدينا ما يشير الى حدوث تطور او تبدل في مجال الصنائع والحرف اليدوية ـ التي يبدو انها قد بقيت على ما هي عليه ـ مع ملاحظة ان النبي (ص) قد شجع المسلمين على تعلم الصنائع، فقد حصل المسلمون على ثلاثين حدادا في فتح خيبر، قال النبي (ص) عنهم: «اتركوهم بين المسلمين ينتفعون بصناعتهم ويتقوون بها على جهاد عدوهم فتركوا لذلك فمن تعلم عليهم الصناعة سمي صانعا او معلما»[1]

٤ ـ الاجراءات الاقتصادية التي قام بها النبي (ص) وابعادها الاجتماعية السياسية:

أ ـ المؤاخاة:

ادرك النبي (ص) ان الاوضاع المالية والاجتماعية للمهاجرين، صعبة بسبب ترك دورهم واموالهم في مكة. وبسبب طبيعة فهم الانصار وهم قبائل بدوية لنظام الحلف، ولذا سعى الى معالجة هذه المشكلة عن طريق المؤاخاة اذ «آخى رسول الله (ص) بين اصحابه من المهاجرين والانصار»[2] والمؤاخاة تسمية اسلامية للنظام العربي القديم وهو نظام الحلف[3] ويرى الدكتور عبد العزيز الدوري ان النبي (ص) قد سعى من خلال المؤاخاة الى توثيق الروابط وانقاذ المهاجرين من الضائقة المالية. ومع اقرارنا بوجود ضائقة مالية بين المهاجرين المسلمين لم تنته كما نرى الّا بعد فتح خيبر وهزيمة هوازن وثقيف في حنين، فان سبب المؤاخاة يعود بالدرجة الاولى الى اسباب اجتماعية تتعلق بطبيعة فهم الانصار للحلف، فالحليف لا ينحدر من الجد الاعلى للقبيلة وهو يقع تحت الحماية ويورث من قبل القبيلة التي تقدم الحماية له. كما ان ديته هي نصف دية الصرحاء ولا يقتل بالحليف[4]، وفي ضوء هذا الفهم البدوي للحلفاء، يمكن ان يصبح المهاجرون تحت حماية

(١) الكتاني، التراتيب الادارية، جـ٢، ص٧٥.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٥٠٤ ـ ص٥٠٥.
(٣) احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، ص٣٨٦.
(٤) د. خالد العسلي، نظام المؤاخاة في عهد الرسول (ص)، نظرة جديدة، ص٢٧.

الانصـار، وان ينظـر اليهم نظرةلها ان تخلق اشكالات اجتماعيةلذا«يمكن القول ان الرسـول (ص) قام بعملية المؤاخـاة لحـل المشـاكـل الاجتمـاعيـة التي جابهها المهاجرون نتيجة سكناهم بين اخوانهم الانصار، اذ ان الانصاركانوا ينظرون اليهم نظرة الحليف، ولهذا اراد الرسول (ص) ان يبدل مفهوم الحلف بنظام جديد يساوي فيه بين اتباعه من المهاجرين والانصار»[1] ويلاحظ ان النبي (ص) قد انتبه الى هذا الامـر واكـده في بيعـة العقبـة الثـانية، اذ لم يشأ ان يدخل مع المهاجرين في الذمة فقال للانصار: «ابايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم»[2]وان الانصار قد قالوا: «لنمنعك مما نمنع منه ازرنا»[3]، لا بل انه قد اشترط عليهم ان يكونوا مسؤولين عن قومهم ويكون هو مسؤولا عن المهاجرين «انتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وانا كفيل على قومي»[4]

ويبـدو ان المؤاخـاة حدثت قبـل بدروفي المـدينـة بالذات[5] اما ما يقال عن المؤاخـــاة بين المسلمين في مكـــة اذ آخى النبي قبـل الهجـرة بين المسلمين على الحق والمـواسـاة كمؤاخـاتـه لعلي ومؤاخاة حمزةلزيد بن حارثة، ومؤاخاة عثمان بن عفـان لعبـد الـرحمن بن عوف وغيـرهم[6] فيرجح أنها قد وضعت فيما بعد لأسباب سيـاسيـة ولاعتبـارات تتعلق بالعلاقات الشخصية بين كل اثنين مذكورين في قائمة المؤاخاة بمكة اضافة الى ان الاسلام يجعل من المؤمنين كافة اخوة[7] مما ينفي ان تكـون المؤاخـاة قد وقعت بمكـة، وبـرغـم ان بعض المهاجرين كأبي بكرلـم يكونوا يعـانـون من ضـائقـة ماليـة حين غادروا مكة ذلك انه.. لما خرج رسول الله (ص)،

(١) د. خالد العسلي، نظام المؤاخاة في عهد الرسول (ص)، نظرة جديدة ص٣٦.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص٤٤٢.
(٣) المصدر نفسه، ق١، ص٤٤٢.
(٤) الطبري، تاريخ البسل والملوك، جـ١، ص٣٦٢ ـ ص٣٦٣.
(٥) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ١، ق٢، ص٩.
(٦) ابن حبيب، المحبر، ص٧٠ ـ ص٧١.
(٧) د. خالد العسلي، المرجع السابق، ص٣٠.

وخرج معه ابو بكر احتمل ابو بكر ماله كله، ومعه خمسة آلاف درهم او ستة آلاف، فانطلق بها معه»[1].

فان الجذر الاقتصادي في المؤاخاة واضح لاسيما بما يتعلق بأمر الميراث المنطلق من فهم الانصار لوراثة الحليف، ولذا نجد ان كثيرا من المؤرخين السابقين حين يتحدثون عن نظام المؤاخاة يربطونه بالميراث: «وآخى رسول الله (ص) بين المهاجرين على ان يتوارثوا دون ذوي الارحام»[2] ويبدو ان بعض الانصار قد طالب بحصته من الميراث بعد بدر. «فلما ان اصيب من اصيب ببدر، طلب اخوانهم الميراث»[3] فكان ان نزلت سورة الانفال التي حصرت المواريث بين ذوي الارحام دون المؤاخاة**«وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله. ان الله بكل شيء عليم»**[4]، ويظهر ان بعض المهاجرين قد بقوا ضمن نظام المؤاخاة وبعد الغاء الميراث، يسكنون في دور الانصار مما يعني ان المؤاخاة دون الميراث استمرت بين المسلمين[5].

من هذا نخرج بأن النبي (ص) قد اعتمد نظام المؤاخاة لانه اراد ان يجنب المهاجرين ما يخلقه الحلف في ظل مجتمع قبلي كانت النعرة البدوية فيه قائمة ولا أدل على ذلك من التوتر الذي اوشك ان يتفاقم في غزوة بني المصطلق حين

(١) ابن هشام، المصدر السابق، ق١، ص٤٨٨.

ويذكر البلاذري ان بعض المهاجرين «جعلوا يترافدون بالمال والظهر، انساب الاشراف، جـ١، ص٢٥٧، كما ان عثمان بن عفان هاجر ومعه سبعة آلاف درهم، انساب الاشراف، جـ١، ص٢٦١.

(٢) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص٢٧٠. ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ق٢، جـ١، ص٩. ابن حبيب، المحبر، ص٧١.

(٣) البلاذري، المصدر نفسه، جـ١، ص٢٧٠.

(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص٢٧٠. ابن سعد، المصدر السابق، ق٢، جـ١، ص٩ ابن حبيب، المصدر السابق، ص٧١.

(٥) الواقدي، المغازي، جـ١، ص٣٧٩.

ويبدو ان النبي (ص) قد خفف عن كاهل الانصار عندما أحس ان بعضهم «اشحاء على من نزل عليهم من المهاجرين» البلاذري، المصدر السابق، جـ١، ص٢٧٠، فاختط للمهاجرين دورا سكنوا اليها. وكانت من الاراضي التي ليست لاحد او مما اعطاه بعض الانصار.

اختصم مهاجر وانصاري وتعليق عبدالله بن ابي على ذلك بقوله: والله انا وقريشا كما قال القائل سمّن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الأذل»[1].

كان نظام المؤاخاة يعبر عن بصيرة النبي (ص) ومعرفته لقيم مجتمعه، ومع ان السبب الاساس فيه كان الرغبة في وضع المهاجرين في مصاف الانصار واستبدال رابطة الدم برابطة الاخوة في الدين. فان الجذر الاقتصادي فيه كان ظاهرا ايضا لا في حاجة بعض المهاجرين وفقرهم فحسب، وانما في مسألة مراعاة الفهم القبلي للميراث[2] الذي ابطل فيما بعد اثر معركة بدر، وهذا الامر يشير ضمنا الى ازدياد سلطة النبي (ص) وازدياد قوته اذ حصر الحكم في الخلافات بين المسلمين وغيرهم في شخصه الكريم[3]، وقد اشار ابو عبيد القاسم بن سلام الى ان الغاء المواريث قد أكد الاخوة بين المسلمين«فعاد المسلمون كلهم اخوة اولياء. كما قال الله تبارك وتعالى: انما المؤمنون اخوة»[4] مما يشير الى دقة اجراء النبي (ص) في اعتماد نظام المؤاخاة الذي اراد من خلاله ان يضعف النزعة القبلية وما يترتب عليها من قيم، مستبدلا اياها بتنظيم يقر وحدة الجماعة ويهدف الى تآزرها في اخوة جامعة.

ب ـ الاسس الجديدة بشأن الميراث:

يبدو ان النبي (ص) سعى من خلال النص القرآني، الى تنظيم الميراث كي يحول دون حصول الاقوياء على الثروة ضمن القبيلة كما كان متبعا قبل الاسلام، والى ان توزع الثروات توزيعا عادلا بحيث لا تنحصر في وارث واحد، ونحن نجد ان المؤاخاة بين المهاجرين والانصار كانت قد اقرت التوارث فيما بينهم، وان الميراث قد ابطل بعد بدر وحصر في ذوي الرحم[5].

(١) هبة الله ابو البقاء، المناقب المزيدية في اخبار الملوك الاسدية، ص٣٥. ابن هشام، السيرة النبوية. ق٣، ص٣٣٤.

(٢) «كان الرجل يحالف الرجل وليس بينهما نسب فيرث احدهما الاخر» سنن ابي داؤد، جـ٣، ص١٧٤.

(٣) د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص٢٠.

(٤) ابن سلام، الاموال، ص٢١٧.

(٥) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص٢٧٠. ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ق٢، جـ١، ص٩. ابن حبيب، المحبر، ص٧١.

وفي البداية ترك الامر للشخص الذي تحضره الوفاة كي يترك وصية بحيث يشمل المال الوالدين والاقربين «كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين»[1]. ثم اكد القرآن الكريم ضرورة ان ترث النساء، دون ان يحدد مقدار الميراث، فقال تعالى: «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه او كثر نصيبا مفروضا»[2] وأخيراً حدد القرآن الكريم مقدار الارث الذي يأخذه الذكر والانثى، فقال تعالى: «يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد . .»[3] ويشير احد الباحثين الى ان الابن الاكبر في الشريعة اليهودية كان يأخذ ضعف اخيه، على حين لم يكن للبنت من نصيب[4]، والفكرة الشائعة تذهب الى القول، ان العرب قبل الاسلام كانوا لا يورثون البنت «ان جميع أعمال الجبال وجميع اهل البوادي والبدو وتهامة ونجد يزوجون بناتهم ولا يورثون البنت شيئاً»[5] وأجدني موضع خلاف في هذا الشأن اذ يبدو انه قد وجد في العرب من اورث البنت وشابه في ذلك الاسلام «فورث ذو المجاسد وهو عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر ماله لولده في الجاهلية للذكر مثل حظ الانثيين»[6]. وعلى المستوى العقلي نستطيع ان نرجع اموال السيدة خديجة بنت خويلد (رض) الى الارث، فهذه السيدة الكريمة كانت قد تزوجت قبل النبي (ص) من النباش بن ابي زرارة وعتيق بن عائد المخزومي، وكانت امرأة تاجرة يتجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم[7] ولابد

(١) سوره البقرة، الاية ١٨٠.

(٢) سورة النساء، الآية ٧.

(٣) سورة النساء، الأية ١١ . . ويمكن لمن يريد معرفة احكام الميراث ان يراجع سورة النساء التي كانت شاملة لذلك.

(٤) ابو اليقظان عطية فرج، حكم الميراث في الشريعة الاسلامية، ص١٥.

(٥) ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ص٢٢٩.

(٦) ابن حبيب، المحبر، ص٢٣٦ ـ ص٢٣٧. وكذلك ترد في ص٤٣٤.

(٧) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص٢٨٠. ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ١، ق١، ص٨٤.

ان يكون اصل مالها وراثة عن زوجها وعن ابيها الذي مات قبل حرب الفجار[1] مما يشير الى أن المرأة كانت ترث حتى وان وجد في عائلتها قريب لها كالعم مثلا وهو ما حصل بالنسبة للسيدة خديجة (رض)[2].

ويظهر ان هدف توريث البنات، كان تأكيدا لحق المرأة في الارث ورفضا لاستضعافها وهضم حقوقها فقد اتفقت الروايات على ان سبب وراثة البنات، كانت حادثة واقعية صارت اشبه بمعضلة امام النبي (ص) فكان ان نزلت آية الميراث كي تقف ضد استئثار الاقوى بالميراث «جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد الى رسول الله (ص)، فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل ابوهما معك يوم احد شهيدا وان عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا تنكحان الا ولهما مال، قال يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث، فبعث رسول الله (ص) الى عمهما، فقال: اعط ابنتي سعد الثلثين، واعط امهما الثمن، وما بقي فهولك»[3].

وفي نفس الاتجاه الذي سعى الى عدم هضم حقوق المرأة، استنكر الاسلام والغى وراثة النساء كرها اذ «كان النساء في الجاهلية وفي صدر الاسلام تورث كالمال بعد موت ازواجهن فكان الرجل من عصبة الميت اذا القى ثوبه على امرأة قريبة له دخلت في حوزته، فله ان يتزوجها من غير صداق، اويزوجها ويأخذ صداقها، اويمنعها الزواج حتى تعطيه مالا ترضيه به، اوتموت فيرثها»[4]. فنزلت آية قرآنية كريمة تحرم هذا النوع من الارث: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها»[5]

من هذا نخلص الى ان معالجة النبي (ص) للارث كانت تدريجية، وكانت تتوخى اقرار العدالة بين ابناء العائلة الواحدة واعطاء المرأة حقها من ذلك، اضافة الى تفتيت الثروة ووضعها في يد اكبر عدد ممكن من الناس للانتفاع بها مما يحول

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص٢٧٨.
(٢) المصدر نفسه، جـ٢، ص٢٨٢.
(٣) سنن الترمذي، جـ٣، ص٤١٤.
(٤) مجمع اللغة العربية، معجم الفاظ القرآن الكريم، ص٧١٨.
(٥) سورة النساء، الآية ١٩.

دون نمو الثروات الواسعة، ويحاول ان يمنع التفاوت بين الفئات الاجتماعية، ويظهر ان الاعتراض على توريث النساء كان بسبب عدم قدرتهن على القتال اضف الى ذلك ان عدم حقهن في الغنيمة كان يعود الى كون انها قد جاءت من خلال قتال الرجال.

جـ - اعطاء المهاجرين الفقراء من اموال بني النضير:

عندما غنم النبي (ص) اموال بني النضير، كان يدرك ان المهاجرين في وضع مادي دون وضع الانصار، ولانه كان يريد ان يحقق التوازن في توزيع الثروة فقد ارتأى ان يعطي المحتاجين من المسلمين الذين تمثلوا في المهاجرين، ولذا فقد عرض الفكرة على الانصار. ووفقا لرواية الواقدي وافق الانصار على ذلك[1] وقد قسمها النبي (ص) «فيمن اراه الله عز وجل من المهاجرين الاولين»[2] وشمل التوزيع اثنين من فقراء الانصار «الا ان سهل بن حنيف وابا دجانة سماك بن خرشة ذكرا فقرا، فاعطاهما رسول الله (ص)»[3].

ولعل هذا الاجراء لم يلق ترحيبا لدى بعض الانصار، فنزلت آية قرآنية كريمة تؤكد صواب اجراء النبي (ص) المنبثق عن ارادة الله تعالى في اهمية ان يعطي المال للمحتاج والا يتركز في يد فئة مستأثرة: «ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم، وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله ان الله شديد العقاب»[4].

(١) الواقدي، المغازي، جـ١، ص٣٧٩، لقد اوردنا نص الرواية عند حديثنا عن المؤاخاة في الفقرة السابقة.
(٢) عروة بن الزبير، مغازي رسول الله (ص)، ص١٦٧.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص١٩٢.
(٤) سورة الحشر، الآية ٧.

د ـ توجيهات الرسول (ص) بشأن اهل الصفة:

نتج عن هجرة المسلمين الى المدينة، ظهور عدد من فقراء المهاجرين الذين لم يكونوا يمتلكون ما يقيم اودهم او يجدوا سكنا يركنون اليه، فكان ان «بنيت صفة في المسجد لضعفاء المسلمين»[1] اوى اليها الفقراء ممن لا منازل لهم[2].

ويظهر ان الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لاهل الصفة، اتسمت بالصعوبة وقد روى ابو هريرة (رض) وكان منهم رواية تبين صعوبة حياتهم، فقال: «. . رأيت سبعين من اهل الصفة يصلون في ثوب فمنهم من يبلغ ركبتيه ومنهم من هو اسفل من ذلك فاذا ركع احدهم قبض عليه مخافة ان تبدو عورته»[3] وقد قال واثلة بن الاسقع ما يؤيد ذلك «كنت من اصحاب الصفة، وما منا انسان يجد ثوبا تاما. قد جعل الغبار والعرق في جلودنا طرقاً»[4] ولذا وصف اهل الصفة بانهم اهل الحاجة[5] وكانت الصفة قد ضمت شخصيات اسلامية كان لها شأنها، مثل عمار وسلمان[6] وابي ذر[7] وابي هريرة[8] ونرى ان الحالة الاجتماعية، وربما الشخصية لاهل الصفة قد حالت دون سكنهم في دور الانصار اسوة بسكن بعض المهاجرين في دور الانصار بعد المؤاخاة، ويتضح ان النبي (ص) قد اولى اهمية لاهل الصفة وسعى جاهدا لتأمين معيشتهم. فقد كانوا يشكون اليه سوء حالهم. . «كنت في محرس يقال له الصفة ونحن عشرون رجلا، نابنا جوع، وكنت احدث اصحابي سنا،

(١) السمهودي، وفاء الوفا، جـ١، ص٣٢٢.

الصفة: «بضم الصاد وتشديد الفاء، ظلة في مؤخر مسجد النبي (ص) يأوى اليها المساكين واليها ينسب اهل الصفة على اشهر الاقاويل» السمهودي نفس المكان، ص٣٢١.

(٢) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص٢٧١.

(٣) ابن حنبل، كتاب الزهد، ص٧. ابن النجار، الدرة الثمينة، ص٧١ ـ ص٧٢.

(٤) المصدر السابق، جـ١، ص٢٧٢.

(٥) ابن حجر، الاصابة في تمييز الصحابة، جـ٢، ص٢٣٥ ـ ص٢٦٤.

(٦) السمهودي، وفاء الوفا، جـ١، ص٣٢٢.

(٧) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص٢٧٢.

(٨) ابن حنبل، كتاب الزهد، ص٧.

فبعثوني الى النبي (ص) اشكو جوعهم[5] ولذا فقد امر النبي (ص) «من كل حائط بقنو يعلق في المسجد»[2] كي يوفر لهم الطعام، وكان يشركهم في الخبز واللبن المخصص له[3] ويدعوهم الى طعامه ليلا[4] كما كان بعض الانصار وقادتهم كسعد بن عبادة يضيفون اهل الصفة فرادى ومجاميع[5].

كانت علاقة النبي (ص) باهل الصفة قوية فقد كان يجالسهم ويتدارس معهم شؤون دينهم فكان ان اصبحوا اكثر من غيرهم، دراية في امور الدين ومعرفة لشخص النبي (ص)[6] ويعزز ذلك ان احد المسلمين جاء الى طلحة بن عبيدالله وقال له ان ابا هريرة، يحدث عن النبي (ص) اكثر مما يحدث طلحة، فأوضح طلحة قائلا: «.. اما ان قد سمع من رسول الله (ص) مالم نسمع، فلا اشك، وساخبرك: انا كنا اهل بيوت، وكنا انما نأتي رسول الله غدوة وعشية وكان مسكينا لامال له، انما هو على باب رسول الله (ص)، فلا اشك انه قد سمع مالم نسمع»[7].

ونرى ان مخالطة النبي (ص) لاهل الصفة وتعاطفه معهم، قد عزز طابع الزهد عند بعضهم بحيث اصبح اتجاها له في المرحلة المقبلة بعد وفاة النبي (ص) فتشكل فيما بعد اتجاه زاهد في الثروة والمغريات المادية وتوفر على اهداف اجتماعية على حين تكيف آخرون من اهل الصفة للتحولات الجديدة وشكلوا اتجاهاً لا يرى تعارضاً بين الاسلام والتنعم بنعم الحياة، وربما كان المنحنى الشخصي في حياة عمار بن ياسر وابي ذر وسلمان وابي هريرة، يوضح الاتجاهين اللذين كان لهما اثرهما في المرحلة التي اعقبت وفاة النبي (ص) وفي زمن عثمان (رض) تحديدا.

---

(١) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص٢٧٢.
(٢) السمهودي، وفاء الوفا، جـ١، ص٣٢٥.
(٣) المصدر السابق، جـ١، ص٢٧٢.
(٤) ابن النجار، الدرة الثمينة، ص٧١ ـ ص٧٢.
(٥) ابن حجر، الاصابة في تمييز الصحابة، جـ١، ٣٠.
(٦) المصدر نفسه، جـ٤، ص٢٠٦.
(٧) الذهبي، سير اعلام النبلاء، جـ١، ص٢٤.

هـ ـ تعزيز الوضع المادي للمؤلفة قلوبهم :

قسم النبي (ص) غنائم هوازن في قريش وفي قبائل العرب واكثر العطايا لاهل مكة[1] وقد اعطى زعماء مكة او الذين دخلوا في الاسلام حديثا واطلق عليهم المؤلفة قلوبهم ما بين ١٠٠ الى ٥٠ ناقة[2]، ومع ان هذا الاجراء خلق عدم راحة بين صفوف الانصار وقادتهم[3] الّا انه كان اجراءا بارعا يدل على مهارة النبي (ص) السياسية، فهو من جهة قد كسب هؤلاء القادة وعشائرهم بعد ان برهن لهم انهم سيجدون خيرا في الاسلام فاندفعوا نحوه، ويقدم لنا صفوان بن امية وهو احد المؤلفة قلوبهم ما يؤيد ذلك. . كان محمد من اكره الناس الى قلبي، فلما منحني هذا العطاء اصبح اقرب الناس الى قلبي»[4] ومن جهة اخرى كان هذا الاجراء حافزا لبقية شيوخ القبائل العربية الاخرى كي تتجه الى الاسلام بعد ان رأت روح السماحة والكرم عند النبي (ص) والواقع ان النبي (ص) قد استعان بخبرات بعض المؤلفة قلوبهم، فقد استخدم ابا سفيان عاملا على صدقة نجران مثلا[5].

ويظهر ان منح النبي (ص) المؤلفة قلوبهم من الغنيمة، قد جوز لمن بعده من الخلفاء حق المنح «كما يجوز ان يفضل ـ المقصود الامام ـ بعض الغانمين على بعض للمصلحة. . ويدل عليه اعطاء النبي (ص) المؤلفة من غنائم حنين، وكان شيئا كثيرا لا يحتمله الخمس»[6] اي صار بامكان الخليفة فيما بعد ان ينهج نفس التقليد في اعطاء وفي منح من يرى فيه الصلاحية من المسلمين.

(١) الواقدي، المغازي، جـ٣، ص٩٥٦. الاصفهاني، الاغاني، جـ١٣، ص٦٩.

(٢) ابن حبيب، المحبر، ص٤٧٤، وفي نفس المكان ص٢٧٣ يقدم لنا ابن حبيب قائمة باسماء المؤلفة قلوبهم من قريش وغيرهم.

(٣) الواقدي، المصدر السابق، جـ٣، ص٩٥٧. الافهاني، المصدر السابق، جـ١٣، ص٦٩.

(٤) مونتجمري وات، محمد في المدينة، ص٥٢٤.

(٥) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص٥٢٩. الزبير بن بكار، الاخبار الموفقيات، ص٣٣٣.

(٦) ابن رجب، الاستخراج لاحكام الخراج، ص٢٧.

و ـ حرمان البدو من الغنيمة :

اتخذ الاسلام من الاعراب «البدو» موقفا متشددا تجلى في قوله تعالى : «الاعراب اشد كفراً ونفاقا وأجدر الاّ يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله»[1]، ولعل موقف النبي (ص) لم يكن اقل تشددا من ذلك لادراكه ان البداوة تجعل من الانسان خارجا على روح الجماعة ومحبا للتسيب، متهربا من المركزية ذات الطابع التوحيدي، والحق ان الاعراب كانوا مصدر ازعاج النبي (ص) فعلى سبيل المثال كانوا قد خذلوه عندما توجه نحو مكة في الحديبية، اذ تخلف عنه اعراب مزينة وجهينة وبكر[2]، ولذا اتخذ موقفا صارما منهم حين ارادوا مشاركة المسلمين في فتح خيبر طمعا في الغنائم «فقالوا نخرج معك الى خيبر، انها ريف الحجاز طعاما وودكا واموال، فقال رسول الله (ص): لا تخرجوا معي الا راغبين في الجهاد، فاما الغنيمة فلا»[3] ولذا فقد حرم الاعراب من غنيمة خيبر وقسمها بين من حضر الحديبية من المسلمين «لم يضرب النبي (ص) في خيبر لاحد من غير اهل الحديبية الا لاصحاب جعفر الذين كانوا معه بأرض الحبشة»[4] ويلاحظ ان موقف النبي (ص) الحازم من الاعراب كان يشمل البدو المنقطعين عن الناس والبعيدين عن المدينة. اما البدو الذين سكنوا في الاطراف التي تجاور المدينة وتجاوبوا مع الاسلام ولبّوا دعوة الجهاد، فكان تعامله معهم مختلفا اذ قال لعائشة (رض) عن بدواهدوا له لبنا فشربه وكانت العادة ألا يتقبل النبي (ص) هدية من البدو[5]«يا عائشة ليسوا باعراب، هم اهل باديتنا، ونحن اهل حاضرتهم، فاذا دعوا أجابوا فليسوا باعراب»[6] اي ان تلبية الدعوة للجهاد كانت هي التي تقرر الموقف من الاعراب.

(١) سورة براءة، الآية ٩٧.

(٢) الواقدي، المغازي، جـ٢، ص٦٢٠.

(٣) المصدر نفسه، جـ٢، ص٦٣٤.

(٤) ابن آدم، الخراج، ص٤٢.

(٥) ابن حجر، الاصابة في تمييز الصحابة، جـ٤، ص٤٦٣.

(٦) ابن سلام، الاموال، ص٢١٩. ويورد ابن آدم في الخراج ص١٩ انه «قد جاء عن رسول الله (ص) في اعراب المسلمين: انه ليس لهم في الفيء والغنيمة شيء الاّ ان يجاهدوا مع المسلمين، فمن لم يجاهل مع المسلمين ولم يك فقيرا او شغل بتجارة اوعمل غير ذلك، فلا شيء له في الغنيمة والفيء الا ان تصيبه حاجة فيدخل مع اهل الحاجة».

ويؤكد هذا الاتجاه تفسير النبي (ص) لقوله تعالى: «ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون»[1] «هم الجفاة من بني تميم»[2].

وفي ضوء ذلك حرم النبي (ص) الاعراب من الغنيمة الا ان يسهموا مع بقية المسلمين في الدفاع عن سيادة الدولة العربية الاسلامية، فقد اوصى الاّ «يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء الاّ ان يجاهدوا مع المسلمين»[3] فالنبي (ص) كان يشجع على خلق قيم تهذب طباع الاعراب وتحد من فرديتهم. وكان يسعى الى تعميق روح الاحساس بالولاء للامة عندهم واضعاف العصبية القبلية. ولذا كان حرمانهم من الغنيمة اجراءا سليما، لان من لا يدافع عن وحدة الجماعة ويشارك في تكوين الامة المجاهدة لا يحق له أن يأخذ من خيرات الامة والجماعة.

ز ـ اخذ خمس غنائم الغزو من القبائل العربية:

كان النبي (ص) يشترط في معاهداته مع القبائل العربية ان يؤدوا له خمس الغنائم المتأتية عن الغزو. وهذا الخمس هوغير الصدقة التي كانت واجبة هي الاخرى. فقد كتب الى الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والى النعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر انهم قبلوا على انهم جدد.. «ان اصلحتم واطعمتم الله ورسوله، واقمتم الصلاة. واتيتم الزكاة، واعطيتم من المغانم خمس الله، وسهم نبيه وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة»[4] واشترط على بني الحارث بن كعب ان يؤدوا الصدقة وخمس المغانم[5].

(١) سورة الحجرات، الآية ٤.
(٢) ابن حجر، الاصابة في تمييز الصحابة، جـ٢، ص٣٠.
(٣) ابن سلام، الاموال، ص٢١٢.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص١٢١.
(٥) المصدر نفسه، جـ٣، ص١٢٩. ويورد الاصفهاني في جـ١٩، ص١٥٨ من الاغاني «.. هذا كتاب من رسول الله لبني زهير... انكم ان شهدتم ان لا اله الا الله واني رسول الله واقمتم الصلاة واتيتم الزكاة وفارقتم المشركين واعطيتم الخمس من الغنائم وسهم النبي والصفي فانتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله».

وكتب رسول الله (ص) لعبد يغوث بن وعلة الحارثي: ان له ما اسلم عليه من ارضها - يعني نخلها - ما أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأعطى خمس المغانم في الغزو. [1]» واشترط نفس الشرط على بني الحرقة وبني الجرمز من جهينة[2] وأمر ان يؤخذ من نهشل بن مالك من باهلة «من المغنم خمس الله وسهم النبي»[3] كما اشترط على وفد عبد القيس ان يؤدوا «خمس الخمس»[4] ويبدو ان اخذ خمس الغنائم من القبائل العربية كان غير اخذ الصدقة منهم، وربما تصور الاعراب ان اخذ الخمس منهم بمثابة اتاوة كما سنرى في التطورات الخاصة بالردة، مما يعني ان اخذ خمس الغنائم كان قد خلق عدم راحة عند البدو الذين ربما عدوه امعانا في فرض سلطة مركزية عليهم تضافرت مع الصدقة على خلق توتر أفضى كأحد الاسباب الى الردة، وذلك ما سنبحثه في الفصل القادم.

ح - اعادة القبائل العربية المهاجرة الى اماكنها الاولى:

كان الاسلام ملبيا لحاجة البيئة العربية، فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي وعبر عن حياة العرب. والنبي (ص) والامة التي وجدت فرصتها التاريخية في الاسلام وكانت مادته الاساس، عربية ايضا، ونظرا لوجود هذا البعد القومي في الاسلام، فقد كان سعي النبي (ص) لتكوين الجماعة الواحدة، والامة الواحدة، ينطلق من الاعتبارات القومية الخاصة للاسلام في تلك المرحلة التاريخية. ومن هنا وكما بيّنا في الفقرة الخاصة بحرمان النبي (ص) الاعراب من الغنيمة، عمل النبي (ص) على تشجيع الهجرة الى المدينة، لان الهجرة كانت تعني تكوين المجتمع الجديد، الذي يتركز على التحضر والاستقرار ومفارقة النزعات الفردية، ويشكل القوة التي تذود عن الدولة العربية الاسلامية.

(١) د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص١٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٢١٦ - ص٢١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٤٥.

(٤) ابن سلام، الاموال، ص١٢.

ويجب ان نلاحظ في هذا الصدد بأن الغزو ماكان ليتم دون موافقة النبي (ص)، وفي ضوء ذلك فان القبائل العربية التابعة لسلطة المدينة تخضع للاحكام العامة في مجال توزيع الغنائم والفيء، ويبدو ان الخصوصية الوحيدة هنا هي ان هذه القبائل لم تستوعب بعد روح النظام.

ويبدو ان الهجرة قد ازدادت الى المدينة اذ يقدم لنا السمهودي تفصيلات عن منازل القبائل العربية المهاجرة ويعلق على ذلك: «ومن تأمل ما ذكر في دور المهاجرين ومنازل القبائل منهم مع ما سبق في منازل الانصار رأى امرا عظيما فيما كان من عمارة المدينة وسعتها واتصال بعضها ببعض»[١] فعلى سبيل المثال جاءت اشجع الى المدينة في سبعمائة رجل[٢] ولعل هذه الزيادة في عدد المهاجرين كانت اكبر من طاقة المدينة على اعاشتهم مما حدا بالنبي (ص) ان يعيد بعض القبائل العربية المهاجرة الى اماكنها الاولى «كان اول من وفد على رسول الله (ص) من مضر اربعمائة من مزينة وذلك في رجب سنة خمس فجعل لهم رسول الله (ص) الهجرة في دارهم وقال انتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا الى اموالكم فرجعوا الى بلادهم»[٣].

ويظهر ان تشجيع القبائل على الهجرة الى المدينة، كان في السنوات الاولى من الهجرة النبوية، وان الاعداد قد ازدادت مما خلق مشكلة اقتصادية ومشكلة في السكن فيما بعد وخاصة عندما قويت شوكة المسلمين، وقد عالج النبي (ص) هذه المشكلة حين تفاقمت ولاسيما بعد فتح مكة بأن ابطل الهجرة الى المدينة، فقال: «لا هجرة بعد الفتح»[٤] كي يحد من توجه المسلمين الى المدينة ويتلافى الصعوبات الناشئة في المجال الاقتصادي والاجتماعي عن الهجرة، واقفال طريق الهجرة لم يلغ دور المجاهدين في الدفاع عن الامة. اذ ان النبي (ص) قال: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار»[٥] وقال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، واذا استنفرتم فانفروا»[٦] اي ان الهجرة ربطت بالجهاد ولم تشمل الهجرة الى المدينة كما كانت سابقا.

---

(١) السمهودي، وفاء الوفا، جـ١، ص٥٤٧ ـ ص٥٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٥١.

(٣) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ١، ق٢، ص٣٨.

(٤) ابن سلام، الاموال، ص٢١٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٢١٩، ابن حجر، الاصابة في تمييز الصحابة، جـ٣، ص٣٧٣.

(٦) ابن سلام، المصدر نفسه، ص٢١٨.

الفصل الثالث

الفصل الثالث:

التحولات الاقتصادية في مرحلة التنظيم:

١ـ وفاة النبي والابعاد الاقتصادية لحركة الردة
٢ـ حروب التحرير العربية الاسلامية:
أ ـ أسباب الحروب
ب ـ لمحة عن حالة البلاد المحررة من الناحية الاقتصادية
٣ـ الموارد المالية بعد حروب التحرير العربية الاسلامية:
أ ـ الغنائم
ب ـ الجزية
جـ ـ الخراج
د ـ العشور وضرائب الصناعة
هـ ـ الصدقة (الزكاة)
٤ـ التحولات والاصلاحات الاقتصادية الناجمة عن التحرير الاسلامي:
أ ـ القطائع والارض الزراعية
ب ـ الرقيق والرفق بالفلاحين
جـ ـ الديوان والعطاء
د ـ تطور الامصار والبلدان المحررة في المجال الاقتصادي
هـ ـ التجارة وايقاف تسرب الذهب والفضة
٥ـ اثر التطورات الاقتصادية على الاوضاع السياسية في الدولة العربية الاسلامية:
أ ـ الوضع الاجتماعي للقادة والولاة واجراءات عمر للحد من الثراء
ب ـ عمر وتيار الزهد
جـ ـ منع قريش من الهجرة الى الامصار
د ـ التطور الذي حصل بشأن اموال النبي
هـ ـ التطور الاقتصادي وازدياد عدد سكان المدينة

١ ـ وفاة النبي والابعاد الاقتصادية لحركة الردة :

كانت ردة كثير من القبائل العربية . واحدة من اصعب المشاكل التي واجهت الدولة العربية الاسلامية زمن ابي بكر بعد وفاة النبي (ص) واذا كانت مشكلة الحكم ومن يخلف النبي (ص) قد حسمت بسرعة بانبثاق منصب الخلافة ودونما اراقة دم ، فان اخماد حركات الردة قد تطلب زمنا وتضحيات في الاموال والانفس في ذات الوقت .

نرجح ان دوافع الردة متعددة ، ولكننا سنركز على السبب الاقتصادي لانه محور بحثنا مع الاشارة الى الاسباب السياسية والعصبية والقومية في حركة الارتداد التي سنتطرق اليها ضمن سياق البحث .

يبدو أن السبب الاقتصادي كان مهما في الردة فكثير من القبائل العربية قد امتنعت عن دفع الزكاة[١] ومع ادراكنا للفكرة التي ترى بأن قطع صلة هذه القبائل بسلطة المدينة سياسيا ترتب عليه امتناعها عن دفع الزكاة[٢] الّا انه وجدت قبائل كثيرة كانت تشترط اسقاط الزكاة عنها على ان تظل ضمن سياسة دولة المدينة واقامة طقوس الاسلام الاخرى ، فقد جاءت قبائل تعد في حدود اثنتي عشرة قبيلة كبيرة في شمال المدينة وفي شمال غربها وشرقها وسن بينهم اسد وغطفان وعبس وذبيان[٣] ترجو اعفاءها من الزكاة «وقد بعثوا وفودا فقدموا المدينة . فنزلوا على وجوه الناس ، فانزلوهم ما خلا عبّاسا فتحملوا بهم على ابي بكر ، على ان يقيموا الصلاة وعلى ان لا يؤتوا الزكاة ، فعزم الله لابي بكر على الحق وقال : والله لومنعوني عقالا لجاهدتهم عليه»[٤] ويظهر ان السبب الاقتصادي ، كان المحرك الاساس لحركة الارتداد وان القبائل قد عدتها إتاوة اذ «نزل عمرو بن العاص منصرفة من عمان ـ بعد وفاة رسول

(١) خليفة بن خياط ، تاريخ ، جـ١ ، ص٦٦ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ص١٧٠ .
المـاوردي ، الاحكام السلطانية ، ص٥٧ . المقدسي ، البدء والتاريخ ، جـ٥ ، ص١٥١ ، الكامل ، المبرد ، جـ١ ، ص٣٩٢ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٠٣ .
(٢) د. عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ص١٤٦ . علي عبد الرازق الاسلام ، واصول الاحكام ، ص١٧٨ .
(٣) الكلاعي ، تاريخ الردة ، ص٥ .
(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٣ ، ص٢٤٤ ، ص٢٤١ .

الله (ص) ـ بقرّة بن سلمة بن قشير وحوله عسكر من بني عامر من افنائهم. فذبح له واكرم مثواه، فلما أراد الرحلة خلابه قرّة، فقال: يا هذا ـ ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة، فان انتم اعفيتموها من اخذ اموالها فستسمع لكم وتطيع، وان ابيتم فلا أرى ان تجتمع عليكم»[١] وقد نصح ابو ايوب الانصاري الخليفة ابا بكر بقوله: «فلو صرفت عنهم الخيل في عامك هذا وصفحت عن اموالهم لرجوت ان ينيبوا الى الحق وان يحملوا الزكاة اليك بعد هذا العام طائعين غير مكرهين»[٢] واذا كانت هذه القبائل قد وجدت في الزكاة اتاوة فلابد انها قد استثقلت اعطاء خمس الغنائم الذي كان النبي يشترط عليهم اداءه، وقد تداخل السبب الاقتصادي والقبلي والنقمة على قريش في هذه الحركة ايضا فمسيلمة يخاطب قومه قائلا: «اريد ان تخبروني بماذا صارت قريش احق بالنبوة والامامة منكم، والله! ما هم باكثر منكم ولا انجد، وان بلادكم لاوسع من بلادهم واموالكم اكثر من اموالهم. .»[٣] وقد كتب الى النبي (ص) يطلب مشاركته في الارض والنبوة قائلا: «من مسيلمة رسول الله، الى محمد رسول الله: سلام عليك، اما بعد فاني قد اشركت في الامر معك، وان لنا نصف الارض، ولقريش نصف الارض، ولكن قريشا قوم يعتدون»[٤] فأجابه «من محمد النبي الى مسيلمة الكذاب، اما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.»[٥]

ويروى انه قد قال له: «والله لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك!»[٦]، ويتجسد موقف بعض القبائل المرتدة من قريش من جهة واعتبار

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٢٥٩.

(٢) ابن اعثم الكوفي، كتاب الفتوح، جـ١، ص٧١.

(٣) المصدر نفسه، جـ١، ص٢٤.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص٦٠٠.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص٩٨.

(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص١٣٧. ابن هشام، المصدر نفسه، ق٢: ص٥٧٦. ويعلق مونتجمري وات على ردة مسيلمة قائلا: «يتضح ان تعاليم مسيلمة تحاول اقامة اساس ديني وفكري لامارة مركزها اليمامة، مستقلة عن فارس وبيزنطة والمدينة، ويقول تعليم غريب، وهو انه لا يجوز للرجل ان يتصل بامرأة اتصالا جنسيا طالما ان له ابناء على قيد الحياة، وربما كان هذا التعليم للمساعدة على اقامة اساس اقتصادي للامارة، فلقد كان لزوال التجارة بين اليمن وفارس نتائج وخيمة في اليمامة»، محمد في المدينة، ص٢٠٥.

الـزكـاة عبـوديـة في قول احد شعراء كندة: «. . والله ما نحن الا كعبيد لقريش! مرة يوجهـون الينـا اميـة فيأخذون من اموالنا ما يريدون ومرة يولون علينا مثل زياد بن لبيد فيأخـذ من امـوالنـا ويهـددنـا بالقتل، والله لاطعمت قريش في اموالنا أبدا! ثم انشأ يقول ابياتا من جملتها:

اذا نحن اعطينـا المصـدق سؤله	فنـحـن له فيـمـا يريـد عبـيـد»[1]

ومما يعـزز ان الزكاة كانت وراء اغلب حركات الردة وان الموقف القبلي ضد قريش، تصرف قيس بن عاصم بن سنان بن خالد الذي كان «عاملا على صدقات بني سعد، فقسم ما كان في يده من اموال الصدقات على بني منقر، وقال:

فمن مبلغ عني قريشـا رسـالـة	اذا ما أتـتـهـا محـكـمـات الـودائـع
حبوت بما صدّقت في العام منقرا	وأيأسـت منـهـا كل أطـلس طامـع»[2]

ويبـدو ان بعض القبـائـل المرتدة بحكم نزعتها البدوية المفارقة للمركزية قد وجـدت في وفـاة النبي (ص) فرصـة للتحلل من التـزامـاتهـا تجـاه الـدولـة العربية الاسلامية، وقد تمثل هذا الفهم في قول الحطيئة:

اطعنـا رسـول الله اذا كان بيننا	فيـا لـهـفـتـا، ما بال ديـن ابـي بكـر:
أيـورثهـا بكـرا اذامـات بعـده	فتـلك وبـيـت والله قاصـمـة الظـهـر»[3]

(١) ابن اعثم الكوفي، كتاب الفتوح، جـ١، ص٥٩.
(٢) المبرد، الكامل، جـ١، ص٣٩٣.
(٣) المصدر نفسه، جـ١، ص٣٩٢ ـ ص٣٩٣.

ووجد بين حركات الردة، ما توفر على حس قومي ورغبة في طرد الاجنبي من البلاد كما حصل بالنسبة لردة الاسود العنسي في اليمن اذ كان منهاج عمله ان يطرد ابناء الفرس[1] الذين عدّهم دخلاء «ان الابناء نزاع في بلادكم، ونقلاء فيكم، وان تتركوهم لن يزالوا عليكم . . »[2] ولذا فانه فاتح شيوخ القبائل في اليمن ان يتحدوا لنفي الابناء[3] الذين كانوا قد جاءوا الى اليمن مع ابن ذي يزن وعليهم وهرز»[4] وقد خاطب العنسي الابناء قائلا: «ايها المتوردون علينا، امسكوا علينا ما أخذتم من ارضنا، ووفروا ما جمعتم فنحن اولى به وانتم على ما انتم عليه»[5].

ويلاحظ ان بعض حركات الردة قد ظهرت في زمن النبي (ص) مثل ردة طليحة[6] وردة مسيلمة[7] وان الذين ادعوا النبوة لم يكونوا ملحدين بل ادعوا انهم اصحاب رسالة، مما يشير الى ان الخلاف مع القبائل المرتدة كان يتضمن جانبا سياسيا لا دينيا[8] وكانت الردة تجسيدا للتصادم بين الاسلام والقبلية ولها اكثر من دلالة منها، رفض السلطة المركزية والطموح الى تكوين كيانات منافسة للامة[9]، اضافة الى توفر احداها على رغبة في طرد العنصر الاجنبي كما اوضحنا وقد كان القاسم المشترك الذي يجمع حركات الردة بشكل عام السعي للتحلل من الالتزامات الاقتصادية ازاء الاسلام، ولنا ان نشير الى ان «انهاء الردة، عنى توحيد العرب سياسيا وعقائديا في دولة واحدة وتحت قيادة واحدة[10] اوبعبارة اخرى انتصر التيار الموحد الجامع للامة والمحكوم بقيم جديدة على التيار البدوي المناهض لفكرة الجماعة والقائم على التسيب والعصبية والفردية المفرقة.

(١) ابن حبيب، اسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام، ص١٥١.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٣٢٣.
(٣) المصدر نفسه، جـ٤، ٣٢٤.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٤.
(٥) د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص٢٨٥.
(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٢٥٦.
(٧) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص٦٠٠.
(٨) د. محمد عمارة، الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية، ص٦٩.
(٩) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص١٤.
(١٠) المرجع نفسه، ص١٤.

٢ ـ حروب التحرير العربية الاسلامية :

اذا اردنا ان نتفهم طبيعة ودوافع حروب التحرير العربية الاسلامية، فلابد لنا من اعتماد منهج يأخذ بتعدد الاسباب، ذلك ان اي منهج آخر يقتصر في رأينا على ابراز سبب دون آخر سيتسم بنظرة أحادية جزئية وسيصادر بقية الاسباب الاخرى، مما يعني الوقوع في قبضة (الايديولوجيا) وليس الرغبة في تقديم الحقيقة التاريخية، فحروب التحرير العربية الاسلامية قد حكمتها عدة اسباب، منها الذاتي ومنها الموضوعي، فكان هنالك السبب الاقتصادي، وكان هنالك السبب المتسم بطابع الجهاد، على حين كانت هنالك أسباب قومية واخرى دفاعية في هذه الحروب، ومن هنا فسنبدأ ببحث كل سبب على حدة ومحاولة تلمس علاقته بالاسباب الاخرى مع الانتباه الى ان السبب الرئيس في ظل مرحلة معينة قد ينحسر ليصبح ثانويا في ظل مرحلة اخرى ليبرز سبب آخر اكثر فاعلية.

أ ـ اسباب الحروب :

كان السبب الاقتصادي عاملا مهما في هذه الحرب، واذا كانت الاسباب الاقتصادية مهمة في حياة الانسان، «والعوامل الاقتصادية ان لم تكن كل شيء في حياة البشر فهي شيء كبير وخطير، وان لم تكن المؤثر الاول فان لها على كل حال تأثيرا متبادلا وفي بعض الاحيان حاسما مع العوامل الاخرى»[1] فقد كانت مهمة في

(١) ميشيل عفلق، في سبيل البعث، ص١٦٣.

وقد اجمل د. الياس فرج اسباب حروب التحرير العربية الاسلامية بأن اخذ بمنهج يعتمد التعدد، فقال: «وهكذا فان العوامل الاقتصادية وفقر الجزيرة العربية، والعوامل السياسية المرتبطة بحاجات توطيد سيادة الدولة العربية الجديدة، وتحويل العرب عن التناقضات الداخلية التي أثارتها حروب الردة بعد وفاة الرسول (ص) والعوامل السيكولوجية المرتبطة بمشاعر الانتصار والتراث الذي انتقل من مرحلة الجاهلية، المتمثل بروح الفروسية والاستعداد الدائم للقتال في الحياة البدوية. . كل هذه العوامل وغيرها، قد اخذت في مرحلة الانتشار العربي موقع العوامل المساعدة والرديفة، للعامل الرئيس الاول الذي كان قد حول العرب الى مجاهدين في سبيل - ايديولوجية التوحيد»، مقدمة في دراسة المجتمع العربي والحضارة العربية، ص٧٧ ـ ص٧٨.

حروب التحرير العربية الاسلامية. فبعد الانتهاء من القضاء على الردة بدأ خالد بن الـوليـد يحث القبـائـل العربية على التقدم الى العراق «وقام خالد في الناس خطيبا يرغبهم في بلاد العجم، ويـزهـدهم في بلاد العـرب، وقـال: ألا ترون الى الطعام كرفع التراب، وبالله لولم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء الى الله عزوجل ولم يكن الا المعاش، لكان الرأي ان نقارع على هذا الريف حتى نكون اولى به، ونولي الجوع

والاقـلال من تولاه، ممن اثـاقـل عمّـا انتم عليـه»[1] ويـلاحـظ هنـا ترافق السبب الاقتصـادي مع السبب الـديني ـ الجهـاد ـ كمـا يتمثـل السبب الاقتصادي في قول البلاذري: «لما فرغ ابوبكر (رض) من امر اهل الردة رأى توجيه الجيوش الى الشام فكتب الى اهـل مكـة والطـائف واليمن، وجميـع العـرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهـاد ويـرغبهم فيـه وفي غنائم الروم، فسارع الناس اليه من بين محتسب وطامع وأتـوا المـدينـة من كل أوب»[2] وتكـرر نفس السبب في كتـاب له الى اهـل اليمن: «فسارعوا عباد الله الى فريضة ربكم والى احدى الحسنيين ـ اما الشهادة. واما الفتح والغنيمـة»[3]، وفي كلام ابي بكـر الوارد في النصين اللذين في اعلاه يقترن السبب الاقتصـادي بالسبب الـديني المتمثـل في الجهـاد، ونحن نجـد هذين السببين في تصرف ابي عبيد اذ لم يكن «يمر بقوم من العرب الاّ رغبهم في الجهاد فصحه خلق»[4] ويبـرز النـاس الى العراق فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه حتى هم ان يغزو بنفسـه، وقـدم عليـه من الازد يريـدون غزو الشـام فدعـاهم الى العراق ورغبهم في غنائم كسرى فردوا الاختيار اليه فأمرهم بالشخوص»[1].

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٣٥٤.
(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٥.
(٣) د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٢٥.
(٤) البلاذري، المصدر السابق، ص٢٥١. قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٣٥٧.
(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٥٣.

وتسعفنا احدى خطب عمر في تقرير فقر المؤمنين وحاجتهم حينذاك «يا معشر العـرب ان الله ايـدّكـم بالاسـلام، وألف بينكم بعد الفرقة، وأغناكم بعد الفاقة»[٢]، ونجد السبب الاقتصادي ايضا في فتح اصطخر[٣] وفي ضوء ما سبق نجد ان السبب الاقتصادي في حروب التحرير العربية الاسلامية، كان ظاهرا، الّا ان هذا لا يجب ان يدفعنا الى القول بأن «الحاجة المادية هي التي دفعت بمعاشر البدو واكثر جيوش الفتح منهم، الى ما وراء تخوم البادية القفراء الى مواطن الخصب في بلدان الشمال»[٤] اذ ان ما يضعف هذا الرأي اقراره بعامل احادي من جهة، واغفاله لبقية العـوامـل من جهـة اخـرى، فقـد رأينا ان السبب الاقتصادي كان يرافق الدعوة الى الجهـاد، ناهيـك عن وجـود السبب القـومي والـدفـاعي والاسبـاب الاخـرى التي سنتطـرق اليهـا في السطـور الآتيـة، فعلى مستوى الجهاد ليس لنا ان ننكر او نصادر رغبة المؤمنين فيه التي تصل احيانا الى رفض العمل في المجالات المادية فالنص الـذي يورده ابـو يوسف يشيـر صراحـة الى ان بعض المسلمين كان يهمهم الجهـاد بالدرجة الاولى «فدخل عمر الى المسجد فاذا هو بالنعمان بن مقرن يصلي، فقعد الى جنبه، فلما قضى صلاته قال: لا أراني الا مستعملك، قال اما جابيا فلا، ولكن غازيـا، قال انـك غاز»[٥] ويبـرز دور الجهـاد في قول رسـل المقـوقس له عن جنـد الاسلام، «قالوا رأينا قوما الموت احب الى احدهم من الحياة، والتواضع أحب اليه من الـرفعـة، ليس لاحـدهم في الـدنيـا رغبـة ولا نهمـة انما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم واميـرهـم كواحـد منهم ما يعـرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبـد، واذا حضـرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم احد يغسلون اطرافهم

(٢) الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٣٤.
(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص١٢٣.
(٤) فيليب حتي، تاريخ العرب ـ مطول ـ ص١٩٥.
(٥) ابو يوسف، الخراج، ص٣٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٠٠ ـ ص٣٠١.

بالمـاء ويخشعـون في صلاتهم»[1] وقد انتبه ابن خلدون الى دور الجهاد في حروب التحرير العربية الاسلامية فقال: «.. ان الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الـذي في اهـل العصبيـة وتفـرد الـوجهة الى الحق، فاذا حصل لهم الاستبصار في امـرهم لم يقف لهم شيء لان الـوجهـة واحـدة والمطلوب متساو عنـدهم وهم مستميتـون واهـل الـدولـة التي هم طالبـوهـا وان كانـوا اضعافهم فاغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وان كانوا اكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعـاجلهم الفنـاء بمـا فيهم من الترف والذل. كنا قدمناه وهذا ما وقع للعرب صدر الاسـلام في الفتـوحـات»[2] واذا سلمنا بجدل العلاقة بين السبب الاقتصادي والـديني نستطيـع ان نتبين الـدقة في كلام كلود كاهن عن هذه الحروب ولقد تألفت هذه الجيـوش ـ المقصـود الجيش العـربي الاسـلامي ـ من انصـاف الـرحل او من المتطـوعين عن ايمـان، وسرعان ما انتشر في نفوسهم الحماس الديني واستقر فيهم على حداثـة عهـدهم بالاسلام، وذلك بفضل الغنائم التي كانت تدر عليهم خيرات طائلة وتنهض دليلا على تأييد من عند الله»[3] ولنا ان نفترض بأن العرب المسلمين كانـوا يبحثـون عن فرصـة تحقق التكامل الاقتصادي بين الجزيرة العربية والاراضي المحـررة التي هي اراضي عربيـة محتلة من قبل الاجنبي، لان تكوين الامة ووجود دولة يتطلب تمتين الاساس المادي لها كي لا تظل تدور في فلك الاقتصاد الاجنبي الذي هيمنت عليه قوى اجنبية واستنزفت موارد الارض العربية.

ويبرز السبب القومي في حروب التحرير العربية الاسلامية واضحاً، فمن جهة حتم توحيد الجزيرة العربية بعد الردة الاصطدام بالخطر البيزنطي ـ الفارسي ـ[4] اذ كان الروم يتحشدون على الحدود ويسيطرون على عقدة المواصلات بين مصر والعراق[5] ومن جهة اخرى كان الفرس يظلمون عرب العراق «ثم ان الفرس

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص٦٥.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص١٥٨.

(٣) كلود كاهن، تاريخ العـرب والشعـوب الاسـلاميـة، ص٢٥. برنارد لويس، تراث الاسلام، جـ١، ص٢٦٦.

(٤) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص١٥.

(٥) د. نزار عبد اللطيف الحديثي، محاضرات في التاريخ العربي، ص١٣٦.

جعلت تتعدى على العرب وتؤذيهم غاية الأذى لسبب الملك انه فيهم»[1] وقد ترتب على هذا ان بدأ المثنى بن حارثة الشيباني يغير على السواد مع قبيلته قبل ان تبدأ حروب التحرير العربية الاسلامية بشكلها النظامي[2] وتوجه من قبل دولة المدينة ، والواقع ان الاصطدام بالفرس قد املى ضرورة انقاذ وتحرير عرب العراق من اضطهادهم إذ « تكاثرت الفرس عليهم حتى كادوا ان يجلوهم عنها . وبلغ ذلك ابا بكر (رض) فاغتم لذلك ولم يدر مايصنع ، فقال له عمر بن الخطاب : ياخليفة رسول! عندي رأي اشير به عليك ، فقال : وماذا يا أبا حفص؟ فقال : خالد بن الوليد قد فتح الله عز وجل على يديه اليمامة وهو مقيم بها مصاهرا .. فاكتب اليه ومره بالمسير الى العراق حتى يطأ لك الفرس بخيله ورجله .... المثنى بن حارثة واصحابه فلعل الله تبارك وتعالى يكفيك به امر الفرس ، قال : فقال له ابو بكر (رض) : هذا لعمري رأي»[3] والواقع ان السبب القومي القائم على وحدة العرب وادراكهم لاهمية الوحدة في انتصارهم يتجسد في قول عمر بن الخطاب (رض) للهرمزان : « انما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا!»[4] ان ما أوردناه يدلل على ان حس العرب بوحدتهم ورغبتهم في درء الخطر عن عرب العراق والشام كان محركاً مهماً في حروب التحرير العربية الاسلامية .*

ان العوامل السابقة في حروب التحرير العربية الاسلامية من جهاد ودوافع اقتصادية وضرورة ستراتيجية وقومية ، تشير الى خطأ الرأي القائل بأن الاسلام «قام بحد السيف وانتشر بين الشعوب عن طريق الانذار والوعيد»[5] فالقاعدة القرآنية .

(١) ابن اعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، جـ١ ، ص٨٩ .
(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٤٢ .
(٣) ابن اعثم الكوفي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص٩٠ .
(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ص٨٨ .
(*) لمزيد من الاطلاع على اثر العامل القومي في حروب التحرير العربية الاسلامية ، يراجع د. نزار عبداللطيف الحديثي ، محاضرات في التاريخ العربي ، ص١٣٧ ـ ص١٣٨ .
(٥) فان فلوتن ، السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية ، ص٥ ـ ص١٥ . ومقابل ذلك يقول غوستاف لوبون «ولم ينتشر الاسلام بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها . وبالدعوة وحدها اعتنقت الاسلام الشعوب» حضارة العرب ، ص١٦٢ .

تؤكد ان «لا إكراه في الدين» وتدعو الى المجادلة بالتي هي احسن، كما ان النبي (ص) كان «اذا بعث بعثا قال: تألفوا الناس وتأنوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الارض من اهل بيت، من مدر ولا وبر، الّا أن تأتوني بهم مسلمين، أحب اليّ من ان تأتوني بابنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم»[1] يؤيد ذلك ان العرب المسلمين لم يفرضوا الاسلام على اهالي البلاد المحررة من معتنقي الاديان الاخرى انسجاما مع القاعدة القرآنية واجراءات النبي (ص) في ترك نصارى تغلب ويهود وخيبر ومجوس البحرين على اديانهم، والاكتفاء بدفع التزامات مالية نظير الحماية وهو امر كان يعمل به قبل الاسلام وقبل حروب التحرير.

وهنالك رأي يذهب الى ان الغرض من حروب التحرير العربية الاسلامية، كان يستهدف رأب الصدع الذي جاء عن الردة عن طريق التوسع الى الخارج وذلك باشغال المرتدين بهذه الحروب والسعي لجعل مصالحهم متحدة بمصالح الاسلام[2] ونرى ان هنالك عدة اسباب تضعف هذا الرأي منها: أن الدعوة الى الجهاد اسبق من الردة تاريخيا، وان تحركات النبي (ص) نحو سوريا كانت قبل ذلك منطلقة من اعتبارات ستراتيجية تتعلق بأمن دولة المدينة، كما ان الذين اسهموا في حروب التحرير قبل عام ١٣هـ لم يكونوا من المرتدين اذ «لم يشهد الأيام مرتد»[3] استنادا الى توصية ابي بكر «ولا تستعينوا بمرتد في الجهاد»[4] ويعزز هذا الرأي ان الخليفة عمر بن الخطاب قد رفع الحظر عن اهل الردة للمشاركة في الفتوح بعد عام ١٣هـ اثر معركة الجسر[5] اضافة الى ان اهل المدن وليس المرتدين البدو، كانوا منظمي حملات الفتوح وقادتها، ويجب ان لا نغفل الفرق بينهم وبين القبائل الرحالة في الدوافع او في قوة الايمان والوعي»[6].

(١) الشيباني، شرح كتاب السير الكبير، جـ١، ص٧٩.
(٢) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص٢٣. جب، دراسات في حضارة الاسلام، ص٧.
(٣) الطبري تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٣٤٧
(٤) د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٠٥.
(٥) المصدر السابق، جـ٣، ص٤٦٤.
(٦) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص١٤.

ب ـ لمحة عن حالة البلاد المحررة من الناحية الاقتصادية :

لا يمكن لنا ان نعرف طبيعة التطورات الاقتصادية بعد حروب التحرير العربية الاسلامية، وتبين ما أحدثه العرب المسلمون في اقتصاد البلاد المحررة من حيث الاحتفاظ بنظم معينة وايجاد نظم اخرى تستمد اصولها من السوابق العربية الاسلامية، دون ان نقدم لمحة عن الاوضاع الاقتصادية للبلاد المحررة في الفترة السابقة لحروب التحرير.

كانت الاوضاع الاقتصادية للدولة الساسانية تعاني من اختناقات نتيجة الفوضى السياسية وطبيعة النظام الاقطاعي السائد. فقد كانت الحروب بين فارس وبيزنطة قد انهكت الدولة اقتصادياً[1] كما كان لطغيان دسائس البلاط والصراع على السلطة اثرهما في خلق فوضى سياسية ادت الى اهمال حالة البلاد الاقتصادية[2] وترتب على هذه الحروب بروز النسيطرة العسكرية «فعّد كل قائد اوحاكم الولاية التي يليها كأنها اقطاع وراثي»[3] ونظرا لهذه الحروب فقد اتسم توزيع وتحصيل الضرائب بالظلم والعسف ووجدت ضرائب استثنائية كان يتحملها بالدرجة الاولى سكان العراق[4] ويقدم لنا الدينوري رواية ذات طابع رمزي يكشف عن الظلم الذي كان يقع على الناس «وزعموا ان بنات آوى ظهرت بالعراق في آخر ملك انوشروان، وكانت سقطت اليها من بلاد الاتراك، واستفظع الناس ذلك، وتعجبوا منه، وبلغ ذلك كسرى فقال للموبذ: قد كثر تعجبي من هذه السباع التي غزت ارضنا. فقال الموبذ: بلغني ايها الملك فيما يؤثر من اخبار الاولين، ان كل ارض يغلب جورها

(١) الدينوري، الاخبار الطوال، ص٧٤ وما بعدها. المسعودي، التنبيه والاشراف، ص١٣٤، كرستنسن، ايران في عهد الساسانيين، ص٤٨٠. بتلر فتح العرب لمصر، ص٤٩. محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية، ص٣٤.

(٢) المعارف، ابن قتيبة، ص٦٦٤ ـ ص٦٦٧ الدينوري، المصدر نفسه، ص٧٤ ـ ص١١١. المسعودي، المصدر نفسه، ص٨٩ ـ ص٩٠ كرستنسن، المرجع نفسه، ص.٤٧٨، ص٤٧٩ . ص٤٨٠.

(٣) كرستنسن، المرجع نفسه، ص٤٨١.

(٤) كرستنسن، المرجع نفسه، ص١١٢.

عدلها تغزوها السباع[1] وتميز النظام الاجتماعي بالطبقية المقفلة وبالتمييز الشديد بين طبقات المجتمع ، اذ كان لكل انسان طبقته وعمله وحرم عليه ان يغيرهما[2] ومن هنا وجدت قوانين تحفظ شرف النسب في الاسرات النبيلة كما تحفظ اموالهم وتمنع الناس من شرائها[3] وتأكيدا لهذا التمييز فصل بين النبلاء والشعب بشكل محكم فكانت لكل منهما ـ المركب والملبس والمسكن والبستان والنساء والخدم»[4] ومقابل ذلك كانت حالة العامة سيئة ، اذ كانوا يدفعون الجزية وكانت اوضاع الفلاحين اكثر سوء ، اذ ربطوا بالارض واجبروا على اعمال السخرة والخدمة العسكرية مشاة[5] ويبدو ان وضع الفلاحين «أشد سوء في اقطاعيات النبلاء الذين لهم حق الحياة والموت على العبيد والناس ، ولم يكن وضع الفلاحين تجاه الاقطاعيين النبلاء يعدو وضع العبيد الخاصين»[6] ويرى كرستنسن انه «كان على الرعايا ان يدفعوا الضرائب لصاحب الاقطاع اوللدولة اولهما معا . وانهم كانوا ملزمين بالخدمة العسكرية تحت رياسة صاحب الاقطاع»[7] ويلاحظ ان الدولة الساسانية قد عرفت نظام الخراج ، ويبدو انه كان جائرا مما حدا بكسرى انوشروان ان يبدله من المقاسمة الى المساحة[8] كما انه حسن في وضع الجزية اذ «وظف الجزية على اربع طبقات واسقطها عن اهل البيوتات والمرازبة والاساورة والكتاب»[9] ، ويظهر طابع المجاملة في وضع الجزية اذ انه اعفى منها الطبقة الارستقراطية والدينية واصحاب المواقع الادارية المهمة . ويظهر ان الازمة السياسية والحروب المتواصلة بين فارس وبيزنطة قد انهكت اهالي البلاد بالضرائب وجعلت من العراق ساحة حرب أملت الخراب الاقتصادي .

(١) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص٧٤ .

(٢) كرستنسن ، ايران في عهد الساسانيين ، ص٣٠٢ ، ص٣٠٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص٣٠٢ ، ص٣٠٣ .

(٤) المرجع نفسه ، ص٣٠٢ .

(٥) المرجع نفسه ، ص٣٠٦

(٦) د. عبد العزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص٢٣ .

(٧) كرستنسن ، المرجع السابق ، ص٣٠٧ .

(٨) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص٧١ .

(٩) المصدر نفسه ، ص٧١ .

وكان للتمايز الاجتماعي الطبقي وثقل الاقطاع الاثر في اخفاق كسرى انو شروان في اصلاحاته اذ بقي الظلم والاضطهاد «واستمر اصحاب الاقطاعات وكبار الموظفين في ارتكاب الجرائم ضد الرعية»[1] فبقيت حالات الاغتصاب للاراضي والاعتداء على العامة[2].

ولم تكن احوال سوريا ومصر اقل سوء من العراق في ظل احتلال الدولة البيزنطية، فمن جهة ضعف اقتصاد هذه البلاد بسبب الحروب الحادة مع الدولة الساسانية[3] ومن جهة اخرى اثقلت الدولة البيزنطية كاهل سوريا ومصر بالضرائب الفادحة قبل حروب التحرير[4]، اذ كانت الضرائب المقررة من اختصاص الامبراطور الذي يغيرها بين عام وآخر[5] وكان اسلوب جمعها تعسفيا معقدا يعتمد سلسلة طويلة من الموظفين لجبايتها[6] مما أضر بالرعية وحقق امتيازات للاقطاعيين واصحاب النفوذ السياسي[7] وجر هذا الامر الى وضع الملاكين الصغار انفسهم تحت حماية النبلاء المسؤولين عن الضرائب[8] وكان الفلاح عبدا او شبه عبد مرتبط بالارض وخاضع لاعمال السخرة، وللسيد عليه سلطان مطلق[9] ذلك ان اضطراب الاحوال الاقتصادية في زمن الدولة البيزنطية قد زاد في قوة طبقة ملاك الارض الذين صاروا مسؤولين عن الفلاحين الضعفاء الداخلين في ولائهم[10].

---

(١) كرستنسن، ايران في عهد الساسانيين، ص٣٥٩.

(٢) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص١٥.

(٣) المسعودي، التنبيه والاشراف، ص١٣٤. الدينوري، الاخبار الطوال، ص٧٤ وما بعدها.

(٤) فان فلوتن، السيادة العربية، ص١٩.

(٥) J.Grafton Milne. AHistory of Egypt under Roman Rule, P118

(٦) محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية، ص٣١.

(٧) دانيل دينيت، الجزية والاسلام، ص١٢٠.

(٨) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصاد العربي، ص٢٤.

(٩) المرجع نفسه، ص٢٤.

(١٠) د. محمد امين صالح، النظم الاقتصادية في مصر والشام، ص٢٩٦.

ونتيجة لذلك تحولت سدس الاراضي التي كانت تؤخذ منها الضرائب الى ارض غير مسكونة . وربما كان من اسباب ذلك اهمال الحكومات تطهير القنوات»[1] وقد اثر تفاقم الحرب بين الدولتين البيزنطية والساسانية[2] على اقتصاد سوريا ومصر فازدادت الضرائب على السكان، «وكانت تساقط كعاصفة من البرد اوكأنما وباء يجتاح الناس»[3] واصبحت البلاد عرضة للقلق والدمار الاقتصادي[4] فكانت الضرائب «تجبى على الرؤوس والصناعات، وعلى الماشية والاراضي، ولم تكن مقصورة على انواع خاصة من البضائع. بل كانت تجبى على المارة رجالا ونساء - تجارا وغير تجار - ومن صناع السفن، ومن زوجات الجنود، وعلى اثاث المنازل، ولم تقتصر تلك الضرائب على الاحياء بل تعدتها الى الموتى، حتى انه كان لا يسمح بدفن الميت الاّ بعد دفع ضريبة معينة»[5] ويبدو ان ثقل فداحة هذه الضرائب تفسر لنا رؤية نصارى ويهود سوريا للعرب المسلمين على انهم منقذون[6] كما تفسر لنا تعاون القبط في مصر مع عمرو بن العاص ضد البيزنطيين[7] والواقع انه قد وجدت جزية على كل السكان في مصر ما عدا فئات ارستقراطية وبعض القسس[8] وقد شملت اليهود ايضا[9] ووجد الى جانبها الضيافة التي كانت ثقيلة[10].

والى جانب الجزية وجد الخراج الذي كان ضريبة على الارض، الاّ ان كمية هذه الضريبة لم تكن محددة ثابتة لكل عام بل كان امر تقديرها من اختصاص

(١) د. محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية، ص٣٦.

(٢) بتلر، فتح العرب لمصر، ص٤٩.

(٣) E.Gibon, The Decline and fall of the Roman Empire, p178

(٤) H.G. Wells, Ashort History of the World, p157

(٥) د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ص٢٣٣، الريس، الخراج، ص٥٢، ص٥٣، ص٥٤.

(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٤٣.

(٧) البكري، جغرافية مصر من كتاب المسالك والممالك، ص٤٢.

(٨) Milne, AHistory of Egypt, PP. 121-122

(٩) N.Beabes, The Byzantine empre, pp, 126-127

(١٠) الريس، الخراج . . ، ص٥٤.

الامبـراطـور يعينهـا مع موظفيه من عام الى عام بحسب التقدير السنوي الذي يعمل لنفقـات الامبـراطـوريـة المتوقعة، ثم توزع الى اقسام الامبراطورية بالتدريج حتى ينتهي الامـر الى الـوحدة الصغرى وهي مجتمع القرية او البلدة، فاذا عرف المقدار المحدد الذي يفرض على هذا المجتمع اصبحت القرية كلها مسؤولة بالتضامن عن دفـع الضـريبـة التي تقـررت» وقـد اثـر هذا النظـام كمـا بينا على الفلاحين والطبقة الـوسطى فنشأ نظـام الاحمـاء[٢] ممـا جعـل الملكيـات الكبيرة تتوسع على حساب الملكيات الصغيرة[٣].

ان سوء الاوضـاع الاقتصـادية في سوريا ومصر والتعسف في جباية الضرائب وثقل النظام الاقطاعي قد جعل اهالي البلاد المحررة ينظرون الى العرب المسلمين على انهم مصلحـون ومنقـذون في نفس الـوقت[٤] كمـا ان سوء اوضاع اهل العراق اقتصاديا تحت هيمنة الاحتلال الساساني، جعلهم ايجابيين مع العرب المحررين ولم يبدوا اية مقاومة ضدهم[٥].

في ضوء ما سبق نستطيع ان نقرربأن الدولتين الساسانية والبيزنطية قد اعتمدتا نظـام الاقطـاع أسـاسـاً في البنيـة الاقتصادية وان الفلاح كان عبدا والسيطرة والنفوذ للطبقـة الارستقـراطيـة التي استنـزفت طاقـة وامـوال الرعية، واذا كانت الاولى دولة ارستقـراطيـة، فان الثـانيـة كانت هكذا ايضا، واشتركتا في طبقية حادة مقفلة، كما وجـدت في كل منهمـا «كنيسـة رسميـة اضطهـدت الـرعية بشكل كبير وقضت على التطور الطبيعي في الدولتين وكانت الرعية تكرههما بسبب الاستغلال»[٦].

(١) د. محمـد ضيـاء الـدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية، ص٤٥. د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص٢٤.

(٢) الريس: المرجع نفسه، ص٤٦.

(٣) د. عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص٢٣.

(٤) دانيل دينيت، الجزية والاسلام، ص١٢٠.

H.G. Wells, Ashort History of the world pp,131-133

(٥) فان فلوتن، السيادة العربية، ص١٩.

(٦) دي لاسي اوليري، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ص٥٩.

٣ ـ الموارد المالية بعد حروب التحرير العربية الاسلامية :

أ ـ الغنائم :

نجم عن تحرير العراق وسوريا ومصر ثروات كبيرة كانت الغنائم تشكل جزء مهما منها وقد كانت هذه الغنائم كثيرة بدلالة وجود كثير من الاشارات عنها في مصادرنا القديمة، ولكي نقدم صورة تقريبية عن حجم هذه الغنائم نشير الى سهم الفارس بعد فتح المدائن اذ قسم «سعد الفيء بين الناس بعدما خمسه، فأصاب الفارس اثنا عشر الفا وكلهم كان فارسا ليس فيهم راجل»[1] فضلا عن غنيمة ثروات من الذهب والفضة وبكميات كثيرة، فقد روى احد المقاتيلن ذلك فقال: «دخلنا المدائن فأتينا على قباب تركية مملوءة سلالا مختمة بالرصاص، فما حسبناها الاّ طعاما، فاذا هي انية الذهب والفضة فقسمت بعد بين الناس، وقال حبيب: وقد رأيت الرجل يطوف ويقول: من معه بيضاء بصفراء؟ وأتينا على كافور كثير، فما حسبناه الاّ ملحا، فجعلنا نعجن به حتى وجدنا مرارته في الخبز»[2] ويروى ان بدويا ظفر بحجر من الياقوت يساوي مبلغا عظيما لم يدر قيمته، فرآه بعض من يعرف قيمته فاشتراه منه بأف درهم، فبعد ذلك عرف البدوي قيمته ولامه اصحابه وقالوا له: هلاّ طلبت فيه اكثر من ذلك؟ قال لو علمت ان وراء الالف عددا اكثر من الالف طلبته[3] «وكانت الغنائم ثروة مفاجئة اذ «اصاب خارجة بن الصلت في فسطاط من فساطيطهم ناقة من ذهب موشحة باللؤلؤ والدر الفارد والياقوت. عليها تمثال رجل

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٠ «كانت العملة في العراق الدرهم الفضي».
(٢) المصدر نفسه، جـ٤، ص١٧. خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص١٠٣.
(٣) ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٨٢. ويروى ابو يوسف رواية تنهض تأييدا لكثرة الغنائم وعظم حصة الدولة منها فيقول: «عن الزهري عن سعيد بن المسيب (رض) قال: لما قدم على عمر (رض) باخماس فارس قال: والله لا يجنها سقف دون السماء، حتى اقسمها بين الناس، قال: فأمر بها فوضعت بين صفي المسجد وأمر عبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن ارقم، فباتا عليها، ثم غدا عمر (رض) بالناس عليه فأمر بالجلاليب فكشفت عنها فنظر عمر الى شيء لم تر عيناه مثله من الجوهر واللؤلؤ والذهب والفضة فبكى. فقال: عبد الرحمن بن عوف: هذا من مواقف الشكر، فما يبكيك؟ فقال: اجل، ولكن الله لم يعط قوما هذا الا القى بينهم العداوة والبغضاء»، الخراج، ص٤٧. ويلاحظ ان عمر عدّ الثروة شرا على حين عدها ابن عوف نعمة.

من ذهب، وكانت على كبر الظبية، فدفعها الى المتولي لقبض الغنائم»[1] ويلاحظ هنا وجود مسؤول عن الغنائم منعا للتلاعب واقرارا للعدالة في التوزيع. وكان سعر بعض الغنائم لا يقدر فعندما «اتي عمر بجوهر كسرى، وضع في المسجد فطلعت عليه الشمس فصار كالجمر، فقال لخازن بيت المال: ويحك! ارحني من هذا واقسمه بين المسلمين فان نفسي تحدثني انه سيكون في هذا بلاء وفتنة بين الناس فقال: يا أمير المؤمنين، ان قسمته بين المسلمين لم يسعهم، وليس احد يشتريه لان ثمنه عظيم، ولكن ندعه الى قابل فعسى الله ان يفتح على المسلمين فيشتريه منهم من يشتريه»[2] ويلاحظ ان عمر بن الخطاب قد خمس السلب فبعد ان كان النبي (ص) قد «قضى بالسلب للقاتل»[3] رأى عمر غير ذلك بسبب عظم الغنيمة الفردية وكي لا تؤول الثروة الى فرد معين اذ «بارز البراء بن مالك مرزبان الزارة فطعنه، فدق صلبه وصرعه. . واخذ سوارين كانا عليه، ويلمعاً من ديباج، ومنطقة فيها ذهب وجوهر. فقال عمر: انا كنا لا نخمس السلب وان سلب البراء بلغ مالا، فأنا خامسه، قال: فكان اول سلب خمس في الاسلام»[4].

وقد كانت الغنائم احيانا تثير بعض المشاكل بين العرب المسلمين[5] كما كانت حافزاً على الاسهام في الجهاد «وقدم جرير بن عبدالله من السراة في بجيلة فسأل ان يأتي العراق على ان يعطى وقومه ربع ما غلبوا عليه، فأجابه عمر الى ذلك فسار نحو العراق[6]. ويبدو انه قد حصل خلاف بين اهل الكوفة والبصرة بشأن الغنائم فقد «اقام عمار بن ياسر عاملا على الكوفة سنة في امارة عمر وبعض اخرى. وكتب عمر بن سراقة وهو يومئذ على البصرة الى عمر بن الخطاب يذكر له كثرة اهل

(١) الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٢٨.
(٢) الزبير بن بكار، الاخبار الموفقيات، ص٦١٢ - ص٦١٣.
(٣) ابن سلام، الاموال، ص٣٠٨.
(٤) المصدر نفسه، ص٣١٠. خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص٩٣.
(٥) خليفة بن خياط، المصدر نفسه، ص١٢٣.
(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٥٣.

البصرة، وعجز خراجهم عنهم، ويسأله ان يزيدهم احد الماهين اوما سبذان. ويلغ ذلك اهل الكوفة، فقالوا لعمار: اكتب لنا الى عمر أن رامهرمز وأيذج لنا دونهم لم يعينونا عليهما بشيء، ولم يلحقوا بنا حتى افتتحناها، فقال عمار: مالي ولما هاهنا فقال له عطارد: فمن علام تدع فيأنا ايها العبد الاجدع فقال: لقد سببت أحبّ اذني اليّ. ولم يكتب في ذلك فأبغضوه، ولما أبى اهل الكوفة الا الخصومة فيهما لأهل البصرة شهد لهم اقوام على ابي موسى، انه قد كان من اهل رامهرمز وأيذج وان اهل الكوفة والنعمان راسلوهم وهم في أمان، فأجاز لهم عمر ذلك، وأجراها لأهل البصرة بشهادة الشهود.

وادعى اهل البصرة في اصبهان قريات افتتحها ابو موسى دون جي ايام امدهم بهم عمر الى عبدالله بن عيبان، فقال اهل الكوفة أتيتمونا وقد افتتحنا البلاد فاسيناكم في المغانم والذمّة ذمتنا والارض ارضنا، فقال عمر: صدقوا. ثم ان اهل الايام واهل القادسية من اهل البصرة اخذوا في امر آخر حتى قالوا: فليعطونا نصيبنا مما نحن شركاؤهم فيه من سوادهم وحواشيه. فقال عمر: اترضون بماه؟ وقال لاهل الكوفة: أترضون ان نعطيهم من ذاك احد الماهين؟ فقالوا: ما رأيت انه ينبغي فاعمل به، فاعطاهم ماه دينار بنصيبهم لمن كان شهد الأيام والقادسية منهم الى سواد البصرة ومهرجان قذق، وكان ذلك لمن شهد الايام والقادسية من اهل البصرة»[1] وواجه عمر بن الخطاب مشكلة مركبة في الشام فمن جهة مات في طاعون عمواس خمسة وعشرون الفا من العرب المسلمين، مما خلق ارباكا اقتصاديا عبر عنه بقوله: «ضاعت مواريث الناس بالشام»[2] فكان طبيعيا ان تختلط غنائم جماعة باخرى، ولذا فانه «ورث بعض الورثة من بعض ثم اخرجها الى الاحياء من ورثة كل امرىء منهم»[3] ومن جهة اخرى عبرت خطبته عن هذا الارباك

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص١٦٠ ـ ص١٦١. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص٣١.

(٢) الطبري، المصدر نفسه، جـ٤، ص٥٩.

(٣) المصدر نفسه، جـ٤، ص٦٥.

الاقتصادي ووضعت الحلول الناجعة لذلك فقد قال لاهل الشام في الجابية: . . . الا اني قد وليت عليكم وقضيت الذي عليّ في الذى ولاني الله من امركم، ان شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم، وأبلغناكم ما لديكم، فجندنا لكم الجنود، وهيأنا لكم الفروج، وبوأناكم ووسعنا عليكم ما بلغ فيؤكم وما قاتلتم عليه من شأنكم وسمينا لكم اطماعكم، وأمرنا لكم باعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم»[1] ومن خلال هذه الخطبة يظهر انه قد نجم عن طاعون عمواس وعن تحرير الشام بعض المشاكل الاقتصادية بشأن المورث والغنائم، وان عمر قد عالج هذه المشاكل بنفسه واعاد الامور الى نصابها، والواقع انه كان قد اوصى ان يوفر فيء اهل الامصار فيهم ولا تؤخذ فضول اموالهم عنهم الا برضى منهم[2] وكان يقسم الغنائم بين اهل الامصار ويقول: «انه فيأهم الذي افاءه الله عليهم وليس هو لعمر ولا لآل عمر[3].

من خلال ما سبق يتضح لنا وجود مسؤول عن الغنائم وانها كانت تخمس والخليفة يغير في توزيعها وفق مصلحة الامة وانها كانت توزع وفق اسس تتوخى العدالة وتخضع لاشراف الخليفة في حالة وجود مشكلة بشأنها، وهذا الامر يجعل الرأي القائل بأن توزيع الغنائم كانت تخرق فيه المبادىء في اعطاء رؤساء القبائل اسهم الجنود البسطاء الذين ينتمون الى قبائل هؤلاء الرؤساء[4] رأيا غير موثق يعوزه الدليل التاريخي.

ب ـ الجزية:

كانت الجزية ضريبة عن الرأس يدفعها اهل الذمة[5] نظير امنهم وحقن دمهم وحماية اموالهم[6] وكانت بدل الخدمة في الجيش العربي الاسلامي أي كانت تستوفى نظير حماية المسلمين لاهل الذمة فان لم يتم هذا، كانت تسقط عمن

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٦٥.
(٢) جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق في صدر الاسلام، ص١٣٨.
(٣) الطبري، المصدر السابق، جـ٣، ص٦١٥.
(٤) حسين مروة، النزعات المادية، ص٤٢٢.
(٥) ابو يوسف، الخراج، ص١٢٢.
(٦) ابن سلام، الاموال، ص١٦.

ضربت عليه . يؤيد هذا ما فعله ابو عبيدة عامر بن الجراح حين اخذ الجزية من بعض اهل الشام بعد تعهده بحمايتهم من الروم ورغبته في ارجاعها حين سمع بالحشود الكبيرة للبيزنطيين «فكتب ابو عبيدة الى كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح اهلها يأمرهم ان يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج ، وكتب اليهم ان يقولوا لهم : انما رددنا عليكم اموالكم لانه قد بلغنا ماجمع لنا من الجموع وانكم اشترطتم علينا ان نمنعكم وأنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم ، فلما قالوا ذلك لهم ، وردوا عليهم الاموال التي جبوها منهم ، قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم ، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لايدعوا لنا شيئاً»[1] وقد اعفي من الجزية النساء والصبيان والمسكين الذي يتصدق عليه والاعمى الذي لا عمل له والمقعد[2] وكانت الجزية تسقط عمن يسلم[3] وقد اختلفت الجزية بين مصر وآخر ، كما اختلفت ضمن المناطق المتعددة للمصر الواحد بسبب التعدد والتنوع في شروط الصلح ، ففي السواد تتميز الحيرة وبانقيا واليس بحالة مغايرة لغيرها اذ كان عهد خالد لها صلحا فدفعت كل منها جزية مشتركة وتركت الارض بيد اهلها ملكية خالصة ، ويظهر ان هذه الاراضي حالة فريدة تاريخيا[4] وقد فرض العرب الى جانب الجزية الارزاق للمقاتلة وكانت الارزاق على اهل الريف دون المدن لانهم اصحاب ارض وعندهم امكانية دفعها[5] . ثم وحد عمر بن الخطاب جزية السواد مراعيا التمييز بين الفئات الاجتماعية فجعلها «ثمانية واربعين درهما ، واربعة وعشرين ، واثني عشر»[6] ويظهر

(١) ابو يوسف ، الخراج ، ص١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٢٢ .

(٣) ابن آدم ، الخراج ، ص٦١ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٤٤ ، ص٢٤٦ . الطبري . تاريخ الرسل والملوك ، جـ٣ ، ص٣٤٥ . خليفة بن خياط ، تاريخ ص٨٥ . د. عبد العزيز الدوري ، نظام الضرائب في صدر الاسلام ، ص٥١ .

(٥) جمال محمد جودة ، العرب والارض في العراق في صدر الاسلام ، ص٨٤ ـ ص٨٥ .

(٦) ابن سلام ، الاموال ، ص٤٠ د. صالح العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري ، ص٩١ .

ان جمع الجزية كان دقيقا ويتبع في جمعها اسلوب المشترك القروي حيث ان عمر قام بمسح السواد واحصى عدد الذين يتوجب عليهم دفع الجزية بأن بعث حذيفة بن اليمان وسهل بن حنيف اللذين . . حسبا اهل القرية وما عليهم، وقالا لدهقان كل قرية : على قريتك كذا وكذا فاذهبوا فتوزعوها بينكم «فكانوا يأخذون الدهقان بجميع ما على اهل قريته[1]. وفرضت الجزية على اكثر من منطقة في خراسان واختلفت نتيجة تعدد المعاهدات، وكانت كل مدينة تدفع سنويا مبلغا معينا كضريبة مشتركة اووظيفة[2]، فقد تم الصلح مع اهل قوهستان على ستمائة الف درهم وصولح اهل نسا على ثلاثمائة الف درهم، ويقال على ما تحتمل الارض من الخراج[3]، على حين صولح اهل مرو على «الفي الف ومائتي الف، وقال بعضهم الف الف درهم ومائتي الف جريب من برو شعير»[4] وكانت جزية بلخ بعد الصلح على اربعمائة الف ويقال سبعمائة الف[5] ويظهر ان الوظيفة المفروضة في خراسان هي جزية مشتركة وان عبارة الارض تعني سكان الارياف[6]، واخذت الجزية من اذربيجان كأتاوة عن جميع اهلها وكانت «ثمانمائة الف درهم وزن ثمانية»[7]. كانت الجزية في سوريا ابتداء جريباً[*] ودينارا على كل جمجمة[8] كما كان على كل انسان من اهل الذمة ما يسمى الارزاق وهو على كل من كان منهم بالشام، مديان

(١) ابن سلام، الاموال، ص٥٢.
(٢) د. محمد عبد الحي شعبان، الثورة العباسية، ص١٥٨.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٩٤ - ص٣٩٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٩٦.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٩٨.
(٦) د. عبد العزيز الدوري، نظام الضرائب في خراسان في صدر الاسلام، ص٧٨.
(٧) المصدر السابق، ص٣٣١.
(*) الجريب: مكيال قدر اربعة اقفزة والجريب قدر ما يزرع من الارض، قال ابن دريد لا أحسبه عربيا والجمع اجربة وجربان «ابن منظور، لسان العرب، جـ١، ص٢٥٣.
(٨) المصدر نفسه، ص١٣١. قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٢٩٥. دينيت، الجزية والاسلام، ص٣٠٨.
(* *) المد من اللاتينية Modius او Modium وهو مكيال كان يستخدم عند الرومان للسوائل والجوامد ويختلف عندهم باختلاف البلدان والازمان، وهناك من يرى انه رطلان اورطل وثلث «د. سامح عبد الرحمن فهمي: المكاييل في صدر الاسلام، ص٣٠ - ص٣١.

من الحنطـة وثـلاثة اقساط من الزيت في كل شهر . وضيافة المسلمين ثلاثة ايام ، وانمـا كان ذلـك في اول الامـر ثم رفع عنهم واراه صار في الخراج الواجب على من يجب عليـه منهم»[1] وهـذا يعني انـه قد فرضت ضريبـة نقـديـة ونـوعيـة في المدن والـريف اذ «بعـد سنـة ٢١ هـ اعيـد النظر وجعلت الجزية نقدية في المدن وصنف النـاس على ثلاث مراتب حسب اوضـاعهم المـاديـة ، امـا اهـل الـريف فاستمروا يدفعـون الجـزيـة بالنقد والنوع كالسابق ، وطبق ذلك في بعض الجزيرة الفراتية»[2] ذلك ان عمر بن الخطاب وضع الجزية «على اهل الذهب اربعة دنانير، وعلى اهل الورق اربعين درهما، وجعلهم طبقات لغنى الغني واقلال المقل وتوسط المتـوسـط»[3] ممـا يشيـر الى ان عمـر قد اجـرى احصـاء بهـذا الشأن[4] ويـلاحظ بعض البـاحثين ان الضيـافـة «قـد فرضت لأسبـاب عسكـرية ، ويؤيد ذلك ان عهود الصلح في المنـاطق الشمـاليـة من بلاد الشـام يظهـر فيهـا شروط الضيـافة اكثر من الجنوب لان الاولى ساحة قتال مستمر الامر الذي يستدعي تجمع الجيش وضرورة فرض الضيـافـة لافـراده»[5] كمـا اننـا عنـدمـا نقـارن بين جزيـة مدن الشام النقدية المتـدرجـة وجـزية الريف الثابتة دينار وطعام «نرى انهما يكادا ان يتساويا ، الاّ ان ما خفف عن الفلاحين ان جزءا من جزيتهم كان يدفع من المحاصيل ولا يتكلفون به دفع النقد»[6].

امـا الجـزيـة التي فرضت في ارمينيـا فقـد كانت قليلة ومختلفـة عن مقدارها وتدرجها على الفئات الاجتماعية اذ حددت «بدينار على كل اهل بيت»[7] ويبدو ان التسـاهـل في فرض هذه الضـريبـة كان يقتـرن بأن تكـون النصيحة للمسلمين ضد العـدو وحق الضيـافـة لليلة واحدة والعون على الطريق[8] كما يعود الى «طبيعه هذا

(١) قدامة بن جعفر، الخراج، وصنعة الكتابة، ص٢٢٦ .

(٢) د. عبد العزيز الدوري، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام، ص٨٤ .

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٣١ . قدامة بن جعفر، المصدر السابق، ص٢٩٥ .

(٤) دينيت، الجزية والاسلام، ص١٠١ .

(٥) فالح حسين، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الاموي، ص١٢٤ .

(٦) المرجع نفسه، ص١٢٤ .

(٧) البـلاذري، فتـوح البلدان، ص٢٠٣ ـ ص٢٠٥ . د. محمـد حميـد الله، مجمـوعـة الوثائق السياسية، ص٣٧١ .

(٨) البلاذري، المصدر نفسه، ص٢٠٤ ـ ص٢٠٥ د. محمد حميد الله المصدر نفسه، ص٣٧١ .

الاقليم المهم الذي يشرف على اقليمي الشام والجزيرة وثغورها وحدودهما الملاصقة للخزر من جهة والبيزنطيين من جهة اخرى، اذ من الضروري اتباع المرونة مع سكانه للمحافظة على ولائه ولا سيما ان طوبوغرافيته معقدة جدا اذ تتكون من جبال شاهقة وطرق وعرة ومسالك ضيقة اضافة الى رغبة العرب في التخفيف عن كاهل الارمن في دفع الضرائب بعد ان عسفهم البيزنطيون في فرض الضرائب وجبايتها وخاصة ان معظم سكانه من الفلاحين الفقراء الذين يعملون في اراضي الاقطاعيين ومن الحرفيين وعمال المناجم وغيرهم، اذ تكون قدرتهم على الدفع محدودة»[1].

وفي مصر احصي اهل الذمة[2] وضربت جزية نقدية وعينية اذ «وضع ـ عمر بن الخطاب ـ على كل حالم دينارين جزية الاّ ان يكون فقيرا والزم كل ذي ارض مع الدينارين ثلاثة ارادب* حنطة وقسطا(**) زيت وقسطا عسل وقسطا خل رزقا للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم فيهم، وأحصى المسلمون، فالزم جميع اهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنسا او عمامة وسراويل وخفين في كل عام

(١) د. صلاح الدين امين طه، الموارد المالية في اقليم ارمينية خلال الحكم العربي ١١هـ/٦٥٢ م ـ ٢٤٧هـ/٨٦٥م، ص٦٣.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٥١.

(*) الاردب: مكيال ضخم بمصر اصله من الآرامية ـ اردبا ـ . . ويعتقد ان المصريين القدماء هم الذين وضعوه ويضم الاردب اربعة وعشرين صاعا، ويقدر الاردب ايضا بربع نصاب اي ١٩٨ لترا. ويوافق هذا الحجم ٥٠ كغم من القمح او ١٣٠ كجم من الشعير او ١٤٠ كجم من الذرة او ١٥٥ كجم من الفول او ١٥٧ كجم من العدس د. سامح عبد الرحمن فهمي. المكاييل في صدر الاسلام، ص٤١.

(**) القسط: هو مكيال اسلامي اصله من اليونانية Xests) وباللاتينية Sextarius ومنه في العراق حجمان. القسط الصغير ويعادل وزنا قدره ثلاثة ارطال من السوائل. اي انه يسع ١/٢١٥٨ لتر والقسط الكبير كان ضعفه اي ان سعته (٢/٤٣١٦ لتر. وفي مصر كان القسط الواحد يساوي نصف صاع اي ان سعته ٢/١٠٦ لتر المرجع نفسه، ص٣٣ ـ ٣٤.

او عدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا»[1] وقد حدث تطور في جزية مصر فاقتصرت على الجانب النقدي «ان اهل الجرية بمصر صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الاول مكان الحنطة والزيت والعسل والخل على دينارين دينارين. فالزم كل رجل اربعة دنانير فرضوا بذلك وأحبوه»[2] وقد اتبع في جباية جزية وخراج مصر «بعد تحديد وتوزيع مبلغ كل منهم» اسلوب المشترك القروي ايضا اذ كانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية وكثر اهلها زيد عليهم وان قل اهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية وما روتها ورؤساء اهلها فيتناظرون في العمارة والخراب حتى اذا اقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم ترجع ـ ترفع، كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الارض العامرة فيذرون فيخرجون من الارض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الارض ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان، فاذا فرغوا نظروا الى مافي كل قرية من الصناع والاجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها. وقل ما كانت تكون الاّ لرجل الملتاب او المتزوج ثم ينظرون ما بقي من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد ارضه وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال وان كان منهم من يريد الزيادة اعطي ما عجز عنه اهل الضعف فان تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم. ويلاحظ هنا وجود ضريبة على الصناعة ايضاً.

وكانت قسمتهم على قراريط الدينار اربعة وعشرون قيراطا(*) يقسمون الارض على ذلك[3]

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٨. قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٣٣٨.

(*) القيراط: من الوزن معروف، وهو نصف دانق وأصله قرّاط لان جمعه قراريط فابدل من احدى حرفي تضعيفه ياء!. والقيراط جزء من اجزاء الدينار وهو نصف عشره في اكثر البلاد واهل الشام يجعلونه جزء مع اربعة وعشرين.. ابن منظور، لسان العرب، جـ٩، ص٣٥١، مادة (قرط).

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٥٢ ـ ص١٥٣.

امـا جزيـة برقة فقد كانت مشتركة وحددت بمبلغ «ثلاثة عشر الف دينار»[1]، اخذها عمرو بن العاص منهم.

امـا طريقـة جبـاية الجزية فيتضح انه قد وقعت حوادث فردية استخدمت فيها الشـدة في الجبـايـة قال ابـو يوسف «وحـدثنـا هشـام بن عروة عن ابيـه ان عمـر بن الخطاب (رض) مر بطريق الشام وهو راجع في مسيره من الشام على قوم فد اقيموا في الشمس يصب على رؤوسهم الزيت، فقال: ما بال هؤلاء؟ فقالوا عليهم الجزية لم يؤدوهـا فهم يعـذبـون حتى يؤدوهـا. فقـال عمر: فما يقولون وما يعتذرون به في الجـزيـة؟ قالـوا: يقـولون لا نجد، قال: فدعوهم ولا تكلفوهم مالا يطيقون، فاني سمعت رسول الله (ص) يقول: لا تعذبوا الناس فان الذين يعذبون الناس في الدنيا يعـذبهم الله يوم القيـامة. وأمر بهم فخلى سبيلهم»[2] وهذا الامر يشكل تصرفا فرديا لجباة الجزية ولا يعبر عن الخط العام للدولة في الرفق باهل الذمة بدلالة اطلاق عمر لسراحهم.

وممـا يعـزز هذا الخـط «ان عمـر بن الخطـاب أتى بمال كثير ـ قال ابو عبيد: أحسبـه، قال: من الجـزيـة ـ فقال: اني لاظنكم قد اهلكتم الناس. قالوا: والله، ما اخذنا الاّ عفوا صفوا. قال: بلا سوط ولا نوط؟ قالوا: نعم. قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدّي ولا في سلطاني»[3].

وكـان يكتفى احيـانـا بالجـزية دون الخراج لاعتبارات عسكرية ستراتيجية اذ «ان ابـا عبيـدة ابن الجـراح صالـح السـامـرة بالاردن وفلسطين. وكانوا عيونا وادلاء للمسلمين على جزية رؤوسهم واطعمهم ارضهم»[4] ويظهر تقدير العرب للاعتبارات العمليـة في اعفـاء بعض اهـل الذمة من الجزية في «ان اهل انطاكية نقضوا وغدروا فوجـه اليهم ابـو عبيـدة من فتحهـا ثانية وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلمة الفهري فغزا الجرجومة فلم يقاتله اهلها ولكنهم بدروا بطلب الامان والصلح فصالحوه على

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٢٥.
(٢) ابو يوسف، الخراج، ص١٢٥.
(٣) ابن سلام، الاموال، ص٤٣.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٦٢.

ان يكونوا اعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام وان لا يؤخذوا بالجزية وان ينفلوا اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حربا في مغازيهم ودخل من كان مدينتهم من تاجر واجير وتابع من الانباط وغيرهم واهل القرى في هذا الصلح فسموا الرواديف لانهم تلوهم وليسوا منهم»[1].

كما يلاحظ ان العرب المسلمين قد خصصوا ما كانوا يحتاجون اليه من اموال الجزية لغرض الاصلاحات الداخلية في المصر الذي تجبى منه الجزية كما حصل في مصر على سبيل المثال «وكان عمر ويبعث الى عمر بن الخطاب بالجزية بعد حبس ماكان يحتاج اليه . . لحفر خلجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة الف وعشرين الفا معهم الطوّر والمساحي والاداة يتعقبون ذلك ولا يدعون ذلك شتاء ولا صيفا»[2].

ان نسبة الجزية زمن عمر قد زادت عما كانت عليه في عهد الرسول (ص) وانه قد حدث تعيين لمن يدفع الجزية وتمييز لمن تسقط عنه، ناهيك من ان كمياتها قد ازدادت بشكل ملموس.

جـ ـ الخراج :

الخراج ضريبة وضعت على الارض[3] واذا كانت الجزية تلغى عن الذمي باسلامه فان الخراج لا يسقط بالاسلام[4] والخراج في لغة العرب اسم للكراء والغلة ومنه قول النبي (ص): الخراج بالضمان[5] ومع ان كلمة الفيء تطلق على وارد البلاد المفتوحة ـ اي الخراج والجزية وضرائب التجارة ـ فان التركيز كان على الخراج لاهمية وارد الارض[6] وقد تم احصاء للناس والارض في السواد زمن عمر بن الخطاب الذي ارسل عثمان بن حنيف لمسحه فوجده ستة وثلاثين الف

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٦٤ .
(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٥١ .
(٣) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٤٦ . ابن عساكر، التاريخ الكبير، جـ١، ص١٨٢ .
(٤) ابن عساكر، المصدر نفسه، جـ١، ص١٨٢ .
(٥) الماوردي، المصدر السابق، ص١٤٦ .
(٦) د. عبد العزيز الدوري، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام، ص٧٧ .

جريب[١]، ورأى عمر ان يضع على «كل جريب درهما وقفيزا» . . وجعل على كل جريب من الكرم عشرة دراهم وعلى كل جريب من النخل ثمانية دراهم وعلى كل جريب من السكر ستة دراهم، وعلى كل جريب من الرطبة خمسة دراهم. وعلى كل جريب من البر اربعة دراهم وعلى كل جريب من الشعر درهمين[٢] ويقال ان عمر اطعمهم النخل والشجر كله[٣].

ويظهر ان مهمة عثمان بن حنيف قد انجزت بدقة في مسح السواد لعلمه بالخراج، على حين كانت مهمة حذيفة ابن اليمان أقل دقة بسبب خداع اهل المنطقة التي مسحت له[٤] وقد راعى عمر في جباية الخراج طبيعة الارض الزراعية[٥]واشترط الاّ يزاد في خراجهم ان احتملوا اكثر وان عجزوا عنه خفف عنهم[٦] كما اتبع العدالة في الجباية اذ قال لعثمان وحذيفة: «لعلكما كلفتما اهل عملكما مالا يطيقون؟ فقال حذيفة: لقد تركت فضلاً. وقال عثمان: لقد تركت الضعف ولو شئت فقال عمر عند ذلك: اما والله لئن بقيت لارامل اهل العراق لادعنهم لا يفتقرون الى امير بعدي»[٧] ويروى ان عمر قد جبى خراج السواد مائة الف الف درهم[٨] وتوجد رواية اخرى ترى انه قد جبى مائة الف الف وعشرين الف الف درهم[٩] ويبدو ان عمر بن الخطاب لم يتسن له الوقت للقيام بمسح الارض في سوريا كما حصل في العراق، ومع هذا فقد ذكرت «ضريبة الخراج في عهود اكثر المدن السورية، ذلك لأن الخراج يؤخذ على الاراضي المفتوحة التي تركت بيد

(١) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٧٥. ابن رستة، الاعلاق النفيسة، ص١٠٤. د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٤١ - ص٣٤٢.

(٢) الماوردي، المصدر نفسه، ص١٧٥. ابن رستة، المصدر نفسه، ص١٠٥.

(٣) ابويوسف، الخراج، ص٣٨. د. محمد حميد الله، المصدر السابق، ص٣٤١ - ص٣٤٢.

(٤) ابويوسف، الخراج، ص٣٨.

(٥) د. محمد حميد الله، المصدر السابق، ص٣٤١.

(٦) ابن آدم، الخراج، ص٢٣.

(٧) ابو يوسف، الخراج، ص٣٧.

(٨) المصدر نفسه، ص٢٦.

(٩) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٧٥. ابن خرداذبة، المسالك، ص١٤.

اصحابها لانها عدت ملكا للامة تعود لبيت المال»[1] وليست لدينا معلومات عن كمية خراج سوريا.

اما خراج مصر فقد كان زمن عمرو بن العاص اثنى عشر الف الف دينار[2]، وفي رواية اخرى الفي الف[3]. وهنالك رأي بشأن خراج مصر يقدمه المقدسي ويستحق ان نورده اذ يقول «. . ومصر ليس عليها خراج انما تدفع الاراضي الى الزارعين يزرعونها فاذا بلغ الزرع ودرس وجمع ذروه وعرموه وتركوه حتى اذا لم تبق غلة لاحد الاّ وقد عرّمت ورشمت خرج صاحب السلطان وقطع الكرى بشيء معلوم ثم كان العرام وقبض من كل عرمة مقدار كرى تلك الارض ودفع اليهم ما بقي . . انما هذا شيء رآه عمر بن الخطاب وصالح عليه وانما خالفت مصر سائر الاقاليم لان النيل ربما جرى وربما قصر فتعطلت الاراضي فلم يحب ان يجبيهم الخراج عن ارض لا يمكن ان تزرع والشام وخراسان يغذي زروعهم الامطار والانهار الراتبة فمن اعطل ارضه فانما عطلها باختياره[4] وواقع الحال ان ذلك لا يعني عدم وجود الخراج في مصر. بل يعني ان الارض ابقيت بيد الفلاحين في ظل شروط متساهلة اعطت سكان مصر حرية ادارة الارض[5] وان الخراج كان يجبى وفق اسلوب المشترك القروي[6].

وقد اثار خراج مصر اكثر من مشكلة، ففي سنة ١٨ هـ كان الناس في الحجاز يعانون من مجاعة قاسية «لما صدر الناس عن الحج سنة ثمان عشرة اصاب الناس جهد شديد واجدبت البلاد وهلكت الماشية وجاع الناس وهلكوا حتى كان الناس يرون يستفون الرمة ويحفرون نفق اليرابيع والجرذان يخرجون ما فيها»[7] ولذا فقد

(١) فالح حسين، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الاموي، ص١٢٦.

(٢) المقريزي، الخطط المقريزية، ص٩٨.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢١٧.

(٤) المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص٦٥.

(٥) M.A. SHABAN. ISLAMIC HISTORY P.37

(٦) المقريزي، الخطط المقريزية، ص٧٧.

(٧) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٢٢٣. خليفة بن خياط تاريخ، جـ١، ص١٠٩.

«كتب عمر الى امراء الامصار يستغيثهم لاهل المدينة ومن حولها ويستمدهم ، فكان اول من قدم عليه ابو عبيدة بن الجراح في اربعة آلاف راحلة من طعام فولاه قسمتها فيمن حول المدينة»[1] وكان طبيعيا ان يكتب الى عمرو بن العاص في مصر كي يعجل في ارسال الخراج لمعالجة المشكلة الاقتصادية الناجمة عن المجاعة «ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص عام الرمادة بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى العاصي بن العاصي سلام عليك، اما بعد افتراني هالكا ومن قبلي وتعيش انت ومن قبلك فيا غوثاه ثلاثا»[2] ويظهر انه قد وقعت عدة كتب ومراسلات بين عمر وبين عمرو بن العاص وان الاخير قد برر تأخر ارسال خراج مصر بقوله : «فقد اتاني كتاب امير المؤمنين يستبطئني في الخراج ويزعم اني اعند عن الحق وانكب عن الطريق واني والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن اهل الارض استنظروني الى ان تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من ان يخرق بهم فيصيروا الى بيع مالا غنى بهم عنه والسلام»[3] وتشير المراسلات بين الاثنين الى ركود تجاري في بداية فتح مصر، وازمة غذائية في الحجاز، والى ميل نحو الاقليمية عند عمرو بن العاص الذي اشترط ان يكون طعام مصر لأهل مكة والمدينة دون الحجاز[4] وبعد ارسال خراج مصر الى المدينة وكان مقداره عشرة آلاف دينار لم يرض عمر بن الخطاب بذلك لان الروم قد جبوه من قبل عشرين الف الف دينار مما جعل عمرو بن العاص يجبيه في العام التالي اثني عشر الف الف دينار[5] وقد دفع هذا الامر بتلر الى اعتبار الخليفة عمر بن الخطاب غير عادل بشأن خراج مصر وان «عمرو بن العاص» كان رؤوفا باهالي مصر[6] وواقع الامر ان زيادة

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص١٠٠

(٢) ابن سعد، المصدر السابق، جـ٣، ق١، ص٢٢٣ . البلاذري، فتوح البلدان، ص٢١٨ .

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٥٨، ص١٦١ .

(٤) المصدر نفسه، ص١٦٤ ـ ص١٦٥ .

(٥) المقريزي، الخطط المقريزية، ص٧٩. المصدر نفسه، ص١٦٠ ـ ص١٦١ .

(٦) بتلر، فتح العرب لمصر، ص٣٩٢ ـ ص٤٠٠ .

خراج مصر لم تكن بسبب تشدد عمر بن الخطاب، كما ان نقص الخراج لم يكن بسبب تلاعب عمرو بن العاص كما ظن الخليفة، اذ ان هنالك ظروفا موضوعية تحكمت في هذه المسألة، فقد كان لاقتصار الضريبة في مصر على الجانب النقدي اثره في الزيادة حيث صولح اهل مصر بعد الصلح الاول على اربعة دنانير بعد ان كانوا يدفعون دينارين وحنطة وعسلا وزيتا وخلا سابقا[1] كما ان «عمرو بن العاص» كان يحبس جزء من خراج مصر للصرف على الجند والقيام باصلاحات عمرانية من حفر خلجان واقامة جسور وقناطر[2] اضف الى ذلك ان عدم الاستقرار الامني وظروف الحربي قد حالا دون اعتماد الدقة في الجانب الاقتصادي في بداية الفتح، وهنالك سبب مهم تحكم في نقص خراج مصر في البداية يتمثل في ان البيزنطيين حين انسحبوا من مصر سحبوا معهم الدينار البيزنطي الذهبي مما خلق نقصا في كمية الذهب[3] وطبيعي ان تتأثر الاوضاع الاقتصادية في مصر لقلة السيولة النقدية، ويبدو ان هذا القانون الاقتصادي كان غائبا عن ذهن الخليفة عمر وواليه على مصر مما جعل الاول يتهم الثاني بالتلاعب في خراج مصر، على حين استمر الثاني في تبريره ودفاعه.

كما ان تأكيدات عمر بن الخطاب لارسال الخراج لم تكن لتدل على عسف اوظلم للمصريين بقدر ماكان موازنة بين مقداره زمن الروم ومقداره وزمنه. وكان يسعى للحيلولة دون احتجاز عمرو لشيء من المال الذي هو حق لجميع المسلمين[4] يعزز ذلك قوله لعمرو: «وقد علمت اني لست ارضى منك الّا بالحق البيّن ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك، فاذا اتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو فيء المسلمين»[5] كما ان تشدده في ضرورة الاسراع بارسال الخراج كان رغبة منه لمعالجة المجاعة في عام الرمادة كما اسلفنا.

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢١٨. قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٣٣٨.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص ١٥١.

(٣) M.A. SHABAN, ISLAMIC HISTORY, P37

(٤) د. محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية، ص١١٥ - ص١٥٦.

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٥٨ - ص١٦١.

اوضحنا ان جباية الخراج كانت تتم وفق مبادىء العدالة ومما يؤيد ذلك حرص عمر بن الخطاب على اختيار المسؤولين عن الخراج اذ كتب «الى اهل الكوفة ببعثون اليه رجلا من اخيرهم واصلحهم، والى اهل البصرة كذلك، والى اهل الشام كذلك، قال: فبعث اليه اهل الكوفة عثمان بن فرقد، وبعث اليه اهل الشام معن بن يزيد، وبعث اليه اهل البصرة الحجاج بن علاط كلهم سلميون. قال فاستعمل كل واحد منهم على خراج ارضه»[1] وهذا الامر يعني في نفس الوقت استقلال خطة مالية في زمنه، وهي خطة عامل الخراج. فقد كان على خراج الموصل عرفجة بن هرثمة[2] وعلى خراج ما سقى الفرات النعمان بن عمرو بن مقرن، وعلى خراج دجلة سويد بن عمرو بن مقرن[3] وكان اختيار عمال الخراج من العرب يعبر عن اتجاه قومي اذ لم يترك هذا العمل للاجنبي، ويلاحظ ان بعض الصحابة كان يتحرج من استخدام صحابة النبي (ص) في هذا العمل، يعبر عن هذا الموقف قول ابي عبيدة بن الجراح لعمر بن الخطاب: «دنست اصحاب رسول الله (ص). فقال له عمر: يا أبا عبيدة اذا لم استعن باهل الدين على سلامة ديني فبمن استعين؟ قال: فأن فعلت فاغنهم بالعمالة عن الخيانة. يقول اذا استعملتهم على شيء فاجزل لهم في العطاء والرزق لا يحتاجون»[4].

ورد نهي وعدم تحبيذ لشراء ارض الخراج[5]، فقد روى ان النبي (ص) قال: «من اقر بالخراج وهو قادر على ان لا يقربه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا»[6] وقد اجاز الفقهاء شراء ارض الصلح [1] والسبب

(١) ابو يوسف، الخراج، ص١٢٣.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٣٩.
(٣) المصدر نفسه، جـ٤، ص٢٣. الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٣٥.
(٤) ابو يوسف، الخراج، ص١١٣.
(٥) ابن آدم، الخراج، ص٢٣. ابن سلام، الاموال، ص٧٩ ـ ص٨٠.
(٦) ابن رجب، الاستخراج لاحكام الخراج، ص٧.

(١) ابن سلام، الاموال، ص٨٢. ابن آدم، الخراج، ص٢٣.
قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٢١٠.

في ذلك ان ارض الصلح سواء بيعت لمسلم او اسلم صاحبها فان وارد الدولة لن يتأثر لأن كليهما سيدفع العشر»[1] كما وضع اجراء جيد لحماية الاقتصاد والموارد المالية يتلخص في انه «اذا اشترى الذمي ارض العشر من مسلم وضع عليها الخراج فلا يسقط عنها باسلامه ولا يبيعها من مسلم[2] «ويبدو ان هنالك بعض الاماكن التي صارت الارض فيها عشرية» قالوا: وبالفرات ارضون اسلم اهلها حين دخلها المسلمون وأرضون خرجت من ايدي اهلها الى قوم مسلمين بهبات وغير ذلك من اسباب الملك فصيرت عشرية»[3] ومعروف ان ارض العشر تكسر الخراج وتقلل من وارد الدولة.

ويظهر ان كراهة شراء ارض الخراج التي جاءت عن طريق العنوة، كان للحيلولة دون انقاص موارد الدولة لانها - فيء المسلمين[4] «كما ان النهي عن شراء ارض الخراج يعني ضمنا وجود اتجاه فعلي للشراءفقد «اشترى عتبة بن فرقد ارضا من ارض الخراج، ثم اتى عمر (رض) فاخبره. فقال: ممن اشتريتها؟ قال: من اهلها. قال: فهؤلاء اهلها - للمسلمين - ابعتموه شيئا؟ قالوا: لا. قال: فاذهب فاطلب مالك حيث وضعته»[5] وانه قال له: «أدعّنها ماكانت تؤدي»[6] كما اشترى طلحة بن عبيد الله ارض خراج فقال له عمر: «ممن اشتريتها من اهل القادسية قال طلحة وكيف اشتريتها من اهل القادسية قال انك لم تصنع شيئا انه هي فيء»[7].
كما اشترى عبدالله بن مسعود ارض خراج اذ يروى انه «جاء دهقان الى عبدالله بن مسعود فقال: اشترمني ارضي، فقال عبدالله: على ان تكفيني خراجها، قال نعم.

(١) فالح حسين، الحياة الزراعية في الشام في العصر الاموي، ص٤٥.
(٢) ابن رجب، الاستخراج لاحكام الخراج، ص٦١.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٦١.
(٤) ابن سلام، الاموال، ص٧٩- ص٨٠. ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٥٥.
(٥) ابن ادم، الخراج، ص٥٧. ابن سلام، المصدر نفسه، ص٧٤.
(٦) ابن آدم، المصدر نفسه، ص٢٤.
(٧) ابن رجب، الاستخراج لاحكام الخراج، ص٧٥.

فاشتراها منه»[1] ان شراء ارض الخراج وان بقيت تدفع الخراج يدل على توجه عند المسلمين يدرك اهمية الارض. كما ان عملية الشراء والبيع تحتمل تساهلا بين الطرفين بشأن ثمن البيع وكمية الخراج التي قد يحدث فيها تساهل بسبب المجاملة في الجباية لان الارض تعود لصحابي او شخصية مرموقة، مما يؤثر على وارد الدولة.

ويظهر ان العرب المسلمين وفي زمن عمر بن الخطاب، وبعد الاستقرار والتحرير فرقوا بين الجزية والخراج. وهذا الامر يخالف الرأي القائل بأن العرب قد ضربوا اتاوة اجمالية على الارض والرؤوس وانه لم يكن ثمة خراج واضح اوجزية واضحة في الفترة الخاصة بعصر الراشدين[2] ويقول حتي مفسرا هذا الرأي «فالنظرية التي تقسم البلاد الى ما فتح صلحا وما فتح عنوة لم تكن الا تفسيراً متأخرا اخذ بها القوم من بعد ولا أصل تاريخي لها، وكذلك شأن تفريقهم بين الجزية والخراج - ولعلها لفظة خوريجيا اليونانية - فالتمييز بينهما لم يكن معروفا ايام الخليفة الراشد الثاني.. ولم يورد القرآن لفظة - جزية - الا في سورة التوبة، الآية ٢٩. وذلك دون معنى شرعي معين. اما لفظة - خراج - فقد وردت في القرآن مرة واحدة ايضا سورة المؤمنين الآية ٧٤ بمعنى الأجر[3] وفي تقديرنا ان الآراء السابقة غير دقيقة ويقف الدليل التاريخي ضدها، اذ هنالك اكثر من اشارة تبين الفرق بين الجزية والخراج واستقلالهما عن بعض، كما تشير الى التفريق بين ارض الصلح وارض العنوة، فقد «اسلمت امرأة من اهل نهر الملك: فقال عمر اوكتب عمر (رض): ان اختارت ارضها وأدت على ارضها فخلوا بينها وبين ارضها، والاّ فخلوا

(١) ابن آدم، الخراج، ص٥٦.
(٢) يوليوس فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، ص٢٦٧ - ص٢٦٨. دينيت الجزية والاسلام، ص٣٩.
(٣) فيليب حتي، تاريخ العرب - مطول - ص٢٢٨.

بين المسلمين وارضهم»[1]وانه قد «جاء رجل الى عمر بن الخطاب، فقال: اني قد اسلمت فارفع عن ارضي الخراج، قال: ان ارضك اخذت عنوة»[2] كما ان اهل ايلياء طلبوا من ابي عبيدة» الامان والصلح على مثل ما صولح عليه اهل الشام من اداء الجزية والخراج»[3] اضف ان عملية مسح السواد شملت الارض من جهة والناس من جهة اخرى، مما يؤكد التفريق بين الخراج والجزية[4] ويبدو ان الجزية والارزاق عدّا ضريبة ابتدائية بحيث كانت الارزاق ضريبة الارض بسبب انشغال العرب بالتحرير وعدم تنظيمهم للضرائب في البداية. وان عام ٢١ هـ قد شهد التنظيم وتم مسح الارض ووضع الخراج عليها كما وضعت جزية على الطبقات تميزت عن الخراج[5] كما وجدت في خراسان ضريبة مشتركة على كل مدينة ومنطقتها اضافة الى الخراج والضرائب على التجار واصحاب المهن[6]، ومن خلال ما سبق يتضح لنا وجود تمييز بين الجزية والخراج وبين ارض الصلح وارض العنوة، وان الآراء التي تذهب الى عكس ذلك ضعيفة ويقف ضدها الدليل التاريخي.

د ـ العشور وضرائب الصناعة:

العشور ضرائب فرضت على تجارة اهل الذمة واهل الحرب الذين يدخلون الارض العربية الاسلامية. واول من قرر ضريبة العشور عمر بن الخطاب[1] فقد «كتب ابو موسى الى عمر(رض): ان تجار المسلمين اذا دخلوا دار الحرب اخذوا منهم العشر، قال: فكتب اليه عمر (رض) خذ منهم اذا دخلوا الينا مثل ذلك العشر،

(١) ابن آدم، الخراج، ص٥٩. ابن سلام، الاموال، ص٤٨.
(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٦٨. ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٥٥.
(٣) البلاذري، المصدر نفسه، ص١٤٤.
(٤) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٤. ابن رستة، الاعلاق النفيسة، ص١٠٥. وقد ميز عمر بن الخطاب بين الجزية والخراج في خطبة له فقال: «وقد رأيت ان احبس الارضين بعلوجها واضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية» ابو يوسف، الخراج، ص٢٥.
(٥) جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق في صدر الاسلام، ص٩٧ ـ ص٩٨.
(٦) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص٣٠.

(١) ابو يوسف، الخراج، ص١٣٤.

وخذ من تجار اهل الذمة نصف العشر، وخذ من المسلمين من مائتين خمسة فما زاد فمن كل اربعين درهما درهم»[1] وأول من عشر من اهل الحرب هم اهل منبج اذ «كتبوا الى عمر بن الخطاب (رض): دعنا ندخل ارضك تجارا وتعشرنا قال: فشاور عمر اصحاب رسول الله (ص) في ذلك: فاشاروا عليه به، فكانوا اول من عشر من اهل الحرب»[2] ويظهر ان العشور كانت مهمة وتقدم موردا كبيرا للدولة بدلالة وجود وال على العشور اذ كان زياد بن حدير اول من ارسله عمر بن الخطاب على عشور العراق والشام[3] وقد تشدد عمر في فرض ضرائب العشور على نصارى تغلب من منطلق قومي اذ يقول عامله على العشور: وأمرني ان اغلظ على نصارى بني تغلب، قال انهم قوم من العرب وليسوا من اهل الكتاب فعلهم يسلمون»[4] ولكن في نفس الوقت اوصى عمر ألاّ يعشرون الا مرة في السنة اذ «.. اتاه ذلك الشيخ النصراني، وقال: ان عمالك عشروني في السنة مرتين، قال: فكتب عمر (رض) الى عماله لا تعشروا في السنة الا مرة»[5] وقد كانت العشور التي تؤخذ من المسلمين تندرج ضمن الصدقة على حين كانت عشور اهل الذمة والحرب ترضع موضع الخراج[6] اما التجارة ضمن الارض العربية الاسلامية، اي التجارة الداخلية فلم توضع عليها ضريبة[7].

(١) المصدر نفسه، ص١٣٥. ابن آدم، الخراج ص١٧٣.

(٢) ابو يوسف، المصدر نفسه، ص١٣٥.

ويرى د. س جواتياين ان فرض ضريبة العشور قد عزز مكانة التجارة الاسلامية واحكم سيطرة الدولة عليها وعلى تجارة اهل الذمة، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية، ص١٣٢.

(٣) ابو يوسف، المصدر نفسه، ص١٢٠، ص١٣٥.

(٤) المصدر نفسه، ص١٢١.

(٥) المصدر نفسه، ص١٣٦. ابن آدم، الخراج، ص٦٨. الشيباني، كتاب السير الكبير، جـ٥، ص٢١٥٣.

(٦) ابو يوسف، المصدر نفسه، ص١٣٤.

(٧) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص٢٠٨. اذ يقول: «أما اعشار الاموال المتنقلة في دار الاسلام من بلد الى بلد فمحرمة لا يبيحها شرع ولا يسوغها اجتهاد ولا هي من سياسات العدل ولا من قضايا النصفة». ومما يعزز ذلك اننا لم نجد اشارة الى تعشير المسلمين في عصر الرسالة والراشدين.

ووجدت ضرائب على الصناعة فقد «كان عمر يأخذ الجزية من اهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم»[١] وكان ذلك يعني ان الضريبة على الصناعة بمثابة جزية، أي انها تعويض عن الجزية، وفي نفس الوقت فرض عمر بن الخطاب على الصناع ضريبة لم تكن موجودة زمن النبي (ص) اذ المعروف عنه انه لم يأخذ ضريبة من الاسواق[٢].

ويلاحظ ان نظام الضرائب في زمن عمر بن الخطاب لم يتأثر بالارث المحلي وحده وانما استفاد من السوابق الاسلامية في هذا المجال[٣] واتسمت هذه الضرائب بأنها كانت اكثر تساهلا مما كانت عليه قبلهم[٤] كما ان العرب المسلمين الغوا الامتيازات الضريبية السابقة وخفضوا الضرائب و زادوا من كفاءتها اداريا فبدوا مصلحين مغيرين للتعقيد الذي كان فيها سابقا.

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٤١.
(٢) صباح ابراهيم الشيخلي، الاصناف في العصر العباسي، ص ١٥٠.
(٣) د. عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص١٧٥.
(٤) فان فلوتن، السيادة العربية، ص١٩.
(٥) د. عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص١٧٥. دينيا، الجزية والاسلام، ص١٢٠.
د. محمد امين صالح، النظم الاقتصادية في مصر والشام، ص٢٩٦.

وبشكل عام فان وطأة الضرائب قد خفت بدخول العرب المحررين[1]، اذ الغى العـرب في سوريـا ومصر «الضرائب على المنازل واراضي المدن، والضرائب على المهن والتجارة، وعلى الماشية، وما كان يؤخذ من الغلال لاغراض الكنائس، وما كان يفرض على الارض لمختلف الاغراض: كتطهير القنوات والرسوم على النقل، في داخـل البـلاد وغيـر ذلـك»[2] كمـا الغوا في العراق وخراسان الضرائب الخاصة برجـال الـدين المجـوس والضـرائب الاستثنـائيـة زمن الحروب[3] مما يشير الى ان العرب المسلمين قد خففوا الضرائب عن كاهل اهل البلاد المحررة وجعلوها بسيطة ومباشرة بعد ان كانت باهظة معقدة.

هـ ـ الصدقة:

انحسـر دور الصـدقـة نسبيا في هذه الفترة، ولكنها بقيت موردا من موارد بيت المـال، ويبـدو ان انحسار اهمية الصدقة كانت بسبب تدفق الغنائم ووارد الضرائب الاخرى من جزية وخراج وعشور، كما حدث تخفيف عن البدو بشأن الصدقة كما سنرى.

كانت الـردة في احـد اسبابها ترتكز على سبب اقتصادي هو الامتناع عن دفع الصـدقـة ولم يتسـاهـل ابو بكر مع المرتدين بشأنها فقد اصر على ان يدفعوها لدولة المـدينـة كما كان يحرص ان يؤدي المسلمون الصدقة «وقال القاسم بن محمد كان ابـو بكـر اذا اعطى الناس اعطياتهم يسأل الرجل هل عندك من مال وجبت عليك فيه الزكاة فاذا قال نعم اخذ من عطائه زكاة ذلك المال، وان قال لا، اسلم اليه عطاءه.

(١) بتلر، فتح العرب لمصر، ص٣٩٣ ـ ص٣٩٤.
(٢) د. محمد ضياء الدين الريس، الخراج، ص١٦١.
(٣) المرجع نفسه، ص١٦١.

ولم يأخـذ منـه شيئـاً»(1) وهـذا يعني ان الصـدقـة شملت الامـوال الظاهرة والاموال الباطنة في عهد ابي بكر.

ويظهر ان عمر بن الخطاب كان قد تساهل في اخذ الصدقة من الاعراب بأن جعلها توزع على فقرائهم: «سمعت يزيد بن شريك الفزاري يقول انا في زمن عمر بن الخطاب ارعى البهم قلت من كان يبعث عليهم قال مسلمة بن مخلد وكان يأخذ الصدقة من اغنيائنا فيردها على فقرائنا»(2) وقد انتبه عمر الى اهمية الاعراب كجند احتياط للامة وعبر موقفه عن حس قومي، فقال: «اوصي الخليفة من بعدي بكذا، واوصيه بكذا، واوصيه بالاعراب خيرا، فانهم اصل العرب، ومادة الاسلام ان يأخذ من حواشي امـوالهم فيـرد في فقـرائهم»(3) وقـد اصـر عمر على ان تصرف في فقراء الاعـراب وكـان يجادل عماله ويحاسبهم بخلاف ذلك، اذ يروى «ان معاذ بن جبل لم يزل بالجند، اذ بعثه رسول الله (ص) الى اليمن حتى مات النبي (ص) وابوبكر. ثم قدم الى عمر فرده على ما كان عليه فبعث اليه معاذ بثلث صدقة الناس فأنكر ذلك عمـر، وقـال: لم ابعثـك جابيا ولا آخذ جزية، ولكن بعثتك لتأخذ من اغنياء الناس فتردها على فقرائهم. فقال معاذ: ما بعثت اليك بشيء وانا اجد احدا يأخذه مني. فلما كان العام الثاني بعث اليه شطر الصدقة، فتراجعا بمثل ذلك. فلما كان العام الثـالث بعث اليـه بهـا كلهـا، فراجعه عمر بمثل ما راجعه قبل ذلك، فقال معاذ: ما وجـدت احـد يأخـذ مني شيئـا»(4) وهـذا يعني اصرار عمر على رد النفقة على فقراء المسلمين، كما يشير الى ان ما كان يزيد من الصدقة كان يحمل الى المدينة، اي ان «حصـر صرف الصـدقـة بالبلد الـذي تجبى منه اتجاه عام وليس قاعدة محلية(5)

(1) مالك الموطأ، ص١٩٨. ابن سلام، الاموال، ص٤١١.
(2) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٢٣٤.
(3) ابن سلام، المصدر السابق، ص٥٩٥.
(4) ابن سلام، المصدر نفسه، ص٥٩٦.
(5) د. صالح العلي، تنظيم جباية الصدقات في القرن الاول الهجري، ص٨٧٦.

ويـلاحـظ ان ثم اجـراءات جيـدة سهلت تنظيم جمـع الصدقة، فقد روعي ان تقدر الصـدقـة بالنـوع لقلة النقـود عند الاعراب وتقرر اخذ الوسط من الابل والبقر كي لا يضـروا باصحـاب المـاشية ولا بمصلحة الدولة، وأجيز اخذ نوع من الحيوان لا من نفس ذلـك النـوع بل من نوع آخـر، ويمكن اخذ النقود بديلا عن الصدقة ولكن لم يصبـح هذا الامـر الـزامـا، اضـافة الى ان الصدقة كانت تؤخذ من الرعاة في اماكن تجمعهم دون ان يجبروا على المجيء الى اماكن غير ملائمة[1].

وادا كان النبي (ص) لم يأخـذ صدقـة الخيـل لقـوله: «عفونا لكم عن صدقة الخيل والرقيق»[2] فان عمر بن الخطاب كان «اول من أخذ زكاة الخيل»[3] ذلك ان اهـل الشـام «قـالـوا لابي عبيدة بن الجراح ـ عاملهم ـ «خذ من خيلنا ورقيقنا صدقة فأبى، ثم كتب الى عمـر بن الخطـاب فكتب اليـه عمـر: «ان احبـوا فخذها منهم، وارددهـا عليهم وارزق رقيقهم»[4] وقـد اخـذ عمـر بن الخطاب الصدقة من نصارى تغلب مضاعفة بدلا من الجزية وكان تصرفه محكوما باعتبارات تنم عن حرص قومي «ان عمر بن الخطاب (رض) اراد ان يأخذ الجزية من نصارى بني تغلب، فانطلقوا هاربين ولحقت طائفـة منهم ببعـد من الارض، فقـال النعمـان بن زرعة اوزرعة بن النعمان: انشدك الله في بني تغلب فانهم قوم من العرب نائفون من الجزية وهم قوم شديـدة نكـايتهم فلا يغن عدوك عليـك بهم فارسل عمر في طلبهم فردهم واضعف عليهم الصـدقـة»[5] وقـد راعى عمر بن الخطاب مصلحة الامة في جباية الصدقة اذ «انه اخر الصدقة عام الرمادة فلما احيا الناس عقل عليهم عقالين»[6]، وكان يضرب الصـدقـة على امـوال اليتامى ويشجع على نموها في التجارة كي لا تذهبها الصدقة

(١) د. صالـح العلي، تنظيم جبـايـة الصـدقـات في القـرن الهجري الاول، ص٨٧٠. وكانت صدقة الماشية واحدا من كل اربعين. العلي، ص٨٦٩.

(٢) ابن سلام، الاموال، ص٤٦٣.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٣٧.

(٤) د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٧٩.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٨٦. ابو يوسف، الخراج، ص١٢٠. ابن سلام، الاموال، ص٢٨ ـ ص٢٩. ابن قتيبة، المعارف، ص٥٧٤. خولة شاكر الدجيلي، بيت المال، ص١٠٣.

(٦) قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٢٣٠.

«ان عمر بن الخطاب قال: اتجروا في اموال اليتامى لا تأكلها الزكاة»[1] ومع ان الصدقة لم تكن تشكل الدخل الاول في وارد الدولة الا انها كانت كما يبدو تشكل نسبة لا يستهان بها، فمثلاً قال علي بن ابي طالب «لقد رأيتني مع رسول الله (ص) واني لاربط الحجر على بطني من الجوع وان صدقتي اليوم لاربعون الفا...»[2] والدليل الاخر على ان نسبة الصدقة لم تكن هينة هو وجود ثلاثين الف بعير وثلثمائة فرس جاءت عن طريق الصدقة زمن عمر بن الخطاب[3].

وعدّ ما تدفعه ارض العشر الخاصة بالمسلم بمثابة صدقة[4] وربما كان التأكيد على ضرائب الجزية والخراج وعدم التركيز على الصدقة قد حرم بيت المال من مصدر مهم من المال بحيث استغلت بعض الفئات المناوئة للعروبة والاسلام هذا الامر للقيام بضرب التجربة العربية بعد التظاهر بالاسلام من الداخل[5].

٤ـ التحولات والاصلاحات الاقتصادية الناجمة عن التحرير العربي الاسلامي:

أ ـ القطائع والارض الزراعية:

كانت القطائع التي منحها ابو بكر لبعض كبار الصحابة متواضعة اذا ما قورنت بالقطائع التي تمت بعد مرحلة حروب التحرير، فيروى انه قد اقطع الزبير «ما بين

(١) مالك، الموطأ، ص٢٠٢.
(٢) ابن حنبل، كتاب الزهد، ص١٣٣. ويتضح من هذا النص ان ثروة بعض كبار الصحابة قد تضخمت بشكل واسع، وان عليا لم يشأ ان يندرج مع الاثرياء ويتخلى عن تيار الزهد، فكان يعطي صدقته بهذا الشكل.
(٣) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٢٢٠.
(٤) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص٥٨ ـ ص٥٩. ابن آدم، الخراج، ص٢٦.
(٥) د. عبدالله سلوم السامرائي، الغلو والفرق الغالية في الحضارة الاسلامية، ص٤٧.

الجرف الى قناة»[1] كما انه اقطع طلحة بن عبيد الله فاعترض عمر على ذلك «اقطع ابـو بكـر طلحـة بن عبيـد الله ارضـا. وكتب له بهـا كتـابـا. قال: فأتى طلحة عمر بالكتاب فقال: اختم على هذا. فقال: لا اختم. اهذا كله لك دون الناس؟ قال: فرجع طلحة مغضبا الى ابي بكر، فقال: والله ما ادري انت الخليفة ام عمر؟ فقال: بل عمـر، ولكنـه أبى»[2] كمـا انـه رفض اقطاع ابي بكر لعيينة بن حصن «ان ابا بكر قطع لعيينة بن حصن قطيعة. وكتب بها كتابا. فقال له طلحة اوغيره: انا نرى هذا الـرجـل سيكـون من هذا الامر بسبيل - يعني عمر - فلو اقرأته كتابك فأتى عيينة عمر فأقرأه كتابه، ثم ذكر مثل حديث ابن عون، وزاد فيه: انه بصق في الكتاب ومحاه، قال، قال: فسأل عيينة ابا بكر ان يجدد له كتابا فقال: والله لا أجدد شيئا رده عمر»[3] ومن هذا يتضـح ان عمـر كان يتحفـظ بشأن القطائع مما حدا بدينيت الى وصفه بأنه كان «مقتصدا الى حد كبير في منح القطائع»[4] ومع انه اقطع الزبير وعلي بن ابي طالب[5] فان اتجـاهـه العـام كان الاقتصاد في منح القطائع قدر الامكان. ورغم انه كان يمنـح احيـانـا من الارض المـوات «اقطـع عمـر بن الخطـاب خوات بن جبيـر الانصـاري ارضـا مواتـا فاشتـرينـاها منه»[6]، فاحياء الموات كان يفضي الى ملكية الارض وبيعهـا وقـد حصل هذا الامر عندما «اقطع عمر (رض) خمسة من اصحاب النبي (ص): سعد بن ابي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وخباب، واسامة بن زيد.

(١) ابن آدم، الخـراج، ص٧٧. ابن سعـد، كتـاب الطبقـات الكبيـر، جـ٣، ق١، ص٧٢ - ص٧٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٤.

(٢) ابن سلام، الاموال، ص٢٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٧٧.

(٤) دينيت، الجزية والاسلام، ص٦٥.

(٥) ابن آدم، الخـراج، ص٧٨. ابن سعـد، كتـاب الطبقـات الكبيـر، جـ٣، ق١، ص٧٢ - ص٧٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٦ وص٢٨ وص٣٤.

(٦) البلاذري، المصدر نفسه، ص٢٦.

قال واراه قال: الـزبيـر. قال: فأمـا اسـامـة فباع ارضه»[1] وهنالك رواية اخرى تفيد جواز بيـع الارض المقطعـة «حـدثنـا اشعث بن سوار عن حبيب بن ابي ثابت. عن صلت المكي عن رافـع قال: اعطـاهم النبي (ص) ارضـا فعجـزوا عن عمـارتهـا فباعوها في زمن عمر بن الخطاب (رض) بثمانية آلاف دينار او بثمانمائة الف درهم»[2]. واشتـرط عمـر في الارض المقطعـة التعميـر فان لم يتم اخذ ما عجز عنه المقطع فقد قال لبلال بن الحارث المزني «ان رسول الله (ص) لم يقطعك لتحتجره عن النـاس، انمـا اقطعـك لتعمـل، فخذ منها ما قدرت على عمارته ورد الباقي»[3] وربمـا كان يتـردد احيانا في رد قطائع النبي (ص) ممن عجز عن عمارتها، ولذا فقد كان يشترط ان يعمروها في ثلاث سنين والا سقط حقهم فيها[4].

وشهدت هذه الفترة تعزيز الاحماء الخاص بالدولة فقد «حمى ابوبكر (رض) بالـربـذة لاهـل الصدقة واستعمل عليه مولاه ابا سلامة»[5] وحمى عمر بن الخطاب النقيع لخيل المسلمين والربذة والشرف لابل الصدقة[6] واستعمل عمر بن الخطاب مولى له اسمـه هنى على الحمى وأوصـاه بالـرفق بضعفـاء المسلمين والتشدد على الاثـريـاء فقـال له: «ويحك يا هنى اضمم جناحك عن الناس، واتق دعوة المظلوم فان دعوته مجابة. ادخل لي رب الصريمة والغنيمة ودعني من نعم عثمان بن عفان وابن عوف فان ابن عفان وابن عوف ان هلكت ماشيتهما رجعا الى المدينة الى نخل وزرع وان هذا المسكين ان هلكت ماشيته جاءني يصيح: يا أمير المؤمنين، يا أمير المؤمنين. والماء والكلاِم اهون عليّ من أن اغرم له ذهبا اوورقا. والله والله ان هذه

(١) ابن آدم، الخراج، ص٧٨.
(٢) ابو يوسف، الخراج، ص٦١.
(٣) ابن سلام، الاموال، ص٢٩٠.
(٤) ابـو يوسف، المصـدر السـابق، ص٦١. يحتمل ان تكون هذه الاخبار عن القطائع موضوعة لتبرير سلوك الحكام في العصر العباسي.
(٥) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٨٥.
(٦) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٢٢٠.

لبلادهم، قاتلوا عليها في الجاهلية واسلموا عليها في الاسلام ولولا هذا النعم الذي احمل عليه في سبيل الله ما حميت على الناس من بلادهم شيئا»[1].

وبعد مرحلة حروب التحرير توسعت القطائع اذ كانت هذه الحروب «عاملا هاما في تدمير الاقطاع القديم في البلاد المفتوحة، ذلك ان مساحات واسعة من الاراضي في العراق وسوريا ومصر كانت اقطاعيات للاسر الحاكمة ورجال الدولة، او اراض مخصصة للمعابد. وكانت نسبة مهمة من الفلاحين مرتبطة بالارض في حالة عبودية او شبه عبودية، وتعد من اقنان اصحاب الاقطاعات»[2] وقد عدّ العرب اموال كسرى وآل كسرى وكل من فرعن ارضه وقتل في المعركة ارضا صافية للمسلمين وكان عمر (رض) يقطع منها[3] وكان مما اصفى عمر انه «اقطع من تلك الارض من التي لم يبق لها رب»[4].

ويظهر ان قطائع الشام كانت اكثر من قطائع العراق في زمن عمر بن الخطاب فمن جهة كانت قطائعه محدودة في العراق[5] ومن جهة اخرى يبدو ان هروب البيزنطيين قد مكن العرب من الارض فاتخذوها مراعي لهم ومنطلق توجه عسكري في البداية ثم بقوا فيها فاقطعت لهم من قبل عمر بن الخطاب ويوضح ذلك ابن عساكر: «ان الله لما اظهر المسلمين على بلاد الشام وصالحوا اهل دمشق واهل حمص كرهوا ان يدخلوها دون ان يتم ظهورهم واثخانهم في اعدائهم فعسكروا في مرج بردىٰ ما بين المزة وبين مرج شعبان وكان هناك مروج مباحة فيما بين اهل دمشق وقراها ليست لاحد منهم، فأقاموا بها حتى اوطأ الله المشركين ذلا فأحيا كل قوم محلتهم ورفعوا ذلك الى عمر بن الخطاب، فأمضاه لهم فبنوا الدور ونصبوا

(١) ابو يوسف، الخراج، ص١٠٥. البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٢ ـ ص٢٣.
(٢) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص٢٣. د. عبد العزيز الدوري، نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية، ص٨.
(٣) ابو يوسف، المصدر السابق، ص٥٨.
(٤) ابن سلام، الاموال، ص٢٨٤.
(٥) جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق في صدر الاسلام، ص٢٣٢.

الشجر ثم امضاه عثمان ومن بعده . . »[1] اما قطائع عمر الشخصية في مصر فليس لدينا سوى اقطاعه ابن سندر منية الاصبغ الف فدان[2] والامر الذي يلفت النظر في قطائع عمر بعد حروب التحرير، هو الاقتصاد في منح الارض لانها فيء الدولة ومال المسلمين» ولذا فانه استرجع ما كان قد اقطع لبجيلة لانه رأى الاقطاع تملكا وعوضهم عن ذلك[3] وكتب بتحديد الارض المقطعة لجرير قائلا: «اما بعد فاقطع جريرا بن عبدالله قدر ما يقوته لا وكس ولا شطط»[4] كما انه كان يسترجع الارض المقطعة عندما يجد تلاعبا واحتيالا «ان ناسا سألوا عمر بن الخطاب ارضا من ارض أندر كيسان لمربط خيلهم فاعطاهم طائفة منها فزرعوها فانتزعها منهم واغرمهم»[5] واقطع نافع بن الحارث بن كلدة ارضا لافتلاء الخيل تشجيعا منه للحث على هذا العمل من اجل الجهاد. ولكنه اشترط الّا تكون الارض لمسلم ولا لمعاهد وكتب بهذا الشأن الى ابي موسى: «ان ابا عبدالله سألني ارضا على شاطيء دجلة فان لم تكن ارض جزية ولا ارضا يجري اليها ماء جزية فاعطها اياه»[6] اي ان يقطعه من الارض الموات التي لم يحيها احد ولم يملكها مسلم ولا معاهد[7] ويظهر ان صلاحية منح القطائع لم تكن محصورة في الخليفة وحده اذ نجد «عمرو بن العاص يقطع من ارض مصر «واقطع عمرو بن العاص حين تولى وردان مولاه الارض التي خلف القنطرة التي غربيها ابو حميد الى كنيسة الروم التي هناك»[8] كما نجد البراء بن عازب يمنح بعض اراضي الديلم في قزوين للعرب، اذ . . «انهم اسلموا وأقاموا بمكانهم وصارت ارضوهم عشرية ، فرتب البراء معهم مائة رجل من المسلمين

(١) ابن عساكر، التاريخ الكبير، ص١٨٥ . وسواء كانت هذه الاراضي خصبة ام ارض موات، فقد امتلكها العرب بسبب الظروف العسكرية .

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٣٧ .

(٣) ابن رجب، الاستخراج في احكام الخراج، ص٢٩ .

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٥٨٨ .

(٥) ابن رجب، المصدر السابق، ص٤٢ . الاموال، ابن سلام، ص٢٨٣ ـ ص٢٨٤ .

(٦) ابن سلام، المصدر نفسه، ص٢٧٧ .

(٧) المصدر نفسه، ص٢٧٨ .

(٨) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٣٦ .

معهم طليحة بن خويلد الأسدي واقطعهم ارضين لاحق فيها لأحد»[1] وهذا الاجراء في منح ارض مقطعة يقام دلالة مهمة في قدرة الولاة على منح القطائع ويضعنا امام امكانية حدوث افعال من هذا النوع من قبل آخرين لم تسعفنا مصادرنا بتقديم ادلة على قدرتهم في منح القطائع.

ان ما سبق يرينا ان حروب التحرير العربية الأسلامية قد حطمت الاقطاع القديم، واستعاضت عنه بظهور قطائع صغيرة اخذت بالتوسع رويدا رويدا كما سيتضح في السطور الآتية، مع ملاحظة ان ظهور القطائع يشير الى إدراك العرب لأهمية الارض والزراعة في هذه الفترة.

هنالك رأي يذهب الى ان الخليفة عمر بن الخطاب «قد منع العرب في بادىء الامر من شراء الارض الزراعية او الاشتغال بالزراعة»[2] ورأي آخر يؤكد ان العرب لم يعنوا بالارض وعدوها ملكا عاما للمسلمين[3] وذهب بعضهم الى ان الملكية الفردية للارض كانت محرمة على العرب[4] على حين يوجد من يقول ان: «القبائل احترمت الارض الزراعية»[5] ويبدو الرأي الاخير اكثر اتزانا وواقعية، فقد اثيرت مشكلة الارض بعد حروب التحرير اذ كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن ابي وقاص بعد تحرير العراق «اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم، فاذا اتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس به الى العسكر من كراع او مال، فاقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين، فانك ان قسمتها بين

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣١٧ ـ ص٣١٨.
(٢) د. محمد امين صالح، النظم الاقتصادية في مصر والشام، ص٣٠٠.
(٣) بلياييف، العرب والاسلام والخلافة العربية في القرون الوسطى، ص١٨٢ ـ ص١٨٣.
(٤) فان فلوتن، السيادة العربية، ص١٧. احمد علبي، الاسلام والمنهج التاريخي، ص١٥.
(٥) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، ص١٧١.

من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء[1] وهذا يعني اطلاق اليد في الغنائم وابقاء الارض ملكا للامة، كما ان اصحاب رسول الله (ص) وجماعة من المسلمين أرادوا من عمر بن الخطاب ان يقسم الشام كما قسم رسول الله خيبر، وانه كان أشد الناس عليه في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن رباح. فقال عمر (رض): اذن اترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم: اللهم اكفني بلالا واصحابه[2] اما في مصر فحدثت نفس المشكلة «لما فتحنا مصر بغر عهد قام الزبير فقال: اقسمها يا عمرو فأبى عمرو فقال الزبير: والله لتقسمنها كما قسم رسول الله (ص) خيبر، فكتب عمرو الى عمر في ذلك فكتب اليه عمر اقرها حتى يغزو منها حبل الحبلة»[3] «ويظهر ان عمر بن الخطاب» فكر في البداية بقسمة السواد اذ «ان عمر بن الخطاب اراد قسمة السواد بين المسلمين فأمر ان يحصوا فوجد الرجل منهم نصيبه ثلاثة من الفلاحين فشاور اصحاب رسول الله (ص) في ذلك، فقال علي: دعهم يكونوا مادة للمسلمين»[4] كما يظهر ان موقف الصحابة كان بين مؤيد للقسمة ومعارض لها «فأما عبد الرحمن بن عوف (رض) فكان رأيه ان تقسم لهم حقوقهم، ورأي عثمان وعلي وطلحة وابن عمر (رض) رأي عمر»[5] كما انه اراد في البداية ان يقسم الشام بين الفاتحين «قدم عمر بن الخطاب (رض) الجابية فاراد قسمة الارض بين المسلمين لانها فتحت عنوة، فقال معاذ بن جبل: والله لئن قسمتها ليكونن ما نكره ويصير الشيء الكثير في ايدي القوم ثم يبيدون فيبقى ذلك لواحد منهم ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون الاسلام مسدا فلا يجدون شيئا فانظر أمرا يسع اولهم وآخرهم فصار الى قول معاذ»[6] فهو اذن قد استشار الناس قبل اتخاذ اجراء حاسم[7] وبرغم ان عامة

(١) ابن آدم، الخراج، ص٢٧ - ص٢٨.

(٢) ابو يوسف، الخراج، ص٢٦. لاحظنا في الفصل الثاني ان النبي (ص) وزع اسهم خيبر من المنتوج وليس الارض.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢١٥. ابن سلام، الاموال، ص٥٨.

(٤) البلاذري، المصدر نفسه، ص٢١٦، ابن آدم، الخراج، ص٤٢. ابن سلام، المصدر نفسه، ص٥٩. ابن رجب، الاستخراج لاحكام الخراج، ص٩ - ص١٠.

(٥) ابو يوسف، الخراج، ص٢٥.

(٦) البلاذري، المصدر السابق، ص١٥٦. ابن سلام، المصدر السابق، ص٥٩.

(٧) ابو يوسف، المصدر السابق، ص٢٦.

الناس رأوا قسمة الارض[1] الاّ ان رأيه قد استقر على عدم تقسيم الارض فكان يبرر تارة قراره بأن الارض عنصر انتاج محدود «قال بلال لعمر (رض) في القرى التي فتحوها عنوة اقسمها بيننا وخذ خمسها فقال عمر (رض) لا هذا عين المال ولكني احبسه فيما يجري عليهم وعلى المسلمين» وتارة اخرى يقول: «أخاف ان قسمته ان تتفاسدوا بينكم في المياه»[2] وثالثة يقول: «أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام ـ كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ـ لابد لها من أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم، فمن اين يعطي هؤلاء اذا قسمت الارض والعلوج؟»[3] وكان دافع عن وجهة نظره بأنها رأي خاص به[4] ويبدو ان الخلاف بشأن قسمة الارض كان شديدا وان المطالبين بالقسمة كانوا يشكلون قوة كبيرة في الرأي، فرأى عمر ان يشاور عشرة من كبار الاوس والخزرج من كبرائهم واشرافهم. فلما اجتمعوا حمد الله واثنى عليه بما هو اهله ثم قال: اني لم ازعجكم الا لان تشتركوا في امانتي فيما حملت من اموركم، فاني واحد كأحدكم وانتم بالحق، خالفني ووافقني من وافقني، ولست اريد ان تتبعوا هذا الذي هواي، معكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله لئن نطقت بأمر اريده ما اريد به الا الحق. قالوا: نسمع يا أمير المؤمنين. قال: قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا اني اظلمهم حقوقهم واني اعوذ بالله ان اركب ظلما، لئن كنت ظلمتهم شيئا هولهم واعطيته غيرهم لقد شقيت، ولكن رأيت انه لم يبق شيء يفتح بعد ارض كسرى، وقد غنمنا الله اموالهم وارضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من اموال بين اهله واخرجت الخمس فوجهته على وجهه وانا في توجيهه. وقد رأيت ان احبس الارضين بعلوجها واضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين: المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم.. فقالوا جميعا: الرأي رأيك فنعم ما قلت وما رأيت»[5].

(١) ابن رجب، الاستخراج لاحكام الخراج، ص٢٧.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٦٨.

(٣) ابو يوسف، الخراج، ص٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٥.

(٥) ابو يوسف، المصدر نفسه، ص٢٥.

وفي ضوء ذلك اتخذ عمر قراره بعدم تقسيم الاراضي المحررة معززا رأيه بآيات الفيء - سورة الحشر، الآيات ٧، ١٠ - اذ قال عمر (رض) لهم: قد وجدت حجة في تركه وان لا أقسمه قول الله تعالى: للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً «فتلا عليهم حتى بلغ قوله تعالى «والذين جاؤوا من بعدهم» قال: فكيف اقسمه لكم وأدع من يأتي بغير قسم؟ فاجمع على تركه وجمع خراجه واقراره في ايدي اهله ووضع الخراج على ارضيهم والجزية في رؤوسهم»[1].

وهذا يعني ان عامة الاراضي المحررة عدّت ملكا للامة ولكن هذا الامر لم يحل دون نشوء ملكيات فردية للارض فقد كانت الارض الموات تصبح عشرية وتفضي الى الوراثة[2]كما عدّت كل ارض غنمت ووزعت على العرب المسلمين عشرية[3] اضافة الى ان كل ارض اسلم عليها اصحابها عدّت عشرية[4]، كما عدّت كل ارض تشترى من بني تغلب عشرية او تضاعف عليها الصدقة[5].

والواقع انه قد نشأت ملكيات زراعية في الاراضي المحررة، ففي العراق كان اهل المدن وخاصة قريش ورؤساء القبائل اليمانية اسرع الناس الى امتلاك الاراضي ابتداءا[6] «كما وجدت املاك جاءت عن احياء الارض الموات، وربما كان بعضهم يحتجز الارض دون احياء مما حدا بعمر بن الخطاب ان يحدد فترة للاحياء، فمن تجاوزها اسقط حقه فقال: «من احيا ارضا ميتة فهي له، وليس

(١) أبو يوسف، الخراج، ص٣٥. د. عبد العزيز الدوري، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام، ص٧٧.

(٢) ابن آدم، الخراج، ص ٣٠. ابن سلام، الاموال، ص٥١٢ - ص٥١٣. الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٧٢.

(٣) ابن سلام، المصدر نفسه، ص٥١٢ - ص٥١٣. الماوردي، المصدر نفسه، ص١٧٢.

(٤) ابن سلام، المصدر نفسه، ص٥١٢ - ص٥١٣. ابن آدم، المصدر السابق، ص٧٠

(٥) ابن آدم، المصدر نفسه، ص٦٦.

(٦) جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق في صدر الاسلام، ص٢٤٩. د. عبد العزيز الدوري، نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية، ص٩.

لمحتجز حق بعد ثلاث سنين»[1] ونشأت الملكيات الاولى في الكوفة من الصوافي[2] فقد كتب عمر بن الخطاب بشأن الصوافي: «ان اعمدوا الى الصوافي التي اصفاكموها الله فوزعوها على من افاءها الله عليه. اربعة اخماس للجند، وخمس في مواضعه اليّ. وان احبوا ان ينزلوها فهو الذي لهم»[3] كما كتب سعد بن ابي وقاص الى عمر بن الخطاب «انا اخذنا ارضا لم يقاتلنا اهلها فكتب اليه عمر (رض) ان شئتم ان تقسموها بينكم فاقسموها وان شئتم ان تدعوها فيعمرها اهلها فمن جاء منكم بعد ذلك كان له فيها نصيب، فاني اخاف ان تشاحنوا فيها وفي شربها فيقتل بعضكم بعضا»[4] ويبدو ان قسما من الصوافي قد اقطعت كما اسلفنا. وعدّت بعامة فيئا وملكا للمحررين فقط اذ اوقفت لهم[5] والى جانب ذلك وجد شراء ارض الخراج في هذه الفترة ولم يكن محرما برغم انه كان مكروها فاشترى كثير من الصحابة ارض خراج[6] وهذا الامر شكل من اشكال ملكية الارض ايضا.

وانتبه العرب الى اهمية امتلاك الارض في زمن عمر واستخدموا الفلاحين في مجال الزراعة في اذربيجان «واخبرني واقد ان العرب لما نزلت اذربيجان نزعت اليها عشائرها من المصرين والشام وغلب كل قوم على ما امكنهم وابتاع بعضهم من العجم الارضين والجئت اليهم القرى للخفارة فصار اهلها مزارعين لها»[7].

(١) ابو يوسف الخراج ص ٣٥. د. عبدالعزيز الدوري، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام، ص ٧٧.

(٢) ابن آدم، الخراج، ص ٣٠. ابن سلام، الاموال، ص ٥١٢ – ص ٥١٣. الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٧٢.

(٣) ابن سلام، المصدر نفسه، ص ٥١٢ – ص ٥١٣. الماوردي، المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(٤) ابن سلام، المصدر نفسه، ص ٥١٢ – ص ٥١٣. ابن آدم، المصدر السابق، ص ٣٠

(٥) ابن آدم، المصدر نفسه، ص ٦٦.

(٦) جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق في صدر الاسلام، ص ٢٤٩. د. عبدالعزيز الدوري، نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية، ص ٩.

ويلاحظ ان قبيلة بجيلة قد منحت ربع السواد فأكلته لثلاث سنين[1] ولا يجب ان يتبادر الى الذهن انها قد اخذت ربع الارض المحررة لانها كانت فيئاً للمسلمين ولم تقسم، والراجح انها اخذت ربع وارد الصوافي يعزز ذلك انها كانت تطالب بتنفيد وعد عمر لها اذ اخذت ربع خمس الغنائم بعد معركة البويب[2] وان الصوافي وزعت في البداية على العرب ثم عدل عمر عن ذلك لعدم موافقة القبائل على قسمتها فيما بينها»[3] ولذا فان عمر استرجعها منها وقال لجرير البجلي: «يا جرير اني قاسم مسؤول، لولا ذلك لسلمت لكم ما قسمت لكم، ولكني أرى ان يرد على المسلمين، فرده جرير»[4] ويروى انه صالح بجيلة «من ربع السواد على ان فرض لهم في الفين من العطاء»[5].

وفي الشام امتلك العرب الارض عن طريق احياء الموات والاستحواذ على الاراضي التي غادرها اصحابها «كل عشري بالشام فهو مما جلا عنه اهله فاقطعه المسلمون فأحيوه وكان مواتالا حق فيه لاحدفاحيوه باذن الولاة»[6] كما امتلكوها عن طريق شراء ارض الصلح الخراجية. ويالفرات ارضون اسلم اهلها حين دخلها المسلمون وأرضون خرجت من ايدي اهلها الى قوم مسلمين بهبات وغير ذلك من اسباب الملك فصيرت عشرية وكانت خراجية»[7] وهذا يعني ان امتلاك ارض الخراج من قبل العربي المسلم يخضع لضريبة العشر لا الخراج في هذه الفترة. وبعد فتح دمشق امتلك العرب دورا ومنازل تركها اهلها «ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من اهلها بهرقل وهو بانطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها

(١) ابو يوسف، الخراج، ص٣٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٦٧.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٤٧٠.
(٣) جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق في صدر الاسلام، ص٩٣.
(٤) ابو يوسف، الخراج، ص٣٢. ابن سلام، الاموال، ص٦١. ابن آدم، الخراج، ص٤٥.
(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٦٧.
(٦) المصدر نفسه، ص١٥٧.
(٧) المصدر نفسه، ص٣٦١.

المسلمون»[٨] واعطيت القبائل اراض للزراعة والرعي[١]، كما اعطيت اراض قرب مراكز الاجناد، وخاصة في دمشق وحمص، وفي اماكن استراتيجية في الشمال ـ على نهر العاصي ـ وفي المناطق الساحلية، وكانت هذه الاراضي عادة خالية او من الموات[٢].

ووجدت قبائل عربية جنوبية وشمالية قبل الفتح تملك الارض وتعمل بالزراعة»[٣].

عرفنا سابقا ان الارض ابقيت بيد اهالي مصر، واذا عرفنا ان «وثائق البردي تدلنا على انه كان يحق لاهالي مصر التصرف في الاراضي بالبيع والشراء والتوريث والهبة»[٤] جاز لنا ان نفترض امكانية شراء الارض منهم من قبل العرب المسلمين، وهنالك نص يوحي بامتلاك العرب للارض الخاصة بالزراعة والرعي، فعمرو بن العاص يخاطب الجند قائلا: «فحي لكم على بركة الله الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده واربعوا خيلكم واسمنوها وصونوها وأكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم واثقالكم واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا..»[٥].

ويرجع احد الباحثين ان هذه الارض هي اراضي البيزنطيين الهاربين[٦]، اي انها غير الارض الخاصة بالقبط الذي ضرب عليها الخراج، ووجدت في نفس

(٨) المصدر نفسه، ص١٢٩.

(١) د. عبد العزيز الدوري، العرب والارض في الشام في صدر الاسلام، ص٢٧. ويرى د. شكري فيصل في المجتمعات الاسلامية ص٧٧ «ان العرب لم يحوزا ارض قيصر كما فعلوا بالعراق وانما اباحوها للسكان انفسهم» وهذا الامر في تقديرنا يخالف الحقيقة فابن عساكر يقول: «ان بدء هذه القطائع كانت من الارضين التي كانت تحت يد انباط القرى فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة عما كان في ايديها من المزارع فلحقت بارض الروم ومن قتل منها في تلك المعارك التي كانت بين المسلمين والروم فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين» التاريخ الكبير، ص١٨٣.

(٢) د. عبد العزيز الدوري، الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب، ص٧٣.

(٣) د. محمد امين صالح، التظم الاقتصادية في مصر والشام، ص٣٠٠.

(٤) المرجع نفسه، ص١٢٩.

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٤٠.

(٦) د. الحبيب الجنحاني، نظام ملكية الارض في المغرب الاسلامي القرن ١ ـ ٦هـ/١٢/٧م، ص٣٦.

الوقت قطائع في الفسطاط اعدت لتشييد الدور والمنازل «لما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل موضع فسطاط انضمت القبائل بعضها الى بعض وتنافسوا في المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج وشريك بن سمّي الغطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني وحيويل بن ناشرة المغافري، وكانوا هم الذين انزلوا الناس وفضلوا بين القبائل وذلك في سنة احدى وعشرين»[1]. كما اختط عبدالله بن عمرو بن العاص دارا كبيرة[2]، كما اختط الزبير بن العوام بالفسطاط والاسكندرية[3] ولم يكن بالاكسندرية خطط وانما اخائذ نزلها العرب ومن ركز رمحه في دار صارت له، وكانت اكثر من قبيلة تشترك في المكان الواحد[4].

ب ـ الرقيق والرفق بالفلاحين:

لم يكن الرقيق في هذه الفترة واحدا ولا متجانسا فقد وجدت اجراءات حدت من التوسع في الرق، كما وجدت ظروف موضوعية ساعدت على بقاء الرق، ومع ان فلهوزن يرى ان الاسرى كانوا يقسمون بين المحاربين[5] فان هذا الرأي يعبر عن جانب من الحقيقة ويطمس الجوانب الاخرى، فما من شك انه قد حصل سبي في حروب التحرير، فيروى ان خالد بن الوليد «سبى في مخرجه من الحيرة الى ان انتهى الى دمشق خمسة آلاف رأس»[6] كما «اصاب المسلمون يوم جلولاء غنيمة لم يغنموا مثلها قط، وسبوا سبيا كثيرا من بنات احرار فارس، فذكروا ان عمر بن الخطاب (رض) كان يقول: اللهم اني اعوذ بك من اولاد سبايا الجلوليات»[7].

(١) المقريزي، الخطط المقريزية، ص٢٩٧.
(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر. ص٩٧.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢١٦. ابن سلام، الاموال، ص٨٥.
(٤) البكري، جغرافية مصر من كتاب المسالك والممالك. ص١١٧.
(٥) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص٢٩ ـ ص٣٠.
(٦) ابو يوسف، الخراج، ص١٤٧.
(٧) الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٢٩.

وحصل سبي واسع في قيسارية . . وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي في اسناده ان سبي قيسارية بلغوا اربعة آلاف رأس، فلما بعث به معاوية الى عمر بن الخطاب امـر بهم فانـز لـوا الجرف ثم قسمهم على يتامى الانصار وجعل بعضهم في الكتاب والاعمال للمسلمين، وكان ابوبكر الصديق (رض) اخدم بنات ابي امامة اسعد بن زرارة خادمين من سبي عين التمر فماتا فاعطاهن عمر مكانهما من سبي قيسارية[1] .

كمـا ان بعض سبي مصـر وزع في المـدينـة ومكـة واليمن «عن زياد بن جزء الـزبيـدي، انـه كان في جند عمرو بن العاص حين افتتح مصر، قال: لما انتهينا الى بلهيب، ارسل صاحب الاسكندرية الى عمرو، وسأله في رد السبايا . . واقمنا ننتظر كتاب عمر حتى جاءنا فقرأه علينا عمرو بن العاص وفيه: اما بعد: فانه جاءني كتابك تذكر ان صاحب الاسكندرية عرض ان يعطيك الجزية، على ان ترد ما أصيب من سبايا ارضه ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين، احب اليّ من فيء يقسم، ثم كأنـه لم يكن، فاعـرض على صاحب الاسكنـدريـة ان يعطيـك الجـزيه، على ان تخيروا من في ايديكم من سبيهم بين الاسلام وبين دين قومه فمن اختـار منهم الاسـلام فهـو من المسلمين . له مالهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على اهل دينه . فأما من تفرق من سبيهم بارض العرب، فبلغ مكة والمدينة واليمن، فانا لا نقدر على ردهم ولا نحب ان نصالحهم على أمـر لانفي به»[2] وعقـدت اتفـاقيـة بين العرب المسلمين واهل النوبة على ان يعطوا ثلثمائة رأس في كل سنة مقابل اعطاء العرب الطعام لهم[3] كما حدث سبي في تستـر ووزع على الجنـد[4] وتم اجـراء عند فتح الطابلس كان من شأنه ان يخلق

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٤٧ . قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٣٠٢ .
(٢) د. محمد حميد الله، ص٢٣٨ . مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٨٩ .
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٣٨ . د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، ص٢٦٢ .
(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص١١٩ .

عبودية، اذ صولح اهلها «على الجزية ان يبيعوا من احبوا من ابنائهم في جزيتهم»[1] ويظهر انه قد حصل سبي واسع في العراق مما حدا بكبار الاشراف في السواد بقيادة الرفيل ان يشكوا من ذلك: «ان الرفيل ورؤوسا من رؤوس اهل السواد أتوا عمر، فقالوا: يا أمير المؤمنين انا كنا قد ظهر علينا اهل فارس، فأضروا بناء واساءوا الينا. . فلما جاء الله بكم اعجبنا مجيؤكم، وفرحنا. فلم نهدكم عن شيء، ولم نقاتلكم، حتى اذ كان بأخرة بلغنا انكم تريدون ان تسرقونا. فقال له عمر: فالآن فان شئتم فالاسلام، وان شئتم فالجزية والا قاتلناكم. قال: فاختار الجزية»[2] ويبدو انه حدث استخدام واسع للرقيق وطالب بعضهم بزيادة الانفاق «اتى رهط الى عمر فقالوا له: كثر العيال واشتدت المؤونة فزدنا في عطائنا. قال: فعلتموها بين الضرائر واتخذتم الخدم من مال الله»[3].

واتسم موقف عمر بن الخطاب من الرقيق بحس قومي اذرد سبايا الردة الذين استرقهم ابوبكر الى اهلهم: «. . وكان اول ما عمل به عمر أنه رد سبايا اهل الردة الى عشائرهم وقال: اني كرهت ان يصير السبي سنة على العرب»[4] وكان «اول من نهى عن بيع امهات الاولاد»[5]. ويتضح انه اراد ان يقسم السبي بين الجند في البداية، الا ان الرأي استقر ان يكونوا مادة للمسلمين[6] ولذا نجده يأمر برد سبي مناذر وميسان وتستر[7] كما ارجع سبي الاهواز «رأيتنا الاهواز وبها ناس من الزط والاساورة فقاتلناهم قتالا شديدا، فظفرنا بهم فاصبنا سبيا كثيرا اقتسمناهم، فكتب الينا عمر انه لا طاقة لكم بعمارة الارض فخلوا ما في ايدكم من السبي واجعلوا

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص١١٦.
(٢) ابن سلام، الاموال، ص١٣٩، ابن آدم، الخراج، ص٥٠.
(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص١٢٨.
(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٢٨.
(٥) ابن الاثير، المصدر السابق، جـ٣، ص٥٩.
(٦) ابو يوسف، الخراج، ص٣٦.
(٧) ابن سلام، الاموال، ص١٣٩ وص١٨٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٧١.

عليهم الخراج فرددنا السبي ولم نملكهم»[1] اي ان الاتجاه العام لعمر كان عدم استرقاق اهل البلاد المحررة كما انه رد سبي مصر، وامر الاّ يجعلوا فيئا ولا عبيدا[2]، ويظهر ان السبي الذي تم في بداية حروب التحرير كان ينطلق من اعتماد مبدأ المعاملة بالمثل اذ كان المقاتل العربي المسلم حين يؤسر يصبح في عداد الرقيق، ولذا كان لابد من اجراء لحماية المحررين، فكان الاسترقاق ابتداء وكان من النادر ان يعمل العبيد الارقاء في الزراعة»[3] وعلينا ان ننبه الى ان هروب وموت الاقطاعيين في حروب التحرير قد انهى استرقاق كثير من العبيد وجعلهم يستعيدون حريتهم، كما عدّ وضع الرقيق شاذا لان المجتمع الأسلامي يرتكز على مبدأ يرى انه كتلة مشتملة على اشخاص متساوين من حيث المبدأ، ولم يكن ليوجد في هذا المجتمع فئات مغلقة وصارمة تنفرد كل واحدة منها بنظام خاص للطبقات[4].

هنالك رأي يتبنى فكرة ان عدّ الفلاحين ارقاء قد اتخذ شكلا قانونيا[5]، وهذا الرأي يستند الى تبريرات فقهية بالدرجة الاولى، وحتى الجانب الفقهي كان له اكثر من وجهة نظر في امر استرقاق الفلاحين «فان قسم الامام الارض بين من غلب عليها صارت عشرية واهلها رقيق. . وان لم يقسمها وتركها للمسلمين كافة فعلى رقاب اهلها الجزية وقد عتقوا بها وعلى الارض الخراج وهي لاهلها وهو قول ابي حنيفة»[6] اما على المستوى العملي بشأن الفلاحين فان عمر بن الخطاب قال:

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٧. ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص٨٨.

(٣) احمد صادق سعد، تاريخ مصر الاجتماعي، ص٤١.

(٤) مكسيم رودنسون، التاريخ الاقتصادي وتاريخ الطبقات، ص١٢ - ص١٣.

(٥) د. خضر الدوري، لمحات في حياة الطبقة الفلاحية في العراق الوسيط، ص١٢٢. ومقابل ذلك نجد. د. عبد العزيز الدوري يقول: «ان العرب حرروا الفلاحين من عبودية الارض، وجعلوا الفلاح مسؤولا بصورة مباشرة عن ضرائبه» مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص٢٥.

(٦) قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٢٠٧.

«اتقـوا الله في الفـلاحين . لا تقتلوهـم الا ان ينصبـوا لكـم الحـرب»[1] كمـا انـه ترك الارض والامـوال في ايـديهم وكـانـت لهم صلاحيـة بيـع الارض[2] وقد اقرهـم على ارضهم واطلق السبي منهم وضـرب عليهم الخـراج[3] وقـد كتب الى سعـد بن ابي وقـاص بشأن الفـلاحين : «امـا من أقام ولـم يحل وليس له عهد ، فله ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم اجابة ، وكذلك الفلاحون اذا فعلوا ذلك . وكل من ادعى ذلـك فصـدق فلهم الـذمـة ، وان كذبـوا نبـذ اليهم . واما من أعان وجلا ، فذلك امر جعله الله لكم . فان شئتم فادعـوهم الى ان يقيمـوا لكم في ارضهم ولهم الـذمـة وعليهم الجـزيـة . وان كرهـوا ذلـك فاقسمـوا ما أفـاء الله عليكم منهم»[4] واختلفت طريقـة معـاملة الفـلاحين بسبب موقفهم من العـرب المحـررين» وسـار خالـد في الفـلاحين بسيـرتـه فلم يقتلهم وسبي ذرارى المقاتلة ومن اعانهم ودعا اهل الارض الى الجزاء والذمة[5] .

وقـد أقـر العـرب الـدهاقين على عملهم بسبب عدم توفر الفرصة للتنظيم في البـدايـة ولـلاستعـانـة بخبراتهم وعقدت مع العديد منهم معاهدات «كان الدهاقين يتـربصـون بخـالـد وينظرون ما يصنع بأهل الحيرة . فلما استقام ما بين اهل الحيرة وبين خالـد . واستقـامـوا له أتته دهاقين المطاطين ، وأتاه زاذ بن بهيش دهقان فرات سريـا . وصلوبـا بن نسطونا بن بصبهري . . فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هرمز جرد على الفي الف وقال عبيدالله في حديثه : على الف الف ثقيل وان للمسلمين ما كان لآل كسـرى ومن مال معهم عن المقـام فلم يدخـل في الصلح»[6] ويظهـر ان «بعض الدهاقين قد حافظ على اقطاعياتهم واراضيهم الواسعة عن طريق الاتفاقيات

(١) ابن آدم ، الخراج ، ص٥٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص٤٧ .
(٣) البـلاذري ، فتـوح البلدان ، ص٣٧٠ . اذ يقـول : «فكتب الينـا عمـر انـه لا طاقة لكم بعمارة الارض فخلوا مافي ايديكم من السبي واجعلوا عليهم الخراج فرددنا السبي ولم نملكهم» .
(٤) د . محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص٣٣٦ .
(٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٣ ، ص٣٥٤ .
(٦) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٣٦٨ .

اثناء الفتح كما في ايران اوبدخولهم الاسلام كما في العراق واستمروا يجبون الضرائب. الا ان انتشار الاسلام اضعف بالتدريج من سلطتهم، كما ان توسع الملكيات بين العرب انقص اراضيهم احياناً»[1] وقد بقوا مسؤولين تماما عن جمع الضرائب من السكان حتى سنة ٢١هـ[2]. وهكذا يظهر ان اوضاع الرقيق كانت غير متجانسة من حيث الموقف وان ثم فوارق وعوامل ساعدت على تقليص عدد الرقيق على حين وجدت عوامل زادت من عددهم، اما عن الفلاحين فقد عوملوا بطريقة جيدة وكان الاتجاه العام للدولة الرفق بهم وتخليصهم من عبودية الارض، واذا كان بعضهم قد ارتبط بالدهاقين فلأن هؤلاء ارادوا ذلك وبرروه امام بعض القادة المحررين كما حصل عندما قال احدهم لسعد بن ابي وقاص: «انما هؤلاء علوج لاهل فارس لم يجروا عليك، فدعهم اليّ حتى يفرق الله لكم الرأي»[3]. والواقع ان السبي قد وقع كاجراء عسكري مؤقت استنادا الى الاعراف التي كانت جارية فلما بلغت الاخبار عمر، امر بتحرير ما أمكن تحريره من السبي ثم اقر القاعدة الاسلامية المتمثلة في الاسلام او الجزية.

جـ ـ الديوان والعطاء:

نجم عن حروب التحرير العربية الاسلامية، تدفق ثروات واموال، وكانت فترة ابي بكر قد شهدت العطاء على التسوية، ويظهر انه منذ تلك المرحلة وجدت

(١) د. عبد العزيز الدوري، نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية، ص١١.

(٢) ابو هلال العسكري، الاوائل، ص١٣٥. جمال محمد جودة، العرب والارض في صدر الاسلام، ص١٠٩.

ويتحدث البلاذري عن بقاء بعض دهاقين العراق بعد حروب التحرير في الفترة التي اعقبت معركة جلولاء قائلا: «وانصرف سعد بعد جلولاء الى المدائن، فصيربها جمعا، ثم مضى الى ناحية الحيرة وكانت وقعة جلولاء في آخر سنة ستة عشرة، قالوا: فأسلم جميل بن بصهرى دهقان الفلاليج والنهرين وبسطام بن نرسى دهقان بابل وخطرنية والرفيق دهقان العال وفيوز دهقان نهر الملك وكوثى وغيرهم من الدهاقين، فلم يعرض لهم عمر بن الخطاب، ولم يخرج الارض من ايديهم وأزال الجزية عن رقابهم»، فتوح البلدان، ص٢٦٥.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٥.

اصوات تدعو الى التفضيل في العطاء. . «قال فجاء ناس من المسلمين فقالوا: يا خليفة رسول الله، انك قسمت هذا المال فسويت بين الناس، ومن الناس اناس لهم فضل وسوابق وقدم: فلو فضلت اهل السوابق والقدم بفضلهم، قال فقال: اما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما اعرفني بذلك؟ وانما ذلك ثوابه على الله جل ثناؤه وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الاثرة»[1] وقد كانت الاموال التي وزعت قسما واحدا، فكان ذلك نصف دينار لكل انسان[2] «كما انه كان ساوى بين الصغير والكبير، والحر والمملوك، والذكر والانثى، فخرج على سبعة دراهم وثلث لكل انسان. فلما كان العام المقبل جاء مال كثير هو اكثر من ذلك فقسمه بين الناس فاصاب كل انسان عشرين درهماً[3] وهذا الامر يدل على موقف اجتماعي ويخالف ما ذهب اليه احمد عباس صالح من ان الاثرياء قد استفادوا من الوسط الذي يمثله ابو بكر[4]، فمن جهة كان شديدا على قادة قريش وصارما معهم[5] ومن جهة اخرى لم يترك ثروة عند وفاته اذ كان يتطير من المال ويراه من اسباب الخطيئة[6] كما انه كان ذكيا وهو يرصد ملامح التحول الاجتماعي والمالي لبعض كبار الصحابة ويوجه عمر للتصدي له[7].

وقد كان العطاء قبل ان يدون عمر الديوان «لما قدم على عمر (رض) بأخماس فارس قال: والله لا يجنها سقف دون السماء حتى اقسمها بين الناس. قال: فأمر بها فوضعت بين صفي المسجد وأمر عبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن

(١) ابو يوسف، الخراج، ص٤٢. ابن حنبل، كتاب الزهد، ص١١٠.
(٢) ابن سلام، الاموال، ص٢٦٣.
(٣) ابو يوسف، المصدر السابق، ص٤٢.
(٤) احمد عباس صالح، اليمين واليسار في الاسلام، ص٥٩.
(٥) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٢٩٩. المقريزي، النزاع والتخاصم، ص١٧.
(٦) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص١٣٩. المدائني، كتاب المردفات من قريش، ص٦٢. ابن حنبل، كتاب الزهد، ص١٠٩. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٧٩.
(٧) ابو يوسف، الخراج، ص١١ ـ ص١٢. اذ يورد ان ابا بكر اوصى عمر قائلا: «وأحذر هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله من الذين قد انتفخت اجوافهم وطمحت ابصارهم واحب كل امري منهم لنفسه».

ارقم فباتا عليها ثم غدا عمر (رض) بالناس عليه فأمر بالجلاليب فكشفت عنها فنظر عمر الى شيء لم تر عيناه مثله من الجوهر واللؤلؤ والذهب والفضة فبكى: فقال له عبد الرحمن بن عوف: هذا من مواقف الشكر فما يبكيك؟ فقال: اجل، ولكن الله لم يعط قوما هذا الّا القى بينهم العداوة والبغضاء. ثم قال: انحثولهم او نكيل لهم بالصاع؟ قال: ثم اجمع رأيه على ان يحثولهم فحثا لهم قال: وهذا قبل ان يدون الدواوين»[1] والمرجح ان تدوين الديوان كان عام ٢٠هـ ومعه وضع العطاء على التفضيل[2] وكان قبل ذلك على التسوية[3] ويبدو ان التفكير بانشاء الديوان كان بعد اتساع الفتوح كي تتفرغ الامة للجهاد وتنظم حياتها على هذا الاساس، فبعد ان جاء ابو هريرة المدينة باموال كثيرة خاطبهم عمر: «انه قدم علينا مال كثير، فان شئتم ان نعد لكم عدا وان شئتم ان نكيله لكم كيلا، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين اني قد رأيت هؤلاء الاعاجم يدونون ديوانا يعطون الناس عليه. قال فدّون الديوان»[4] وكان الديوان في هذه الفترة سجلا يحتوي اسماء الذين فرض لهم العطاء «رأيت عمر بن الخطاب (رض) يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديدا فنأتيه بقديد، فلا يغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب، فيعطيهن في ايديهن، ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك حتى توفي..[5] وقد أثار العطاء تخوف بعض العرب من التجارة «ان عمر بن الخطاب لما هم بفرض العطاء، شاور المهاجرين فيه، فرأوا ما رأى من ذلك صوابا. ثم شاور الانصار، فرأوا ما رأى اخوانهم من المهاجرين في ذلك، ثم شاور مسلمة الفتح فلم يخالفوا رأي المهاجرين والانصار، الّا حكيم بن حزام فانه قال لعمر بن الخطاب: ان قريشا اهل تجارة، ومتى فرضت لهم العطاء، خشيت ان

(١) ابو يوسف، الخراج، ص٤٧.
(٢) جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق، ص١٨٩. د. صالح العلي، العطاء في الحجاز، ص٤٠.
(٣) د. عبد العزيزي الدوري، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام، ص٧٨.
(٤) ابو يوسف، الخراج، ص٤٩. الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٩. البيهقي، السنن الكبرى، جـ٦، ص٣٥. النويري، نهاية الارب في فنون الادب، جـ٨، ص١٩٨. القلقشندي، مآثر الاناقة في معالم الخلافة، جـ٣، ص٣٣٥.
(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢١١.

يأتلكوا عليه فيدعوا التجارة فيأتي بعدك من يحبس عنهم العطاء وقد خرجت منهم التجارة»[1] استقر رأي عمر في العطاء على التفضيل وبرر ذلك بقوله: «لا اجعل من قاتل رسول الله (ص) كمن قاتل معه»[2]. اي انه سعى لتأكيد مركزة الايمان من جهة وعدم الاكتراث بالنسب في هذا المجال: «واعطى العطايا على السابقة. واعطى صفوان بن امية والحارث بن هاشم وسهيل بن عمرو في اهل الفتح اقل مما اخذ من قبلهم، فامتنعوا من اخذه وقالوا: لا نعترف ان يكون احد اكرم منا. فقال: اني انما اعطيتكم على السابقة في الاسلام لا على الاحساب. قالوا: فنعم اذا واخذوا..»[3] وقد راعى في التفضيل شرف القرابة من النبي (ص)، فقدم بني هاشم على غيرهم من القبائل[4] ويقال انه فرض للعباس في اثني عشر الفا، ولعلي بن ابي طالب في ثمانية آلاف ثم الاقرب من بني هاشم وحلفائهم ومواليهم واعدادهم ثم سائر بني عبد مناف، ثم قبائل قريش ثم المهاجرين ثم الانصار»[5] ومع ان عمر برر رأيه في التفضيل الا ان بعض الاصوات عارضت ذلك فكان يعدل في العطاء تارة ويبرر التفضيل تارة اخرى، اذ قال: «ان ابا بكر (رض) رأى في هذا المال رأيا ولي فيه رأي آخر، لا اجعل من قاتل رسول الله (ص) كمن قاتل معه، ففرض للمهاجرين والانصار ممن شهد بدرا خمسة آلاف، وفرض لمن كان اسلامه كاسلام اهل بدر ولم يشهد بدرا اربعة آلاف، وفرض لازواج النبي (ص) اثني عشر الفا اثني عشر الفا الاّ صفية وجويرية فانه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف، فأبتاً أن تقبلا، فقال لهما انما فرضت لهن للهجرة. فقالتا: لا انما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله (ص) وكان لنا مثله. فعرف ذلك عمر ففرض لهما اثني عشر الفا، وفرض

(١) الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش واخبارها، ص٣٧٣. د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص١٥.
(٢) ابو يوسف، الخراج، ص٤٢.
(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٥٠٢.
(٤) خليفة بن خياط، كتاب الطبقات، ص٣٤ ـ ص٣٥.
(٥) المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٥، ص١٦٨ ـ ص١٦٩، السدوسي، كتاب حذف من نسب قريش، ص٧.

للعباس عم رسول الله (ص) اثني عشر الفا، وفرض لاسامة بن زيد اربعة آلاف وفرض لعبدالله بن عمر ـ ابنه ـ ثلاثة آلاف. فقال: يا أبت لم زدته عليَّ الفا، ماكان لابيه من الفضل مالم يكن لأبي. وما كان له مالم يكن لي، فقال: ان ابا اسامة كان احب الى رسول الله (ص) من ابيك وكان اسامة احب الى رسول الله منك، وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف، خمسة آلاف، الحقهما بأبيهما لمكانهما من رسول الله (ص) وفرض لابناء المهاجرين والانصار الفين الفين، فمر عمر بن ابي سلمة فقال: زيدوه الفا، فقال له محمد بن عبدالله بن جحش: ماكان لابيه مالم يكن لابنائنا، وما كان له مالم يكن لنا. فقال: اني فرضت له بأبيه ابي سلمة الفين وزدته بأمه ام سلمة الفا، فان كان لك ام مثل ام سلمة زدتك الفا. وفرض لاهل مكة والناس ثمانمائة ثمانمائة، فجاء طلحة ابن عبيدالله باخيه عثمان ففرض له ثمانمائة فمر به النضر بن أنس فقال عمر: افرضوا له الفين. فقال طلحة: جئتك بمثله ففرضت له ثمانمائة وفرضت لهذا الفين. فقال: ان ابا هذا لقيني يوم احد فقال: ما فعل رسول الله (ص) فقلت ما أراه الا قد قتل سيفه وكسر غمده وقال: ان كان رسول الله قد قتل فان الله حي لا يموت، فقاتل حتى قتل، وأبو هذا يرعى الشاء في مكان كذا وكذا. .»[1] وهذا النص يرينا صراحة ان تفضيل عمر في العطاء اتخذ وجهتين، الاولى مركزة الاسلام والسبق في الايمان، والثانية تعزيز شرف آل النبي، كما ان عطاء اهل مكة لا ينسجم والنص الذي يقول: «ان عمر كان لا يعطي اهل مكة عطاء ولا يضرب عليهم بعثاً»[2] اذ انه كان يعطي كل من اسهم في الجهاد[3] فقد قال: «من اسرع الى الهجرة اسرع به إلى العطاء ومن ابطأ عن الهجرة ابطأ عنه العطاء فلا يلومن رجل الّا مناخ راحلته»[4].

(١) ابو يوسف، الخراج، ص٤٣. علينا ان نتحفظ بشأن عطاء العباس وتفضيله على علي لانه حالة تخرج عن سياق نهج عمر في العطاء، وربما كان من وضع الاجيال التالية في ظل الخلافة العباسية بالذات.

(٢) ابن سلام، الاموال، ص٢٣١.

(٣) د. صالح العلي، العطاء في الحجاز، ص٤١.

(٤) ابن سلام، المصدر السابق، ص٢٢٣ ـ ص٢٢٤.

ونخلص من نص ابي يوسف بما يأتي :

١ ـ عدّت معركة بدر الاساس في اعطاء اعلى عطاء فكان اهل بدر يأخذون خمسة آلاف درهم.

٢ ـ فرض لمن كان اسلامه كاسلام اهل بدر اربعة آلاف درهم. والمقصود بهم مهاجرة الحبشة الذين عادوا بعد الحديبية[(١)].

٣ ـ فرض عمر لاهل مكة المشتركين في الجهاد ثمانمائة درهم.

٤ ـ فرض لابناء البدريين الفي درهم، وهذا يعني ان بعض البدريين كان يأخذ اكثر من غيره في حالة وجود اكثر من ابن له، وأمر كهذا من شأنه ان يخلق تفاوتا في الثروة.

٥ ـ اعطى عمر بعض المسلمين عطاء خاصا، فقد فرض للعباس اثني عشر الف درهم وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف درهم، في حين فرض لابنه عبدالله ثلاثة آلاف درهم.

٦ ـ اعطى نساء النبي (ص) كل واحدة اثني عشر الف درهم لمكانتهن الدينية وقربهن من النبي (ص).

وشهدت فترة عمر اعطاء الرضيع من اهالي الحاضرة، اذ كان يعطي اهله مائة درهم[(٢)]، كما اعطى النساء عطاء متفاوتا وفق الاسس التي اعتمدها في التفضيل فاختلف عطاء المهاجرات ونساء البدريين عن غيرهن مثلما اختلف عطاء نساء النبي عن غيرهن [(٣)]. وقد قطع عمر العطاء عن العبيد[(٤)] ولكنه اعطى العرب

(١) ابويوسف، الخراج، ص٤٤. البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٣٧. د. صالح العلي، العطاء في الحجاز، ص٤٤.

(٢) ابن سلام، الاموال، ص٢٤٠ ـ ص٢٤١. البلاذري، المصدر نفسه، ص٤٣٩.

(٣) د. صالح العلي، المرجع السابق، ص٤٨ ـ ص٤٩.

(٤) ابويوسف، الخراج، ص٤٦.

والموالي وفق التفضيل[١]. وكان التفضيل في العطاء على مستوى الامصار. قد جاء استجابة لحاجة موضوعية اذ «ان سيل الروادف، او المهاجرة، الى الامصار بعد القادسية واليرموك اتسع، وان اعطاء القادمين الجدد نفس العطاء الذي يعطى للمسلمين الاولين ادى الى شكوى اهل الايام واهل القادسية واليرموك، والى الشعور بضرورة التفاضل في العطاء»[٢] واتخذ قرار بأن «تكون واردات البلاد وقفا على المقاتلين ومن يهاجر اليهم وليس فيها خمس للخليفة كالغنيمة»[٣].

وعليه فقد فرض عمر للمقاتلين الاولين من اهل القادسية واليرموك الفي درهم وفضل عليهم اهل البلاء والشجاعة ففرض لهم الفين وخمسمائة[٤] وفرض لمن بعد القادسية واليرموك الف درهم[٥] على حين فرض للروادف عطاء تراوح بين مائتي الى خمسمائة درهم[٦] وكان يعطيهم الارزاق من - قمح وزيت وخل - بالتساوي وتوزع على الجند وعوائلهم[٧] وقد حصلت معارضة من اهل القادسية لان اهل الايام فضلوا عليهم، فقد قالوا لعمر: «لو الحقت اهل القادسية باهل الايام، فقال: لم أكن لالحقهم بدرجة من لم يدركوا. وقيل له: قد سوّيت من بعدت داره بمن قربت داره وقاتلهم عن فنائه. فقال: من قربت داره أحق بالزيادة لانهم كانوا ردء للحتوف وشجىً للعدو، فهلا قال المهاجرون مثل قولكم حين سوينا بين السابقين منهم والانصار، فقد كانت نصرة الانصار بفنائهم وهاجر اليهم المهاجرون من بعد»[٨].

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٣٧.
(٢) د. عبد العزيز الدوري، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام، ص٧٨. جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق في صدر الاسلام، ص١٩٣.
(٣) جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق، ص١٩٢.
(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٥٠٣.
(٥) المصدر نفسه، جـ٢، ص٥٠٣.
(٦) المصدر نفسه، جـ٢، ص٥٠٣.
(٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٦٦. د. عبد العزيز الدوري، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام، ص٧٩.
(٨) ابن الاثير، المصدر السابق، جـ٢، ص٥٠٣.

ويبدو انه قد عدل من موقفه جزئيا فيما بعد، اذ زاد من ابلى حسنا من اهل القادسية وجعل عطاءهم الفين وخمسمائة درهم[1] ويروي الطبري ان اهل الايام فضلوا على اهل القادسية، وفرض لهم في ثلاثة آلاف درهم[2] واعطى عمر اهل القرآن عطاءاً اذ كتب الى بعض عماله: أن اعط الناس على تعلم القرآن»[3] كما فرض لاكثر من دهقان اسلم الفين من الدراهم[4] وقد فرض عمر للاساورة في شرف العطاء انسجاما مع الاعتبارات العملية فقد «كان سياه الاسوارى على مقدمة يزدجرد، ثم انه بعث به الى الاهواز فنزل الكلبانية وابوموسى الاشعري محاصر السوس، فلما رأى ظهور الاسلام وعز اهله وان السوس قد فتحت والامداد متتابعة الى ابي موسى ارسل اليه: انا قد احببنا الدخول معكم في دينكم على ان نقاتل عدوكم من العجم، وعلى انه ان وقع بينكم اختلاف لم نقاتل بعضكم مع بعض، وعلى انه ان قاتلنا العرب منعتمونا منهم واعتدونا عليهم وعلى ان ننزل بحيث شئنا من البلدان ونكون فيمن شئنا منكم، وعلى ان نلحق بشرف العطاء ويعقد لنا بذلك الامير الذي بعثكم فكتب ابوموسى بذلك الى عمر فكتب اليه عمر: ان اعطهم جميع ما سألوا، فخرجوا حتى لحقوا بالمسلمين وشهدوا مع ابي موسى حصار تستر»[5].

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٥٦٨. ابن الجوزي، عمر بن الخطاب، ص٧٧. جمال محمد جودة، العرب والارض، ص١٩٥.

(٢) الطبري، المصدر نفسه، جـ٣، ص٥٦٨.

(٣) ابن سلام، الاموال، ص٢٦١.

(٤) ابو يوسف، الخراج، ص٤٥. ابن آدم، ص٦٠.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٦٦.

كان شرف العطاء «محددا بالفين وخمسمائة درهم.. وكان يدفع في الاصل لاهل الايام والفتوح الاولى مجازاة لهم لاسهامهم في تلك الحروب الخطيرة الاولى». د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري، ص١٥١ ـ ص١٥٢. كما فرض عمر للدهاقين ولبعض حفظة القرآن في الامصار في شرف العطاء. جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق، ص١٠٨ وص٢١٦.

وكـان العطـاء يدفـع في وقتـه المحدد وقد اوصى عمر بذلك . . «ولا تحرمهم عطـايـاهم عنـد محلهـا فتفقـرهم»[1] وفي الامصـار وزع العطـاء عن طريق العرفاء والنقبـاء والامنـاء ولم تقتصـر مهمة العريف على توزيع العطاء فحسب، بل امتدت الى امتـلاكـه القـدرة على اقتـراح بزيادته ضمن الضوابط المعروفة، كما كان ينظم سجـلا يبين فيـه عدد النسـاء والاطفـال والمقـاتلة وتجهيـزاتهم ومقـدار عطـائهم ومـواليهم، اضـافـة الى مسؤوليتهم عن جمع الجند عند النفير وحفظ الامن والنظام ضمن عرافاتهم ومراقبة المشاغبين ومثيري القلاقل والفتن واشعار الحكومة بذلك.
وكانت للعرفاء منزلة جيدة بين افراد العشيرة اذ كان العريف في الغالب سيدا وشريفا في قومـه وكـان بعضهم يتلاعب احيانا بالاموال عندما لا يبلغون الديوان بالوفيات او الغيـاب ويأخـذون عطـاءهم ليقسم بينهم وبين اهـل المتوفى او الغائب[2] ولم تكن «العرافات متساوية في عدد المقاتلة، ولكنها متساوية في مجموع العطاء، والمعتاد ان تضم العرافة افراد قبيلة واحدة وقد تضم عند الضرورة افرادا من عدة قبائل اي ان النسب لم يراع تماما في تسجيل القبائل في الديوان»[3].

ويبـدو ان الخليفـة عمر بن الخطاب كان يوزع كل مدخولات الدولة ولم يبق اي احتيـاط في بيت المـال. . «ودون الدواوين، وفرض العطاء، فجعل لكل واحد من المسلمين نوعـا مقـررا وفـرض لزوجـات الـرسـول (ص) ولسراريه وأقاربه حتى استنفذ الحاصل ولم يدخر في بيت المال شيئا. قالوا: فقام اليه رجل وقال: يا أمير المؤمنين لو تركت في بيوت الاموال شيئا يكون عدة لحادث ان حدث. فزجره عمر وقال: كلمة القاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها. وهي فتنة لمن بعدي. اني لا أعد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله، فهي عدتنا التي بها بلغنا ما

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، جـ٢، ص٤٣.
(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٤٩. د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص١١٥ ـ ص١١٦. جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق، ص٢٠٦.
(3) جمال محمد جودة، المرجع نفسه، ص٢٠١.

بلغناه»[١] اي انه لم يعد العدة لاحتمال ما قد يحدث من المشاكل في المستقبل، اوما يبدومن حاجة جديدة للاموال، وكأن عمر ادرك ان ازدياد عدد المقاتلة في المستقبل سيؤدي الى ازدياد قوة المسلمين وقدرتهم على فتح مقاطعات جديدة، وهذه بدورها تؤدي الى زيادة الدخل فتسد نفقات هؤلاء المقاتلة المنضمين حديثا، ولكن هذا لا يمكن استمراره الى الابد. ثم ان عمر لم يضع قواعد واضحة لترقية من يأخذون العطاء القليل او لاضافة اسماء تحل محل من يتوفى ممن يأخذ العطاء الكبير[٢] «وربما كان موقف عمر محكوما بفهمه للمال بأنه مال الله ويجب ان يوزع على الجميع» والا يبقى احد من المسلمين وان كان في بيته الا اتاه حقه ونصيبه من مال الله»[٣]. ولعل هذا الاجراء قد خلق راحة عند اهل الامصار بشكل عام» قال قدم خالد بن عرفطة العذري عمر، فسأله عما وراءه. فقال: تركتهم يسألون الله لك ان يزيد في عمرك من اعمارهم. ما وطى احد القادسية الّا وعطاؤه الفان. اوخمس عشرة مائة، وما من مولود ذكرا كان او انثى الّا الحق في مائة وجريبين في كل شهر»[٤].

كان العطاء يشكل «اهمية رئيسة في الحياة الاقتصادية ومعيشة الناس، وبالنظر لهذه الاهمية ولكون الدولة هي التي تقوم بتوزيعه، فقد كان له أثر في ازدياد اهمية دور الحكومة في معيشة الناس وتنظيمها، كما انه وفر لها الوسيلة للهيمنة على الناس وحياتهم المعاشية»[٥] ولما كانت الحياة الاقتصادية قد قامت على أساس النظر وان العطاء يوزع وفقها[٦] فانه «يمكن النظر الى العطاء من زاويتين الاولى: بصفته نظاما اجتماعيا ترفيهيا ضمن لعموم العرب المسلمين اموالهم من المقاتلة

(١) ابن القطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٨٣-ص٨٤. د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص١٥١.
(٢) د. صالح العلي، المرجع نفسه، ص١٥١.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢١٦.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٣٩.
(٥) د. صالح العلي، العطاء في الحجاز، ص٣٧.
(٦) د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري، ص٢٧٨.

وذرياتهم موردا ماليا ثابتا، وبذلك خلق منهم طبقة قادرة على الشراء والاستهلاك، والثانية: بصفته نظاما اقتصاديا ادخل الى التعامل اليومي كميات هائلة من النقود الذهبية والفضية. ان العطاء ـ اي الرواتب ـ الذي شمل اغلب العرب أدى الى خلق طبقة من ذوي الدخل الدائم، وهؤلاء تطلبوا شراء المواد الاستهلاكية والكمالية، مما أدى الى حركة اقتصادية واسعة وسيولة نقدية جيدة»[1]، كما ان العطاء الذي فرض للناس ما كان ليقوم لولا الاستناد على القبائل والنسب «وما فرش عمر بن الخطاب، وعثمان بن عقان، وعلي بن ابي طالب (رض) الديوان اذ فرضوه، الّا على القبائل، ولولا علمهم بالنسب، ما أمكنهم ذلك»[2] كما اوجبت العناية بالنسب الرغبة في معرفة حق الخمس ومن تحرم عليه الصدقة[3].

وقد عني عمر بن الخطاب بالنسب فقال لابنه عبد الرحمن: «يا بني انسب نفسك تصل رحمك»[4]، ومع انه فرض العطاء من خلال الاعتماد على القرابة من النبي والسبق في الايمان والاسراع في الجهاد، فان طبيعة الديوان كانت تغذى العناية بالنسب وتعزز العصبية القبلية بين صفوف القبائل اذ ان الاختلاف في العطاء «جعل قبائل معينة تنال امتيازات حرمت منها اخرى لتأخر اسلامها او لبعدها عن البيت الهاشمي. وهذا قد احفظ بعض القبائل على بعض، وبدأت تظهر العصبية الجاهلية من جديد. كما ان ديوان العطاء هذا، قد نبه العرب الى ضرورة العناية بانسابهم.. فبعد ان كانت العصبية العربية في الجاهلية تتغذى بالاعتداد بالانساب والمفاخرات.. اصبحت بعد قيام الدولة الاسلامية ترتبط بالمصالح الاقتصادية مما زاد من حدتها واشاع الفرقة بين فروعها»[5] ومع ان د. صالح العلي يرى ان التباين في العطاء لم يكن واسعا[6]، فاننا نرى غير ذلك اذ ان الحد الادنى للعطاء كان عشر

(١) د. فيصل السامر، نهضة التجارة العربية في العصور الوسطى الاسلامية، ص٦٩.
(٢) ابن حزم الاندلسي، جمهرة انساب العرب، ص٥.
(٣) المصدر نفسه، ص٣.
(٤) القرشي، جمهرة اشعار العرب، ص١٥.
(٥) د. محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، ص٤١٢ ـ ص٤١٣.
(٦) د. صالح العلي، العراق في التاريخ ـ ادارة العراق، ص٣٣٣.

الحـد الاقصى له . ويظهـر ان الخليفـة عمـر قد انتبه الى خطورة التفاوت في العطاء اواخر سني حكمه وفكر في العودة الى التسوية ، فقال : «لئن عشت الى هذه الليلة من قابل لالحقن اخرى الناس باولاهم حتى يكونوا في العطاء سواء»[١] كما يظهر انه كان يمتلك برنامج عمل كان سيسعى الى تطبيقه ويوضح ذلك قوله «والله لئن بقيت لأرامـل اهـل العـراق لأدعنهم لا يفتقرون الى امير بعدي»[٢] وقال : «والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه»[٣] مما يوحي بأن برنامجه في العطاء الجديد كان سيشمل الامصار والجزيرة العربية ، ولكن اغتياله حال دون تطبيق برنامجه المتوقع .

د ـ تطور الامصار والبلدان المحررة في المجال الاقتصادي :

كان استقرار العرب المسلمين في الامصار الجديدة قد تم على اسس قبلية ، فالكـوفـة قد اختطت على هذا الاسـاس . . فتحـول ـ اي سعد بن ابي وقاص ـ الى الكوفة فاختطها واقطع الناس المنازل، وانزل القبائل منازلهم»[٤] وهكذا شأن البصـرة[٥] اذ ان ابـا موسى صرف الخطـط للعـرب وجعل كل قبيلة في محلة[٦] وتم الاستقـرار وفق اسس قبليـة في الفسطاط ايضا ، كما اوضحنا عند حديثنا عن ملكية الارض سابقا ، وقد كانت هذه الامصار بمثابة مراكز عسكرية تميزت بأن سكانها من العـرب المسلمين وان اغلبهم من المقـاتلة الـذين اوكـل اليهم امـر التحـرير وكانوا يأخـذون العطـاء والـرزق[٧] وقد حدثت هجرة واسعة من المدينة الى الامصار ولعل الهجرة الى البصرة تنطبق على بقية الامصار الاخرى، حيث تمت هجرة كثيفة اليها

(١) ابو يوسف، الخراج، ص٤٦ . ابن سلام، الاموال، ص٢٦٤ .

(٢) ابن آدم ، الخراج ، ص٧٦ ـ ص٧٧ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤ ، ص٢١١ .

(٤) البـلاذري ، فتـوح البلدان ، ص٢٧٤ . للتـوسـع انظر ماسينيون في «خطط الكوفة» ص٣٧ ، ص٣٨ ، ص٣٩ ، ص٤٠ ، ص٤١ ، ص٤٢ ، ص٤٣ وما بعدها .

(٥) البلاذري ، المصدر نفسه ، ص٣٤٥ . للتوسع انظر ماسينيون «خطط البصرة وبغداد» ص١٦ ، ص١٧ ، ص١٨ ، ص١٩ ، ص٢٠ وما بعدها .

(٦) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص١١٨ .

(٧) خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات، ص٩.

بعـد معـرفتهم للرخـاء المـوجـود هنـاك من خلال تعريف احد الرسل القادمين الى المـدينـة بذلـك «وآلبـوا على الرسول، يسألونه عن امر البصرة، فقال ان المسلمين يهيلون بها الذهب والفضة هيلا، فرغب الناس في الخروج، حتى كثروا بها وقوى امرهم»[١]، كما حدث في هذه الامصار استقرار لعناصر غير عربية ومن قوميات مختلفـة كالاسـاورة والسيابجة والزط[٢] وكن لهذا الامر شأنه في التطورات السياسية والاقتصـاديـة والفكـريـة فيما بعد، ولما كانت حروب التحرير قد أقرت ثروات اهل البـلاد المحـررة في ايـديهم ولم تصحبهـا عمليـات سلب ونهب[٣] وان الغنـائم قد اخذت من اموال الاغنياء وقصور النبلاء الذين هربوا من المدن. وحتى البلدان التي دخلها العرب بحرب من غير صلح لم ينهبوا مدنها ولم يسلبوا اهلها اموالهم»[٤] وان العـرب المسلمين قد وضعـوا الفضـة والـذهب قيـد التداول في البلاد المحررة وان العطـاء كان يقـوم على النقـود بالـدرجـة الاولى. فقد حدث تطور ملموس في البنية الاقتصـاديـة للامصـار والبلدان المحـررة، ففي العـراق بدأت الصنـاعة في التطور بسبب الطلب عليهـا وشجـع العـرب الصنـاع المحليين في هذا المجـال وجـذبت الامصـار الحضـريـة كثيـرا من الصنـاع المـاهـرين[٥] وقد رحب الصناع واصحاب الحـرف بالـدين الاسـلامي واعتنق الكثيـر منهم الاسـلام[٦] فكان طبيعياً ان يجدوا الفـرصـة لتطـويـر صناعاتهم، كما كان للتساهل مع اهل الذمة اثره في نمو الصنائع والحرف واحتكارهم لها في هذه الفترة بسبب احجام اعراب المسلمين عنها لانها لا تتفق مع القيم البدوية[٧] وفي الشام حدث استقرار مادي وكانت اوضاعه الاقتصادية جيدة بسبب الوجود العربي قبل مرحلة حروب التحرير[٨] في حين كان دخول العرب

(١) الدينوري، الاخبار الطوال، ص١١٧.
(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٦٦ - ص٣٦٨.
(٣) د. فاضل عباس الحسب، في الفكر الاقتصادي العربي الاسلامي، ص١٠٠.
(٤) حسين مروة، النزعات المادية، ص٤٢٠.
(٥) صباح ابراهيم الشيخلي، الاصناف في العصر العباسي، ص٣٨.
(٦) د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، ص٢٢٢.
(٧) د. توفيق سلطان اليوزبكي، تاريخ اهل الذمة في العراق، ص٤٧٧.
(٨) د. محمد امين صالح، النظم الاقتصادية في مصر والشام في صدر الاسلام، ص١٥٠.

لمصر«نقطة انقلاب كبرى في ذلك التاريخ ، غيرت من مصائره (أثنولوجيا)في التكوين السكاني ، وثقافيا في الدين واللغة والفكر، وسياسيا في الارتباط النهائي بغربي آسيا العربي المسلم بدلا من الاقتصار على حوض البحر المتوسط والعالم الاغريقي - الروماني بالذات منه[1] وكان التغيير الحاسم هنا - كما في العراق والشام - القضاء على سلطة النبلاء والاقطاعيين[2] لمصلحة الفلاحين واصحاب الصنائع ، ويلاحظ ان العرب المسلمين قد احتكروا «بعض المنتجات الصناعية التي لها اهمية اقتصادية . . فالمعروف ان العرب استولوا على دور سك النقود وعلى مصانع السفن وكذلك مصانع الغزل في تنيس وتونةودمياط والاسكندرية»[3] اي انهم قاموا بما يشبه التأميم للمشاريع ذات النفع الاقتصادي العام» وتجدر الاشارة الى ان هذه الاماكن كانت تحت سيطرة البيزنطيين قبل ذلك .

وقد قام العرب المسلمون باصلاحات اقتصادية كثيرة كان لها دورها في تطوير الامصار من جهة وتطوير حالة اهل البلاد المحررة من جهة اخرى، ومع هذا فنحن نجد بروكلمان يتحامل على العرب ويصفهم بصفة ابعد ما تكون عن الحقيقة اذ يقول عنهم عند الحديث عن تحرير مصر: «كان الغزاة من العرب يجوسون خلال الديار غانمين مخربين»[4] وواقع الحال ان الامر غير ذلك فقد بنى عمرو بن العاص بمصر مقياسا بأسوان وآخر بحلوان[5] كما كان عمر بن الخطاب حريصا على

(١) د. شاكر مصطفى، التاريخ والمؤرخون في مصر الاسلامية حتى القرن السابع الهجري، ص٦١. يجب ان ننبه الى ان العرب كانوا موجودين في مصر قبل حروب التحرير العربية الاسلامية.

(٢) دينيت، الجزية والاسلام، ص١٢٠.

(٣) د. محمد امين صالح، النظم الاقتصادية، ص٢٧٤.

(٤) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص١٠٠. وازاء هذا الموقف نجد موريس لومبار يقول: «والملاحظ ايضا ان الفتوحات الاسلامية لم ينجم عنها شيء من التخريب والتدمير. فان الفاتحين المسلمين لا يحرقون ولا ينهبون المدن المفتوحة» الاسلام في مجده الاول، ص١٤.

(٥) المقريزي، الخطط المقريزية، ص٥٨.

مصلحة اهل مصر الاقتصادية «لما فتحت العرب مصر عرف عمر بن الخطاب (رض) ما يلقى اهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حدّه في مقياس لهم، فضلا عن تقاصره وان فرط الاستشعار يدعوهم الى الاحتكار وان الاحتكار يدعو الى تصاعد الاسعار بغير قحط، فكتب عمر الى عمرو يسأله عن شرح الحال فأجابه اني وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط اهلها اربعة عشر ذراعاً والحد الذي يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة اخرى ستة عشر ذراعا والنهايتان المخوفتان في الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار اثنا عشر ذراعا في النقصان وثمانية عشر ذراعا في الزيادة هذا والبلد في ذلك الوقت محفور الانهار معقود الجسور عندما تسلموه وخميرة العمارة فيه فاستشار امير المؤمنين عمر (رض) عليا في ذلك فأمره ان يكتب اليه ان يبنى مقياسا . .»[1] وكان عمرو بن العاص يدخر من جزية مصر اموالا للصرف على حفر الخلجان واقامة الجسور وبناء القناطر[2].

وتم حفر خليج امير المؤمنين الذي كانت تنقل منه الحبوب الى المدينة وبعض الحجاز وكان له اثره في تنشيط تجارة مصر والدولة[3] ولم يقتصر اصلاح العرب وعمرانهم للبلاد المحررة على مصر فحسب، بل شمل بقية الامصار فقد «امر عمر بن الخطاب (رض) ابا موسى الاشعري ان يحتفر لاهل البصرة نهرا ابتدأ الحفر من الاجانة ومادة ثلاثة فراسخ حتى بلغ به البصرة فصار نهر الابلة اربعة فراسخ . ثم انه انظم ما بين البصرة وبثق الحيرى وذلك على قدر فرسخ من البصرة»[4] وقد تضمنت بعض عقود الصلح اصلاح الطرق وبناء القناطر على الانهار كما حصل في السواد والشام[5] وفي ضوء ذلك كان «الفلاحون للطرق والجسور والاسواق والحرث والدلالة مع الجزاء عن ايديهم على قدر طاقتهم»[6] ويلاحظ ان هذا الاصلاح كان

(١) المقريزي، الخطط المقريزية، ص٥٨.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٥٠. المصدر نفسه، ص٧٦.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢١٨. ابن عبد الحكم، المصدر نفسه، ص١٦٤ - ص١٦٥. المقريزي، المصدر نفسه، ص٧١. ويعلق الطبري على ذلك «فكان سعر المدينة كسعر مصر ولم يزد ذلك مصرا الا رخاء» تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص١٠٠.

(٤) البلاذري، المصدر نفسه، ص٣٥١.

(٥) د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٥٨ وص٣٧٥.

(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٣٢.

في بداية التحرير على نفقة اهل البلاد، ولكنه صار فيما بعد وحين استقرار الضرائب بعد اكمال التحرير على نفقة الدولة[١].

هـ ـ التجارة وايقاف تسرب الذهب والفضة:

ادت حروب التحرير الى توحيد المنطقة اقتصاديا وسياسيا ـ العراق وايران وسوريا ومصر ـ فكانت مفيدة في تنشيط التبادل التجاري[٢] واتسع نطاق تداول النقد والبضائع اذ وضع العرب ايديهم على الذهب البيزنطي والفضة الساسانية وسيطروا على مناجم الذهب وتجارته مع افريقيا والشرق الاقصى[٣] واطلقوهما من قيد الاحتكار ليوضعا في حيز التداول[٤] وبعد ان كانت ارستقراطية بيزنطة تسرق ذهب مصر وتختزنه في القسطنطينية، سعى العرب الى اعادته الى السكان المحليين ليدخل ضمن الفعالية الاقتصادية لا لكي يدفن او ينقل الى الخارج، مما جعل الناس يستثمرون المال محليا فانتعش الانتاج والتجارة[٥] وهذا يعني ان نزيف الذهب والفضة قد اوقفا فكبرت الدورة الاقتصادية في البلاد المحررة، واذا اضفنا الى ذلك ان العرب قاموا بدور ايجابي في التجارة مع الدولة البيزنطية والغوا المكوس القديمة بين اراضي فارس وبين مصر وسوريا لانهما اصبحا وحدة سياسية واقتصادية[٦] وان الاسلام يحث على التجارة ويعدها مهنة رفيعة، ناهيك من ان قريشا كان لها ارثها المهم في هذا المجال، امكن لنا ان نفهم نمو وتوسع التجارة

(١) د. عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٦١، جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق، ص٨٥. فان فلوتن، السيادة العربية، ص٢٠.

ويورد ابو يوسف نصا يبين ان العرب المسلمين لم يكونوا مخربين فيقول: «اتى عمر رجل فقال: يا أمير المؤمنين زرعت زرعا فمر به جيش من اهل الشام فافسدوه. قال: فعوضه عشرة آلاف»، الخراج، ص١١٩.

(٢) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، ص٢١٣.

(٣) د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص٢٤٣.

(٤) عدة مؤلفين، التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط، ترجمة: عادل ابراهيم يعقوب، ص٢٠. د. فيصل السامر، نهضة التجارة العربية في العصور الوسطى الاسلامية، ص٦٦. موريس لومبار، الاسلام في مجده الاول، ص١٦١.

(٥) التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط، نفس المرجع، ص٢١ ـ ص٢٢.

(٦) د. محمد امين صالح، النظم الاقتصادية في مصر والشام، ص٢٦٥.

في هذه الفترة، وأثر العوامل المبينة في اعلاه في تنشيط التجارة لاسيما ان كميات مهمة من الفضة والذهب كانت ترسل الى الحجاز[1]. والواقع ان الظروف التي ذكرت مجتمعة قد خلقت حركة تجارية حيوية وكانت الارباح التي تجنى من وراء ذلك طائلة، فقد حصل اتجار بالغنائم وصل ربحه الى نسبة ١٠٠٪، اذ ابتاع عمرو بن الحريث سفطي كسرى بالفي الف درهم وباعهما في ارض الاعاجم باربعة آلاف الف درهم[2]، كما كان بعض الولاة يقرض بعض الشخصيات المعروفة مالاً لتتجر ببضائع تبتاعها بثمن مؤجل يدفع في الحجاز مثلا، كما حصل مع ابني عمر بن الخطاب اللذين جنيا ربحا يبدو انه كان عاليا فقاسهما عمر الربح على النصف اذ «خرج عبدالله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب في جيش الى العراق فلما قفلا مرّا على ابي موسى الاشعري وهو امير البصرة فرحب بهما وسهل ثم قال: لو اقدر لكما على امر انفعكما به لفعلت. ثم قال بلى هاهنا مال من مال الله اريد ان ابعث به الى امير المؤمنين فاسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال الى امير المؤمنين، ويكون الربح لكما فقالا وددنا ذلك وفعل وكتب الى عمر بن الخطاب ان يأخذ منهما المال، فلما قدما باعا فأربحاه، فلما دفعا ذلك الى عمر قال: اكل الجيش اسلفه مثل ما اسلفكما؟ قالا: لا. فقال عمر بن الخطاب ابنا امير المؤمنين فاسلفكما أديّا المال وربحه، فأما عبدالله فسكت، وأما عبيد الله فقال ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا لو نقص هذا المال او هلك لضمناه، فقال عمر ادياه فسكت عبدالله، وراجعه عبيد الله، فقال رجل من جلساء عمر يا امير المؤمنين لو جعلته قراضا، فقال عمر قد جعلته قراضا فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه واخذ عبدالله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب نصف ربح المال»[3] ووصلت نسبة ربح عبدالله بن عمر من مغانم جلولاء التي اشتراها وباعها ١٠٠٠٪ فجعلها عمر نسبة ١٠٠٪ وقال له: وانا معطيك اكثر ما ربح تاجر من

(١) د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية. .، ص٢٣٨ وص٢٤٤.
(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص١٦. الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٣٨.
(٣) مالك، الموطأ، ص٥٧٤ ـ ص٥٧٥.

قريش. لك ربح الدرهم درهماً[1] ويبدو ان الاتجار بغنائم الحروب كان شائعا في هذه الفترة بدلالة ان الشيباني قد خصص صفحات طويلة عن باب التجار وما يحل لهم من طعام، مما يعكس واقعيا نشاط التجار ابان حروب التحرير، كما انه اوضح القيود التي وضعت لتحد من كسبهم الفاحش وخدعة البدو المجاهدين.[2].

ويظهر انه قد وجد تجار كبار منذ زمن ابي بكر ذلك «ان ابا بكر رد سبايا النجير بالفداء لكل رأس اربعمائة درهم. وان الاشعث بن قيس استسلف من تجار المدينة فداءهم ففداهم ثم رده لهم»[3] ولكن المؤكد ان دور التجار بدأ يتفاقم في زمن عمر، ولدينا نص يوضح الحس التجاري لعرب المدينة. «فلما قدمت السفن الحجاز وفيها الطعام صك عمر للناس بذلك الطعام صكوكا فتبايع التجار الصكوك بينهم قبل ان يقبضوها. قال فحدثني ابي عبدالله بن عبد الحكم اخبرنا ابن لهيعة عن ابي الاسود عن عروة بن الزبير قال لقي عمر بن الخطاب العلاء بن الاسود فقال: كم ربح حكيم بن حزام فقال ابتاع من صكوك الجار بمائة الف درهم وربح عليها مائة الف، فلقيه عمر بن الخطاب فقال يا حكيم كم ربحت فاخبره بمثل خبر العلاء، فقال عمر فبعته قبل ان تقبضه قال نعم، قال عمر فان هذا بيع لا يصلح فاردده، فقال حكيم والله ما أقدر على ذلك، وقد تفرق وذهب ولكن رأس مالي

(١) ابن سلام، الاموال، ص٢٥٩ - ص٢٦٠.

(٢) الشيباني، كتاب السير الكبير، جـ٤. تراجع المادة بين ص١١٨١ - ص١٢٠٥.

وقد حاولت الدولة ان تحد من مجال الصعوط والهبوط في الاسعار وكان للتدابير العملية التي اتخذتها في هذا الشأن «ان تؤثر في تحديد الاسعار بطريقة غير مباشرة، فقد كانت مثلا تجبي ضرائبها من الزراع بالنقد والعين، اي انها كانت تأخذ مع النقود منتوجات عينية، وبذلك تخفف عن الفلاحين بعض الاعباء فلا يضطرون الى بيعها باسعار رخيصة كيما يحصلون على نقود لتسديد الضرائب، ولما كانت ضرائب الدولة ثابتة، فقد كان هذا يؤدي الى ثبات الاسعار بعض الشيء، ثم ان الدولة كانت تدفع الى المقاتلة وعيالاتهم مقدارا معينا من العطاء كان من شأنه ان يحدد القوة الشرائية لهؤلاء المقاتلة العرب المستهلكين. يضاف الى ذلك انها كانت توزع التلاعب في اسعار هذه المواد الضرورية للمعيشة التي كانت اهم منتوجات الشرق الاوسط» د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص١٧٤.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٢.

وربحي صدقة»[1] كما يظهر الحس بالتجارة في تثمير اموال اليتامى فيها[2] وفي امتداد التجارة الى الخمور حيث نجد عمر يهرق خمور بعض الافراد[3] كما ان بعض الولاة كانوا يستفيدون من العمل في التجارة كما حصل مع عتبة بن ابي سفيان الذي قال لعمر بعد ان سأله عن المال الذي معه: «مال خرجت به معي وتجرت فيه»[4] ولكن عمر صادر المال كما قال عمر للحارث بن كعب بن وهب: «ما قلاص وأعبد بعتها بمائتي دينار؟ قال: خرجت بنفقة معي فتجرت فيها. فقال: اما والله ما بعثناكم لتتجروا في اموال المسلمين! ادها. فقال: اما والله لا عملت عملا بعدها ابدا. قال: انتظر حتى استعملك!»[5]

لكل ما سبق يمكن القول ان توحيد المنطقة سياسيا واقتصاديا وتداول الذهب والفضة ووجود تقاليد تجارية سابقة، اضافة الى ان التجارة محبذة ان لم تخرج عن تعاليم الشرع، قد نشط التجارة الداخلية والخارجية واحدث تراكما في الثروة عند بعضهم.

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٦٦.
(٢) مالك، الموطأ، ص٢٠٢.
(٣) ابن سلام، الاموال، ص١٠٢ ـ ص١٠٣.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٢٠. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ١، ص٥٠.
(٥) ابن عبد ربه، المصدر نفسه، ص٤٥. ابن سلام، الاموال، ص٢٦٩.

٥ ـ اثر التطورات الاقتصادية في الاوضاع السياسية في الدولة العربية الاسلامية:

وجدنا في الفقرات السابقة ان حروب التحرير العربية الاسلامية قد خلقت اوضاعا اقتصادية فيها الكثير من الجدة، وان هذه الاوضاع قد انعكست على سياسة الدولة وجلبت معها تنظيمات جديدة وحالات لم تكن موجودة سابقاً، فقد رأينا وجود اختلاف بين نظرة رجال القبائل الى الارض وبين نظرة الدولة، كما وقفنا امام معارضة بشأن العطاء وتوزيعه على أسس التفضيل. اضافة الى ان التجارة قد نمت وبدأ تيار العاملين فيها يتخذ موقعا متقدما، والواقع ان التوتر بين مركزية الدولة ونظرة القبائل ـ البدوية منها بالذات ـ قد حسم لصالح الدولة في هذه الفترة بفضل قوة شخصية ومبدئية عمر بن الخطاب، واذا كان بعضهم يرى في عمر ممثلا للوسط[1] وانه قد اضفيت سمة المثالية على فترته من قبل اهل السنة[2]، فان الادلة التاريخية تؤكد غير ذلك حيث ان الاجراءات التي قام بها لمعالجة بعض المشاكل الناجمة عن الرخاء الاقتصادي في المجال الاجتماعي والسياسي، اتسمت بطابع الزهد المترافق مع الحس القومي بالعدالة الاجتماعية، كما سنرى في السطور الآتية:

أ ـ الوضع الاجتماعي للقادة والولاة واجراءات عمر للحد من الثراء:

ادرك عمر بن الخطاب ان بعض الولاة يتلاعبون باموال الدولة ويحصلون على ثروات تعزز موقعهم الاجتماعي فاتخذ اجراء عمليا استهدف تقليص التلاعب بالاموال فكان «يكتب اموال عماله اذا ولاهم ثم يقاسمهم على ذلك وربما اخذه منهم»[3]، واستنادا الى هذا المبدأ قاسم عمرو بن العاص امواله وكتب اليه بهذا الشأن انه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان، لم يكن حين وليت مصر، فكتب اليه عمرو: ان ارضنا ارض مزدرع ومتجر فنحن نصيب فضلا عما نحتاج اليه لنفقتنا. فكتب اليه: اني قد خبرت من عمال السوء ماكفى وكتابك اليّ من قد اقلقه الاخذ بالحق وقد سؤت بك ظنا. وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة

(١) احمد عباس صالح، اليمين واليسار في الاسلام، ص٥٩.
(٢) مكسيم رودنسون، الاسلام والرأسمالية، ص٧، ـ ص٧٨.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٢٠.

ليقاسمك مالك فاطلعه واخرج اليه ما يطالبك بها واعفه من الغلظة عليك فانه برح الخفاء. فقاسمه ماله[1]» واجابة عمرو بن العاص توحي بانه كان يثمر ماله في الزراعة والارض، كما ان اجراء المقاسمة لا يمكن ان يكون دقيقا اذ بامكان عمرو ان يخفي الكثير من ماله اويودعه عند آخرين قبل المقاسمة، كما شاطر سعد بن ابي وقاص امواله[2] وكان قد كتب الى ابي موسى الاشعري ينهاه عن الترف والتلاعب «وقد بلغني انه قد فشا لك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها. فاياك يا عبدالله ان تكون بمنزلة البهيمة مرّت بواد خصيب فلم يكن لها هم الا السمن وانما حتفها في السمن، واعلم ان العامل اذا زاغ زاغت رعيته، واشقى الناس من شقي الناس به والسلام[3] فلما لم يرتدع عزله عن البصرة وقاسمه امواله[4] كما عزل ابا هريرة عن البحرين وقاسمه امواله، ولما أبى اعطاء فضل ماله ضربه عمر بالدرة حتى أدمى وجهه[5] ويظهر انه كان يمنع عماله من التجارة ويصادر عليهم اموالهم المتأتية عن ذلك[6] كما يظهر ان عدد المتلاعبين بالاموال لم يكن ليستهان به، فقد ارسل اليه ابو المختار يزيد بن قيس بن الصعق قصيدة اخبره فيها عن تلاعب عمال الاهواز وغيرهم بالاموال[7]فكان ان «قاسم عمر هؤلاء الذين ذكرهم ابو المختار شطر اموالهم حتى اخذ نعلا وترك نعلاً، وكان فيهم ابو بكرة فقال: اني لم آل لك شيئا، فقال له: اخوك على بيت المال وعشور الابلة وهو يعطيك المال تتجر به فأخذ منه عشرة آلاف، ويقال: قاسمه شطر ماله، وقال الحجاج الذي ذكره الحجاج بن عتيك الثقفي وكان على الفرات وجزء بن معاوية عم الاحنف كان على سرق وبشر بن المحتفز كان على جند يسابور، والنافعان نفيع ابو بكرة ونافع ابن كلدة اخوه، وابن غلاب خالد بن الحرث من بني دهمان كان على

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٢١.
(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ١، ص٤٤، ابن سلام، الاموال، ص٢٦٩.
(٣) ابن قتيبة، عيون الاخبار، جـ١، ص١١.
(٤) ابن عبد ربه، المصدر السابق، جـ١، ص٤٥.
(٥) ابن عبد ربه، المصدر نفسه، ص٤٥. ابن سلام، الاموال، ص٢٦٨.
(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص٢٢٠. ابن عبد ربه، المصدر نفسه، ص٤٦.
(٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٧٧.

بيت المال باصبهان وعاصم بن قيس بن الصلت السلمي كان على مناذر والذي في السوق سمرة بن جندب على سوق الاهواز، والنعمان بن عدي بن نضلة بن عبد العزي بن حرثان احد بني عدي بن كعب بن لؤي كان على كور دجلة . . وصهر بني غزوان مجاشع بن مسعود السلمي كانت عنده بنت عتبة بن غزوان وكان على ارض البصرة وصدقاتها، وشبل بن معبد البجلي ثم الاحمسي كان على قبض المغانم وابن محرش ابو مريم كان على رام هرمز»[١]. ويتضح انه كانت هنالك امكانية للخديعة في كسب الاموال[٢] وان التلاعب كان يمكن ان يتم عن طريق عدم تقديم معلومات دقيقة عن الغنائم نظرا لقلة من يعرف الكتابة والحساب[٣] كما كان بعض الولاة يتسترون على بعضهم في التلاعب عندما تستر معاوية بن ابي سفيان على عمرو بن العاص حين حضرا امام عمر بن الخطاب[٤] وان ولاة آخرين كانوا يتظاهرون بالتقوى والخشونة لخداع عمر كما فعل الربيع بن زياد الحارثي[٥] وعمرو بن العاص الذي اكل ثريداً مع عمر وعلق على ذلك فيما بعد: والله لقد علم اني بما قدمت به من مصر لغنى عن الثريد الذي ناولني اياه ولكنه اراد ان يختبرني فلو رفضت للقيت منه شراً»[٦].

ورغم ان عمر كان شديدا في محاسبه عماله[٧] وانه قد عدّ نفسه المسؤول عن سلوكهم «ايما عامل لي ظلم احدا فبلغتني مظلمته فلم اغيرها فانا ظلمته»[٨]، ولمنعهم من ابتزاز المال والاختلاس كان ان عين مسؤولا عن الغنائم والخراج استقلا عن العامل، فان الواقع العملي منح بعض العمال فرصا جيدة للاثراء فكان

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٧٧ - ص٣٧٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٤٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٣٨.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ١، ص١٧.
(٥) المصدر نفسه، جـ١، ص١٥. المبرد، الكامل، جـ١، ص١٥٤.
(٦) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص١٧٩.
(٧) ابو يوسف، الخراج، ص١١٦.
(٨) ابن سعد، الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٢٢٠.

بامكانهم التصرف في اموال التعيينات الكبيرة ووضعها في مصلحتهم الخاصة كما كانـوا مسؤولين عن بيـع الغنـائم التي يمكن ان يحـدث تواطؤ فيهـا كما اتيحت لهم فرصة الحصول على هدايا اضافة الى الاشتغال بالتجارة وبيع المواد العينية الخاصة بالدولة[١].

ب ـ عمر وتيار الزهد:

قلنا في الفصل الثاني في معرض الحديث عن الزهد، ان الاسلام قد تضمن دعوة تنسكية زاهدة، واذا كنا قد بدأنا نشعر ببروز تيار آخر بين صفوف المسلمين لا يرى بأسا في ان تظهر نعمة الله على عبده، فان تيار الزهد في هذه الفترة كان يناظر التيـار الآخـر، ويمكن ان يدرج عمر بن الخطاب في صف تيار الزهد المشبع بروح العدالة الاجتماعية، فقد سأل عمر سلمان: «أملك انا ام خليفة؟ فقال له سلمان: ان انت جبيت من ارض المسلمين درهمـا او اقـل او اكثـر ثم وضعتـه في غير حقه، فأنت ملك غير خليفة»[٢].

فكـان عمـر يخـاف من الثـروة ويعدها اساس الشرور الاجتماعية[٣] كما كان حسـاسـا جدا في التعامل مع اموال المسلمين[٤] ورأى ان يؤدى المال الى اصحابه «كتب عمـر بن الخطـاب الى ابي موسى، امـا بعد فاعلم يوماً من السنة لا يبقى في بيت المال درهم حتى يكتسح حتى يعلم الله اني قد اديت الى كل ذي حق حقه»[٥] ويتجسـد زهـده في تبيـان ما أحـل له من امـوال المسلمين «قـام رجـل الى عمر بن الخطـاب فقـال: ما يحـل لك من هذا المـال؟ فقـال: ما أصلحني واصلح عيـالي بالمعـروف، وحلة الشتـاء وحلة الصيف، وراحلة عمـر للحـج والعمـرة، ودابـة في

(١) للتـوسـع في معـرفـة امكـانيـة الولاة وكبار القادرة في الحصول على الثروات، يراجع كتاب: التنظيمـات الاجتمـاعيـة والاقتصـاديـة في البصـرة في القرن الاول الهجري، د. صالح العلي، الصفحات ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢١١.

(٣) ابن حنبل، كتاب الزهد، ص١١٤ ـ ص١١٥.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٢٦٠.

(٥) ابن سعد، المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص٢١٨.

حوائجـه وجهـاده»[1] وهـذا الفهم يفسـر انـا تشدده على نفسه، اذ قال باكيا بعد أن سألـوه ان يوسـع على نفسـه: «أرأيت لو أن ثلاثة اصطحبوا فتقدم احدهم في طريق والثـاني بعـده ثم خالفهم الثـالث في الطـريق أكـان يدركهم فقلت: لا. قال: فقد تقدم رسول الله (ص) ولم يصب من شهوات الدنيا شيئا، وأبو بكر (رض) كذلك فلو اشتغـل عمـر بقضـاء الشهـوات في الـدنيـا، متى يدركهم؟[2]، اي ان الوقوف ضد الترف طبيعة فيه منسجمة مع تيار الزهد. ولذا نجده شديدا عند تفشي مظاهر الترف «اتخـذ سعـد بن ابي وقاص بابا مبوبا من خشب وخص على قصره خصا من قصب فبعث عمـر بن الخطـابمحمـد بن مسلمـة الانصـاري حتى احرق الباب والخص، وكتب عمر بن الخطاب الى عتبة بن فرقد الذي ارسل اليه الخبيص ليأكله: يا أبن ام عتبة انك لتأكل الخبيص من غير كدك ولا كد ابيك»[4] ومقابل ذلك كان يفرح عندما يجـد من استعمله أمينـا وقد زهد في المال وفارق الخيانة، اذ انه استقبل حذيفة بن اليمـان عامله الى المـدائن ولمـا رآه قد جاء دونمـا اموال وبهيئة بسيطة «اعتنقه وقال انت اخي وانا اخوك، انت اخي وانا اخوك»[5].

ويندرج في خط الزهد مع عمر وحذيفة سلمان ايضا[6]، كما يشاركهم موقف الزهد ابو ذر الغفاري[7] وعمار بن ياسر الذي كان يعد الثروة من اسس الشرور الاجتماعية ذلـك: «.. ان رجـلا من اهـل الكـوفـة وشى بعمـار رحمـه الله تعـالى الى عمر بن الخطاب فقال له عمار ان كنت كاذبا فاكثر الله مالك وولدك وجعلك موطيء العقبين»[8] وابـو عبيـدة عامـر بن الجراح «وكان عامله ـ المقصود عمر بن الخطاب ـ على الشـام ابـا عبيـدة بن الجـراح، وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي فعذل

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٦١٦.
(٢) الشيباني، الاكتساب في الرزق المستطاب، ص٦٥.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٧٧. الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٢٤.
(٤) البلاذري، المصدر نفسه، ص٣٢٢.
(٥) ابن حنبل، كتاب الزهد، ص١٨١ ـ ماسينيون، خطط الكوفة، ص٨١.
(٦) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الاصحاب، جـ١، ص٦٣٥.
(٧) ابن عبد البر، المصدر نفسه، جـ١، ص٢٥٥، ص٢٥٦.
(٨) ابن حنبل، كتاب الزهد، ص١١٩.

على ذلك، وقيل له: انك بالشام ووالي امير المؤمنين وحولنا الاعداء، فغيّر من زيك، واصلح من شارتك. فقال: ما كنت بالذي اترك ما كنت عليه في عصر رسول الله (ص)»[1] ومات وهو يجاهد تاركا في بيته سلاحه وجلد شاة وجرة للماء[2]، وقد استطاع عمر بشدته ورقابته الصارمة ان يوقف قليلا التيار الفردي الآخذ بالنعمة حديثا ولكنه لم يستطع الغاءه[3]، وفي مقابل ذلك انحاز لتيار الزهد وشجعه، وكان لاصحاب هذا التيار في الفترة اللاحقة دورهم البارز في الصراع السياسي والاجتماعي والاقتصادي مع ممثلي التيار الاول.

جـ - منع قريش من الهجرة الى الامصار:

ادرك عمر بن الخطاب ان كثيرا من رجال قريش يتطلعون الى مغادرة المدينة والتوجه الى الامصار للاستفادة من الظروف الجديدة فرأي ان يحول دون ذلك، ولذا فقد «ضيق على قريش انفاسها، ولم ينل احد معه من الدنيا شيئا اعظاما له واجلالا، وتأسيا به واقتداءا»[4] لا بل انه فرض على قريش ما يشبه الاقامة الاجبارية في الحجاز «كان عمر بن الخطاب قد حجر على اعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الا بأذن وأجل، فشكوه فبلغه، فقام فقال: الا اني قد سننت الاسلام سن البعير، يبدأ فيكون جذعا، ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سديسا ثم بازلا، الا فهل ينتظر بالبازل الا النقصان: الا فان الاسلام قد بزل، الا وان قريشا يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عباده: الا فأما وابن الخطاب حي فلا، اني قائم دون

(١) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٢.
(٢) الذهبي، دول الاسلام، جـ١، ص١٥.
(٣) اليعقوبي، جـ٢، ص١٣٥، ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٥٠١.
(٤) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، جـ١، ص٢٧.

وقد احصى د. محمد عمارة حصة قريش وبني امية من الولايات في زمن عمر فقال: «فمن بين احدى عشرة ولاية لم يكن لأمية سوى ولاية واحدة، ولم يكن لقريش سوى ثلاث ولايات، ولم يكن لعدي، فرع عمر، ولاية واحدة من هذه الولايات» الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية، ص١٩٦.

شعب الحرّة، اخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار»[1] وعندما كان رجال قريش يريدون الخروج باسم الجهاد كان يجيبهم بأنهم قد جاهدوا بما فيه الكفاية مع الرسول (ص) «واستأذن قوم من قريش عمر في الخروج للجهاد فقال قد تقدم لكم مع رسول الله (ص)»[2] وحين اعترض عبد الرحمن بن عوف اجابه بقسوة «قال عبد الرحمن بن عوف فقلت نعم يا أمير المؤمنين ولم تمنعنا من الجهاد؟ فقال لان اسكت عنك فلا اجيبك خير لك من ان اجيبك»[3] وكان يقول للمهاجرين من اهل مكة «قد كان في غزوك مع رسول الله (ص) ما يبلغّك، وخير لك من العزو اليوم الا ترى الدنيا ولا تراك»[4] وكان لهذا الموقف المتشدد من قريش ان كرهته وملت منه ومل منها حتى وصل الامر به الى الالتجاء الى الله كي يخلصه من الحاحهم «اللهم ملوّني ومللتهم، وأحسست من نفسي وأحسوا مني، ولا أدري بأينا يكون الكون، وقد اعلم ان لهم قبيلا منهم، فاقبضني اليك»[5] ونحن نجده لا يتوقف عن مصادرة بعض اموال رجال قريش الذين يستغلون مناصبهم للاثراء كما حصل عندما صادر ثلاثين الفا تعود لعتبة بن ابي سفيان عامله على الطائف[6]، وكما حصل مع ابي سفيان اذ سجنه عمر لتلاعبه باموال ارسلها معاوية معه من الشام الى المدينة ولم يطلق سراحه الا حين اداها[7] كما انه كان يعنّف ابا سفيان ويحول دون تميزه من الآخرين واستغلاله اموال المسلمين[8] كم انه لم يتساهل حتى مع نساء كبار رجال قريش في مال المسلمين فقد اقرض هند ابنة عتبة اربعة آلاف من بيت المال للتجارة فخرجت الى بلاد كلب تاجرة واشترت وباعت ثم عادت الى المدينة وشكت الى عمر سوء الحال فقال لها عمر: «لو كان مالي لتركته لك، ولكنه مال المسلمين.

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٣٩٦ - ٣٩٧.
(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٤٦.
(٣) المصدر نفسه، جـ٢، ص١٤٦.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٣٩٧.
(٥) المصدر نفسه، جـ٤، ص٣١٤.
(٦) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ١، ص٥٠.
(٧) المصدر نفسه، جـ١، ص٤٩.
(٨) الازرقي، اخبار مكة، جـ٢، ص١٦٥ وص٢٣٦.

وهـذه مشـورة لم يغب عنها ابو سفيان ، فبعث اليه فحبسه حتى اوفته»[1] وفي مقابل ذلـك كان عمـر رؤوفـا بفقراء الامة[2] وقد فكر في عام الرمادة ان يسكن الضعفاء في دور الاغنيـاء «ان عمـر قال لو لم اجـد للناس من المال ما يسعهم الا ان ادخل على كل اهل بيت عدتهم فيقاسمونهم انصاف بطونهم حتى يأتي الله بحيا فعلت، فانهم لن يهلكوا على انصاف بطونهم»[3] وانه قال: «لو لم يرفعه الله لجعلت مع كل اهل بيت مثلهم»[4] وقـد تجسـد موقفـه الاجتمـاعي في تفضيله ضعفاء المسلمين على سادة قريش «حضـر باب عمـر بن الخطـاب سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وابو سفيـان بن حرب ونفـر من قريش من تلك الـرؤوس ، وصهيب وبـلال وتلك الموالي شهدوا بدرا فخرج اذن عمر فاذن لهم وترك هؤلاء فقال ابو سفيان: «لم ار كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيـد ويتـركنـا على بابه ولا يلتفت الينا»[5] ويقال انه قال: «لا خير في مكان يكون فيه بلال شريفا»[6].

ان ما سبق يجعـل الـرأي الـذي يرى بأن عمـر قد مثل الوسط واستفاد اليمين منه ، رأيا غير دقيق لأن العكس هو الصحيح كما بينا، اما الرأي الذي يذهب الى انه اضفيت سمات مثالية على حكم عمر من خلال اهل السنة ، فهو ايضا لا يستقيم مع ما أوردنـاه من نصـوص تؤكـد زهده وعدالته ، كما ان مؤرخينا باختلاف مذاهبهم قد اجمعوا على التزامه المبدئي ، والأهم من هذا ان الروايات التي وردت عند الطبري وابن سعد وابن حنبل وغيرهم مستقاة من رواة يختلف بعضهم عن بعض والكل قد أكد عدالة عمر[*].

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤ ، ص٢٢١ .

(٢) الماوردي ، الاحكام السلطانية، ص١٢٩ .

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبير، جـ٣، ق١ ، ص٢٢٨ .

(٤) المصدر نفسه، جـ٣، ق١ ، ص٢٢٨ .

(٥) ابن حنبل ، كتاب الزهد، ص١١٣ ـ ص١١٤ .

(٦) الجاحظ ، المحاسن والاضداد، ص٩٣ .

(*) من الآراء الغـريبـة الاخـرى بشأن عمـر ما يراه أدونيس في (الثـابت والمتحـول) بأن عمر كان مؤسسا للاصول، اي انه كان اتباعيا ولم يكن مع التحول، ص٤١ . والواقع يخالف ذلك فقد كان موقف عمـر جريئـا بشأن ملكيـة الاراضي المحـررة . وكان جريئا في الغاء سهم المؤلفة قلوبهم، وفي ضرب العشـور اضـافـة الى تخميسـه السلب وغيـر ذلـك من الافعـال التي تؤكـد قدرته على الاجتهاد ومسايرة التطورات الجديدة .

د ـ التطور الذي حصل بشأن اموال النبي (ص):

كان للنبي (ص) بعض الامـوال العقـارية التي كان يضعها في مصلحة الامة ولمسـاعـدة الضعفـاء وامور الجهاد، كما كان يخرج منه قوت اهله، ويظهر ان هذه الامـوال قد اعيـدت الى بيت المـال واصبحت ملك الامـة «وكـان لرسـول الله عليه السـلام، ما أفـاءه الله عليـه من المشـركين مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركـاب، لانـه اتـاه عليـه السلام عفوا بلا قتال احد مع المسلمين عليه ولا يجشمهم سفـرا اليـه وهي فدك، وامـوال بني النضيـر. ومما كان عليه السلام يصطفيه من كل غنيمة يغنمها المسلمون قبل القسمة من عبد او امة اوقوس وسهمه عليه السلام من اخماس الغنائم. ثم لما قبض (ص) ذهب ذلك كله بذهابه»[1] ويظهر انه قد حصل اختـلاف بشأن سهم النبي (ص) وسهم قرابتـه من الخمس واستقـر القـرار على ان يكـونـا في مال المسلمين «اختلف النـاس بعـد وفـاة رسـول الله (ص) في هـذين السهمين: سهم الـرسـول عليـه السـلام، وسهم ذوي القـربى، فقـال قوم: سهم الـرسـول للخليفـة من بعـده. وقال آخرون: سهم ذوي القربى لقرابة الرسول عليه السـلام. وقـالت طائفة: سهم ذوي القربى لقرابة الخليفة من بعده. فأجمعوا على ان جعلوا هذين السهمين في الكراع والسلاح»[2]وهذا الاجراء يشير الى أن الخليفة لم يأخـذ دور النبي اقتصـاديـا وانه قد حيل بين اقارب الخليفة وبين التصرف بالمال على مستوى المبدأ، ويظهر انه قد حدثت مطالبة من قبل نساء النبي (ص) بارثهن من سهم الـرسـول بخيبـر وفدك اذ سألن ابا بكر ذلك فقالت لهن عائشة: «اما تتقين الله؟ اما سمعتن رسول الله (ص) يقول: لا نورث ما تركناه صدقة. انما هذا المال لآل محمد لنائبتهم وضيفهم فاذا مت فهو الى والي الامر بعدي. قال فامسكن»[3]

(١) قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٢٠٥.
(٢) ابو يوسف، الخراج، ص٢١. ابن سلام، الاموال، ص٣٣٢.
(٣) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١، ص٥٢٠.

ويظهر ان عمر قد قسم اسهم خيبر، اذ قال: «فمن كان له بها مال فليخرج فانا خارج فقاسم ما كان بها من الاموال[1] وانه قد خير نساء النبي (ص) بين «ان يقطع لهن من الارض اويضمن لهن المائة وسق كل عام. فاختلفن عليه فمنهن من اختار ان يقطع لهن ومنهن من اختار الاوسق»[2] وقد خلى بين طعمة زينب بنت جحش وورثتها وسمح لهم بأن يبيعوا منها اويهبوا، اي انه اقرلهم بحق التصرف بالطعمة من خيبر[3]

هـ ـ التطور الاقتصادي وازدياد عدد سكان المدينة:

لم يقتصر ازدياد عدد السكان على الامصار فحسب، وانماتعداه الى المدينة التي جلبت خيرات الفتوح اليها كثيرا من الناس، وقد اشار اكثرمن مؤرخ الى هذه الزيادة «فلما استخلف عمر (رض) وكثر الناس وسع المسجد واشترى دورا هدمها وزادها فيه»[4] وخلق ازدياد السكان بعض الازمات في مراعي المدينة فقد «اتخذ عبدالله بن ابي ربيعة افراسا بالمدينة، فمنعه عمر بن الخطاب، فكلموه في ان يأذن له، قال: لا آذن له، الا ان يجيء بعلفها من غير المدينة، فارتبط افراسا، وكان يحمل اليها علفا من ارض له باليمن»[5] كما خلقت هذه الزيادة كثيرا من المشاكل فاوجد عمر سجنا بمكة لمعالجة المشاكل الناجمة[6] كما قام باكثر من احصاء لسكان المدينة وخاصة في عام الرمادة، وقام بارجاع الاعراب الى اماكنهم بعد انتهاء الازمة[7] قائلا لهم: «الحقوا ببلادكم»[8] وكان يستاء عندما يجد العنصر غير العربي يسيطر على اقتصاد سوق المدينة «ورد ان عمر بن الخطاب دخل السوق في

(١) الواقدي، المغازي، جـ٢، ص٧١٧.
(٢) ابو يوسف، الخراج، ص٨٩. مسلم، صحيح، مسلم، جـ٣، ص١١٨٦.
(٣) المصدر السابق، جـ٢، ص٦٩٨.
(٤) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٦٢. السمهودي، وفاء الوفا، جـ١، ص٣٤١. ابن سعد الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٢٠٣.
(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢١٤.
(٦) الكتاني، التراتيب الادارية، جـ١، ص٢٩٨.
(٧) ابن سعد، الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٢٢٩.
(٨) المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص٢٣٢.

خلافته فلم يمر فيه في الغالب الا النبط فاغتم لذلك فلما ان اجتمع الناس اخبرهم بذلك وعّد لهم في ترك السوق، فقالوا ان الله اغنانا عن السوق بما فتح به علينا فقال (رض) والله لئن فعلتم ليحتاج رجالكم الى رجالهم ونساؤكم الى نسائهم»[1] وعندما اغتيل عمر من قبل هذا الفارسي المدعو ابو لؤلؤة همس عمر معاتبا ومحذرا. . «ألم أقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج احدا فغلبتموني»[3].

ان ازدياد عدد سكان المدينة ودخول العنصر الاجنبي اليها بحكم جاذبيتها الاقتصادية قد اسهم في تغيير الخارطة البشرية وجلب معه كثيراً من المشاكل التي تفاقمت في الفترة اللاحقة وفي زمن عثمان بالذات كما سيتضح، وسيتبين هذا الامر في الفصل القادم.

(١) الكتاني، التراتيب الادارية، جـ٢، ص٢٠.
(٢) ابن سعد، الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٢٥٠. المسعودي، مروج الذهب، جـ٣، ص٣٢٠.
(٣) ابن سعد، المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص٢٥٣.

الفصل الرابع :

التحديات والمشاكل التالية لمرحلة التنظيم :

١ـ التوسع في الاستثمار الزراعي والتجاري في عهد عثمان :

أ ـ القطائع

ب ـ الزراعة والتوسع في امتلاك الارض

جـ ـ التجارة

د ـ نمو الحرف والصناعات في الامصار

٢ـ التيار الدنيوي وتيار الزهد :

أ ـ ثروات القادة والولاة وبعض الصحابة

ب ـ اجراءات عثمان وابعادها الاقتصادية والاجتماعية

جـ ـ الصراع بين التيار الدنيوي وتيار الزهد

٣ ـ الصراع بين مركزية الدولة والروح القبلية والاقليمية :

أ ـ الموقف من الصوافي وازدياد عدد الروادف

ب ـ دور العامة والرقيق في الثورة على عثمان

٤ ـ انتقال عاصمة الدولة الى الكوفة وتبعية البناء السياسي للواقع الاقتصادي :

أ ـ دور المال في اضعاف تيار الزهد وهيمنة التيار الدنيوي

ب ـ الاوضاع الاقتصادية في زمن علي :

١ـ سياسة علي في المجال الاقتصادي

٢ـ اضطراب الاحوال الاقتصادية

تمهيـــد :

شهـدت هذه الفتـرة تطـورات اقتصـاديـة نجم عنهـا احداث سياسية خطيرة اسهمت في رسم ملامـح اسـاس في تاريـخ الامـة ، ومـع ان المـواقف السيـاسيـة والاجتمـاعيـة كانت غيـر مستقلة عن الـدوافع الاقتصادية ، وكان بعضها يتفاعل مع الآخـر ويتـداخـل معـه متبادلا التأثير، فاننا سنركز على المحور الاقتصادي بالدرجة الاولى لانـه مجـال بحثنـا ، دون ان نغفـل الاشـارة الى الـدوافع السياسية والفكرية وغيـرهـا في الازمة التي حصلت زمن عثمان والصراع الذي كان بين علي ومعاوية ، ذلك ان الازمات لا تظهر فجأة في تاريخ الامة بل تسبقها دوافع عديدة تكون بمثابة مقدمات تمهد للازمة ، وهذا سيكون مجال بحثنا في هذا الفصل .

١ـ التوسع في الاستثمار الزراعي والتجاري في عهد عثمان :

أ ـ القطائع :

يظهـر ان هذه الفتـرة قد شهـدت نموا في منح القطائع من الصوافي والارض المـوات وان هذا النمـوكان مؤثـرا في صناعة الاحداث اذ استثار القبائل العربية في الامصار وفي الكوفة بالذات ، ومع ان عمر بن الخطاب قد اقطع في الكوفة «واقطع عمـر طلحـة وجـريـر بن عبدالله والربيل بن عمرو»[1] فان الخليفة عثمان كان سخيا ومتساهلاً في منح القطائع . فقد منح العديد من كبار الصحابة اراضي وصل بعضها الى قريـة ، اوضيعـة كبيـرة «اقطـع عثمـان بن عفـان لعبد الله بن مسعود (رض) في النهرين ولعمار بن ياسر استنيا واقطع خبّاب صنعاء . واقطع سعد بن مالك قرية هرمزان»[2] .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٣ ، ص٥٨٩ .

(٢) ابـويوسف ، الخـراج ، ص٦٢ . البـلاذري ، فتـوح البلدان ، ص٢٧٢ـص٢٧٣ ابن سلام ، الاموال ، ص٢٧٦ . د. عبد العزيز الدوري ، نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية ، ص٩ .

وقد ابيح لبعض كبار الصحابة بيع الارض المقطعة له اذ باع اسامة بن زيد الارض التي اقطعها عثمان له[1] وواضح ان مثل هذا الاجراء يؤثر على موارد الدولة ولعل التصرف في الارض المقطعة بيعا هو الذي حدا بابن آدم ان يقول: «لم يقطع رسول الله (ص) الارضين ولا ابو بكر ولا عمر، وأول من اقطعها وباعها عثمان»[2].

من هنا يظهر ان بعض قطائع عثمان كانت تمليكاً: «اقطع عثمان (رض) جماعة من الصحابة ارض السواد اقطاع تمليك»[3] وكانت هذه الاراضي المقطعة ارض عشر وليست ارض خراج. الارضون التي يملكها ربها ليس فيها خراج مثل هذه القطائع التي اقطعها عثمان (رض) في السواد»[4]، واذا كان الخليفة عمر قد اوقف الصوافي على الفاتحين[5]، فان خلفه عثمان قد رأى ان يقطع منها «اول من اقطع العراق عثمان بن عفان، اقطع قطائع من صوافي كسرى وما كان من ارض الجالية فاقطع طلحة النشاسج واقطع وائل بن حجر الخضرمي حاو الى زرارة، واقطع خباب بن الارت اسبينا واقطع عدي بن حاتم الطائي الروحاء، واقطع خالد بن عرفطة ارضا عند حمام اعين واقطع الاشعث بن قيس الكندي طيزناباذ، واقطع جرير بن عبدالله البجلي ارضه على شاطيء الفرات[6] «ويرى الماوردي ان هذه القطائع من الصوافي قد جاءت لقناعة عثمان في انه رأى اقطاعها اوفر لغلتها من تعطيلها، وشرط على من اقطعها اياه ان يأخذ منه حق الفيء فكان ذلك اقطاع اجارة لا اقطاع تمليك فتوفرت غلتها حتى بلغت على ما قيل خمسين الف الف درهم فكان منها صلاته وعطاياه»[7] وقد لاحظنا ان عمر قد اقطع بشكل محدود من صوافي

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٧٢، ويقول المقريزي: «واول من اقطع القطائع عثمان (رض) وبيعت الارضون في خلافة عثمان» الخطط المقرزي، ص٩٦.

(٢) ابن آدم، الخراج، ص٧٩.

(٣) ابن رجب، الاستخراج لاحكام الخراج، ص٢٢.

(٤) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٥) ابن سلام، الاموال، ص٢٨٣. المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٧٣. ابن سلام، المصدر نفسه، ص٢٣ ـ ص٢٨٤. ابن رجب، المصدر نفسه، ص١٠٤.

(٧) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٩٣. قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٢١٧. ويبدو ان الامر كان اقطاع تمليك بدلالة نقمة الناس على هذا التصرف مما يوحي ان كلام الماوردي وقدامة قد اتخذ طابع التبرير.

الكوفة، ولعل هذا ما دفع ما سينيون الى القول: «ويظهر بأن اقطاع هذه الصوافي قد جرى قبل ايام عثمان، لان ابا عبيدة الثقفي بطل معركة قس الناطف سنة ١٣ هـ كان مالكا لطسوج خطر نية القريبة من بابل وقد اورثها لابنه المختار»[١] ويلاحظ ان الخليفة عثمان قد انتبه الى «حقوق المقاتلة الاولين الذين شاركوا في فتح السواد وعادوا الى مواطنهم في الحجاز والجزيرة ولم ينزلوا الكوفة، وقرر تحديد حصصهم من ارض الصوافي في السواد والسماح لهم ببيعها، اومبادلتها ممن يريد التملك في السواد ولهم اراض في الجزيرةيبادلونهم بها»[٢] ويبين الطبري ذلك قائلا: «ان عثمان جمع اهل المدينة، فقال: ان الناس يتمخضون بالفتنة، واني والله لاتخلصن الذي لكم حتى انقله اليكم ان رأيتم ذلك، فهل ترونه حتى يأتي من شهد مع اهل العراق الفتوح فيه. فيقيم معه في بلاده؟ فقام اولئك، وقالوا: كيف تنقل لنا ما افاء الله علينا من الارضين يا أمير المؤمنين؟ فقال: نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز. ففرحوا وفتح الله عليهم به أمرا لم يكن في حسبانهم، فافترقوا وقد فرّجها الله عنهم به. وكان طلحة بن عبيدالله قد استجمع له عامّة سهمان خيبر الى ما كان له سوى ذلك، فاشترى طلحة منه من نصيب من شهد القادسية والمدائن من اهل المدينة ممن أقام ولم يهاجر الى العراق النشاسج بماكان له بخيبر وغيرها من تلك الاموال، واشترى منه ببئر اريس شيئا كان لعثمان بالعراق، واشترى منه مروان بن الحكم بمال كان اعطاه ايّاه عثمان نهر مروان ـ وهو يومئذ اجمة ـ واشترى منه رجال من القبائل بالعراق بأموال كانت لهم في جزيرة العرب من اهل المدينة ومكة والطائف واليمن وحضرموت، فكان مما اشترى منه الاشعث بمال كان له في حضرموت ماكان له بطيزناباذ، وكتب عثمان الى اهل الآفاق في ذلك وبعدة جربان الفيء والفيء الذي يتداعاه اهل الامصار، فهو ماكان للملوك نحو كسرى وقيصر ومن تابعهم من اهل بلادهم، فأجلى عنه، فأتاهم شيء عرفوه. واخذ بقدر عدّة من شهدها من اهل المدينة وبقدر نصيبهم، وضم ذلك اليهم. فبايعوه بما يليهم من

(١) ماسينيون، خطط الكوفة، ص٩١ ـ ص٩٢.

(٢) د. عبد العزيز الدوري، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام، ص٧٩ ـ ص٨٠. جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق، ص١٢٨.

الاموال بالحجاز ومحه واليمن وحضرموت، يرد على اهلها الذين شهدوا الفتوح من بين اهل المدينة»[١] وهذا الاجراء قد اتاح لكثير من رجال قريش سبل الاثراء اذ «ان الجماعات التي امتلكت صوافي في الكوفة مقابل اراضيها في الجزيرة اكثرهم من قريش اي ان الذين قاموا في المبادلة في الحالتين غالبيتهم من قريش، وهم اول من انتبه الى اهمية الاراضي خاصة انهم اصحاب ملكيات قبل الفتح، وساعدهم غناهم على تكوين ملكيات لهم بطريقة اوباخرى»[٢] كما ان هذا الاجراء قد «مكن بعض المدنيين مثل طلحة بن عبيد الله التميمي والكوفيين مثل الاشعث بن قيس الكندي من امتلاك ضياع واسعة من الصوافي. ولا يخفى ان القرار يخالف الاتجاه الذي اقر زمن عمر بن الخطاب بعدم بيع ارض الصوافي باعتبارها ملكية مشتركة للمقاتلة»[٣].

قواطع عثمان من الارض الموات ايضا في البصرة «وكان عثمان بن عفان اخذ دار عثمان بن ابي العاصي الثقفي، وكتب ان يعطي ارضا بالبصرة فاعطي ارضه المعروفة بشط عثمان بحيال الابلة. وكانت سبغة فاستخرجها وعمرها»[٤]، ويبدو ان هذه الارض التي اقطعت لعثمان كانت واسعة «فأقطعه ـ عثمان بن عفان ـ اثني عشر الف جريب»[٥] ولنا ان نفترض ان منح القطائع من موات البصرة لم يكن ليثير اعتراضا كما حصل في الكوفة عندما اقطعت الصوافي بسبب ان الاخيرة كانت وقفا على الفاتحين ومن الارض الخصبة، على حين تطلب احياء الموات في البصرة اموالا ولم يكن بمقدور احد ان يحييها سوى الاثرياء.

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٨٠ ـ ص٢٨١
(٢) جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق، ص١٣٠.
(٣) د. عبد العزيز الدوري، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام، ص٨٠.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٤٦. ابن سلام، الاموال، ص٢٨٤. ياقوت معجم البلدان، جـ٣، ص٣١٠. د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٩٥.
(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص٢٦٩.

ويتضح ان اقطاع الارض من الصوافي بهذا الشكل الواسع قد أثار زمن عثمان بعض الشكوك والتساؤلات[1] فقد روى عن سيف، عن عمر بن محمد، عن عامر انه قال: «اقطع الزبير وخباب وابن مسعود وابن ياسر وابن هبّار ازمان عثمان، فان يكن عثمان أخطأ فالذين قبلوا منه الخطأ اخطأوا، وهم الذين اخذنا عنهم ديننا»[2].

تجد الاشارة الى ان عثمان في قطائعه وان كان متساهلا وسخيا فيما يتعلق بشأن الصوافي والارض الموات، فان تصرفه في المنح كان محكوما بظروف تاريخية موضوعية سبقت فترته. فالقطائع في الشام مثلا قد جاءت من الصوافي وكان المقاتلة قد وضعوا ايديهم عليها منذ زمن عمر بن الخطاب وكان جل ما فعله عثمان ان اقرهم على ما في ايديهم رغبة في تأمين الرزق لهم «ان هذه القطائع كانت من الارضين التي كانت تحت يد انباط القرى فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة عما كان في ايديها من تلك المزارع فلحقت بارض الروم ومن قتل منها في تلك المعارك التي كانت بين المسلمين والروم فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يقبلها والي المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته، قالوا فمنها اندر كيسان يعني بدمشق وقبيس بالبلقاء تدخل قبالتها بيت المال فيخرج نفقة ما يخرج من الخراج حتى كتب معاوية في امرته على الشام الى عثمان ان الذي اجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقوم عليه من وفود الاجانب ورسل امرائها ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسماها له وسأله ان يقطعه اياها ليقوى على ما وصف له وقال انها ليست من قرى اهل الذمة ولا من الخراج فكتب اليه عثمان بذلك قالوا فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان»[3]

---

(١) د. الحبيب الجنحاني، الشؤون الاقتصادية والمالية في حياة الدولة العربية الاسلامية الاولى، ص١٢٨.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٥٨٩. المقريزي، الخطط المقريزية، ص٩٧.

(٣) ابن عساكر، التاريخ الكبير، جـ١، ص١٨٢ ـ ص١٨٣.

وهذا يعني ان معاوية قد حصل على قطائع واسعة وانه قد خول في التصرف فيهـا، كمـا وجدت اصول بعض القطائع في انطاكية منذزمن عمر لأسباب عسكرية وجـاء عثمـان فأقـر ذلك «كانت انطاكية عظيمة الذكر والامر عند عمر وعثمان، فلما فتحت: كتب عمر الى ابي عبيدة ان رتب بانطاكية جماعة من المسلمين اهل نيات وحسبـة واجعلهم بهـا مرابطـة ولا تحبس عنهم العطاء. ثم لما ولى معاوية كتب اليه بمثل ذلك، ثم ان عثمان كتب اليه يأمره ان يلزمها قوما وان يقطع قطائع ففعل»[1]، وقـد اقطـع عثمـان في امـاكن معينـة في الشام لاسباب ستراتيجية وعسكرية تتعلق بالدفاع عن امن الامة «ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل ـ في لبنان مثل صيدا وعرقة وجبيل وبيروت ـ في آخر خلافة عمر بن الخطاب او اول خلافة عثمان بن عفان، فقصد لهم معاوية حتى فتحها ثم رمها وشحنها بالمقاتلة واعطاهم القطائع»[2]، واضافة الى السبب الستراتيجي في منح القطائع وجد نوع من اقطاع التـوطين في بعض سواحـل الشـام[3] حيث وضعت حاميـات عسكرية «ثم لما ولي معـاويـة الشـام والجزيرة لعثمان بن عفان (رض) أمره ان ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الارضين التي لاحق فيها لاحد فانزل بني تميم الرابية وانزل المازحين والمديبر اخلاطا من قيس وأسد وغيرهـم وفعل ذلك في جميـع نواحي ديـار مضـر ورتب ربيعـة في ديـارهـا على ذلك، والزم المدن والقرى والمســالـح من يقـوم بحفظهـا ويذب عنها من اهل العطاء ثم جعلهم مع عماله»[4] وحـدث اقطـاع توطين لاسبـاب عسكـريـة في قاليقلا زمن عثمان اذ كتب حبيب بن مسلمـة الى معـاويـة «يسألـه ان ينفـذ اليـه من اهل الشام والجزيرة، من يرغب في الجهـاد او الغنيمـة، فبعث اليـه معـاويـة الفي رجل، اسكنهم قاليقلا واقطعهم بها القطائع، وجعلهم مرابطة بها»[5].

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٥٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٣٣. قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة ص٢٩٥.
(٣) فالح حسين، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الاموي، ص٥٨.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٨٣.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٠٠ ـ ص٢٠١. قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٣٢٥.

ان سياسة عثمان في مجال القطائع قد مكنت الاشراف من شراء الارض وبيعها والاستفادة من تجفيف المستنقعات واحياء الموات، وأدى هذا الامر الى نمو الثروات الفردية[1] ويظهر ان يد القبائل العربية قد اطلقت في الشام والجزيرة والسواحل اللبنانية من حيث ملكيةالارض سواءعن طريق الاقطاع التوطيني اووضع اليد على الصوافي مما جعل هذه القبائل اكثررضى عن الخليفة عثمان ومعاوية. على العكس من القبائل العربيةفي العراق وفي الكوفة بالذات، اذ انها لم تمتلك الصوافي ابتداء بل عدّت وقفا وفيئا لها من حيث المردود المادي وجاءت سياسة عثمان في توزيعها وتمليكها لغيرهم لتخرجها من ايديهم ولتحرمهم من الفيء المتأتي عنها، الامر الذي كان له اثره في استياء هذه القبائل وثورتها ضد عثمان والذي سنبحثه عند الحديث عن الصراع بين مركزية الدولة والنزعة القبلية بشأن الصوافي.

ب ـ الزراعة والتوسع في امتلاك الارض:

اوضحنا سابقا حصول توسع في امتلاك الارض الزراعية واحياء الموات. والواقع ان هذا التوجه قد ترسخ اكثرفي زمن عثمان، اذ استفاد الاشراف من بيع وشراء الارض في الكوفة والبصرة والشام وأفادوا من القطائع وتجفيف المستنقعات واحياء الموات[2] وقد كان لكثير من الصحابة اراض، فعلى سبيل المثال امتلك ابن مسعود والحسن بن علي وابي هريرة وابن عباس مزارع في السواد يزرعونها ويؤدون خراجها[3] كما امتلك الزبير بن العوام خططا ودورا بالاسكندرية والكوفة والبصرة وكانت له غلّات تقدم عليه من اعراض المدينة[4]، وكان لابن مسعود في الكوفة

(١) د. عبد العزيز الدوري، الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب، ص٧٢.

ويبدو ان هذا التوسع في منح القطائع قد جعل س. د. جوايتاين يقول. . حل اقتصاد ذو اتجاه اقطاعي من الشرق الاوسط محل الاقتصاد النقدي والتجاري». دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية، ص١١٧.

(٢) د. عبد العزيز الدوري، الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب، ص٧٢.

(٣) د. عبد العزيز الدوري، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام، ص٧٩.

الشيباني، الاكتساب في الرزق المستطاب، ص٣٧.

(٤) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ق١، جـ٣، ص٧٧.

عقار[1]، وقد اشرنا من قبل الى ظهور ملكيات للارض في الامصار، ويهمنا الآن ان نتطرق الى الاوضاع الزراعية وملكية الارض التي لم تقتصر على الامصار، فحسب وانما امتدت الى الحجاز بشكل عام والى المدينة بشكل خاص اذ يبدو ان العرب المسلمين قد بدأوا يعنون بالارض الزراعية منذ زمن عمر بن الخطاب حيث بدأوا استغلال ارض خيبر عندما «كثر فيهم من يعمل على الاشجار فاستغنوا عن اليهود»[2] وبدأت تتكون ملكيات زراعية واسعة في الحجاز ونشطت عملية احياء الموات، فامتلك علي بن ابي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله والخلفاء مساحات معتبرة من الارض كانت صالحة للزراعة وكان اغلبها قد جاء عن طريق احياء الموات[3] وقد ترتب على اقبال الناس على احياء الموات ان وصلت اسعار بعضها الى مبالغ هائلة[4] ويبدو ان علي بن ابي طالب قد امتلك كثيرا من الاراضي الصالحة للزراعة وانه قد استصلح بعض الاراضي واجرى فيها عيونا . . «عمل علي بينبع البغيبغات وهي عيون منها عين يقال لها خيف الاراك ومنها عين يقال لها ضيف ليلى ومنها عين يقال لها خيف بسطاس[5] وربما كان عليا يتحرج من ان يكون من ضمن المجموعة المحسوبة من التيار الدنيوي، وأراد الا يحسب من زمرة الاثرياء فتصدق ببعض هذه الاموال. وقال لما بشر باستصلاح البغيبغات: «تسر الوارث، ثم قال هي صدقة على المساكين وابن السبيل وذوي الحاجة الاقرب . .»[6] وعنى عثمان بن عفان بالارض الزراعية، فقد كان يمتلك بئر أريس الذي اجرى له مياها[7] وكان قد احتفر خليجا سمي بخليج بنات نائلة كان يروي ارضا له اعتملها

(1) خليفة بن خياط، كتاب الطبقات، ص٣٦.
(2) ابن رجب، الاستخراج، في احكام الخراج، ص٢٥.
(3) للمزيد، انظر، د. صالح العلي، ملكيات الاراضي في الحجاز في القرن الاول الهجري، مجلة العرب، جـ١١، السنة الثالثة، آب ١٩٦٩م.
الصفحات ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦ وما بعدها.
(4) د. صالح العلي، المرجع نفسه، ص٩٧٠.
(5) السمهودي، وفاء الوفا، جـ٢، ص٢٦٣.
(6) المصدر نفسه، جـ٢، ص٢٦٢ - ص٢٦٣.
(7) المصدر نفسه، جـ٢، ص١٢١ - ص١٢٢.

بالعرصة [1] كما امتلك ارضا بالعالية [2] ويبدو ان الملكيات الواسعة لعثمان ورغبته في استصلاح الارض واحياء الموات قد جعله يستعين بعمل العبيد في ذلك. . «ان عثمان (رض) خلج خليجا حتى صبه في باطن بلد من الجرف وجعله لبناته من نائلة بنت الفرافصة وانه استعمل فيه ثلاثة آلاف من سبي بعض الاعاجم» [3] وهذه اشارة مهمة جدا تعطينا دليلا على استخدام العبيد في العمل الزراعي. كما تضعنا امام امكانية استخدام عثمان لمماليكه من الرقيق في اعمال كهذه، ذلك انه كان له الف مملوك» [4] سيما وان الامر يتعلق باستخراج واحياء ارض [5]، ويجوز ان يكون الزبير بن العوام قد استخدم العبيد في الاحياء والاعمال الزراعية «كان للزبير الف مملوك يؤدون اليه الخراج» [6] وخاصة انه قد امتلك مساحات واسعة من الاراضي واسهم في احياء الارض الموات [7] وعندما نرجح امكانية استخدام الزبير للعبيد في الزراعة، نجد سندنا في استخدام عثمان لهم في نفس الفترة، كما ان عبدالله بن عامر كان قد استخدم العبيد ـ الزنج ـ في احياء الارض وكان معنيا هو الآخر بالارض الزراعية اذ «اتخذ ـ القريتين ـ وغرس بها نخلا، وانبط عيونا تعرف بعيون ابن عامر. . على طريق المدينة. . وحفر الحفير ثم حفر ـ السمينة ـ واتخذ بقرب قباء قصرا وجعل فيه زنجا ليعملوا فيه. . واتخذ بـ عرفات ـ حياضا ونخلاً. . » [8] ويتضح ان احياء الارض الموات كان يعود على صاحبه بارباح عظيمة فمن خلال الفرق بين

(1) المصدر نفسه، جـ٢، ص٢١٢.
(2) المصدر نفسه، جـ٢، ص٢٢٥.
(3) المصدر نفسه، جـ٢، ص٢٨٠. ويلاحظ ان هذا قد تم في اطراف المدينة.
(4) الدميري، حياة الحيوان الكبرى، جـ١، ص٤٩.
(5) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٨.
يقابل رغبة عثمان في امتلاك الارض، زهد عمر بن الخطاب في ذلك، اذ انه كان يمتلك ارضا حبس اصلها وتصدق بثمرها، السمهودي، وفاء الوفا، ص١٧٤.
(6) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الاصحاب، جـ٢، ص٥١٤. الكتاني، التراتيب الادارية، جـ٢، ص٢٦.
(7) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ق١، جـ٣، ص٧٢ـ ص٧٣. البلاذري المصدر السابق، جـ٢، ص٢٦.
(8) ابن قتيبة، المعارف، ص٣٢١.

سعر بيع وسعر شراء الغابة - ارض الزبير - نرى ذلك اذ «كان بها املاك لاهلها استولى عليها الخراب وكان الزبير بن العوام (رض) قد اشتراها بمائة وسبعين الفا بيعت في تركته بالف الف وستمائة الف»[1] وامتلك طلحة بن عبيد الله اراض في السراة والقناة وكان يزرع على عشرين ناضحا[2] كما امتلك ابنه جعفر ارضا . انفق عليها مائتي الف دينار وكانت تسقي أزيد من عشرين الف نخلة»[3] ولم تقتصر املاك عمرو بن العاص على ارض له بفلسطين تدعى السبع[4] بل امتلك ارضا في الطائف كانت تسمى الوهط، واشتهرت بالخصوبة وكثرة غلتها الزراعية اذ يقال ان كل فاكهة الطائف ومكة كانت تأتي منها[5] و«ابتنى سعيد بن العاص بالعرصة قصرا في سرتها واحتفر بها وغرس النخل والبساتين وكان نخلها ابكر شيء بالمدينة وكانت تسمى عرصة الماء»[6] وكان مروان بن الحكم يمتلك ارضا في المدينة ذات منتوج زراعي ، وقد كان يستغل اسم عثمان في مصلحة منتوج هذه الارض «كان مروان قد ازدرع بالمدينة في خلافة عثمان على ثلاثين جملا فكان يأمر بالنوى ان يشتري فينادي ان امير المؤمنين يريده وعثمان لا يشعر بذلك، فدخل عليه طلحة وكلمه في امر النوى فحلف انه لم يأمر بذلك فقال طلحة هذا اعجب ان يفتات عليك بمثل هذا فهة صنعت كما صنع ابن ابي حنتمة، يعني عمر بن الخطاب. خرج يرفأه بدرهم يشتري به لحما فقال للحام اني اريده لعمر فبلغ عمر ذلك فأرسل الى يرضأ فاتي به وقد برك عمر على ركبته وهو يفتل شاربه فلم ازل اكلمه فيه حتى سكنته فقال له والله لئن عدت لاجعلنك نكالا أتشتري السلعة ثم تقول هي لأمير المؤمنين»[7] ويروى ان مروان كان قد احتفر ارضا واخرج عين ماء وازدرع[8].

(١) السمهودي، وفاء الوفا، جـ٢ ، ص٣٥٢ .

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤ ، ص٤٠٥ .

(٣) المصدر السابق، جـ٢ ، ص٢٤٨ .

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤ ، ص٣٥٧ .

(٥) ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ص٢١ - ص٢٢ .

(٦) السمهودي، وفاء الوفا، جـ٢ ، ص٢٠٠ .

(٧) البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥ ، ص٢٩ .

(٨) السمهودي، وفاء الوفا، جـ٢ ، ص٢٠٠ .

واذا كان التوسع في الاستثمار الزراعي قد شمل الحجاز والمدينة بالذات واستخدم العبيد عمالا زراعيين او اجراء في احياء الارض، فان الامصار قد شهدت نموا اعظم في هذا المجال بحكم توفر الاراضي الخصبة والظروف الجديدة كما بينا من قبل، ويبدو منطقيا ان تكون زيادة عدد العبيد المأخوذين اسرى حرب[1] قد اهلتهم للعمل في الارض الزراعية واحياء الموات، فالسبي لم يتوقف اذ نجده في زمن علي حين سبيت مناطق قريبة من الهند «فلما كان آخر سنة ثمان وثلاثين وأول سنة تسع وثلاثين في خلافة علي بن ابي طالب (رض) توجه الى ذلك الثغر الحارث بن مرة العبدي متطوعا باذن علي فظفر مغنما وسبيا وقسم في يوم واحد الف رأس»[2] كما عقدت اتفاقية استبدال طعام بعبيد مع اهل النوبة في زمن عثمان[3].

ولعل ما يشير الى اهمية الرقيق في هذه الفترة وجود سوق له في مصر[4] ولعل

ويبدو معقولا في ظل توجه العرب لامتلاك الارض واحياء الموات منها في البلدان المحررة ان يستعينوا بعمل العبيد وخاصة ان هذه المجتمعات قد عرفت قيمة عملهم من قبل، ولعل الإشارة الموجزة التي يوردها ماسينيون عن وجود سوق لباعة سماد اخصاب الارض في الكوفة[6] تقدم دلالة بليغة عن اهمية احياء الموات

(١) د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص١٨٠.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٢١. خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص١٧٣. قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٤١٤.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٣٩. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص١١١.

(٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص٩٢.

(٥) د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص٣١٠. محمد علي نصر الله، ست دراسات في النمط الآسيوي للانتاج، ص٧٨. ونجد عند ابن حوقل والاصطخري نصابيين ان العبيد كانوا يعملون في الزراعة وان العرب المسلمين قد عرفوا قيمة عملهم في هذا الجانب «فاما المدينة فهي اقل من نصف مكة، وهي في حرة سبخة الارض، ولها نخيل كثيرة ومياه نخيلهم وزروعهم من الآبار، يسقون بها العبيد..»، صورة الارض، ص٣٧. المسالك والممالك، ص٢٣.

(٦) ماسينيون، خطط البصرة وبغداد، ص٢٩.

في هذه الفترة والعناية بالارض الزراعية، والاقبال على الاستثمار الزراعي سيما وان القطائع وبيع وشراء الارض والاحياء قد وجدت منذ زمن عمر بن الخطاب كما اوضحنا من قبل.

جـ ـ التجارة:

كانت الظروف والاوضاع الجديدة قد هيأت مجالات كثيرة للكسب والاثراء عرف اهل المدن وعلى رأسهم القرشيون كيف يستفيدون منها اذ قاموا بنشاط تجاري واسع في تموين الجيوش وبيع الغنائم والواردات النوعية من الضرائب[1] وساعدت النظرة الى التجارة على الاقبال عليها، فقد عدّ «تثمير المال آلة للمكارم، وعون على الدين»[2] فتوسعت ثروات كثيرمن التجار وبرز اكثر من تاجر نشيط مثل
وعون على الدين»[2] فتوسعت ثروات كثير من لتجار وبرز اكثر من تاجر نشيط مثل الزبير بن العوام الذي كان تاجرا مجدودا في التجارة[3] وعبد الرحمن بن عوف الذي يشترك في نفس الصفة اذ كان ايضا. «تاجرا مجدودا في التجارة، وكسب مالا كثيرا»[4] اضافة الى تجار آخرين مثل حكيم بن حزام وعبدالله بن عمر وعثمان والعباس وغيرهم.

وقد اسهمت الدولة في تشجيع التجارة فأقرضت بعض الافراد نقودا من بيت المال استخدمت في المصالح الخاصة[5] يؤيد ذلك اجراء عثمان بشأن صديق له اذ «كان ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شريك عثمان في الجاهلية فقال العباس بن ربيعة ابن الحارث اكتب الى ابن عامر يسلفني مائة الف درهم فكتب له فأعطاه مائة الف درهم صلة وأقطعه دار العباس بن ربيعة فهي تعرف به[6] «كما اقرض بيت المال هند بنت عتبة[7] وسعد بن ابي وقاص[8]، لابل ان عثمان قد اقترض من بيت المال مائة الف درهم وردها عند حلول الطلب[9] ومن المنطقي ان تستخدم هذه القروض في التجارة وتزيد في اموال بعض الافراد.

(١) د. عبد العزيز الدوري، الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب، ص٧٢.

(٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، جـ١، ص١١٢.

(٣) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الاصحاب، جـ٢، ص٥١٤.

(٤) المصدر نفسه، جـ٢، ص٨٤٧.

(٥) د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصاديةفي البصرة، ص٢١٣.

(٦) البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٣٩. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٤٠٤

(٧) الطبري، المصدر نفسه، جـ٤، ص٢٢١.

(٨) المصدرنفسه، جـ٤، ص٢٥٢.

(٩) البلاذري، المصدر السابق، جـ٥، ص٥٨.

ونشـط في هذه الفتـرة تجـار الجملة الـذين كانوا يسيرون مع الجيش العربي الاسـلامي ويـزودونـه باحتيـاجـاته ويشترون ويبيعون الغنائم[1] ولعل «بعض هؤلاء التجـار كانـوا من العبيـد او الاعـاجم الذين يعملون لحسابهم الخاص، اولحساب شركـائهم العـرب»[2] والـواقـع ان العبيـد قد اسهمـوا في التجـارة في هذه المرحلة وبشكل بارز، فيروى ان الزبير امتلك الف عبد يعملون في التجارة[3] كما استخدم العبـاس عشـرين عبدا مأذونا رأسمال كل واحد منهم عشرة آلاف درهم[4] واستخدم حكيم بن حزام وعبـدالله بن عمـر عبيدا مأذونين في التجارة[5] وواضح ان استخدام العبيـد في التجـارة بهـذا الشكـل الواسع من شأنه ان ينمي ثروة بعض التجار، وان يجعل الهوة الاقتصادية بين الفئات الاجتماعية واسعة.

واتخذت اجراءات تجارية سهلت العملية التجارية ووفرت الامن الاقتصادي فقـد اعتمـد البيـع عن طريق الصكـوك والدفع المؤجل فكان ابن عباس وابن الزبير يأخذان الورق بمكة ويكتبان للتجار الى الكوفة بالمبالغ التي لهم[6] وللتدليل على سعـة العمليـة التجـاريـة في هذه الفترة نشير الى انه قد وجدت اماكن صرف خاصة ببعض الافـراد استخـدمت لتسهيل التجارة وزيادة الثروات فقد وجدت لدينا «اشارة الى احد هذه البنوك الخاصة ذات الفروع المتعددة، ذلك هوبنك الزبير الذي كان مركـزه في المـدينة وله فروع في الاسكندرية والكوفة والبصرة، حيث كان مركزه في هذه المـدينـة في الكـلاء - ميناء البصـرة - وظـل مركزا للتجارة البحرية حتى القرن الرابع الهجري»[7].

(١) الطبري، اختلاف الفقهاء، ص٢١ - ص٢٩.

(٢) د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص٢٦٥.

(٣) الاصفهاني، حلية الاولياء، جـ١، ص٩٠.

(٤) السرخسي، المبسوط، جـ٢٥، ص٣.

(٥) د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص٢٧٢.

(٦) المصدر السابق، جـ٤، ص٣٧.

(٧) د. صالح العلي، المرجع السابق، ص٢٩٥. ويرى ماسينيون في دراسته، الهيئات الحرفية والمـدينـة الاسـلامية «ان الاسلام ولد في فترة كانت النقود موجودة فيها، فانطلق من مبدأ الصرافة وموازنـة النقـود لانعـاش الحـركـة التجارية» ص١٢. ومع ان د. العلي يعتمد على ابن سعد في الحـديث عن مصـرف الـزبيـر، الا اننا يجب ان نتحفظ في التسمية، فالمصارف كما يقرر علماء التـاريـخ الاقتصـادي لم تظهـر الا في عصـر النهضـة وعلى وجـه التحديد في ايطاليا، لذا يكون الاصـح ان نسمي ذلـك امـاكن صرف. فقـد وجـدت الصيـرفـة حينـذاك ولم تكن المصـارف كمؤسسات قد انبثقت بعد.

واسهم التجار الذين لا يمتلكون اموالا في التجارة عن طريق الاشتراك مع من يمتلك الاموال ولا يرغب ان يتجر بنفسه، فكان ان نشأت شركات القراض والمضاربة يلاحظ ان كثيرا من الصحابة قد عملوا في هذا المجال مثل عثمان وحكيم بن حزام وعبدالله بن مسعود[1] وقد كانت هذه الشركات ذات اهمية «في العهود الاولى عندما كانت الاموال تتكدس عند فريق من القواد والموظفين او بعض العرب ممن ليست لهم خبرة في الشؤون التجارية او لا يريدون القيام بها بانفسهم»[2].

واذا كانت كتب التاريخ ومصادرنا الاولية قد حفظت لنا اسماء بعض التجار النشطين، ولم تتطرق الى ذكر اسماء اخرى. فلأن العناية ببعضهم يتعلق باعتبارات دينية وبأهميتهم الشخصية، مما يعني انه قد وجدت اسماء اخرى لم تذكر وان كان لهـا دورها في التجارة لاسباب تقف في الضد من اسباب ابراز الفئة الاولى المعروفة، ويبدو ان هذا كان متأتيا عن اتجاه الكتابة التاريخية ضمن تلك المرحلة.

والخلاصة ان هذه التجارة قد كشفت ان جانبا من الانتاج كان موجها نحو السوق لاغراض المبادلة وان قسما منها كان يستفيد من تجارة المرر - ترانزيت - في حين بقي قسم آخر لسد الحاجة الداخلية[3]. ويبدو ان عمل بعض الولاة في التجارة والاثراء عن طريق الموقع والذي تحدثنا عنه في الفصل الثالث، قد خلق شكوى وتذمرا بين الناس[4].

والخلاصة ان قريشا صاحبة التقاليد التجارية قد عرفت كيفية استغلال وتنمية الاموال واستثمرتها في الفتوح والاستفادة من الآفاق الجديدة، في حين كانت عامة القبائل قد بذرت ما لديها من اموال ولم تعرف كيف تنميها، مما وسع الهوة

(١) مالك، المدونة، جـ٤، ص٦١. ابوحنيفة، جامع المسانِد، جـ٢، ص١٩. السرخسي، المبسوط، جـ٢٢، ص١٨ - ص١٩.

(٢) د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص٢٧٠ - ص٢٧١.

(٣) مكسيم رودنسون، الاسلام والرأسمالية، ص٤٨.

(٤) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص١٩.

الاجتماعية بين عرب المدن وخاصة قريش، وبين القبائل فحصل تباين اقتصادي كبير بين قريش وبين القبائل الاخرى[1]

ان التوسع في الاستثمار الزراعي والتجاري الذي تحدثنا عنه، يقف دليلا قويا ليرد على الفكرة القائلة بأن الحضارة العربية الاسلامية« . . حضارة استهلاكية غير منتجة . . وان الاموال كانت تجمع لتستهلك . لا لتستثمر»[2] فقد وجدنا الدولة تأخذ على عاتقها اصلاح القنوات والجسور واقامة السدود وحفر وتجديد الانهار كما حاولت ان تحد من ارتفاع الاسعار اضافة الى مسحها الارض واحصاء السكان كما حصل في العراق مثلا . لا بل انها كانت تقرض بعض الولاة والتجار الاموال من بيت المال للاتجار به، وشجعت اعمار الارض عن طريق اطلاق اليد في احياء الموات رابطة ذلك بمدة معينة كي لا يحصل ضرر من جراء التحجير، وعلى المستوى الفردي حدث توسع في امتلاك الأرض بالبيع والشراء وفي الاحياء وتجفيف المستنقعات وكراء الارض، او القيام بمشاريع تجارية . وكل ما سبق افعال ذات طابع استثماري تنمي الاموال وتحقق حيوية اقتصادية مما يشير الى ان اقتصاد الدولة لم يكن جامدا .

من ناحية اخرى وضعنا هذا التوسع في الاستثمار الزراعي التجاري، امام امكانية فعلية لاستخدام العبيد في العمل الزراعي وفي استصلاح الموات بالذات . كما وضعنا امام اشتراك واسهام العبيد في العملية التجارية، ولا يخفى ما لهذا الامر من اهمية في تبين حالة العبيد من جهة وفي زيادة ونمو الثروة والاستثمار الاقتصادي لدى بعض الافراد من جهة اخرى .

(١) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص١٨ ـ ص١٩ الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، ص٥٦ .

(٢) د. محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، ص٤٠٥ وص٤٠٩ .

ونحن نعترف بأن موارد الدولة الاساس قد جاءت من الفيء بعد حروب التحرير العربية الاسلامية، ولكنها في نفس الوقت لم تكن لتدور في دائرة مقفلة، بل ازدادت بفعل الاقبال على الزراعة والتجارة .

د ـ نمو الحرف والصناعات في الامصار:

يبدو منطقيا القول بأن الحرف والصنائع في البلدان المحررة كالعراق وسورية ومصر، كانت متطورة قياسا لوضعها في الجزيرة العربية، ولابد ان تكون قد شجعت من قبل العرب المسلمين لوجود العطاء والاموال وحاجة الناس الى الصنائع والواقع ان الامصار العربية الجديدة قد استقطبت الكثير من اهل الحرف وأرباب الصنائع ووفرت لهم سبل الربح والعمل، فترتب على ذلك توجه اهل الصنائع الماهرين الى الامصار[١]، ويتجسد اهتمام العرب بذلك في تخطيط حواضرهم، اذ جعلوا الاسواق قريبة من المسجد الجامع[٢] وقد كانت البيئات العربية في هذه الامصار تغلب عليها البداوة التي كانت تأنف من الحرف اليدوية[٣] ولذا فان الاعمال الخاصة بالصنائع قد تركت بيد الموالي[٤].

والحق ان النظرة الى الحرف والصنائع لم تكن متماثلة بالنسبة للجميع، فعلى مستوى الدين الاسلامي وموقف النبي (ص) والخلفاء الراشدين وجمهور الفقهاء نجد ان (العمل) محترم. وثمّ تشجيع له[٥]. ومع وجود نظرة ازدراء الى الحرف بين بعض الاوساط، فان زيادة السكان والنقود والرخاء في مستوى المعيشة، عوامل أدت الى ظهور الصناعات ونموها في الامصار[٦] اي ان الاعتبارات العملية هي التي غذت الصنائع ودفعتها الى النمو، كما ان وجود ارث محلي في مجال الحرف والصنائع في البلدان المحررة كالعراق[٧] الذي اشتهر بجودة صناعته، ومصر التي عرفت بصناعة جيدة في النسيج مثلا[٨] وسورية التي

(١) اليعقوبي، البلدان، ص٢٥١.
(٢) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٣٩.
(٣) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص٤٤.
(٤) الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ص٢٣٠.
(٥) الشيباني، الاكتساب في الرزق المستطاب، ص٣٦.
(٦) د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص٢٩٩.

(٧) ابن حوقل، صورة الارض، ص٢١٠ وص٢٦١.
(٨) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٤٢.

ربما استخدم قصب السكر فيها في صناعة السكر وخشبها في صناعة السفن[1] من العوامل التي ساعدت على نمو الصنائع لاسيما ان العرب المسلمين شجعوا ذلك.

وقد وجد نوعان من الصناع، الاول يندرج ضمن الصناع الاجراء، والثاني يشمل الصناع الذين كانوا مستقلين ويعملون لحسابهم الخاص[2] كما نجد ان العبيد كانوا يعملون لصالح اسيادهم ويدفعون مبلغا موضوعا عليهم[3] وقد فرضت ضرائب على اهل الصناعات من قبل الدولة[4].

ويتضح ان هذه الضرائب كانت غير محبذة وتثير حساسية عند الدولة واهل الصنائع مما حدا بعمر بن عبد العزيز - فيما بعد - ان يلغيها عنهم[5] وقد كانت هذه الضرائب تؤخذ عن طريق رؤساء اهل الذمة وليس عن طريق تنظيمات حرفية او مهنية[6] كما ان تجمعات اصحاب الحرف والمهن كانت تتركز قرب السوق في حين تجمع العرب قرب المسجد الجامع[7] وربما عدّ هذا التجمع لارباب الصنائع النواة التي تبلورت فيما بعد لتتمخض عن الاتحادات المهنية والتنظيمات النقابية، يساعدنا في هذا الحكم ان اسواق البصرة والكوفة قد شهدت تجمعات بعض الحرفيين وتكتلهم في اماكن معينة منذ فترة مبكرة[8].

الاصطخري، المصدر نفسه، ص٤٦ وص٤٧.

د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص٣٠٠.

(٣) الاصفهاني، حلية الاولياء، جـ٣، ص٤٧.

(٤) الجاحظ، الحيوان، جـ٦، ص٢٤.

(٥) ابن سلام، الاموال، ص٥٢٦، ص٥٢٧.

(٦) د. صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص٣٠٧.

(٧) ابو حنيفة، جامع المسانيد، جـ٢، ص٢٧٤.

(٨) ماسينيون، خطط البصرة وبغداد، ص٢٨ - ص٢٩، ماسينيون، خطط الكوفة، ص١٠٤. ويقول ماسينيون في دراسته: الهيئات الحرفية والمدينة الاسلامية «ان المدينة الاسلامية قائمة من حيث الاساس على فكرة السوق، وان حيوية المدينة تعتمد على الهيئات المهنية»، ص١٢.

وبـرغـم اقـرارنـا بان الاوسـاط البدوية كانت تأنف من الحرف اليدوية ، فان كثيرا من القبائل المهاجرة الى الامصار كانت قد جاءت من بعض الاماكن التي عرفت بدور حسن في مجال الصنائع كعرب نجران الذين عرفوا بصناعة الحلل الجيدة[1].

والعرب الذين وفدوا من مراكز صناعية ، كاليمن والبحرين وعمان[2] ولابد ان يكـونوا قد اسهموا في نمو بعض الصنائع التي اتقنوها وخاصة أن ازدياد الثروة قد زاد من الطلب على الصنـائـع وقـدم مغـريـات مادية كان من شأنها جذب الذين لديهم حرفـة ويبغـون تحقيق اربـاح في ظل فترة اتسمت بزيادة الانفاق نتيجة كثرة الاموال وكرم العربي في الانفاق[*].

لقد رأينا ان الصنائع بقيت بيد الموالي بشكل عام ، وان النظرة اليها لم تكن بالمستوى المطلوب بين بعض الاوساط البدوية ، مما جعل الموالي دون العرب من ناحيـة المـركـز الاجتمـاعي وان احتفظ من كان يعمل منهم في مجال الفكر باحترام العرب ولاشك ان ازدياد عدد الموالي قد جعلهم يهيمنون على الصنائع .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان . ص٧٥ .

(٢) د . صالـح العلي ، التنظيمـات الاجتمـاعيـة والاقتصـاديـة ، ٣٠١ ، د . نزار عبـد اللطيف الحديثي ، اهل اليمن في صدر الاسلام ، ص٤٢ .

(*) ويرى ماسينيون ان البدوي المسلم لم يكن ضد العمل اليدوي ، بل كان ضد الحراثة ، على حين اتسم عمله الحرفي والتحويلي بالاحكام والاتقان ، الهيئات الحرفية والمدينة الاسلامية ، ص١٦ .

٢ـ التيار الدنيوي وتيار الزهد :

أ ـ ثروات القادة والولاة وبعض الصحابة :

كان التـراكم في الثـروة قد بدأ يتشكـل منذ عهد عمر بن الخطاب ، ويبدو ان الامـوال بدأت تتـركـز زمن عثمان بن عفان اذ حررت اماكن جديدة واستكمل تحرير اماكن اخرى[١] وانعكس هذا الرخاء المادي على حياة الناس ، وكان العطاء يصيب العـرب المسلمين بشكـل جيـد وان لم يكن بصورة متساوية ، وقد روي ان الخليفة عثمـان كان يقـول : «. . ايهـا النـاس! اغدوا على اعطياتكم فيأخذونها وافية ، ايها النـاس! اغـدوا على كسـوتكم فيغـدون فيجـاء بالحلل فتقسم بينهم ، حتى والله سمعت اذنـاي يا معشـر المسلمين ، اغـدوا على السمن والعسـل ، فيغدون فيقسم بينهم الطيب من المسـك والعنبـر وغيـره . والعـدوان والله منفي ، والاعطيـات داره والخير كثير ، وما على الارض مؤمن يخاف مؤمنا ، من لقي في اي البلدان فهو اخوه وأليفه وناصره ومؤدبه ، فلم يزل المال متوفرا ، حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقا ، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار ، وبيع البعير بألف ، والنخلة الواحدة بألف ، ثم انكر النـاس على عثمـان اشيـاء أشرا وبطرا»[٢] وحدث نتيجة اتساع الدنيا على الصحابة وكثـرة الخيـرات والامـوال . أن بطـر النـاس بكثـرتهما وصار لديهم متسع من الوقت للانتبـاه الى الامـور الـداخلية[٣] ويقدم لنا نص روي عن علي بن ابي طالب حجم التطـور المـالي والثـروة المفـاجئـة اذ يقـول : «لقد رأيتني مع رسول الله (ص) واني لاربط الحجر على بطني من الجوع وان صدقتي اليوم لاربعون الفا»[٤] وقد صاحب هذا التطور المالي تفنن في ضروب الترف اذ كانت المآدب تقام برفقة غناء الجواري[٥] وربما ساعد موقف عثمان المتساهل من قريش على زيادة ثروات بعض الشخصيات المهمة[٦].

(١) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص١٥٥ ـ ص١٥٦ .

(٢) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، جـ١ ، ص٢٧ .

(٣) الذهبي ، دول الاسلام ، جـ١ ، ص٢٤ .

(٤) ابن حنبل ، كتاب الزهد ، ص١٣٣ .

(٥) الزبير بن بكار ، الاخبار الموفقيات ، ص٢٥٠ .

(٦) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ص٢٧ .

وأدت هذه الثروات والاموال الوافدة الى المدينة، والظروف الجديدة الى تثمير الناس اموالهم في مجال الزراعة والتجارة، فتكونت فئات غنية جمعت اموالا طائلة، فالزبير بن العوام كان يمتلك دورا وخططا وضياعا في الحجاز والعراق ومصر[١] وكان عنده الف عبد وأمة يؤدون اليه الخراج[٢] وبلغت حصة كل امرأة من نسائه الاربع الف الف وكان جميع ماله خمسة وثلاثون الف الف[٣] وقد كان الزبير يمتلك عقلية التاجر النشيط الذي يدرك منذ البداية قيمة الارض وتثمير الاموال اذ كان يسأل النبي (ص) ان يقطعه وهكذا فعل مع ابي بكر وعمر، اي ان التراكم في ثروته له اصوله التاريخية ولم يحدث في عهد عثمان فجأة وانما اتسع حجمه وازداد نتيجة التحولات بعد حروب التحرير، واشتهر طلحة بن عبيد الله بالثراء فكانت ارباحه من العراق الف درهم يوميا[٤] وكان «يغل بالسراة عشرة آلاف دينار او اقل او اكثر وبالاعراض له غلات وكان لا يدع احدا من بني تيم عائلا الا كفاه مؤونته ومؤونة عياله وزوج اياماهم واخدم عائلهم وقضى دين غارمهم»[٥] كما عرف بادخاله القمح وزراعته في الحجاز وكان يخرج قوت اهله من أراضيه[٦]، وامتلك دارا معروفة في الكوفة وشيد داره بالمدينة بالآجر والجص وخشب الساج[٧] وقد اعطاه عثمان مرة خمسين الفا[٨] وبلغت قيمة ارض له سبعمائة الف[٩] وترك عند وفاته ثلاثة قناطير

(١) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٧٧. المسعودي مروج الذهب، جـ٢، ص٣٣٢.
(٢) ابن حنبل، كتاب الزهد، ص١٤٤، المسعودي، المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٣٣، الذهبي، دول الاسلام، ص٣٠.
(٣) ابن سعد، المصدر السابق، جـ٣، ق١، ص٧٧.
(٤) المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص١٥٧. المسعودي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٣٣. اذ يرى ان غلته الف دينار يوميا.
(٥) ابن سعد، المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص١٥٧ـص١٥٨.
(٦) المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص١٥٨.
(٧) المسعودي، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٣٣.
(٨) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص١٨٣.
(٩) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٤٠٥.

ذهب[1] وبلغ مجموع ما ترك من العقار والاموال وما ترك من الناض ثلاثين الف الف درهم ترك من العين الفي الف ومائتي الف درهم ومائتي الف دينار والباقي عروض[2] وامتلك عثمان بن عفان اموالا عظيمة وكان يستثمرها في الزراعة والتجارة[3] اذ كان عنده الف عبد مملوك[4] وبعد اغتياله خلف عند خازنه «ثلاثين الف الف درهم وخمسمائة الف درهم وخمسون ومائة الف دينار فانتهبت وذهبت وترك الف بعير بالربذة وترك صدقات كان تصدق بها ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمته مائتي الف دينار»[5] ونحن نرى هنا ان الخليفة عثمان قد اختلف عن أبي بكر وعمر اللذين لم يتركا ثروة، وربما كان هذا الامر مجال موازنة بين الصحابة، اما الخليفة علي بن ابي طالب فقد رأينا انه امتلك كثيرا من الاراضي وان ثروته ازدادت بدلالة ان نسبة صدقته كانت عالية، ولكنه كان قد رأى ان يتصدق باغلب امواله لموقفه الخاص من الثروة ورغبته في عدم الخروج عن خط الزهد.

اما عبدالرحمن بن عوف الذي كان تاجرا بسيطا في البداية[6] فقد نمت ثروته **واتسعت فابتنى دارا وسعها وكان على مربطه مائة فرس وله الف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم»[7] واحيا واستثمر بعض الاراضي بالجرف وكان يدخل قوت اهله من ذلك سنويا [8] وحدث ان نصدق بارض له بلغ ثمنها اربعين الف دينار، كما تصدق مرة بسبعمائة جمل باحمالها جاءت المدينة من الشام، اضافة الى اعانته في الجهاد**

(١) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص١٥٨، ويروى انه ترك ثلاثمائة حمل ذهبا، الذهبي، دول الاسلام، ص٣١.
(٢) ابن سعد، المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص١٥٨.
(٣) الدميري، حياة الحيوان الكبرى، جـ١، ص٤٩، الذهبي، دول الاسلام، جـ١، ص٢٤.
(٤) الدميري، المصدر نفسه، جـ١، ص٤٩. الذهبي، دول الاسلام، جـ١، ص٢٤.
(٥) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٥٣.
(٦) المصدر نفسه، جـ٣، ص٨٩ الذهبي، المصدر السابق، جـ١، ص٢٦.
(٧) ابن سعد، المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص٩٦. المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٣٣.
(٨) ابن سعد، المصدر نفسه، جـ٣، ص٩٦.

بخمسمائة فرس عربية[1] ويروى ان ربع ثمن ماله اربعة وثمانين الفا[2] وكان لديه عند وفاته «ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت ايدي الرجال منه»[3].

وابتنى سعد بن ابي وقاص قصره بالعقيق على بعد عشرة اميال من المدينة ورفع سمكها ووسع فضاءها وجعل اعلاها شرفات[4] وبلغت زكاة عين ماله خمسة آلاف درهم على حين ترك عند وفاته مائتي الف وخمسين الف درهم[5] وربما نمت ثروة زيد بن ثابت بسبب تساهل عثمان معه «واما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال، فلما حصر عثمان قال: يا معشر الانصار كونوا انصارا لله مرتين، فقال له ابو ايوب: ما تنصره الا لأنه اكثر لك من العبدان»[6] وقد خلف حين توفي «من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بقيمة مائة الف دينار»[7] وشيد المقداد دارا واسعة في المدينة بناحية الجرف وجعل اعلاها شرفات وجعلها مجصصة الظاهر والباطن[8] اما يعلى بن منية فقد خلف خمسمائة الف دينار وديونا على الناس، وعقارات، وغير ذلك من التركة ما قيمته ثلاثمائة الف دينار»[9].

واتيح لعمرو بن العاص ان يكون في مجموعة الاثرياء، فقد رأينا امتلاكه لارض واسعة خصبة قرب الطائف هي الوهط، ورأينا عمر بن الخطاب يقاسمه

(١) الذهبي، دول الاسلام، جـ١، ص٢٦.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٣٣، ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٩٦ - ص٩٧. حيث يقول ابن سعد ان ربع ثمن ماله كان ثمانين الفا.
(٣) ابن سعد، المصدر نفسه، جـ٣، ص٩٦ - ص٩٧.
(٤) المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص١٠٥، المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٣٣.
(٥) ابن سعد، المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص١٠٥.
(٦) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص١٩١.
(٧) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٣٣.
(٨) المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٣٣.
(٩) المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٣٣.

لتلاعبه بالاموال عندما كان في مصر، كما كانت له ارضه بفلسطين التي دعيت السبع ومعها قصره المعروف بالعجلان[1].

كما اتيح لمعاوية ابن ابي سفيان ان يطلق يده في الاموال بعد ان اقره عثمان على التصرف في خراج بعض الاراضي كما رأينا سابقا، ولكي نخمن ثروة معاوية نشير الى انه امتلك دارا بالمدينة بلغ سعرها اربعين الف دينار[2].

ويعلق المسعودي على ثروات الصحابة والقادة والولاة بعبارة موجزة وبليغة قائلا: «وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه، فيمن تملك الاموال في ايامه ـ يقصد عثمان ـ ولم يكن ذلك في عصر عمر بن الخطاب، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة»[3].

لقد رأينا ان كثيرا من اصحاب الثروات، كانوا يقدمون صدقات عن اموالهم احساسا منهم بأن الصدقة تطهير للاموال، كما انهم لم يروا بأسا في اقتناء الثروات لانها احدى نعم الله لاسيما ان قام المسلم باداء الصدقةوممارسة الشعائر الدينية الاخرى، ولعل هذا الامر قد دفع ابن خلدون الى محاولة تبرير الثراء وعدم خروجه عن الشرع فقال: «فكانت مكاسب القوم كما تراه ولم يكن ذلك منعيا عليهم في دينهم اذ هي اموال حلال لانها غنائم وفيوء ولم يكن تصرفهم فيها باسراف انما كانوا على قصد في احوالهم كما قلنا فلم يكن ذلك بقادح فيهم، وان كان الاستكثار من الدنيا مذموما فانما يرجع الى ما أشرنا اليه من الاسراف والخروج به عن القصد واذا كان حالهم قصدا ونفقاتهم في سبل الحق ومذاهبه كان الاستكثار عونا على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة. .»[4] وواضح ان تبرير ابن خلدون يتركز على فهم مثالي وانه يقصر اسباب الثروة على الغنائم والفيء دون ان ينتبه الى ان الاموال كانت تستثمر في الزراعة والتجارة، كما كانت تجمع احيانا بطرق غير مشروعة،

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٣٥٧.
(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الاصحاب، جـ١، ص٣٩٩.
(٣) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٣٤.
(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص٢٠٥.

يعزز هذا ان مقاسمات عمر بن الخطاب لكثير من القادة والولاة، لم تستطع القضاء على احدى سبل الاثراء غير المشروع، وان تساهل عثمان ولينه وتوجه بعض القادة والولاة للاستئثار بالاموال اقليميا، قد جعل المشكلة تتفاقم كما ان هذا الثراء الواسع كان يثير الشكوك عند بعض كبار الصحابة، فقد علق عثمان بن عفان على تركة عبد الرحمن بن عوف الطائلة قائلا: «اني لأرجو لعبد الرحمن خيرا، لانه كان يتصدق ويقري الضيف، وترك ماترون، فقال كعب الاحبار: صدقت يا أمير المؤمنين، فشال ابوذر العصا، فضرب بها رأس كعب، ولم يشغله ماكان فيه من الالم، وقال: يا ابن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال ان الله اعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله بذلك، وانا سمعنا النبي (ص) يقول: ما يسرني ان اموت وادع ما يزن قيراطا»[1].

كما ان بعض الاثرياء كان يشعر ان المال بمثابة عبء يكرب نفسه، اي ان، التيار الدنيوي كان يتوجس من الاموال احيانا، قال: «حدثتني جدتي سعدى بنت عوف، قالت دخل علي طلحة ورأيته مهموما فقلت ما شأنك قال المال الذي عندي قد كثر وكربني، فقلت وما عليك اقسمه فقسم حتى ما بقي منه درهم»[1] وكان عبد الرحمن بن عوف يستشعر احيانا وطأة الثروة ويقارن بين نعمته وشظف عيش صحابة النبي (ص) السابقين ويروى عنه قوله: «قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فكفن في بردة ان غطي رأسه بدت رجلاه وان غطي رجلاه بدا رأسه، وقتل حمزة وهو خير مني وما وجد له ما يكفن فيه الا بردة ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط واعطينا من الدنيا ما اعطينا وقد خشينا ان تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام واتي بصحفة فيها خبز ولحم فلما وضعت بكى فقيل له ما يبكيك قال هلك رسول الله (ص) ولم يشبع هو واهل بيته من خبز الشعير ولا ارانا اخرنا لما هو خير لنا فتوفي وكان فيما ترك ذهب قطع بالفؤوس»[3].

نخلص مما أوردناه الى ان التطور في ثروات القادة والولاة وبعض كبار الصحابة كان كبيرا، وانه كان يجد تبريره في عدم التناقض مع الواجبات الدينية

(١) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٤١.

(٢) ابن الجوزي، مختصر صفة الصفوة، ص٤. الاصفهاني، حلية الاولياء، جـ١، ص٨٨.

(٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ص٥ ـ ص٦.

ولكنه في نفس الوقت كان موضع تساؤل بعض الصحابة الذين رأوا في الترف خروجا عن خط تيار الزهد الذي دعا اليه الاسلام وسار على نهجه النبي (ص) وخليفتاه ابو بكر وعمر، وان التيار الدنيوي وان وجد له رجاله، فقد وجد بين صفوفه احيانا من كان يجد في المال الكثير عبئا ثقيلا، ولا يستبعد ان يكون الناس قد وازنوا بين اصحاب هذه الثروات وبين الحياة البسيطة للصحابة السابقين، الامر الذي احدث صراعا فكريا ودينيا بين تيار الزهد والتيار الدنيوي، كما سنبحث في الصفحات المقبلة، علما بأن هذا الصراع قد اتخذ قناعا فكريا لتمرير اهداف كل من التيارين على المستوى الاقتصادي والاجتماعي بحكم ان «العصور الوسطى قد ربطت باللاهوت، كافة اشكال المذهبية من فلسفة وسياسة وفقه وجعلتها اقساما فرعية من اللاهوت، وبذلك اجبرت كل حركة اجتماعية وسياسية على ان تتخذ شكلا دينيا»[1] ذلك ان الازمنة الايدلوجية لا - تغطي - فقد المصالح الاقتصادية، وليست فقط رايات وكلمات سر - للحركة - انها تكون جزء متحدا وهي عناصر الصراع الحقيقي ذاته»[2].

ب - اجراءات عثمان وابعادها الاقتصادية والاجتماعية:

رأينا ان الخليفة عمر بن الخطاب قد ضيق على قريش، ولم يشأ ان يعهد لعثمان بالخلافة «فعندما جرح عمر وأشرف على الموت دخل عليه وفد من اهل المدينة وطالبوه بتولية عثمان فزجرهم وقال: كيف؟ يحب المال والجنة؟»[3] وقد كان يخشى ان تطلق يد قريش وبالذات بعض بطونها في امور الامة فقد «قال لعلي ان وليت من امر المسلمين شيئا فلا تحملن بني عبد المطلب على رقاب الناس، وقال لعثمان يا عثمان ان وليت من امر المسلمين شيئا فلا تحملن بني ابي معيط على رقاب الناس»[4] ويظهر ان عثمان لم يطبق الوصية لاسباب ذاتية وموضوعية،

(١) انجلز، التفسير الاشتراكي للتاريخ، ص٨١.
(٢) لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، ص٥٩.
(٣) الماوردي، قوانين الوزارة وسياسة الملك، ص١٤. الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٤.
(٤) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٢٤٩.

والـواقـع ان فهم اجراءات عثمان الاقتصادية وتساهله في الهبات لا يمكن ان تكون معقـولـة دون الانتباه الى خلفيته في التصرف بالمال. فقد كان سخيا قبل ان يصبح خليفة واسهم بامواله في دعم الدعوة[١] ويصفه المسعودي بأنه كان «في نهاية الجود والكـرم والسمـاحـة والبـذل في القريب والبعيد، فسلك عماله وكثير من اهل عصره طريقتـه، وتأسـوا به في فعله»[٢]، ولانـه كان لينـا مع قريش وأباح لهم الانسياح في البلاد فقد احبوه[٣] حتى ان قريشا كانت تقول: «احبك الرحمن حب قريش عثمان»[٤]
والواقع ان رجال قريش في السنة الاولى من خلافة عثمان اتخذوا اموالا في الامصـار وانقطـع اليهم الناس، وثبتوا سبع سنين، كل قوم يحبون ايلي صاحبهم[٥] «وترتب على ظهور الترف، ان بدأ بعض الناس يلعبون الميسر ويحتسون الخمر[٦]، ولابـد ان تكـون افعـال كهـذه قد اثارت نقمة اهل التقوى. وقد قيل الكثير عن تولية عثمـان لاقـاربـه من بني اميـة. . «وكان كثيرا ما يولي من بني امية من لم يكن له مع النبي (ص) صحبـة، فكـان يجيء من امـرائه ما ينكره اصحاب محمد (ص) وكان يستعتب فيهم فلا يعزلهم فلما كان في الست الاواخر استأثر ببني عمه فولاهم وولى عبـدالله بن سعـد بن ابي سرح مصـر فمكث عليهـا سنين فجـاء اهـل مصر يشكونه ويتظلمـون منـه»[٧] والحق ان الصورة لا تكتمل دون ان نراعي الظروف الموضوعية ومـا استجـد من احداث دعت عثمان الى تقريب بني امية، فسلطة ونفوذ معاوية بن ابي سفيـان اتسعت بحكم ظروف موضـوعيـة «لمـا ولى عثمـان اقر عمال عمر على الشام فلما مات عبد الرحمن بن علقمة الكناني، وكان على فلسطين ضمّ عمله الى معـاويـة ومـرض عميـر بن سعد في امارة عثمان مرضا طال به، فاستعفاه، واستأذنه فأذن له وضم عمله الى معاوية، فاجتمع الشام على معاوية لسنتين من امارة عثمان»[٨] كما ان النزعة نحو الاستقلال الذاتي عند بعض القادة كعمرو بن العاص

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص٥١٨.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٣٢.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٣٩٧.
(٤) البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص١١. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٥، ص٧٨.
(٥) الطبري، المصدر السابق، جـ٤، ص٣٩٨.
(٦) المصدر نفسه، جـ٤، ص٣٩٨.
(٧) البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٢٦.
(٨) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٨٩.

الـذي بدأ يفصـح عن اتجاهه في الابتعاد عن مركزية الدولة منذ عصر عمر، ووجود شخصيـة قويـة في العـراق كسعد بن ابي وقاص، امور لم تكن لتتيح لعثمان احكام سيطرته، فرأى باعتباره شيخ بني امية ان يستخدم ولاة من الشباب الذين لا يخرجون عن طاعته ويبدو انه اراد ان يقيم منافسة بين سعيد بن العاص في الكوفة وعبدالله بن عامـر في البصـرة في مجال استكمال التحرير[1]، ولكن بعض هؤلاء الولاة قد اساء التصـــرف وكـان اغلبهم من الـذين تأخـر اسـلامهم ووجـدت ملاحظـات من قبـل المسلمين الاوائـل على اسـلامهم[2]، وممـا اسهم في خلق الفتنـة تصـرف بعض هؤلاء الشخصيـات الامـوية في استفزاز الناس، فقد كان مروان بن الحكم يرى ان مال الامـة هو مال الخليفـة[3]، وكـان لهـذا الموقف أثره في تأجيج غضب الناس، فبعــد ان تراجــع عثمـان عن الامـور التي اخـذت عليـه[4] ظهـر مروان ليخـاطب الجمـاهيـر، فقال: «ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب، شاهت الوجوه! كل انسان اخذ باذن صاحبه، الّا من اريد! جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من ايدينا! اخـرجـوا عنـا»[5] والوليد بن عقبة يفهم الولاية كملك ايضا «فلما قدم قال له سعد: أكست بعدنا ام حمقنا بعدك؟ فقال: لا تجزعن ابا اسحق، كل ذلك لم يكن وانما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون. فقال سعد: اراكم جعلتموها ملكا! وقال له ابن مسعود: ما ادري اصلحت بعدنا ام فسد الناس!»[6] ولعل بعض قادة بني امية قد شكلوا اقلية تحكمت في الامور اذ «هناك في كل مجتمع، بل يجب ان يكون في كل مجتمـع اقليـة تحكم سائـر افـراد المجتمـع وهـذه الاقليـة، الطبقة السياسية او

(١) د. محمد عبد الحي شعبان، الثورة العباسية، ص٥٨، خودابخش، الحضارة الاسلامية، ص١٣٩.

(٢) المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم، ص١٩، ابن دريد، الاشتقاق، ص١١٣.

(٣) الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش واخبارها، ص٣٥٧.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٣٦١ - ص٣٦٢.

(٥) المصدر نفسه، جـ٤، ص٣٦٢.

(٦) ابن الاثيـر الكـامـل في التـاريخ، جـ٣، ص٨٣. وقد وجدت في زمن الوليد بن عقبة، ولاية للحمى في ظهر الكوفة، وكان لها قدر في ذلك الوقت ابن دريد، الاشتقاق، ص٣٨٣.

النخبـة الحـاكمـة مؤلفـة من هؤلاء الذين يحتلون مراكز القيادة السياسية»[1] ومع ان هؤلاء القـادة والـولاة قد أسـاءوا الى عثمـان بممارساتهم فانهم تخلوا عنه في الأزمة ولم يستطيعوا ان يقدموا حلا ناجعا للخروج من جو الفتنة. ففي المؤتمر الذي عقده عثمـان مع ولاتـه عام ٣٤هـ وطـالبهم فيه بوضع حد للاخطاء والرجوع الى ما يحب النـاس نرى عبـدالله بن عامـر يقتـرح ان يشغـل النـاس بالجهاد، وارتأى معاوية ان يستخـدم القـوة في كل مصر لضرب المعترضين، على حين اقترح عبدالله بن سعد ان يبـذل المـال للنـاس وتشتـرى ضمـائـرهم[2] ومـع ان عثمان رد على التهم التي وجهت اليـه وحـاجـج الثـوار على اعتراضاتهم بشكل منطقي يوحي بقناعته بما فعل وعـدم وقـوعـه في خطيئة بحق الامة[3]، وانه كان يبرر اعطاءه لاقاربه بقوله: «ان ابا بكـر وعمـر كانـا يحتسبان في منع قرابتهما وانا احتسب في اعطاء قرابتي»[4] فعثمان كان يتأول في اعطاء قرابته، وقد عدّ التصرف في اموال الفضل ـ اموال الامة ـ احد حقوقه. فقد خاطب الناس بعد بناء داره قائلا: «وهبوني بنيت منزلاً من بيت المال. اليس هولي ولكم! الم اقم امـوركم واني من وراء حاجـاتكم؟ فمـا تفقـدون من حقوقكم شيئا، فلم لا اصنع في الفضل ما أحببت؟ فلم كنت اماما اذا؟ الا وان من اعجب العجب، انه بلغني عنكم انكم تقولون: لنفعلن به ولنفعلن»[5] فانه قد رجع عن موقفـه وعـدّ ما اعطـاه لاقاربه دينا عليه قالوا فمال الله الذي اعطيت اقاربك قال اكتبوا به عليّ للمسلمين صكا لا عجل منه ما قدرت على تعجيله واسعى في باقيه[6].

(١) ت. بوتومور، النخبة والمجتمع، ص١١.
(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص١٤٩ ـ ص١٥٠.
(٣) خليفـة بن خيـاط، تاريـخ، جـ١، ص١٤٥ ـ ص١٤٦ وص١٥٠. ابن سعد كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٤٨. الطبري، تاريخ الرسل والملوك. جـ٤، ص٣٥٥.
(٤) البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٢٨. الطبري، المصدر السابق، جـ٤، ص٢٢٦.
(٥) الزبير بن بكار، الاخبار الموفقيات، ص٦٠٣. الطبري، المصدر نفسه، جـ٤، ص٣٤٥.
(٦) البلاذري، المصدر السابق، جـ٥، ص٢٨. الطبري، المصدر نفسه، جـ٣، ص٣٤٥.

ان الامر المؤكد، هو انه قد وجد بين اقارب عثمان من اساء التصرف وأساء الى الخليفة الذي منعه حياؤه من اتخاذ موقف صارم بشأنهم. فالعباس يقول لابنه عن عثمان: «... يا بني ليس الى هذا الرجل من امره شيء»[1] ونائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان تخاطبه قائلة: «وقد اطعت مروان ولا قدر له عند الناس ولا هيبة»[2] وعلي بن ابي طالب ينصح امام عثمان «وما يمنعني منك يا عثمان الا عصبيتك وحبك قومك واهلك»[3] لا بل يذهب الى ابعد من ذلك عندما يترسم سوء تصرف اقارب عثمان في اموال الامة ويبدي عجزه عن اقناع عثمان: «ما يريد عثمان ان ينصحه احد، اتخذ بطانة اهل غش ليس منهم احد الا قد تسبب بطائفة من الارض يأكل خراجها ويستذل اهلها»[4] ويتضح ان عثمان قد ادرك سوء تصرف اقاربه وانه قد ابتلى بهم فقال: «اللهم قد تعلم نيتي فاعني عليهم، وتعلم الذين ابتليت بهم من ذوي رحمي وقرابتي، فاصلحني لهم واصحلهم لي»[5]

وقد استغل بعض القادة لاسباب شخصية اعمال اقارب عثمان ليشهروا به كما فعل عمرو بن العاص بعد عزله عن ولاية مصر فبدأ يؤلب الناس على عثمان[6] ويبدو ان عائشة (رض) قد دخلت في اشكال مع عثمان (رض) لاسباب تتعلق

(١) البلاذري، أنساب الاشراف، جـ٥، ص١٤.
(٢) المصدر نفسه، جـ٥، ص٦٥. ويقول الجاحظ «ثم كتب لعثمان بن عفان (رض) مروان بن الحكم، فخانه في خاتمه، واشعل الرعية حربا عليه في ملكه». رسائل الجاحظ، جـ٢، ص١٨٩.
(٣) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، جـ١، ص٢٤.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٤٠٦.
وقد خاطب جبلة الانصاري عثمان قائلا بعد ان جاءه بجامعة: «والله لاطرحنها في عنقك او لتتركن بطانتك هذه» البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٤٧.
(٥) الزبير بن بكار، الاخبار الموفقات، ص٦٠٧.
(٦) المصدر نفسه، ص٤٩٧. البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٧٤.

بالعطاء[1]، ولابـد أن يكون لموقف عائشة ثقله في التأثير في اوساط الناس لاسيما انه قد حدث تحول في النظرة والموقف ورقابة الناس، فقد اخذ على عثمان جلوسه في مكـان النبي، (ص) في المسجـد في الـوقت الـذي نزل عنه ابو بكر درجة وعمر درجة اخرى، وعدّ بذلك قد ركب امرا صعبا[2].

ولعل سوء السياسة الاقتصادية زمن عثمان كان من العوامل الفعالة في انضاج الفتنـة، فيـروى ان عثمـان قد اقطـع احـدى صدقـات النبي وكـانت موضـع سوق بالمـدينـة اسمـه مهـروذ لمـروان فنقم النـاس عليـه ذلك[3] كما روى انه كان يدفع صدقات سوق المدينة الى الحكم بن ابي العاص ويمنح الجوائز والهبات من بيت المـال لاقـاربه، وقد اعتزل خازن بيت المال احتجاجا على التصرف باموال الامة، وقال في مسجد المدينة انه خازن للمسلمين وليس لعثمان اولقرابته[4]. وبديهي ان مثل هذا الفعل يؤلب الناس ويحرضهم، ويتضح سوء الانفاق في عهد عثمان بقول احد الثائرين:

«ثم ان النـاس استخلفـوا عثمـان بن عفـان فحمى الاحماء، واكثر القربى، واستعمـل الفتى الغني ـ ورفـع الـدرة ووضـع السوط، ومزق الكتاب، وحقّر المسلم وضـرب منكـرى الجـور، وآوى طريـد الـرسـول (ص) وضرب السابقين بالفضل، وسيّـرهم وحـرمهم، ثم اخـذ فيء الله الـذي أفاءه عليهم فقسمه بين فساق قريش،

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٦٣.
(٢) ابن قتيبة، عيون الاخبار، جـ٢، ص٢٣٥.
(٣) الماوردي، الاحكام السلطانية، ١٧١.
(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٥٦.

ويظهـر ان عثمـان قد تغـاضى عن اخـذ صدقـة الامـوال البـاطنـة وتـرك للمصـدق حريـة التصريـف، فكان «دين الزكاة عن الاموال الباطنة بمنزلته عن الاموال الظاهرة، فان المصدق كان يأخذ منها في عهد رسول الله (ص) والخليفتين من بعده (رض) حتى فوض عثمان (رض) الاداء الى اربـاب الامـوال، لمـا خاف المشقـة والحرج في تفتيش الاموال عليهم من سعاة السوء فكان ذلـك توكيـلا منـه لصاحب المال بالاداء فنفذ توكيله». السرخسي، المبسوط، جـ٢، ص١٦٩، وواضح ان هذا الاجراء قد حرم الدولة من وارد مهم.

ومجان العرب . . »[1]، واذا اردنا ان نتوخى الدقة فلنا ان نشير بأن مفاوضات عثمان مع الثائرين قد انصبت على: «ان المنفي يعاد، والمحروم يعطى، ويوفر الفيء ويعدل في القسم، ويستعمل ذوو الامانة والقوة»[2] ومن خلال ذلك يتضح ان الشروط كانت تستهدف تحقيق عدالة اقتصادية، فالسلبيات التي سجلت على عثمان كانت تضم سببا اقتصاديا واضحا[3]وقد اعترف عثمان بسوء السياسة الاقتصادية للثائرين «استغفر الله عما فعلت وأتوب اليه فمثلي نزع وتاب[4] «ولكن هذا الاعتراف والرغبة في العدول عن السياسة الاقتصادية الى سياسة اقتصادية تتوخى تحقيق العدالة، جاءا متأخرين لان الاحداث كانت تتسارع والظروف الموضوعية الجديدة في المدينة والامصار قد خلقت اسباب اخرى مهمة تضافرت فيما بينها لتجهز على الخليفة عثمان الذي صار مشجبا علقت عليه الاخطاء كافة برغم ان ما حصل كان انفجارا سبقته ظروف موضوعية واحوال اجتماعية خارجة عن ارادة عثمان، ولم تكن من صنعه او نتيجة سياسته الاقتصادية فقط، كما رأينا سابقا وكما سنرى في الصفحات الآتية.

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٥، ص٥٦٦.
(٢) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص١٢٥.
(٣) البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٢٥، اذ يجمل لنا المآخذ التي سجلت على عثمان بقوله: «. . ثم توانى في امرهم واستعمل اقاربه واهل بيته في الست الاواخر وأهمهم أي المسلمين، وكتب لمروان بن الحكم بخمس افريقية واعطى اقاربه المال، وتأول في ذلك الصلة التي امر الله بها واتخذ الاموال واستسلف من بيت المال مالا وقال ان ابا بكر وعمر تركا من هذا المال ماكان لهما واني آخذه فاصل به ذوي رحمي فانكر الناس ذلك عليه».
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٣٦١.
علينا ان نتحفظ بشأن المبررات التي اوجبت قتل عثمان والثورة عليه، فربما تضمنت مبالغات اوجبها ثقل المسؤولية التي شعر بها الصحابة والمسلمون عقب ذلك. اي يحتمل ان تكون متأتية عن ضمير مثقل بالذنب يحتاج الى تبرير وأسباب حتى أن طلب الامر اصطناع في بعضها والمبالغة في بعضها الآخر.

جـ - الصراع بين التيار الدنيوي وتيار الزهد :

اوضحنا من قبل عن وجود دعوة زهد في الاسلام ، كان لها اتباعها الذين يرون في الاموال المكتنزة اثما ، وكان يقابل تيار الزهد تيار دنيوي لا يرى ضررا في اقتناء الثروات ، ويبدو ان المتدينين الزاهدين كانوا يرون جمع وتكديس الثروة امرا مناقضا لاوامر الله التي تدعو الى الاعتماد عليه ، وترى في المال فتنة[1] ، ومع ان تيار الزهد قد استمر طيلة عصر الراشدين الا انه قد ضعف وخفتت قوته بحكم الاحوال الجديدة والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية وما افرزته مرحلة التحرير من اموال طائلة ومشاريع استثمارية[2] وعليه فقد بقي تيار الزهد المتضمن موقفا اجتماعيا يقاوم التحولات الجديدة من خلال وسائل سلمية[3] .

كان تيار الزهد يضم شخصيات مهمة عديدة من كبار المسلمين الاوائل ، كعلي بن ابي طالب الذي عرفنا موقفه من الثروة والتحولات الاقتصادية ، فقد كان مع بعض اصحابه كأبي ذر وعمار بن ياسر وغيرهما يعيب امورا جرت في عهد عثمان[4] وعمار بن ياسر الذي كان يزهد في الثروة : «لما بنى عبدالله بن مسعود داره، قال لعمار : تعال فانظر ما بنيت فنظر ، وقال : بنيت شديدا ، وأمّلت بعيدا ، وستموت قريباً»[5] . وقد رأينا من قبل انه كان يعّد زيادة الثروة اثما وخطيئة[6] وبعد ان نقل عمار لعثمان احتجاجات بعض الصحابة على التحول الاقتصادي ضربه اتباع عثمان «حتى فتقوا بطنه فغشي عليه»[7] فبدأ عمار «يقع في عثمان ويشتمه بالمدينة»[8] ولابد ان يثير ضرب صحابي جليل الاستياء بين المتدينين ويثير تيار الزهد .

(١) د. س. جواتياين، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية، ص١٢٦ .

(٢) اجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الاسلام، ص١٣٨ .

(٣) د. ابراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القر ن الاول الهجري، ص١١١ .

(٤) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢ ، ص٣٤٢ .

(٥) البلاذري، انساب الاشراف، جـ١ ، ص١٦٥ .

(٦) المصدر نفسه، جـ١ ، ص١٦٧ .

(٧) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، جـ١ ، ص٣٢ .

(٨) المصدر السابق، جـ١ ، ص١٧٣ .

وثم تيار الزهد بين صفوفه رجالا مهمين مثل ابي ذر الذي يقول لزوجته : المخفف فيها اهون من المثقل»[1] وانه قد قال : «عندنا اعنز نحتلبها واحمر ننقل عليها ومحرر يخدمنا وفضل عباءة اني اخاف الحساب فيها»[2]. ويروى عنه انه قد «مر بأبي الدرداء وهو يبني بناء له، فقال له : قد حملت الصخر على عواتق الرجال فقال هه : انما هو بيت ابنيه، فقال له ابو ذر: مثل ذلك، فقال يا أخي لعلك وجدت عليّ من ذلك، فقال لو مررت بك وانت في عذرة اهلك كان أحبّ اليّ مما رأيتك فيه»[3] ويتضح لنا ان بعض كبار الصحابة قد ساءهم ما يحدث فبدأوا الكتابة الى اهل الامصار: «لما كانت سنة اربع وثلاثين كتب اصحاب رسول الله (ص) بعضهم الى بعض : ان اقدموا، فان كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد. وكثر الناس على عثمان ونالوا منه اقبح ما ينال من احد، واصحاب رسول الله (ص) يرون ويسمعون، ليس فيهم احد ينهي ولا يذبّ الاّ نفير. .»[4] وربما كان تردد الصحابة الناقمين على الاوضاع الجديدة، كانوا يندرجون ضمن تيار الزهد وكانت اعتراضاتهم منصبة على سوء السياسة الاقتصادية والرغبة في اقرار العدالة الاجتماعية والالتفات الى اصحاب النبي من المناضلين الاوائل[6]. اما الرأي الذي يتبناه فلهوزن وبروكلمان والقائل بأن ارتفاع نجم بني امية كان يهدد مكانة الصحابة[7] فهو رأي يكتفي بابراز جانب المصلحة ويغفل دور التقوى والمتدينين في مناهضة الثراء، اذ لا يمكن تجاهل وجود صحابة اتقياء زاهدين في الثروة، يتمتعون بايمان عال دفعهم الى الوقوف ضد مظاهر الثراء واكتناز الاموال ورفض

(١) ابن حنبل، كتاب الزهد، ص.١٤٨ .
(٢) المصدر نفسه، ص١٤٦ .
(٣) المصدر نفسه، ص١٤٦ .
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٣٣٧ .
(٥) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص١٦٨ .
(٦) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، جـ١، ص٣١، ص٣٢ .
(٧) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص٤٠ . بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص١١١ .

الاتجاه الدنيوي[1] كما ان مصادرنا تسعفنا بأكثر من نص يوضح مبدئية هؤلاء الاتقياء ورفضهم المشاركة في اطلاق اليد باموال الامة، فعلي بن ابي طالب رفض ان يأخذ مالا من بيت مال المسلمين حين اعطاه اياه عثمان، وعدّ ذلك خروجا عما رسمه لنفسه، واعتقد في نفس الوقت ان هذا المال الذي قدم له ربما سيحول بينه وبين نصح عثمان ومهاجمة بعض الافراد الذين اطلقوا ايديهم في اموال الامة[2].

كما رفض ابو ذر اقتراح عثمان بادرار العطاء عليه «ان عثمان قال لأبي ذر حين قدم من الشام قربنا يا أبا ذر خير لك من بعدنا يغدى عليك باللقاح ويراح، فقال لا حاجة لي في دنياكم ولكني آتي الربذة فاذن له في ذلك فأتاها ومات بها»[3] كما لم يأخذ محمد ابن ابي حذيفة صلة عثمان له «وبعث عثمان الى ابن ابي حذيفة بثلاثين الف درهم ويحمل عليه كسوة فأمر به فوضع في المسجد وقال يا معشر المسلمين الا ترون الى عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه» فازداد اهل مصر عيبا لعثمان وطعنا عليه واجتمعوا الى ابن ابي حذيفة فرأسوه عليهم»[4] وكذلك فعل عبدالله بن الارقم عندما اعاد ثلثمائة الف درهم الى عثمان[5] ويبدو انه قد جرت افعال تأديبية بمنع بعض كبار الصحابة والمتدينين فقد بعث معاوية الى ابي ذر ثلثمائة دينار، فقال ابو ذر: «ان كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا قبلتها وان كانت صلة فلا حاجة لي فيها»(٦). كما منع عطاء عبدالله بن مسعود الذي قال لعثمان عندما جاء يزوره في مرضه ويقترح عليه ان يعيد عطاءه: «منعتنيه وأنا محتاج اليه وتعطينه وأنا مستغن عنه، قال يكون لولدك، قال: رزقهم على الله، قال: استغفر لي يا أبا عبد الرحمن قال: اسأل الله أن يأخذ لي منك بحقي وأوصى الاّ

(١) جب، دراسات في حضارة الاسلام، ص٨ ـ ص١٠، اوليري، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ص٥٩.
(٢) الزبير بن بكار، الاخبار الموفقيات، ص٦١٢.
(٣) البلاذري، انساب الاشراف، جـ ٥، ص٥٣.
(٤) المصدر نفسه، جـ٥، ص٥١.
(٥) البلاذري، المصدر السابق، جـ٥، ص٥٩.
(٦) المصدر نفسه، جـ٥، ص٥٣.

يصلي عليه عثمان»[1] كما امر عثمان سعيد بن العاص «ان يضرب كعب بن عبدة ـ احد القرّاءِ ـ عشرين سوطا ويحوّل ديوانه الى الري ففعل»[2].

وربما كان تيار الزهد غير مقبول فقد نفي عامر بن القيس من البصرة الى الشام لأنه كان زاهدا حرم على نفسه اكل اللحم ونكاح النساء[3] في وقت كانت الظروف الموضوعية قد عمقت اتجاه التيار الدنيوي، يعزز ذلك ما قاله معاوية: «اما ابو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده، واما عمر فارادته الدنيا ولم يردها. واما عثمان فأصاب منها، واما نحن فتمرغنا فيها ظهرا لبطن..»[4] كما ان الخليفة عثمان كان مسلما بما يجري ولم ير فيه خطيئة اوخروجا على الشرع اذ قال لابي ذر معلقا على التحولات الاقتصادية: «يا ابا ذر عليّ ان اقضي ما عليّ، وأخذ ما على الرعية ولا اجبرهم على الزهد»[5].

ان ابرز ممثل لتيار الزهد ونشدان العدالة الاجتماعية والوقوف ضد التيار الدنيوي هو ابو ذر الغفاري الذي كان يرى ان عهد عثمان قد شهد تغيرات وتحولات مخالفة لسنة النبي (ص) وابي بكر وعمر، ورغبة من عثمان في عدم اتاحة الفرصة له في المدينة لتحريض الناس فقد سيره الى معاوية في الشام[6] وفي الشام اعترض على ثراء معاوية عندما رأى قصره الخضراء بدمشق قائلا: «يا معاوية ان كانت هذه

(١) البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٣٧ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٥٨.

(٢) البلاذري، المصدر نفسه، جـ٥، ص٤٢. ويقول البلاذري في ص٤٠ من نفس المصدر، ان سعيدا بن العاص كتب لعثمان: اني لا املك من الكوفة مع الاشتر واصحابه الذين يدعون القراء وهم السفهاء شيئا، فكتب اليه ان سيرهم الى الشام».

(٣) ابن قتيبة، المعارف، ص١٩٥. جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الاسلام، ص٣٤٥.

(٤) الذهبي، دول الاسلام، جـ١، ص١٩.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٨٤. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص١١٦.

(٦) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٥٩.

الدار من مال الله فهي الخيانة، وان كانت من مالك فهو الاسراف، فسكت معاوية»[1] واختلف مع معاوية بشأن النظرة الى مال الامة بعد ان نقل اليه ان معاوية يدعوه مال الله كي يتجاهل انه حق المسلمين فاتاه ابو ذر، فقال: ما يدعوك ان تسمي مال المسلمين مال الله! قال: يرحمك الله يا أبا ذر السنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والامر امره! قال: فلا تقله، قال: فاني لا أقول: انه ليس لله، ولكني سأقول مال المسلمين»[2] وقد وجد ابو ذر في الشام ما اثار ملاحظاته فكان يقول: «والله لقد حدثت اعمال ما اعرفها والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه والله اني لأرى حقا يطفأ وباطلا يحيى وصادقا يكذب واثرة بغير تقى وصالحا مستأثرا عليه»[3] ولعله قد وجد في الشام فئات اجتماعية فقيرة، ولعل ابا ذر كان يرى انه لا ينبغي للمسلم ان يكون في ملكه اكثر من قوت يومه وليلته او شيء ينفقه في سبيل الله او الضيافة ويأخذ بظاهر القرآن[4] فقد بدأ في مخاطبة اهل الشام قائلاً «يا معشر الاغنياء، واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وظهورهم، فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الاغنياء، وحتى شكا الاغنياء ما يلقون من الناس»[5].

وقد احس معاوية واتباعه خطر ابي ذر في الشام بعد ان وجدوه قد افسدهم فاقترحوا على عثمان ان يرده الى المدينة[6] فكتب عثمان الى معاوية: «ان الفتنة قد اخرجت خطمها وعينيها فلم يبق الاّ ان تثب، فلا تنكأ القرح، وجهز ابا ذر اليّ، وابعث معه دليلا وزوّده، وارفق به، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت، فانما تمسك ما

(١) البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٥٢.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٨٣.
(٣) المصدر السابق، جـ٥، ص٥٣.
(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص١١٤.
(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٨٣.
(٦) الطبري، المصدر نفسه، جـ٤، ص٢٨٤. البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٥٣. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٦٥. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٥، ص٩٤ - ص٩٥.

استمسكت. فبعث بأبي ذر ومعه دليل، فلما قدم المدينة ورأى المجالس في اصل سلع، قال: بشر اهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار»[1] وحاول معاوية ان يسترضي ابا ذر وان يوحي للفقراء الذين اولعوا بحديثه انه يريد الدنيا فارسل اليه «الف دينار في جنح الليل فانفقها، فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذي ارسله اليه فقال: اذهب الى ابي ذر فقل له: انقذ جسدي من عذاب معاوية، فانه ارسلني الى غيرك واني اخطأت بك. ففعل ذلك، فقال له ابو ذر: يا بني قل له: والله ما اصبح عندنا من دنانيرك دينار ولكن أخرّنا ثلاثة ايام حتى نجمعها»[2].

وفي المدينة اعلن ابو ذر في مجلس عثمان ان الزكاة ليست كافية وانه لا يجوز التصرف في مال المسلمين[3] واوضح ان الثروة توقع الانسان في الخطيئة وتسيء الى العلاقة بين الانسان وربه[4] وكانت له اعتراضات على استخدام بني امية واحماء الحمى[5] كما فهم سورة التوبة الآية ٣٥، «والذين يكنزون الذهب والفضة..» بأنها تشمل المسلمين وليست خاصة باليهود والنصارى، كما اراد ان يفهمها معاوية واتباعه خالصا الى نتيجة مفادها تحريم الاسلام لكنز الاموال، فيروى عنه قوله: «ان خليلي (ص) عهد اليّ ايما ذهب او فضة أوكي عليه فهو جمر

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٨٤.
(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص١١٤ - ص١١٥. ويقدم لنا ابن الاثير رواية اخرى عن محاولة تشويه معاوية لسمعة ابي ذر، بعد ان ذهب الى الربذة فيقول: «وأخرج معاوية اليه اهله، فخرجوا ومعهم جراب مثقل يد الرجل، فقال: انظروا الى هذا الذي يزهّد في الدنيا ما عنده؟ فقالت امرأته: والله ماهو دينار ولا درهم ولكنها فلوس كان اذا خرج عطاؤه ابتاع منه فلوسا لحوائجنا». ابن الاثير، المصدر نفسه، جـ٣، ص١١٦.
(٣) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٣٩ - ص٣٤٠. ابن الاثير، المصدر نفسه، جـ٣، ص١٠٦.
(٤) المسعودي، المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٤١.
(٥) البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٥٣.

على صاحبه يوم القيامة حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل»[1] ولا بد ان تكون هذه النظرة الزاهدة متناقضة للتيار الدنيوي الذي يكتنز ويستثمر الاموال فترتب على ذلك ان ابعد ابوذر الى الربذة[2] وقد قارن بعض المسلمين الذين مروا بأبي ذر بين ثروته البسيطة وبين ما كان يملكه كبار الصحابة من امثاله في المدينة من الاموال الطائلة فبين لهم ان له حقه في مال الامة مثلما لهم بالذات «ان اصحابك قبلنا اكثر الناس مالا ، قال اما انهم ليس لهم في مال الله حق الا ولي مثله»[3] ويبدو ان نفي ابي ذر ونفي عامر بن عبد القيس، ومغادرة رافع بن خديج المدينة احتجاجا[4] قد اثار واغضب بعض المؤمنين فقد قال جهجاه بن سعيد الغفاري لعثمان: «يا عثمان انزل ندرّعك عباءة ونحملك على مشارف من الابل الى جبل الدخان. كما سيّرت خيار الناس»[5] ومن خلال ذلك يظهر ان الصراع بين تيار الزهد المعارض للثروة والاكتناز كان تيارا ضم اناسا متدينين ورعين، لم يشكلوا قوى يسار ضد قوى اليمين[6] فلا طبيعة تشكيلهم الفكري ولا عصرهم كان قد شهد هذا الفهم الحديث اضف الى ذلك ان المجتمعات فيما قبل الرأسمالية لم تكن قد استكملت تشكلها الطبقي، وكل ما في الامر ان اصحاب تيار الزهد والعدالة الاجتماعية التي هي من جوهر الاسلام، ناهضوا موقف اصحاب التيار الدنيوي، واتخذ كل تيار من الدين وسيلة للدفاع عن وجهة نظره الاجتماعية والاقتصادية.

(١) ابن حنبل ، كتاب الزهد، ص١٤٧.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٨٤. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص٢٦٠. البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٥٣.
(٣) الطبري، المصدر نفسه، جـ٤، ص٢٨٥.
(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص١١٦.
(٥) البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٤٧.
(٦) احمد عباس صالح، اليمين واليسار في الاسلام، ص٨١.

٣ ـ الصراع بين مركزية الدولة والروح القبلية والاقليمية:

يعتقد بعض الباحثين ان مجيء عثمان الى السلطة قد جعل التناقض بين الاتجاه الذاتي والتطور الموضوعي يختفي بسرعة[١] ونحن نعتقد عكس ذلك فقد اظهرنا الصراع بين تيار الزهد والتيار الدنيوي ورأينا طبيعة الموقف من اكتناز الاموال وسوء سياسة الانفاق الاقتصادية مما يشير الى ان التناقض بقي قائما واتخذ في طوره الاول طابعا سلميا قام على الحجة الدينية لينتقل في طوره الثاني الى حركة عنف مسلحة، وقد تفاقم هذا التناقض من خلال الاصطدام بين المبادىء الاسلامية والاتجاهات القبلية بحيث يصعب ان يفهم تاريخ صدر الاسلام دون تناول المواجهة المستمرة بين الاسلام والقبلية[٢] مع ملاحظة ان الموقف القبلي كان متداخلا مع انبثاق اقليمية جديدة في الامصار[٣] وساعد هذه القبلية على النهوض من جديد توقف حروب التحرير[٤] لتجد القبائل فرصة وفراغا لمناقشة عائدات الاراضي المحررة فتحولت العصبية القبلية من دور موحد للعرب الى دور مفرق في هذه الفترة[٥] وقد كان التركيب القبلي للامصار يسمح للعصبية القبلية في ان تعلن عن نفسها «وكان اكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي (ص) ولا ارتاضوا بخلقه مع ماكان فيهم من الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الايمان واذا بهم عند استفحال الدولة قد اصبحوا في ملكة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل واهل الحجاز ويثرب السابقين الاولين الى الايمان فاستنكفوا من ذلك وغضوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بانسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كندة والازد من اليمن وتميم وقيس من مضر، فصاروا الى الغض من قريش والانفة عليهم والتعريض في طاعتهم والتعلل في ذلك بالتظلم منهم»[٦] وبلغ

(١) د. اميل توما، الحركات الاجتماعية في الاسلام، ص٦١.
(٢) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص١٧ ـ ص١٨.
(٣) المرجع نفسه، ص١٩.
(٤) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٣٧.
(٥) د. ، محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، ص٣٩٥.
(٦) ابن خلدون، المقدمة، ص٢١٥.

العـداء لقـريش اوجـه عند بعض رجال القبائل الذين رأوا استفادة قريش من التجارة وامتـلاك الارض، حين افصـح عن هذا الشعـور من قبـل بعض المعـارضين الذين اخرجوا من الكوفة الى الشام حيث معاوية الذي قال لهم: «وقد بلغني انكم نقمتم قريشا، وان قريشا لولم تكن عدتم اذلة كما كنتم»[1] فاجابه زيد بن صوحان: «كم تكثر علينا بالامرة وبقريش، فما زالت العرب تأكل من قوائم سيوفها وقريش تجـار..»[2] ورد رجـل آخـر من المعارضين: «أما ما ذكرت من قريش فانها لم تكن اكثر العرب ولا امنعها في الجاهلية فتخوفنا»[3] وقد كانت العصبية القبلية والانحياز اقليميا لكل مصر تدفع احيانا الى القتال كما حصل بين اهل الشام واهل الكوفة في الاختـلاف حول غنـائم شمشـاط وقـد عالج عثمان المشكلة بأن جعل اهل العراق يقتسمون الغنائم مع اهل الشام[4].

لقـد اثـرت العصبية القبلية والروح الاقليمية والاستياء من قريش في الاسراع بانفجـار الثـورة ضد عثمـان وتضـافـرت معهـا عوامـل اخـرى كالتصرف في اقطاع الصوافي وازدياد عدد الروادف وعوامل اخرى لترسم ملامح فترة حاسمة في تاريخ الامة.

أ ـ الموقف من الصوافي وازدياد عدد الروادف:

اتضـح لنـا من قبـل ان عمر بن الخطاب اوقف الصوافي على المحررين في الامصار وان وارد الامصار كان يصرف عليها باستثناء الغنائم التي كان يحمل خمس حصـة الـدولـة منهـا الى المـدينـة، ورأينا ان عثمان قد تساهل في اقطاع الصوافي وخـاصـة في منطقة الكوفة وانه قام باستبدال اراض في الحجاز باراض في العراق، وكـان المستفيـد منهـا بالـدرجـة الاولى قريش، وقـد شعرت القبائل العربية انها قد حرمت من وارد الصـوافي، وكـان ان اصـر عثمـان على عدم التـراجـع عن عملية المبـادلـة التي حدثت زمن سعيـد بن العـاص[5] وكان الاستياء في الكوفة وليس في

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٣١٨.
(٢) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص١٢٠.
(٣) المصدر السابق، جـ٤، ص٣١٩.
(٤) ابن اعثم الكوفي، كتاب الفتوح، جـ٢، ص١١٠ ـ ص١١١.
(٥) الطبري، تاريخ الرسل الملوك، جـ٤، ص٣١٧، ص٣٤٨.

البصرة بهذا الشأن لان الاراضي فيها كانت من الصوافي الخصبة على عكس البصرة التي كانت القطائع منها من الارض الموات التي تتطلب جهودا واموالا للاحياء[1] وانصب اعتراض رجال القبائل على التصرف في الصوافي وحرمانهم من واردها حتى وصل الى حالة صعبة، فقد قال سعيد بن العاص لمجموعة من الناس «انما هذا السواد بستان لقريش»[3] وهذا يعني ان القبائل ادركت ان عملية المبادلة لم تكن في صالحها وانها قد حرمت من فيء الصوافي فتأجج الوضع جراء ذلك وحذر سعيد بن العاص عثمان قائلا: «يا أهل المدينة استعدوا واستمسكوا، فقد دبّت اليكم لفتن»[4] واتسعت دائرة الاضطراب وحجم المشكلة، بازدياد عدد الروادف المهاجرين الى الامصار، وخاصة الكوفة التي شهدت تطورات اجتماعية واقتصادية وبشرية نتيجة هذه الزيادة، فقد كتب سعيد بن العاص الى عثمان: «ان اهل الكوفة قد اضطرب امرهم وغلب اهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت، واعراب لحقت، حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها»[5] وقد حاول عثمان ان يعالج الوضع بابقائه على ما كان عليه بتفضيل اهل السابقة من المجاهدين وحفظ منزلة كل امرىء وفق اسهامه في حروب التحرير[6] ولكن هذا الاجراء لم يكن عمليا لاسيما ان انقاص وارد الكوفة بعد التصرف في الصوافي قد أثّر على الروادف لان العطاء ظل ثابتا والناس في زيادة ويبدو ان التفضيل في العطاء كان في غير صالح الروادف «الا ان الذين لا سابقة لهم ولا قدمة لا يبلغون مبلغ اهل السابقة والقدمة في المجالس والرياسة والحظوة، ثم كانوا يعيبون التفضيل، ويجعلونه جفوة، وهم في

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٧٥. جمال محمد جودة، العرب والارض، ص١٣١.

(٢) الطبري، المصدر نفسه، جـ٤، ص٣٢٢. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص١٣٩.

(٣) الطبري، المصدر نفسه، جـ٤، ص٣٢٣، ابن الاثير، المصدر نفسه، جـ٣، ص١٣٩.

(٤) الطبري، المصدر نفسه، جـ٤، ص٢٨٠.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٧٩.

(٦) المصدر نفسه، جـ٤، ص٢٧٩.

ذلـك يختفـون به ولا يكـادون يظهـرونـه لانه لا حجة لهم والناس عليهم، فكان اذا لحق بهم لاحق من ناشيء او اعرابي اومحرر استحلى كلامهم، فكانوا في زيادة، وكـان النـاس في نقصـان حتى غلب الشـر»[1] ومع ان عثمان سار على نفس سياسة عمـر في العطـاء الا ان زيـادة عدد الـروادف جعـل «عطاء القادمين الجدد يتناقص باطـراد وفق فتـرة وصـولهم، ولمـا كانت القبـائـل في الامصار منظمة لغرض التعبئة والعطـاء الى عرافـات والى وحـدات كبيـرة - الاسبـاع في الكـوفـة والاخماس - في البصـرة - مثـلا لكـل منهـا مجمـوع محدد من العطاء، فمن المحتمل ان الزيادات الكبيرة في الروادف تؤثر على اعطيات المجموعة وتخفضها»[2].

ولـذا فلم يكن غريبـا ان نجـد ان بعض زعمـاء المعـارضة ينتسبون الى عبد القيس الـذين كانـوا من الروادف المستائين من وضعهم الاقتصادي[3]. واذا اضفنا الى ما سبق توقف حركة التحرير وما تدر من غنائم، امكن لنا ان نتصور حجم استياء الـروادف الـذي تضافر مع احتجاج المحررين الاوائل على التصرف في الصوافي، ليخلقـا رد فعـل ضد تصـرف الدولة في الفيء والصوافي لاسيما ان الاتجاه الجديد كان يجنح الى عدّ فيء المسلمين فيئا للدولة، ومما اجج الوضع اخذ عثمان لفضل مال الفيء، وهي سابقة لم تكن زمن عمر بن الخطاب[4].

ويظهر ان الاوضاع الجديدة لم ترض بعض اهل التقوى من القراء[5] فكتبت مجمـوعـة منهم الى عثمـان تنـدد بتصـرف سعيـد بن العـاص في المجـال الاقتصادي[6]، كما كتب احدهم وهو كعب ابن عبدة الى عثمان يشكو سوء الحالة

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٨١.
(٢) د. عبد العزيز الدوري، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام، ص٧٩.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٩١. جمال محمد جودة، العرب والارض، ص١٧٠.
(٤) الطبري، المصدر نفسه، جـ٤، ص٢٣٩. ابن عثم الكوفي، كتاب الفتوح، جـ٢، ص١٨٢
(٥) الطبري، المصدر نفسه، جـ٤، ص٢٧٩. البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٤١.
(٦) البـلاذري، المصـدر نفسـه، ص٤١. وقد عبّر بعضهم ان زمن الخير قد ولى الى غير رجعة. وحـدث تداخـل في الصـورة، وعدّت التحولات الجديدة مصدر شر دنيوي، فقال اهاب بن همام بن صعصعة:
«وقـد فتـن النـاس في دينـهـم   وخـلا ابـن عفـان شرا طويـلا»
ابن الكلبي، جمهرة النسب الكبير، جـ١، ق٢، ص٦٦.

الاقتصادية ويدعو الى الرجوع الى الشورى فكان ان استدعاه سعيد وجلده عشرين سوطا. وهكذا فعل معه عثمان ونفاه الى دباوند وحول ديوانه الى الري، ولابد ان تكون معاملة هذا الرجل برغم انها فردية - ذات تأثير بين صفوف قبيلته، وبين صفوف المتدينين الاتقياء الذين وقفوا ضد التحولات الاقتصادية الجديدة.

ب - دور العامة والرقيق في الثورة على عثمان:

انتشر العرب باعداد كبيرة في الامصار الجديدة[1] وترتب على هذا التطور البشري السريع نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية، واذا كان العرب قد سكنوا هذه الامصار فقد عاشوا مع مواليهم ومع الرقيق الذي بعدتهم. ونلمس أثر للعامة والرقيق في الثورة على عثمان[2]، فقد أشارت عائشة الى دورهم في الامصار حين كتبت الى اهل الكوفة عن المناوئين لعثمان قائلة: «فعزموا وعثمان بن حنيف معهم على من اطاعهم من جهّال الناس وغوغائهم على زطهم وسيابجهم[3] وصرحت بعد مصرع عثمان: «يا ايها الناس، ان الغوغاء من اهل الامصار واهل المياه وعبيد اهل المدينة اجتمعوا بعد ان عاب الغوغاء على هذا المقتول»[4]، ويظهر انه قد وجد بعض الرقيق في وفد المصريين الذين جاءوا المدينة لمفاوضة عثمان ومن ثم اسهموا في محاصرته، وبهذا الشأن قال الفضل بن عباس:

فلو رأت الانصار ظلم ابن عمكم لكانوا له من ظلمه حاضري النصر
كفى ذاك عيبا ان يشيروا بقتله وان يسلموه للاحابيش من مصر[5]

وشخّص الزبير بن العوام لمليح بن عوف السلمي قتلة عثمان: «عدي علي امير المؤمنين (رض) فقتل بلا ترة ولا عذر، قال: ومن؟ قال: الغوغاء من الامصار

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص١٦٥. البلاذري، فتوح البلدان ص٢٣٨. د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص١٧.
(٢) المصدر نفسه، جـ٤، ص٢٨١.
(٣) المصدر نفسه، جـ٤، ص٤٧٣.
(٤) المصدر نفسه، جـ٤، ص٤٤٨.
(٥) المصدر نفسه، جـ٤، ص٤٢٦.

ونـزاع القبـائـل، وظاهرهـم الاعراب والعبيد . . »[1] والواقع ان دور العامة والرقيق لم يكن مقتصـرا على الامصـار، فالمـدينـة هي الاخـرى قد شهـدت تغييرات سكانية واتسعت فقـد قام عثمـان بعد ازدياد الناس بشكل اوسع بزيادة مساحة المسجد كي يستـوعب النـاس[2] والـواقـع انـه قد وجد في المدينة عدد كبير من الرقيق «وقد كان اتخـذ ـ عثمـان ـ جنـدا عظيمـا من رقيق الخمس»[3] كمـا امتلك اكثـر من صحابي اعـدادا لا يستهـان بهـا من الـرقيق[4] ويتجسد دور العامة والرقيق في اكثر من نص، فثم من نـسميهم ذؤبـان العـرب [5] وطلحـة والـزبير قالا لعائشة بعد ان سألتهما عما

حدث بعـد مصـرع عثمـان : «انا تحملنا هرّابا من المدينة من غوغاء واعراب وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقا ولا ينكرون باطلا ولا يمنعون انفسهـم[6] وقد نادى منادي عائشـة حين ارادت التـوجـه من مكة الى البصرة : «ان عائشة تريد البصرة وليس في ستمـائـة بعيـر ما تغنون به غوغاء وجلبة الاعراب وعبيدا قد انتشروا وافترشوا اذرعهم مستعـدين لاول واعيـة»[7] وعـائشـة نفسهـا قد قالت لـممثلي وفـد البصرة : « . . ان الغـوغـاء ونـزاع القبـائـل غزوا حرم رسـول الله . . »[8] وكانت العامة قد اسهمت في الثـورة على عثمـان «وكـان حثـالـة من النـاس قد ضووا اليهـم قد مزجت عهـودهم واماناتهم مفتونون»[9] وكان هؤلاء قد جاءوا من الامصار «ثم تجمع قوم من الغوغاء

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٤٦١ .

(٢) السمهودي، وفاء الوفا، جـ١، ص٣٥٥، جـ٢، ص٣١٩. النهرواني كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام، ص٧٥.

(٣) الطبري، المصدر السابق، جـ٤، ص٣٧٠ ـ ص٣٧١ .

(٤) ابن سعـد، كتـاب الطبقـات الكبيـر، جـ٣، ق١، ص١١٢. ابن عبـد البر، الاستيعاب في معرفة الاصحاب، ص٥١٤. السمهودي، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٨٠ .

(٥) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٣، ص١٧٣ .

(٦) المصدر نفسه، جـ٣، ص٢٠٧ ـ ص٢٠٨ . ابن الطقطقا. الفخري في الآداب السلطانية، ص٨٦. .

(٧) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٤٥٤ .

(٨) ابن الاثير، المصدر السابق، جـ٣، ص٢١١ .

(٩) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٤٩ .

وجاءوا الى المدينة يظهرون طلب النصفة من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة ومصر»[1] ويلاحظ انهم قد اسهموا في مصرع عثمان: «وركب الغوغاء دار عثمان فصاح انسان منهم ايحل دم عثمان ولا يحل ماله فانتبهوا متاعه»[2]. وعندما ارادت نائلة زوجة عثمان نقل جثمانه زجرها بعض المسلمين «وقالوا: انا نخاف عليه من هؤلاء الغوغاء ان ينبشوه، فرجعت نائلة الى منزلها»[3] ويبدو أن بعض العامة كان من مزارعي المدينة وعمالها الزراعيين «وان فيمن حصره خزاعة وسعد بن بكر وهذيلا من طوائف جهينة ومزينة وأنباط يثرب..»[4] يعزز هذا الاعتقاد ان بعض مزارعي المدينة اشتركوا مع اهل مصر ضد عثمان الذي خاطبهم.. «الا من كان له زرع فليلحق بزرعه، ومن كان له ضرع فليحتلب، الا انه لا مال لكم عندنا، انما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من اصحاب رسول الله (ص). قال: فغضب الناس، وقالوا: هذا مكر بني امية»[5] وقد اشار علي بن ابي طالب الى دور العامة فخاطب الناس في اليوم الثالث لمصرع عثمان: «يا أيها الناس، اخرجوا عنكم الاعراب، وقال: يا معشر الاعراب، الحقوا بمياهكم، فأبت السبئية واطاعهم الاعراب»[6] وعندما طلب منه طلحة والزبير ان يقيم الحد على قتلة عثمان اوضح استحالة ذلك، واشار الى دور الرقيق في الثورة: «اني لست اجهل ما تعلمون، ولكني كيف اصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت اليهم اعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا»[7].

ان التطورات الاقتصادية الجديدة في عهد عثمان لم تكن جميعها من صنعه، فمع اقرارنا بأن سياسة الانفاق لم تكن حسنة وان عثمان قد تصرف في

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٢١٦.
(٢) البلاذري، انساب الاشراف، جـ٥، ص٩٨.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٤١٣.
(٤) البلاذري، المصدر السابق، جـ٥، ص٩٩.
(٥) المصدر السابق، جـ٤، ص٣٥٥.
(٦) المصدر نفسه، جـ٤، ص٤٣٨.
(٧) المصدر نفسه، جـ٤، ص٤٣٧. نهج البلاغة، جـ٢، ص٨٠ - ص٨١.

الصوافي واجاز لنفسه حق التصرف في فضول الفيء وانه حوّل من فيء الامصار الى المدينة، فانه كان يستعين ببني امية كي يحكم سيطرة الدولة المركزية باعتباره شيخ امية وخليفة المسلمين في نفس الوقت مع الانتباه الى ان اخطاء عماله قد حسبت عليه بسبب سوء تصرفهم، فان اسبابا اخرى كانت وراء التطورات في الاوضاع منها الصراع بين تيار الزهد والعدالة الاجتماعية وبين اصحاب التيار الدنيوي اضافة الى التغيير البشري والاقتصادي في الامصار والمدينة الذي اظهر دور الروادف والعامة والرقيق، ناهيك عن وجود سبب عشائري في الثورة عليه «وقد كانت من عثمان قبل هنات الى عبدالله بن مسعود وابي ذر وعمار بن ياسر فكان في قلوب لحال عمار بن ياسر[1] كما استأت تيم لعلاقته بمحمد بن ابي بكر[2].

واخيرا الصراع بين الروح القبلية والاقليمية وبين مركزية الدولة والاستياء من نمو نفوذ قريش.

٤ ـ انتقال عاصمة الدولة الى الكوفة وتبعية البناء السياسي للواقع الاقتصادي:

شهدت الفترة التي اعقبت مصرع عثمان صراعا دمويا بين العراق والشام، بين علي ومعاوية، وابرزت معركة الجمل المواجهة بين تيار الزهد والعدالة الاجتماعية، ورجال القبائل العراقيين، وبين التيار الدنيوي واصحاب الثروة والمستفيدين والخائفين على مصالحهم الاقتصادية.

---

(١) البلاذري، أنساب الاشراف، جـ٥، ص٢٦. المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٤٤.

(٢) البلاذري، المصدر نفسه، جـ٥، ص٦٨. المسعودي، المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٤٤.

بعـد توجـه عائشـة والـزبير وطلحة الى البصرة وتحريض الناس على علي[1] ارتأى الاخير ان ينتقل الى العراق لسبب اقتصادي وعسكري بالدرجة الاولى، ويبدو ان الانصـار كانـوا يخشـون هذه الخطـوة ويرون فيها اضعافا لحيوية المدينة، ولكن ذلـك لم يجعـل عليـا يرجع عن قراره: «ولما هم علي (رض) بالمسير الى العراق. اجتمع اشراف الانصار، فأقبلوا حتى دخلوا على علي، فتكلم عقبة بن عامر، وكان بدريـا، فقـال: يا أميـر المؤمنين ان الـذي يفـوتك من الصلاة في مسجد رسول الله (ص)، والسعي بين قبـره ومنبـره اعظم ممـا ترجـو من العـراق، فان كنت انما تسير لحـرب الشـام، فقـد أقـام عمر فينا، وكفاه سعد زحف القادسية، وابو موسى زحف الاهواز، وليس من هؤلاء الا ومثله معك والرجال اشباه، والايام دول، فقال علي: ان الاموال والرجال بالعراق، ولأهل الشام وثبة احب ان اكون فيها»[2].

ومع ان انتقال علي الى العراق واتخاذه الكوفة عاصمة، قد جعل موقفه دفاعيا واتـاح لمعـاوية الهجوم لأن اهل الكوفة قد اشتركوا في مصرع عثمان[3] الا ان ذلك في نفس الوقت قد جعل عليا قريبا من الاموال والرجال كما عبر بنفسه، وافقد هذ' الاجراء الاهمية الاقتصادية للمدينة واضعف دورها السياسي. فكان بداية الضعف الـذي دب في المـدينـة وجعـل دورهـا ينحسـر تدريجيـا في المجـال الاقتصـادي والسيـاسي بحيث فقـدت مركـزها في الاجراء التالي الذي جعل من دمشق عاصمة زمن معاوية.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٤٥٠.

(٢) الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٤٣.

(٣) د. نزار عبد اللطيف الحديثي، محاضرات في التاريخ العربي، ص١٦٢.

أ ـ دور المال في اضعاف تيار الزهد وهيمنة التيار الدنيوي:

اعتزل فريق من الصحابة الصراع بين علي ومعاوية[1] وقد عبر احدهم وهو سعد بن ابي وقاص عن موقفهم هذا عندما سئل عما يمنعه من القتال فقال: «حتى تجيئوني بسيف يعرف المؤمن من الكافر»[2] كما رأوا ان «السلامة في العزلة، وقالوا: اذا كان غزو الكفار قاتلنا، فاما قتال الفتنة والبغي فلا نقاتل اهل القبلة»[3] اي انهم ربما كانوا يستهدفون وحدة الامة والجماعة ويقفون ضد الفرقة والصراع الداخلي.

ويلاحظ ان اغلب المهاجرين والانصار كانوا في صفوف علي[4] وقد خاطب عقيل بن ابي طالب معاوية فيما بعد ـ عندما سأله عن سبب ضحكه في مجلسه قائلا: «اضحك اني كنت انظر الى اصحاب علي يوم اتيته، فلم ارمعه الا المهاجرين والانصار وابناءهم، والتفت الساعة فلم ار الّا ابناء الطلقاء وبقايا الاحزاب»[5].

ورغم ان معاوية كان قد عد بني امية مسؤولين عن مصرع عثمان قائلا: «وان جميع من ألّب عليه وأجلب لسببكم، وايثاره ايّاكم، وبذلك قطعت اوداجه ثم اثباجه، وسفك دمه، واستحلت حرمته..»[6] فانه ناوأ عليا كولي لعثمان تحمل مسؤولية اخذ ثأره[7] واستطاع ان يستعين ببعض الشخصيات المهمة عن طريق بذل الاموال، فعمرو بن العاص ناصر معاوية لقاء ان يستأثر بخراج وجزية مصر طوال حياته، فاصبحت مصر طعمة لعمرو وعائلته[8] كما سعى الى تفتيت صفوف علي

(١) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، جـ٣، ق١، ص٢٠.
(٢) المصدر نفسه، جـ٣، ق١، ص١٠٢.
(٣) الذهبي، دول الاسلام، جـ١، ص٢٩.
(٤) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص١٦، ص١٩٠. المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٥٢.
(٥) الزبير بن بكار، الاخبار الموفقيات، ص٣٣٥.
(٦) المصدر نفسه، ص١٨٢.
(٧) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص٣٢.
(٨) الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٥٨. المبرد، الكامل، جـ١، ص٣٢٥.

ببـذل المـال بين صفوف جنده[1] كما كان معاوية يقدم الامن لولاة علي المتلاعبين بالاموال كما حصل مع يزيد بن حجية التيمي الذي سرق اموال الري[2] والتجأ الى معاوية، واستطاع معاوية ان يضم الى جانبه عبيد الله بن عباس بأن اجزل له العطاء[3] وحاول ان يستميل قيس بن سعد بأن بذل له الف الف درهم على ان يسير معه اوينصرف عنه فارسل اليه بالمال وقال تخدعني عن ديني»[4] كما ان تشدد علي مع اخيـه عقيـل ومنعـه من التـلاعب بامـوال الامـة قد جعل عقيلا يلجأ الى معاوية فاختار التيار الدنيوي[5] ويبدو ان سياسة معاوية قد جذبت اليه انصارا واضعفت تيار الـزهـد، ومـع ان الاتقيـاء كانـوا قد وقفـوا ضد التيـار الـدنيوي وناصروا القبائل في العـراق، الا انهم عادوا الى الـوقوف في صف معاوية ومناهضة فهم القبائل للعلاقة بين الدولة والسلطة الدينية ووحدة الجماعة فقد كشف «النزاع عن انه ليس نزاعا بين الأسس الدينية والاسس الدنيوية للوحدة، وانما هو نزاع بين القوى القبلية المخربة وبين الوحدة التي يفهمها المكيون، وهي وحدة معتدلة تنطوي في اقل صورها على احترام الاسس الدينية التي تقوم عليها الجماعة»[6].

لقـد كان اهـل الشـام اكثـر اتحـادا من اهـل العراق بحكم تحضرهم ونيلهم لاراضي خصبـة ورعـايـة معاوية لهم[7] على حين كانت النزعات القبلية في العراق بارزة وقـويـة[8] ففي الشـام وظف التيار القبلي لخدمة معاوية[9] وكان السبب القبلي المصلحي، العشـائـري، عامـلا مسـاعـدا في جمع الاتباع لمعاوية، فباقتراح من عمرو بن العاص، استغل معاوية نفوذ رأس اهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي .

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص٤٣٥.
(٢) الزبير بن بكار، الاخبار الموفقيات، ص٥٧٥.
(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص٢٠٣.
(٤) المصدر نفسه، جـ٢، ص٢٠٣.
(٥) ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٧١.
(٦) جب، دراسات في حضارة الاسلام، ص١٠.
(٧) الثعالبي، ثمار القلوب، ص٥٤٧.
(٨) المصدر نفسه، ص٥٤٧.
(٩) الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٨٦.

الـذي قام بدوره في تحـريض قبـائـل الشـام للمطـالبة بدم عثمان، ونجح في ذلك بشكـل كبيـر ولـم يخالفه سوى مجموعة من نساك واتقياء حمص[1]، على حين كان السبب القبلي معـرقـلا لخطـط علي في العراق، ففي مسألة التحكيم وبعده حدث انقسام في صفوفه وافتقدت الوحدة[2] لابل ان اثر العصبية القبلية يتجلى في رفض القبائل في العراق ان يكون عبدالله بن عباس ممثلا لهم في التحكيم، اذ قال علي: «فعليكم بعبـدالله بن عبـاس فارمـوه به، فان عمرا لا يعقد عقدة الا حلها عبدالله ولا يحـل عقـدة الا عقـدهـا ولا يبـرم امـرا الا نقضـه، ولا ينقض امـرا الا ابـرمه. فقال الاشعث: لا والله لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة، ولكن اجعله رجلا من اهل اليمن اذ جعلوا رجلا من مضر. فقال علي: اني اخاف ان يخدع يمنيكم، فان عمـرا ليس من الله في شيء اذا كان له في امـر هوى، فقـال الاشـعث: والله لأن يحكما ببعض ما نكره، وأحدهما من اهل اليمن، احب الينا من ان يكون ـ بعض ـ ما نحب في حكمهما وهما مضريان»[3].

وتجـدر الاشـارة الى ان بعض زعمـاء القبـائـل قد احسوا باهمية الوحدة اثناء حرب صفين وعبروا عن خوفهم من الخطر الاجنبي في حالة انهاك الامة في الصراع الداخلي، فكانوا يعبرون عن حسهم القومي ويهتفون في الجيشين المتقابلين: «يا معشر العرب، الله، الله في نسائكم واولادكم من فارس والروم غدا اذا فنيتم»[4]

وربمـا كان السبب الاسـاس في صلح الحسن مع معـاوية بعد اغتيال علي، يكمن في رغبة الحسن في ان تعود وحدة الجماعة الى ما كانت عليه[5] اضافة الى اشتراط التزامات مادية على معاوية يكون عائدها لصالح الحسن والحسين، ومراعاة

(١) الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٥٩ ـ ص١٦٠. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص٤٤٥.
(٢) نصر بن مزاحم، المصدر نفسه، ص٥١٣ ـ ص٥١٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٥٠٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٧٨. الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٨٩.
(٥) الذهبي، دول الاسلام، جـ١، ص٣٤.

وتأمين النـاس من مختلف الاتجـاهـات[1] وبهذا الاجراء كان النصر قد سجل للتيار الـدنيـوي الذي بدأ يفرض هيمنته الاقتصادية والسياسية والفكرية، ويعلق الجاحظ على ذلـك بقـولـه : «فعنـدما استوى معاوية على الملك، واستبد على بقية الشورى وعلى جمـاعـة المسلمين من الانصـار والمهـاجـرين في العـام الـذي سمـوه عام الجماعة، وما كان عام جماعة، بل كان عام فرقة وقهر وجبريه وعلبه، والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكا كسرويا، والخلافة غصبا قيصريا. . »[2].

ونحن نرى ان معـاويـة كان قد استـوعب واستجـاب للاحـوال والظـروف والتحـولات الجـديـدة وسـايـر التغييـرات النـاجمة عن الفهم القبلي متمثلا تجربة الانتقال من الجزيرة العربية الى الواقع الجديد في الحواضر العربية الاسلامية، وما املته من تحولات كانت مخالفة لمبدأ المثل القرآني الاعلى الذي يميل الى الزهد، فالـواقـع كان يسيـر والظـروف الموضوعية كانت تملي نتائجها، وكان لابد من فهم يرفض العودة الى الوراء ويتمسك ببعض الاصول وبفكرة الزهد مغفلا الواقع الذي هزهما بعنف وأوجب ان يواكب ويفهم ضمن مرحلته التاريخية.

ب ـ الاوضاع الاقتصادية في زمن علي:

اتسمت فتـرة حكم علي بن ابي طالب بالمحـافظـة على بعض الاوضـاع الاقتصـاديـة وبحـدوث تبدل في اوضاع اخرى، ولكي نفهم الامور التي استجدت اقتصاديا والامور التي ظلت قائمة في شؤون الاقتصاد. لنا ان نبحث في الاشياء الآتية:

١ ـ سياسة علي في المجال الاقتصادي:

لم يكن علي محبـوبـا من قريش[3] فقـد كان قبـل ان يلي الخلافة مستاء من تصـرفهم واتساع ثروتهم، وكان يتوعدهم ويلوح بانه سيغير اشياء كثيرة ان صار الامر

(١) ابن اعثم، كتاب الفتوح، جـ٤، ص١٦٠. الدينوري، الاخبار الطوال، ص٢١٨.
(٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، جـ٢، ص١١.
(٣) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص٢٠.

بيـده[1] وكانت علاقة الحذر بينه وبين قريش قائمة، يبرز هذا في شدته عليهم ولفورهم منه وأشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج على حال، وانما هيجه على ذلك هرب بني اميـة، وتفـرق القـوم، وبعضهم يقـول: والله لئن ازداد الامر لاقدرنا على انتصار من هؤلاء الاشرار، لترك هذا الى ما قال علي امثل. وبعضهم يقول: نقضي الـذي علينـا ولا نؤخـره. والله ان عليـا لمستغن برأيـه وأمره عنا، ولا نراه الا سيكون على قريش أشد من غيره»[2] اي ان عليا بمجرد ان امتلك السلطة اتبع نهج عمر بن الخطـاب في التعـامـل مع قريش والحجر على رجالها ومنعهم من مغادرة المدينة، وسلك نهـج عمـر في مجـال ارجاع الصوافي الى المقاتلين فقد «انتزع علي املاكا كان عثمـــان اقطعهـا جمـاعـة من المسلمين»[3] اي انـه رفض التصـرف في ارض الصوافي وارجعها للامة وقال عن المال الذي جاء من واردها لصالح الاثرياء: «.. والله لووجـدتـه قد تزوج به النسـاء وملك به الامـاء لرددته فان في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق»[4].

ولابـد ان يقف ضد هذا الاجـراء كبار اثرياء قريش والجماعات التي اتسعت ثرواتها بحكم ان قريشا كما اسلفنا كانت قد استفادت من عملية مبادلة الارض زمن عثمـان ومن اطـلاق يدهـا في الصـوافي. ولـذا لم يكن غريبا ان وجدنا بين صفوف المناوئين لعلي كبار الاثرياء من تجار وملاكين.

ويظهـر ان سيـاسـة علي في مصـادرة اموال عثمان واعادتها الى الامة واعطاء ورثتـــه حصتهم الطبيعيـــة ومن ثم توزيـع المـال بالسـويـة قد أثـار مخـاوف قريش والمستفيـــدين من التفـــاوت في العطـاء[5] اذ كان قد «قسم ما في بيت المـال على الناس ولم يفضل احدا على احد»[6] والواقع ان عليا ولاعتبارات عسكرية وسياسية كان قسم المـال المـوجـود في بيت مال البصـرة بين اصحابه «ودخل علي بيت مال

(١) د. محمد عمارة، علي بن ابي طالب، نظرة عصرية جديدة، ص٢٦ ـ ص٢٧.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٩.
(٣) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٥٣.
(٤) نهج البلاغة، جـ١، ص٤٦.
(٥) ابن اعثم الكوفي، كتاب الفتوح، جـ٢، ص٢٤٨.
(٦) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٥٣.

البصـرة في جمـاعـة من المهـاجـرين والانصـار، فنظـر الى مافيه من العين والورق فجعـل يقـول: يا صفـراء، غرى غيـرى، ويـا بيضـاء غرى غيرى، وأدام النظر الى المال مفكرا، ثم قال: اقسموه بين اصحابي ومن معي خمسمائة خمسمائة، ففعلوا فما نقص درهم واحد، وعدد الرجال اثنا عشر الفا»[1] وهذا الاجراء غير المتسق مع نظـرة علي الى المـال ملكـا للامـة وليس لمجمـوعـة معينـة، قد جاء بسبب وضعه العسكـري والسيـاسي كما اشرنا، يدل على ذلك قوله لاصحابه بعد تفريق المال: «لكم ان اظفـركم الله عزل وجـل بالشـام مثلهـا الى اعطيـاتكم»[2] ويظهـر ان هذا الاجـراء قد عد حجـة للطعن فيـه سرا[3] ولـدينـا نص يشير الى كرم علي في العطاء وينسجم مع خط الزهد عنده «دخل علي بيت المال فاضرط به* ثم قال: لا أمسي وفيـك درهم»[4] وهـذا الامـر يتفق ونظـرتـه في ان الثروة خطيئة، وهو الذي يفسر لنا اعطـاءه في السنـة اكثـر من عطاء: «ان عليا اعطى العطاء في سنة ثلاث مرات، ثم اتاه مال من اصفهان، فقال: اغدوا الى عطاء رابع، اني لست لكم بخازن»[5] كما ان هذا الاجـراء يتفق مع النظـرة القبليـة التي تستهدف صرف الفيء محليا، وبازاء ذلك نجد ان عليا يحرم عبدالله بن عمر وسعد بن ابي وقاص والمغيرة بن شعبة من عطائهم لاعتزالهم وتقاعسهم عن نصرته، مجيبا سعدا الذي قال له: يا علي اعطني سيفـا يعـرف الكـافـر من المؤمن»[6] بحجة منطقية: «الستم تعلمون ان عثمان كان امـامـا بايعتموه على السمع والطاعة، فعلام خذلتموه ان كان محسنا، وكيف تقاتلوه اذ كان مسيئـا؟ فان كان عثمـان اصـاب بما صنع فقد ظلمتم اذ لم تنصروا امامكم، وان كان مسيئـا فقـد ظلمتم اذ لم تعينـوا من امـر بالمعـروف ونهى عن المنكـر، قد ظلمتم اذ لم تقـومـوا بيننـا وبين عدونا بما امركم الله به. فانه قال: وقاتلوا التي تفيء الى امر الله ـ فردهم ولم يعطهم شيئا»[7].

(١) المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص٣٧١.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٥٤٠

(٣) المصدر نفسه، جـ٤، ص٥٤١.

(٤) ابن سلام، الاموال، ص٢٧٠ (*) هزيء به وسخر منه (مختار الصحاح).

(٥) المصدر نفسه، ص٢٧٠.

(٦) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص٥٥١ ـ ص٥٥٢.

(٧) المصدر نفسه، ص٥٥٢.

واما في مجال رقابة عماله، فمع انه كان مثل عثمان قد استخدم اقاربه[1] وان هذا الامر قد اثار استياء في صفوف انصاره عبر عنه الاشتر قائلا: «علام قتلنا الشيخ! - يقصد عثمان - اذ اليمن لعبيد الله، والحجاز لقثم، والبصرة لعبدالله، والكوفة لعلي، ثم دعا بدابته فركب راجعا»[2] فانه كان قد اخضعهم لرقابة شديدة فقد كان منعه عقيلا من التلاعب بالاموال سببا في التجاء الاخير الى معاوية، كما انه رد الى بيت مال البصرة عشرة آلاف درهم اخذها عبدالله بن عباس[3] وكان يستعين بكعب بن مالك لرصد تلاعب العمال[4] وكان يعنى بعمارة الارض والرفق في جباية الخراج، اذ اوصى احد عماله: «.. وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة اخرب البلاد واهلك العباد، ولم يستقم امره الا قليلا، فان شكوا ثقلا او علة أو انقطاع شرب او بالة او احالة ارض اغتمرها غرق او اجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو ان يصلح امرهم»[5] ويتضح حسه الاخلاقي والديني المتضمن موقفا اجتماعيا في توصيته لعامل آخر: «لا تضربن رجلا سوطا في جباية درهم، ولا تبيعن لهم رزقا، ولا كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها، ولا تقيمن رجلا قائما في طلب درهم، قال: قلت يا امير المؤمنين اذا ارجع اليك كما ذهبت من عندك: قال: وان رجعت كما ذهبت. ويحك، انّا امرنا ان نأخذ منهم العفو. يعني الفضل»[6].

وكان علي يكتب الى امراء الاجناد: «اما بعد فاني ابرأ اليكم والى اهل الذمة من معرة الجيش، الا من جوعة الى شبعة، ومن فقر الى غنى، اوعمى الى هدى فان ذلك عليهم»[7] والحق ان رفقه بالرعية وتأكيد عدم تعذيبهم في استحصال

(١) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص٩٩.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٤٩٢.
(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٩٢.
(٤) المصدر نفسه، جـ٢، ص١٩٢.
(٥) الامام علي، نهج البلاغة، جـ٣، ص٩٧.
(٦) ابن آدم، الخراج، ص٧٥.
(٧) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص١٢٥.

الضرائب، امور ظاهرة في اكثر من نص[1]، ورغبة في تنظيم الاقتصاد وسعيا لمنع التلاعب بالاموال. فقد كان يعين عاملا على المصر لتدبير شؤونها الادارية، وعاملا على الخراج وبيت المال[2] كما كان يوصي باصلاح الانهار، لان ذلك اعظم فائدة في جباية الخراج واستقرار الاحوال الاقتصادية. فقد كتب الى قرظة بن كعب الانصاري: «اما بعد فان رجالا من اهل الذمة من عملك ذكروا نهرا في ارضهم قد عفا وادفن وفيه لهم عمارة على المسلمين فانظر انت وهم ثم اعمر واصلح النهر فلعمري لئن يعمروا احب الينا من ان يخرجوا وان يعجزوا او يقصروا في واجب من صلاح البلاد والسلام»[3]، ومع ان فان فلوتن يرى ان هدايا النيروز والمهرجان كانت تقدم للقادة والولاة العرب ترضية لهم[4] فان عليا كان يحتسب هذه الهدايا من ضمن الخراج ويسقط عنهم ثمنها، فقد روى «ان قوما من الدهاقين اهدوا اليه جامات فضة، فيها الاخبصة، فقال: ما هذا؟ فقالوا: يوم نيروز! فقال: نيروزنا كل يوم، فأكل الخبيص واطعم جلساءه، وقسم الجامات بين المسلمين، وحسبها لهم في خراجهم»[5].

كما يتضح ان عليا كان يأخذ صدقة الاموال الظاهرة ولم يتساهل في ذلك[6].

واذا كان علي قد اوقف الصوافي لصالح المقاتلين، فانه لم يساير النظرة القبلية التي رأت بحكم موقفه الجيد من القبائل، ان تستحوذ على هذه الصوافي

---

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص٨. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص٩٠.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٥٤٣.

(٣) اليعقوبي، المصدر السابق، جـ٢، ص١٩٠.

(٤) فان فلوتن، السيادة العربية، ص٤٨.

(٥) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص٢١٥.

(٦) ابو يوسف، الخراج، ص٦١.

وتمتلكها[1] فقد رفض ان يقسم الصوافي قائلا: «لولا ان يضرب بعضكم وجوه بعض لقسمت هذا السواد بينكم»[2] فهو اذن قد سمح للقبائل ان تتحكم في فيئها من خلال توزيع العطاء، ولكنه وقف ضدها في امتلاك الصوافي، وربما كان دافعه في ذلك قناعته بأن الملكية سبب الشرور والانقسامات، وحرصه على وحدة الامة، ويبدو ان صراع علي مع الخوارج بعد ان طعنوا في التحكيم[3] كان صراعا مع القيم القبلية فتعاليم الخوارج منافية للمدنية[4] وكانت اكثريتهم تتألف من القبائل البدوية[5] ومع انه قد وجد بين صفوفهم بعض القراء[6] فان هذه القلة قد اتخذت موقفا قبليا قبل التحكيم واجبروا عليا على ان يمثلهم ابو موسى الاشعري[7]، وقد انحازت اليهم اعداد غفيرة من رجال القبائل بعد التحكيم[8] وفي ضوء ذلك يجوز ان يفسر ظهور الخوارج بأسباب اقتصادية واجتماعية اضافة الى السبب الديني اذ ان «هؤلاء المقاتلين رفضوا مركزية الحكم وارادوا الاستئثار بالاراضي التي فتحوها والاستفادة منها كما ارادوا ان يحافظوا على منزلتهم كطبقة من المقاتلين تستثنى من

(١) جمال محمد جودة، العرب والارض في العراق في صدر الاسلام، ص١٣١.

(٢) ابن آدم، الخراج، ص٤٦. ابن سلام، الاموال، ص٨٠.

(٣) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص٥١٤. ابن اعثم الكوفي، كتاب الفتوح، جـ٤، ص٨٩.

(٤) فلهوزن، الخوارج والشيعة، ص٤٥.

(٥) نصر بن مزاحم، المصدر السابق، ص٥١٣ ـ ص٥١٤، اوليري، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ص٦١. مونتجمري وات، الفكر السياسي الاسلامي، ص٨٣.

(٦) الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٩١. ابن اعثم الكوفي، كتاب الفتوح، جـ٤، ص٨٩.

(٧) نصر بن مزاحم، المصدر السابق، ص٤٩٩.

(٨) ابن اعثم الكوفي، المصدر السابق، ص٨٩. تجدر الاشارة الى ان مجموعة من القراء رفضوا القتال منذ البداية، واختاروا ان يقاتلوا اعداء الامة في الثغور، اي انهم وقفوا ضد الانقسام والفرقة ورأوا ان الخطر الاجنبي هو الذي يجب ان يدفع. الدينوري، المصدر السابق، ص١٦٥.

بين افرادها جميع الطبقات الاخرى»[1] وهكذا بدأ الاصطدام ثانية بين القيم القبلية والمبادىء الاسلامية التي اراد لها علي ان تسود من خلال منع التصرف في الصوافي والتسوية في العطاء التي نظرت الى جميع الفئات نظرة واحدة.

٢ ـ اضطراب الاحوال الاقتصادية :

برغم ان علي بن ابي طالب كان قد رفض اقتسام النفوذ بينه وبين معاوية وذلك بأن يكون العراق له والشام لمعاوية[2] مدركا خطورة هذه النزعة الانفصالية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، فان الاحوال الاقتصادية في عهده اضطربت في اكثر من مكان وترتب على ذلك الضعف الاقتصادي ضعف في نفوذ علي العسكري. وقد كان اول خلل في اقتصاد الدولة قد ظهر بعد مصرع عثمان ومجيء علي. حين لم تعد مصر ترسل مؤونة الى المدينة وبعض مناطق الحجاز[3] وتبدد بيت مال البصرة عندما وضعت عائشة وطلحة والزبير ايديهم عليه[4] كما استغل بعض عمال علي الصراع السياسي وبدأوا يتلاعبون بالخراج ويقدمون حججا واهية وقف منها علي بحزم وشدة[5] كما سرق احد عماله من اموال الري وانضم الى صفوف معاوية[6].

وكان لأنتفاضة خراسان في هذه الفترة اثرها في اضعاف موارد الدولة[7] وتجدر الاشارة بأن القضاء على تمرد اهل خراسان لم يتم في عهد علي، والحق ان هنالك العديد من الحوادث التي تشير الى خيانة وتلاعب عمال علي بالاموال ومن ثم الخروج عليه[8].

(١) د. طريف الخالدي، دراسات في تاريخ الفكر الاسلامي، ص٢٥.
(٢) د. محمد عمارة، الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية، ص١١٥.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص١٠٠.
(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٦٨.
(٥) المصدر نفسه، جـ٢، ص١٩١ ـ ص١٩٢.
(٦) الزبير بن بكار، الاخبار الموفقيات، ص٥٧٥.
(٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٩٩. قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص٤٠٤.
(٨) نهج البلاغة، جـ١، ص٩٤ ـ ص٩٥، جـ٣، ص٦٤، ص٦٥ وص١٣٢.

كمـا استغـل بعض العمـال ومن منطلق قبلي منصبـه ليحقق بعض الفـوائـد المـاديـة لبني قومـه ، كما حصل بالنسبة للمنذر بن الجارود العبدي الذي كتب اليه علي مؤنبا : «تعمر دنياك بخراب آخرتك ، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك»[1] ويتجلى الاضطـراب الاقتصـادي في حالـة التجـزئـة التي حصلت وجعلت بعض الامصـار تستقـل سيـاسيـا واقتصـاديـا ، ففي العراق كان علي قد سيطر على الكوفة والبصرة ، على حين استقل معاوية في الشام وكان له اقتصاده الخاص يتصرف فيه كما شاء ، اضف ان عمـرو بن العـاص كان قد استأثـر بمصـر اقتصـاديا واصبح له كل واردها ، وهذا الامر يشير الى التفتت الاقتصادي والتجزئة الاقتصادية .

واذا اضفنـا الى ما سبق توقف حروب التحـريـر ، ومـا كانت تجلبـه من عوائد مادية بسبب الصراع الداخلي . ناهيك عما تطلبه هذا الصراع بين العرب من اموال ومـوارد استنـزفت الكثيـر ، امكن لنـا ان نقـرر ان الاحـوال الاقتصـادية في عهد علي كانت قد اضطـربت وأصـاب الضعف موارد الامـة بعـد ان كانت تتوفر على انطلاق وتكامل في عهد عثمان .

(١) نهـج البـلاغـة ، جـ٣ ، ص١٣٢ . ويقـول د . صالـح العلي : «في سنـوات الاضطراب التي اعقبت مقتـل عثمـان توقفت الفتـوحات وامتنعت بعض المقاطعات من ارسال المال المقرر عليها الى البصـرة ، ممـا أدى الى تنـاقص دخل هذه المدينة ، ولم يعد بيت المال قادرا على دفع العطاء للمهاجرين الجدد» . التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، ص٤٩ .

١ـ المخطوطات :

١ـ ابو البقاء، هبة الله :

ـ المناقب المزيدية في اخبار الملوك الأسدية/ مخطوطة في المجمع العلمي العراقي عن نسخة المتحف البريطاني، رقم تسلسل ١٤٨٤ .

٢ـ ابن الجوزي، عبد الرحمن علي بن محمد (ت: ٥٩٧هـ) :

ـ مختصر صفة الصفوة/موجودة بثلاثة اجزاء في مكتبة المجمع العلمي العراقي ببغداد، تراجم وسير، تسلسل ٥٣، ٥٤، ٦٦ .

٣ـ ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائل (ت: ٢٠٤هـ) :

ـ جمهرة النسب الكبير/موجودة في مكتبة المجمع العلمي العراقي ببغداد بأربعة اقسام، تراجم وسير، تسلسل ٩٩.

* اعتمدت سنوات الوفاة بالتاريخ الهجري .

٢ـ المصادر الأولية :

١ـ القرآن الكريم

٢ـ ابن الاثير، عز الدين بن الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت: ٦٣٠هـ) :

ـ الكامل في التاريخ، دار صادر/١٢ج، بيروت ٦٥ ـ ١٩٦٦.

٣ـ ابن آدم، يحيى بن آدم القرشي (ت: ٢٠٣هـ) :

ـ كتاب الخراج، تحقيق : احمد محمد شاكر، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م.

٤ـ ابن اسحق، محمد بن اسحق بن يسار (ت: ١٥١هـ) :

ـ حرب البسوس، مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٢٨م.

٥ـ ابن أعثم الكوفي، ابو محمد احمد بن اعثم (ت: ٣١٤هـ) :

ـ كتاب الفتوح، تحقيق : محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، ٨ج، الهند ١٩٦٨ ـ ١٩٧٥م.

٦ـ الازرقي، ابو الوليد محمد بن عبدالله بن احمد (ت: ٢٢٣هـ) :

ـ اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، دار الثقافة، الطبعة الثانية، مكة المكرمة ١٩٦٥م.

٧ـ الاصطخري، ابواسحق ابراهيم بن محمد الفارسي، المعروف بالكرخي (نهاية القرن الرابع) :

ـ المسالك والممالك، تحقيق : د. محمد جابر عبد العال الحيني، اصدار وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، ١٩٦١م.

٨ـ الاصفهاني، ابو الفرج (ت: ٣٥٦هـ) :

ـ الاغاني، ٢٠ج، دار صعب، بيروت، (عن طبعة بولاق الاصلية) بلا تاريخ طبع.

ـ مقاتل الطالبيين، المكتبة الحيدرية، ط٢، النجف ١٩٦٥م.

٩ـ الاصفهاني، ابو نعيم احمد بن عبدالله (ت: ٤٣٠هـ) :

ـ حلية الاوفياء وطبقات الاصفياء، المكتبة السلفية، ١٠ج، القاهرة بلا تاريخ.

١٠ـ البخارى، محمد بن اسماعيل (ت: ٢٥١هـ):
ـ صحيح البخارى، تحقيق: احمد محمد شاكر، دار احياء التراث العربي، ٩ج، بيروت ١٩٥٨م.
ـ جواهر البخارى وشرح القسطلاني، جمع وشرح: مصطفى محمد عمارة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، بلا تاريخ طبع.
١١ـ البكري، ابو عبيد (ت: ٤٨٧هـ):
ـ جغرافية مصر من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: د. عبدالله يوسف الغنيم، دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت ١٩٨٠م.
١٢ـ البلاذري، احمد بن يحيى (ت: ٢٧٩هـ):
ـ انساب الاشراف، تحقيق: محمد حميد الله، الجزء الاول، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر/القاهرة، بلا تاريخ طبع.
الجزء الخامس، تحقيق: جوايتن، مكتبة المثنى ببغداد (اوفست عن طبعة القدس ١٩٣٦م).
ـ فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م.
١٣ـ البيهقي، احمد بن الحسين بن علي (ت: ٤٥٨هـ):
ـ السنن الكبرى، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٠ج، حيدر آباد ١٩٥٢م.
١٤ـ ابن تيمية، احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله الحراني الدمشقي الحنبلي (ت: ٧٢٨هـ):
ـ السياسة الشريعة في اصلاح الراعي والرعية، تحقيق: محمد عبدالله السمان، طبعة مكتبة انصار السنة المحمدية، القاهرة ١٩٦١م.
ـ الحسبة في الاسلام، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، بلا طبعة.
١٥ـ ابو تمام، حبيب بن اوس الطائي (ت: ٢٢٨هـ):
ـ ديوان الحماسة، شرح: التبريزي، ٢ج، مكتبة النورى، دمشق، بلا تأريخ طبع.

١٦ـ الترمذي، محمد بن عيسى (ت: ٢٧٩هـ):
ـ سنن الترمذي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ٤ج، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٣٧م.
١٧ـ الثعالبي، ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت: ٤٢٩هـ):
ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: ابو الفضل ابراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٥م.
ـ تاريخ غرر السير المعروف بكتاب غرر اخبار ملوك الفرس وسيرهم، مكتبة الاسدي، طهران ١٩٦٣م.
١٨ـ ابن الجوزي، عبد الرحمن علي بن محمد (ت: ٥٩٧هـ):
ـ سيرة عمر بن الخطاب، نشر الدار القومية للطباعة والنشر/القاهرة.
١٩ـ الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت: ٣٣١هـ):
ـ الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وزملاؤه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٨م.
٢٠ـ الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥هـ):
ـ البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر مكتبة الخانجي ومكتبة المثنى ببغداد، ٤ج، الطبعة الثانية، ١٩٦١م.
ـ البخلاء، مطبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨م.
ـ المحاسن والاضداد، تحقيق: فوزي عطوى، دار صعب، بيروت ١٩٦٩م.
ـ رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٤م.
ـ الحيوان، تحقيق: محمد الساسي، ٦ج، القاهرة ١٣٢٣-١٣٢٥هـ.
٢١ـ الى ابن ابي الحديد، عز الدين ابو حامد بن هبة الله بن محمد بن الحسين ت: ٦٥٦هـ):
ـ شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، ١٧ج، القاهرة ١٩٥٩م.

٢٢ـ ابن حبيب، ابو جعفر محمد بن بن أمية (ت: ٢٤٥هـ):
ـ المحبر، تحقيق: د. ايلزه ليختن شتيتر، المكتب التجاري، بيروت، بلا تاريخ طبع.
ـ المنمق في اخبار قريش، تحقيق: خورشيد احمد فارق، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الطبعة الاولى، الهند ١٩٦٤م.
ـ كتاب اسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام وأسماء من قتل من الشعراء، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الاولى، المجموعة السادسة من نوادر المخطوطات، القاهرة، ١٩٥٤م.

٢٣ـ ابن حنبل، ابو عبدالله بن احمد بن محمد الشيباني (ت: ٢٤١هـ):
ـ كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م.
ـ المسند، ٦ج، القاهرة ١٣١٣هـ.
٢٤ـ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن احمد الكتاني (ت: ٨٥٢هـ):
ـ الاصابة في تمييز الصحابة، مطبعة السعادة، ٤ج، القاهرة، ١٣٢٨هـ.
٢٥ـ ابن حزم، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد الاندلسي (ت: ٤٥٦هـ):
ـ جمهرة أنساب العرب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م.
٢٦ـ ابن حوقل، ابو القاسم النصيبي (القرن الخامس):
ـ صورة الارض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ.
٢٧ـ ابو حنيفة، النعمان بن ثابت (ت: ١٥٠هـ):
ـ جامع المسانيد، ٢ج، حيدر آباد، ١٣٣٢هـ.
٢٨ـ الحموي، شهاب الدين ابي عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت: ٦٢٦هـ):
ـ معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٥٧م.
٢٩ـ ابن خرداذبة، ابو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت: ٣٠٠هـ):
ـ المسالك والممالك، اصدار مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة اوفسيت بريل، ليدن ١٨٨٩م.

٣٠- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: ٨٠٨هـ):
- مقدمة ابن خلدون، دار البيان، بيروت، بلا تاريخ طبع.
٣١- الخوارزمي، محمد بن احمد بن يوسف (ت: ٣٨٧هـ):
- مفاتيح العلوم، تحقيق: فان فلوتن، ليدن ١٩٦٨م.
٣٢- خليفة بن خياط (ت: ٢٤٠هـ):
- كتاب الطبقات، تحقيق: اكرم ضياء العمري، مطبعة العاني، ط١، بغداد ١٩٦٧م.
- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: اكرم ضياء العمري، مطبعة دار الآداب، ٢ج، ط١، النجف ١٩٦٧م.
٣٣- ابن دريد، ابو بكر بن الحسن الازدي (ت: ٣٢١هـ):
- كتاب الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المسيرة، ط٢، بيروت ١٩٧٩م.
٣٤- الدميري، كمال الدين (ت: ٨٠٨هـ):
- حياة الحيوان الكبرى، مطبعة مصر ١٣٠٩ هـ.

٣٥- الديار بكرى، حسين بن محمد بن الحسن (ت: ٩٦٦هـ):
- تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، ٢ج، بيروت، بلا تاريخ.
٣٦- الدينوري، ابو حنفية احمد بن داؤد (ت: ٢٨٢هـ):
- الاخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والأرشاد القومي، ط١، القاهرة ١٩٦٠م.
٣٧- الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت: ٧٤٨هـ):
- سير اعلام النبلاء، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٥٥م.
- كتاب دول الاسلام، تحقيق، فهيم محمد شلتوت وزميله. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢ج، القاهرة ١٩٧٤م.
٣٨- ابن رستة، ابو علي احمد بن عمر (ت: اوائل القرن الرابع):
- الاعلام النفيسة، ليدن ١٨٩١م.

٣٩ـ ابن رجب، ابو الفرج عبد الرحمن بن احمد الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ)
ـ الاستخراج لاحكام الخراج، تحقيق: عبدالله الصديق، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٩.
٤٠ـ الزبير بن بكار (ت: ٢٥٦هـ):
ـ الأخبار الموفقيات، تحقيق: د. سامي مكي العاني، رئاسة ديوان الاوقاف، بغداد ١٩٧٢م.
ـ جمهرة نسب قريش واخبارها، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة ١٣٨١هـ.
٤١ـ الزمخشري، محمود بن عمر (ت: ٥٣٨هـ):
ـ الكشاف، طبعة القاهرة ١٩٦٨م.
٤٢ـ ابن سعد، محمد بن سعد كاتب الواقدي (ت: ٢٣٠هـ):
ـ كتاب الطبقات الكبير، تصحيح: ادوارد سخو، ليدن ١٣٢١هـ ـ ١٣٤٧هـ.
٤٣ـ ابن سلام، ابو عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤هـ):
ـ الاموال، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٣هـ.
٤٤ـ ابن سعيد الاندلسي (ت: ٦٨٥ هـ):
ـ نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، مكتبة الاقصى، عمان ١٩٨٢م.

٤٥ـ ابن سعيد المغربي، ابو الحسن علي بن موسى (٦١٠هـ):
ـ كتاب الجغرافيا، تحقيق: اسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.
٤٦ـ السرخسي، محمد بن ابي سهل:
ـ المبسوط، ٣٠ ج، القاهرة، ١٣٢٤هـ.
٤٧ـ السمهودي، ابو الحسن بن عبدالله (ت: ٩١١هـ):
ـ وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى، مطبعة الآداب والمؤيد، ٢ج، القاهرة، ١٣٢٦هـ.

٤٨ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت: ٩١١هـ):
ـ تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، ط٣، القاهرة ١٩٦٤م.
٤٩ـ الشافعي، محمد بن ادريس (ت: ٢٠٤هـ):
ـ الام، تحقيق: محمد زهري النجار، مكتبة الكليات الازهرية، ٨ج، ط١، القاهرة ١٩٦١م.
٥٠ـ الشيباني، محمد بن الحسن (ت: ١٨٩هـ):
ـ الاكتساب في الرزق المستطاب، تلخيص: محمد بن سماعة، تحقيق: محمود عرنوس، مطبعة الانوار، ط١، القاهرة ١٩٣٨م.
ـ شرح كتاب السير الكبير، تحقيق: صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ٥ج، القاهرة ٩٧١ ـ ١٩٧٢م.
٥١ـ ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا (ت: ٧٠٩هـ):
ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.
٥٢ـ الطبراني، ابو القاسم سليمان بن احمد (ت: ٣٦٠هـ):
ـ المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المحيد السلفي، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية، ط٢ وبغداد ١٩٨٤م.
٥٣ـ الطبري، ابو جعفر بن جرير (ت: ٣١٠هـ):
ـ تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ١٠ج، القاهرة ١٩٦٢م.
٥٤ـ طرفة بن العبد: (العصر الجاهلي):

ـ ديوان طرفة بن العبد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩م.
٥٥ـ ابن عبد البر، ابو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد (ت: ٤٦٣هـ):
ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، بلا تاريخ طبع.

٥٦ـ ابن عبد الحكم، ابو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله (ت: ٢٤٢هـ):
ـ فتوح مصر واخبارها، طبعة ليدن ١٩٢٠م.

٥٧ـ ابن عبد ربه، احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي(ت: ٣٢٨هـ):
ـ العقـد الفـريـد، تحقيق: احمـد امين وزميـلاه، لجنـة التأليف والترجمة والنشر. ٧ج، القاهرة ١٩٦٥م.
٥٨ـ ابن العربي، ابوبكر بن العربي (ت: ٥٤٣هـ):
ـ العواصم من القواصم، تحقيق: مجد الدين الخطيب، المطبعة السلفية، ط٢، القاهرة ١٣٧٥هـ.
٥٩ـ ابن عسـاكـر، ثقـة الدين ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين الشافعي (ت: ٥٧١هـ):
ـ التاريخ الكبير، تحقيق: عبد القادر أفندي بدران، مطبعة روضة الشام، ١٣٢٩هـ.
٦٠ـ ابوعبيدة، معمر بن المثنى التيمي (ت: ٢٠٩هـ):
ـ النقـائض (جـريـر والفـرزدق)، تحقيق، انتوني اشلي بيفان، مطبعة بريل، ٢ج، ليدن ١٩٠٥ ـ ١٩١٢. اوفست مكتبة المثنى، بغداد.
٦١ـ عرام بن الاصبـع السلمي (ت: روايـة ابي الاشعث الكنـدي من رجال القرن الثالث الهجري):
ـ كتـاب اسمـاء جبـال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الاشجار ومـا فيهـا من الميـاه، تحقيق: عبـد السـلام محمـد هارون، مطبعـة الخـانجي، المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات، ط١، القاهرة، ١٩٥٥م.
٦٢ـ عروة بن الزبير (ت: ٩٤هـ):
ـ مغـازي رسـول الله، روايـة ابي الاسـود عنه، جمع وتحقيق: د. محمد مصطفى الاعظمي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط١، الرياض، ١٩٨١م.
٦٣ـ عروة بن الورد والسموأل: (العصر الجاهلي):
ـ ديوانا عروة بن الورد والسموأل، دار صادر، بيروت ١٩٦٤م.
٦٤ـ علي بن ابي طالب (ت: ٤٠ هـ):
ـ نهج البلاغة، شرح: محمد عبدة، ٤ج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٦٥- الغزالي، ابو حامد الغزالي محمد بن محمد بن احمد (ت: ٥٠٥هـ):
- احياء علوم الدين، طبعة دار الشعب، القاهرة بلا تاريخ.
٦٦- ابن الفقيه، ابو بكر احمد بن محمد الهمذاني (ت: القرن الخامس الهجري):
- مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ.
٦٧- الفخر الرازي(ت: ٥٤٥هـ):
- التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، ط٢، طهران، بلا تاريخ طبع.
٦٨- ابن قتيبة، ابو محمد عبدالله بن مسلم، (ت: ٢٧٦هـ):
- الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٩م.
- ادب الكاتب، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، ط٤، القاهرة ١٩٦٣م.
- عيون الاخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٠م.
- المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، دار الكتب، القاهرة ١٩٦٠م.
- الامامة والسياسة (منسوب الى ابن قتيبة)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ٢ج، ط١، القاهرة ١٩٣٧م.
٦٩- قدامة بن جعفر (ت: ٣١٠هـ):
- الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق: د. محمد حسين الزبيدي، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد ١٩٨١م.
٧٠- القرشي، ابو يزد محمد بن ابي الخطاب (ت: ١٧٠هـ):
- جمهرة اشعار العرب، دار المسيرة، بيروت ١٩٧٨م (عن طبعة بولاق).
٧١- القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي (ت: ٨٢١هـ):
- مآثر الاناقة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، ٣ج، وزارة الارشاد والانباء، الكويت ١٩٦٤م.
٧٢- ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب (ت: ٢٠٤هـ):
- الاصنام، تحقيق: احمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر (عن نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب) ١٩٢٤م.

٧٣ـ الكاساني، علاء الدين ابي بكر بن مسعود (ت: ٥٨٧هـ):
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ٧ج، ط١، القاهرة، ١٣٢٧هـ.
٧٤ـ الكلاعي، ابو الربيع سليمان بن موسى الاندلسي (ت: ٦٣٤هـ):
- تاريخ الردة، تهذيب: خورشيد احمد فارق، معهد الدراسات الاسلامية، الهند ١٩٦١م.
٧٥ـ ابن ماجة، ابوعبدالله بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٥هـ):
- سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار احياء الكتب العربية، ٢ج، القاهرة ١٩٥٢م.
٧٦ـ ابن المجاور، جمال الدين ابي الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد (ت: ١٢٩١هـ):
- صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ليدن ١٩٥١م.
٧٧ـ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري (ت: ٧١١هـ):
- لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة (عن طبعة بولاق)، القاهرة، بلا تاريخ طبع.

٧٨ـ مؤرج بن عمر السدوسي (ت: ١٩٠هـ):
- كتاب حذف من نسب قريش، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مكتبة دار العروبة، القاهرة ١٩٦٠م.
٧٩ـ مالك بن أنس (ت: ١٧٩هـ):
- الموطأ، تحقيق: فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، ط١، بيروت، ١٩٧٩م.
- المدونة، ٤ج، القاهرة ١٣٢٤هـ.
٨٠ـ الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت: ٤٥هـ):
- الاحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م.
- قوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق: د. رضوان السيد، دار الطليعة، ط١، بيروت ١٩٧٩م.

ـ أدب الدنيا والدين، تحقيق: مصطفى السقا، مكتبة الشرق الجديد، بغداد ١٩٨٣م.
٨١ـ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ):
ـ صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، ٥ج، بيروت، بلا تاريخ طبع.
٨٢ـ المبرد، ابو العباس محمد بن يزيد (ت: ٢٨٥هـ):
ـ الكامل، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم وزميله، مكتبة نهضة مصر، ٤ج، القاهرة ١٩٥٦م.
٨٣ـ المدائني، ابو الحسن علي بن محمد (ت: ٢٢٥هـ):
ـ كتاب المردفات من قريش، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، المجموعة الاولى من نوادر المخطوطات، ط٢، ١٩٧٢م.
٨٤ـ المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت: ٣٤٥هـ):
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: يوسف أسعد داغر، دار الاندلس، ٢ج، ط٢، بيروت ١٩٧٣م.
ـ التنبيه والاشراف، تحقيق: عبدالله اسماعيل الصاوى، المكتبة العصرية، بغداد ١٩٣٨م.
٨٥ـ المقدسي، محمد بن احمد (القرن الخامس):
ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، طبعة ليدن ١٩٠٩م.
٨٦ـ المقدسي، مطهر بن طاهر:
ـ البدء والتاريخ، مكتبة المثنى عن طبعة باريز، ٦ج، بغداد، ١٨٩٩/١٩١٦م.

٨٧ ـ المقريزي، تقي الدين ابي العباس احمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ):
ـ كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة المثنى، ٢ج، بغداد ١٩٧٠م.
ـ النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم، تقديم: محمد بحر العلوم، اوفسيت المكتبة الحيدرية/ النجف ١٩٦٦م، عن طبعة ليدن ١٨٨٨م.
٨٩ـ المنقري، نصر بن مزاحم (ت: ٢١٢هـ):

- وقعة صفين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، المؤسسة العربية الحديثة، ط٢، القاهرة ١٣٨٢هـ.

٩٠- ابن النجار، ابو عبدالله البغدادي محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله (ت: ٦٤٧هـ):

- اخبار مدينة الرسول (المعروف باسم الدرة الثمينة في اخبار المدينة) تحقيق: صالح محمد جمال، ط١، مكة، ١٩٦٦م.

٩١- النهرواني، قطب الدين المكي الحنفي (ت):

- كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام، مكتبة خياط، بيروت، بلا تاريخ طبع.

٩٢- النووي، ابوزكريا يحيى بن شرف الدمشقي (ت: ٦٧٦هـ):

- رياض الصالحين، تحقيق: عبد العزيز رباح واحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، ١٩٧٦م.

٩٣- النويري، احمد بن عبد الوهاب (ت: ٧٢٢هـ):

- نهاية الارب في فنون الادب، دار الكتب المصرية، ١٨ج، القاهرة، ١٩٣١م.

٩٤- ابن هشام، محمد بن عبد الملك (ت: ٢١٨هـ):

- السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وزميلاه، مطبعة البابي الحلبي، ٤ج (في قسمين) ط٢، القاهرة ١٩٥٥م.

٩٥- ابو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله (ت: ٣٦٥هـ):

- الاوائل، تحقيق: محمد السيد الوكيل، نشر أسعد طرابزوني، المدينة المنورة، ١٩٦٦.

٩٦- الهمداني، ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف بن داؤد (ت: ٣٣٤هـ):

- صفة جزيرة العرب، طبعة ليدن سنة ١٩٦٨م.

٩٧- الواسطي، اسلم بن سهل الرزاز، المعروف ببحشل (ت: ٢٩٢هـ):

- تاريخ واسط، تحقيق: كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٧م.

٩٨- الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (ت: ٢٠٧هـ):

- المغازي، تحقيق: د. مارسدن جونس، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ٣ج، بيروت، بلا تاريخ طبع.

٩٩ـ ابو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت: ١٨٢هـ)
ـ الخراج، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٩م.
١٠٠ـ اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب (ت: ٢٨٤هـ):
ـ تاريخ اليعقوبي، المكتبة الحيدرية، ط٤، النجف ١٩٧٤م.
ـ البلدان، طبعة ذي غويه، ليدن ١٨٩١م.

٣ـ المراجع الحديثة:

١ـ ادريس، عبدالله عبد العزيز:
ـ مجتمع المدينة في عهد الرسول (ص)، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٨٢م.
٢ـ أدونيس، علي احمد سعيد:
ـ الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والابداع عند العرب، دار العودة، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٤م.
٣ـ الافغاني، سعيد:
ـ أسواق العرب في الجاهلية والاسلام، دار الفكر، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٧٤م.
٤ـ امين، احمد:
ـ فجر الاسلام، دار الكتاب العربي، بيروت بلا سنة او طبعة.
٥ـ أمين، سمير:
ـ التطور اللامتكافيء، ترجمة: برهان غليون، دار الطليعة، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٠م.
٦ـ انجلز، فردريك:
ـ التفسير الاشتراكي للتاريخ، ترجمة: د. راشد البراوي، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٨م.

٧ـ اولندر، جونار:
ـ ملوك كندة، ترجمة وتحقيق د. عبد الجبار المطلبي، دار الحرية، بغداد ١٩٧٣م.

٨ـ اوليري، دي لاسي:
ـ الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة: اسماعيل البيطار، دار الكتاب العربي، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٢م.
٩ـ بافقيه، محمد عبد القادر:
ـ تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣م.
١٠ـ بتلر:
ـ فتح العرب لمصر، تعريب: فريد ابو حديد، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٣٣م.
١١ـ البكر، منذر عبد الكريم:
ـ دراسات في تاريخ العرب قبل الاسلام، تاريخ الدول الجنوبية في اليمن، جامعة البصرة ١٩٨٠م.
١٢ـ بلاشير، د. ريجيس:
ـ تاريخ الادب العربي، تعريب د. ابراهيم الكيلاني، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٥٦م.
١٣ـ بروكلمان، كارل:
ـ تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، منير بعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة، بيروت ١٩٧٩م.
١٤ـ بياييف يفغنى:
ـ اللعرب والاسلام والخلافة العربية في العصور الوسطى، ترجمة: د. أنيس فريحة، الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٧٣م.
١٥ـ بليخانوف، جورج:
ـ العامل الاقتصادي في التاريخ، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٨م.

١٦ـ بوتومور، ت :
ـ النخبة والمجتمع ، ترجمة جورج جحا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٢م .
١٧ـ بيضون ، ابراهيم :
ـ ملامح التيارات السياسية في القرن الاول الهجري ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩م .
ـ الحجاز والدولة الاسلامية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٨١م .
٢٨ـ توما، اميل :
ـ الحركات الاجتماعية في الاسلام، دار الفارابي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨١م .
١٩ـ تيزيني ، طيب :
ـ مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق ، بلا تاريخ طبع .
٢٠ـ الجابري ، محمد عابد :
ـ فكر ابن خلدون ، العصبية والدولة ، دار الطليعة ، الطبعة لثالثة ، بيروت ١٩٨٢م .

٢١ـ جاسم ، عزيز السيد :
ـ جدل القومية والطبقة في السياق التاريخي لنشوء الامة العربية وكفاحها القومي ، مطابع وعي العمال ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٩٧٧م .
٢٢ـ جب ، هاملتون :
ـ دراسات في حضارة الاسلام ، ترجمة : د. احسان عباس وزملاؤه ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٧٩م .
٢٣ـ جواتياين ، س ، د :
ـ دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية ، تعريب وتحقيق : عطية القومي ، وكالة المطبوعات ، الطبعة الاولى ، الكويت ١٩٨٠م .

٢٤ـ جودة، جمال محمد:
ـ العرب والارض في العراق في صدر الاسلام، الشركة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الاولى، الاردن ١٩٧٧م.
٢٥ـ جورفتش، جورج:
ـ دراسات في الطبقات الاجتماعية، ترجمة: احمد رضا محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، بلا طبعة ولا تاريخ طبع.
٢٦ـ جوزي، بندلي:
ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، دار الروائع، بيروت، بلا تاريخ طبع.
٢٧ـ جولد تسيهر، أجناس:
ـ العقيدة والشريعة في الاسلام، ترجمة: د. محمد يوسف موسى وزميلاه، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى، بغداد، بلا تاريخ طبع.
٢٨ـ الحديثي، نزار عبد اللطيف:
ـ اهل اليمن في صدر الاسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٧م.
ـ محاضرات في التاريخ العربي، جامعة بغداد، بغداد ١٩٧٩م.
ـ العلاقات العربية ـ الفارسية، دار واسط، الطبعة الاولى، لندن بغداد ١٩٨٢م.
٢٩ـ حتي، فيليب، وزميلاه:
ـ تاريخ العرب ـ مطول ـ دار الكشاف، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٦٥م.

٣٠ـ الحسب، فاضل عباس:
ـ في الفكر الاقتصادي العربي الاسلامي، الدار العربية للطباعة، الطبعة الاولى، بغداد ١٩٧٩م.
٣١ـ حسن، حسن ابراهيم:
ـ تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٦٤م.

٣٢ـ حسن، علي ابراهيم :
ـ التاريخ الاسلامي العام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٢م.
٣٣ـ حسن، ناجي :
ـ القبائل العربية في المشرق خلال العصر الاموي، اتحاد المؤرخين العرب، الطبعة الاولى، بغداد ١٩٨٠م.
٣٤ـ حسين، فالح :
ـ الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الاموي، مطابع دار الشعب، الاردن ١٩٧٨م.
٣٥ـ حميد الله، محمد :
ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الارشاد الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٦٩م.
٣٦ـ الحوت، محمود سليم :
ـ في طريق الميثولوجيا عند العرب، مطبعة دار الكتب، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٥٥م.
٣٧ـ الخالدي، طريف :
ـ دراسات في تاريخ الفكر العربي الاسلامي، دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٩م.
٣٨ـ الخضري بك، الشيخ محمد :
ـ محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية «الدولة الاموية» المكتبة التجارية الكبرى، ج١ وج٢ القاهرة ١٩٦٩م.
٣٩ـ خليف، يوسف :
ـ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، بلا تاريخ طبع.
٤٠ـ خليل، خليل احمد :
ـ جدلية القرآن، دار الطليعة، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٧م.
ـ مضمون الاسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٣م.

٤١- خليل، محسن :
- في الفكر الاقتصادي العربي الاسلامي، وزارة الثقافة والاعلام، الطبعة الاولى، بغداد ١٩٨٢م.
٤٢- خودا بخش :
- الحضارة الاسلامية، ترجمة : د. علي حسين الخربوطلي، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٠م.
٤٣- دينيت، دانييل :
- الجزية والاسلام، ترجمة : فوزي فهيم جاد الله، دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٠م.

٤٤- الدوري، عبد العزيز:
- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨م.
- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٤م.
- الجذور التاريخية للقومية العربية، دار العلم للملايين، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٦٠م.
- مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، المطبعة الكاثوليكية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٦١م.
٤٥- ودنسون، مكسيم :
- الاسلام والرأسمالية ترجمة : نزيه الحكيم، دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٤م.
٤٦- الريس، محمد ضياء الدين:
- الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية، دار الانصار، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٧٧م.

٤٧- زوبر تيسكي، وآخرون:
- المشـاعـة، الـرق، الاقطـاع «التشكيـلات الاجتمـاعيـة والاقتصـاديـة ما قبـل الرأسمالية» دار الطليعة، الطبعة، بيروت، ١٩٧٨م.
٤٨- زيدان، جرجي:
- تاريخ التمدن الاسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة، مجلدان في خمسة اجزاء، بيروت بلا تاريخ، طبع ولا طبعة.
٤٩- سالم، السيد عبد العزيز:
- تاريخ العرب في عصر الجاهلية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧١م.
٥٠- السامرائي، عبدالله سلوم:
- الغلو والفرق الغالية في الحضارة الاسلامية، وزارة الاعلام، بغداد، ١٩٧٢م.
٥١- سركيس، احسان:
- مدخل الى الادب الجاهلي، دار الطليعة، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٩م.
٥٢- سفر، فؤاد وزميله:
- الحضر مدينة الشمس، وزارة الاعلام، بغداد ١٩٧٤م.
٥٣- سعد، احمد صادق: (تحرير وترجمة)
- ست دراسـات في النمـط الآسيوي للانتاج، دار الطليعة، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٩، مقالة: أضواء على نمط الانتاج الآسيوي، ص٦١- ص٨٢.
- تاريخ مصر الاجتماعي، دار ابن خلدون، الطبعة الاولى، بيروت، ١٩٧٩م.
٥٤- سيديو، ل. أ:
- تاريـخ العـرب العام، ترجمة: عادل زعيتر، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه الطبعة الثانية، ١٩٦٩م، بلا مكان طبع.
٥٥- شاخت وبوزورث:
- تراث الاسلام، ترجمة: الدكتور محمد زهير السمهودي، ج١، المجلس الوطني للثقافة والادب، مقالة، برنارد لويس: السياسة والحرب الكويت ١٩٧٨م.
٥٦- الشرباصي، احمد:
- المعجم الاقتصادي الاسلامي، دار الجميل، بيروت ١٩٨١م.

٥٧ـ الشريف، احمد ابراهيم :
ـ مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٧م.
٥٨ـ شعبان، محمد عبد الحي :
ـ الثورة العباسية، ترجمة : عبد المجيد حسيب القيسي، دار الدراسات الخليجية، الطبعة الاولى، ابو ظبي، بلا تاريخ طبع.
٥٩ـ الشيخلي، صباح ابراهيم سعيد :
ـ الاصناف في العصر العباسي، نشأتها وتطورها، وزارة الاعلام، الطبعة الاولى، بغداد ١٩٧٦م.
٦٠ـ شينو، جان وزملاؤه :
ـ حول نمط الانتاج الآسيوي، ترجمة : جورج طرابيشي، دار الحقيقة، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٢م.
٦١ـ صالح احمد عباس :
ـ اليمين واليسار في الاسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٣م.
٦٢ـ الصالح، صبحي :
ـ النظم الاسلامية، تطورها ونشأتها، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٧٨م.
٦٣ـ صالح، محمد امين :
ـ النظم الاقتصادية في مصر والشام في صدر الاسلام، مكتبة سعيد رأفت، عين شمس ١٩٧١م.
٦٤ـ الصمد، واضح :
ـ الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٨١م.
٦٥ـ ضيف، شوقي :
ـ العصر الجاهلي، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٠م.

٦٦ـ عبد الرازق، علي :
ـ الاسلام وأصول الحكم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٢م.

٦٧ ـ عدة مؤلفين :
ـ التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط، ترجمة : عادل ابراهيم يعقوب، وزارة الثقافة والاعلام، الطبعة الاولى، بغداد ١٩٨٠م.
٦٨ـ علي، احمد :
ـ الاسلام والمنهج التاريخي، دار الطليعة، الطبعة الاولى، بيروت، ١٩٧٥م.
٦٩ـ العلوي، هادي :
ـ في الدين والتراث، دار الطليعة، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٣م.
٧٠ـ علي، جواد :
ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٧م.
٧١ـ العلي، صالح احمد :
ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري، دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٩م.
ـ محاضرات في تاريخ العرب، مكتبة المثنى، ج١، الطبعة الرابعة، بغداد ١٩٦٨م.
٧٢ـ عمارة، محمد :
ـ فجر اليقظة القومية، الناشر، القاهرة للثقافة العربية، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧٥م.
ـ الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٧م.
ـ الاسلام وقضايا العصر، دار الوحدة، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٨٠م.
ـ علي بن ابي طالب، نظرة عصرية جديدة بالاشتراك مع آخرين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت ١٩٧٤م.

٧٣ـ عوض، بدوي عبد اللطيف:
ـ الميزانية الاولى في الاسلام، جامعة بيروت العربية، بيروت ١٩٧٣م.
٧٤ـ الفحام، محمد محمد وزملاؤه:
ـ محمد نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٢م.
٧٥ـ فرج، ابو اليقظان عطية:
ـ حكم الميراث في الشريعة الاسلامية، دار الحرية، الطبعة الثانية، بغداد ١٩٧٦م.

٧٦ـ فرج، الياس:
ـ مقدمة في دراسة المجتمع العربي والحضارة العربية، وزارة الثقافة والاعلام بغداد ١٩٧٩م.
٧٧ـ فلهوزن، يوليوس:
ـ الخوارج والشيعة: ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الطبعة الثالثة، الكويت ١٩٧٨م.
ـ تاريخ الدولة العربية، ترجمة: د. محمد عبد الهادي ابو ريدة، ط٢، القاهرة ١٩٦٨م.
٧٨ـ فلوتن، فان:
ـ السيادة العربية والشيعة والاسرائليات في عهد امية، ترجمة: د. حسن ابراهيم حسن، محمد زكي ابراهيم، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٥م.
٧٩ـ فهمي، سامح عبد الرحمن:
ـ المكاييل في صدر الاسلام، المكتبة الفيصلية السعودية، بلا تاريخ طبع.
٨٠ـ فيشر، آرنست:
ـ الاشتراكية والفن، ترجمة: اسعد حليم، دار القلم، بيروت ط٢، ١٩٨٠م.

٨١ـ فيصل، شكري :
ـ المجتمعات الاسلامية في القرن الاول، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٧٨م.
٨٢ـ كاهن، كلود :
ـ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، ترجمة د. بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٢م.
٨٣ـ الكتاني، عبد الحي :
ـ التراتيب الادارية، دار احياء التراث العربي، ٢ج، بيروت، بلا تاريخ او طبعة.
٨٤ـ كرونباوم، جي. شي : (تحرير)
ـ الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية، ترجمة د. صدقي حمدي مكتبة المثنى، بغداد ١٩٦٦م.
٨٥ـ كستر، ن. ج :
ـ الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية، ترجمة : د. يحيى الجبوري، دار الحرية، بغداد ١٩٧٦م.

٨٦ـ كريستنسن، آرثر:
ـ ايران في عهد الساسانيين، ترجمة : يحيى الخشاب، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٧م.
٨٧ـ لاندو، روم :
ـ الاسلام والعرب، ترجمة : منير بعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٦٢.
٨٨ـ لوبون، غوستاف :
ـ حضارة العرب، ترجمة : عادل زعيتر، دار احياء التراث العربي، ط٣ بيروت ١٩٧٩م.
٨ـ لوفران، جورج :
ـ تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، ترجمة : هاشم الحسيني، دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ طبع او طبعة.

٩٠ـ لوكاش، جورج:
ـ التاريخ والوعي الطبقي، ترجمة: د. حنا الشاعر، دار الاندلس، ط٢، بيروت ١٩٨٢م.
٩١ـ لومبار، موريس:
ـ الاسلام في مجده الاول، ترجمة وتعليق: اسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط٢، ١٩٨٤م.
٩٢ـ ماجد، عبد المنعم:
ـ تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٧٨م.
ـ التاريخ السياسي للدولة العربية، عصر الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين، مكتبة الانجلو المصرية، ط٢، القاهرة ١٩٦٧م.
٩٣ـ ماسينيون، لويس:
ـ خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة: تقي محمد المصعبي، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، جمعية منتدى النشر، النجف ١٩٧٩.
ـ خطط البصرة وبغداد، ترجمة: د. ابراهيم السامرائي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٨١.

٩٤ـ ماسيه، هنري:
ـ الاسلام، ترجمة: بهيج شعبان، منشورات عويدات، الطبعة الثانية، بيروت، باريس، ١٩٧٧.
٩٥ـ مجمع اللغة العربية:
ـ معجم الفاظ القرآن الكريم، دار الشروق، بلا تاريخ طبع.
٩٦ـ مرّوة، حسين:
ـ النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، دار الفارابي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٩م.

٩٧- وات، مونتجمري:
- الفكر السياسي الاسلامي، المفاهيم الاساسية: ترجمة: صبحي حديدي دار الحداثة، الطبعة الاولى، بيروت، ١٩٨١.
- محمد في المدينة، ترجمة: شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت بلا تاريخ طبع.
- البدو، ترجمة: ابراهيم خورشيد وزميلاه، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٨١م.
- محمد في مكة، ترجمة شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بلا تاريخ طبع.
٩٨- ونستك، أ. ي:
- المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي، اتبع نشره، ي بروخمان، ليدن ١٩٦٧.
٩٩- اليوزبكي، توفيق سلطان:
- تاريخ اهل الذمة في العراق، ١٢ - ٢٤٧هـ، دار العلوم للطباعة والنشر، الطبعة الاولى، الرياض ١٩٨٣م.
١٠٠- يونغ، لويس:
- العرب واوربا، ترجمة: ميشيل ازرق، دار الطليعة، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٩م.

٤- المقالات:

١- امين، صلاح الدين طه:
- الموارد المالية في اقليم ارمينية خلال الحكم العربي ٢١هـ/٦٥٢م/٢٤٧هـ/٨٦٥م. مجلة آداب الرافدين. العدد الثالث/كلية الآداب بجامعة الموصل ١٩٨١م. من (ص٦١ - ص٧٧).

٢ـ بيضون، ابراهيم:
ـ الدولة الاسلامية الاولى/ دراسة في التكوين، مجلة الباحث/ السنة الخامسة، العدد الاول، المجلد الخامس والعشرين/بيروت، شباط ١٩٨٣من (ص٩ ـ ص٢٥).
٣ـ الجاسر، حمد:
ـ قطر الطائف ومؤرخوه، مجلة العرب، الجزء الاول، السنة الثانية، الرياض/ تشرين الاول ١٩٧٦من (ص١ ـ ص١٥).
٤ـ الجنحاني، الحبيب:
ـ نظام ملكية الارض في المغرب الاسلامي، القرن ١ ـ ٦هـ، ٧ ـ ١٢م مجلة دراسات تاريخية، العدد الخامس/ دمشق تموز ١٩٨١، من (ص٣٠ ـ ص٤٤).
ـ الشؤون الاقتصادية والمالية في حياة الدولة العربية الاسلامية الاولى مجلة قضايا عربية، العدد الثاني عشر/ السنة العاشرة/بيروت شباط ١٩٨٣، من (ص١٠٩ ـ ص١٣٩).
٥ـ الدوري، خضر:
ـ لمحات في حياة الطبقة الفلاحية في العراق الوسيط، (مجلة آداب الرافدين). العدد الثاني عشر/كلية الآداب، جامعة الموصل/ تشرين الثاني ١٩٧١م.
٦ـ الدوري، عبد العزيز:
ـ نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية، مستل من مجلة المجمع العلمي العراقي/ المجلد العشرون، بغداد ١٩٧٠م.
ـ نظام الضرائب في صدر الاسلام (ملاحظات وتقييم) (مجلة مجمع اللغة العربية) المجلد ٤٩، الجزء الثاني، دمشق ١٩٧٤م.
ـ نظام الضرائب في خراسان في صدر الاسلام، (مجلة المجتمع العلمي العراقي)، المجلد الحادي عشر، بغداد ١٩٦٤.
ـ العرب والارض في بلاد الشام في صدر الاسلام، تاريخ بلاد الشام من القرن السادس الى القرن السابع عشر (بحوث قدمت في المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام) الجامعة الاردنية، الدار المتحدة، بيروت، ١٩٧٤ (من ص٢٥ الى ص٣٨).

- في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام (مجلة العلوم الاجتماعية) عدد خاص بمناسبة دخول القرن الهجري الخامس عشر، جامعة الكويت، ١٩٨١م (من ص٧٥ - ص٩٠).
- الاسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب، القومية العربية والاسلام، (بحوث ومناقضات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة الغربية) ط١ / بيروت ١٩٨١م. من (ص٦١ - ص٩٠).

٧- السامر، فيصل:
- نهضة التجارة العربية في العصور الوسطى الاسلامية (مجلة المؤرخ العربي) العدد ١٧، الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب/بغداد ١٩٨١ من (ص٦١ - ص٧٨).
٨- سعد، احمد صادق:
- الدولة الاموية والصراع من اجل العدل (مجلة آفاق عربية) العدد السادس، بغداد/ شباط ١٩٧٦م من (ص٦٢ - ص٧١).
٩- عاقل، نبيه:
- مشكلة الحكم في الاسلام بعد وفاة الرسول (مجلة دراسات تاريخية) العدد الثاني عشر/ دمشق، آيار ١٩٨٣ من (ص٧ - ص٢٧).
١٠- عرفات، وليد:
- ضوء جديد على قضية بني قريظة ويهود المدينة (بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ المنعقد في ٢٥ آيار ١٩٧٣ ببغداد)/ وزارة الاعلام/ بغداد ١٩٧٤ من (ص٧٨٧ - ص٧٩٣).
١١- العسلي، خالد صالح:
- نظام المؤاخاة في عهد الرسول (ص) (نظرة جديدة)، مجلة دراسات للاجيال، العددان الرابع والخامس/ السنة الرابعة/ بغداد. تشرين الاول ١٩٨٣م من (ص٢٥ - ص٤٣).

١٢ـ العلي، صالح احمد:
ـ ملكيـات الاراضي في الحجـاز في القـرن الاول الهجري، (مجلة العرب) الجزء الحادي عشر/ السنة الثالثة/ الرياض ١٩٦٩، من (ص٩٦١ ـ ص١٠٠٥).
ـ تنظيم جبـايـة الصـدقات في القرن الاول الهجري (مجلة العرب) الجزء العاشر/ السنة الثالثة، الرياض ١٩٦٩ من (ص٨٦٥ ـ ص٨٨١).
ـ خطط المدينة المنورة (مجلة العرب)، الجزء الثاني عشر، السنة الاولى، الرياض ١٩٦٧ من (ص١٠٥٧ ـ ص١١١٢).
ـ العطـاء في الحجـاز، تطـور تنظيمـه في العهود الاسلامية الاولى (مجلة المجمع العلمي العراقي) المجلد العشرون/بغداد ١٩٧٠م من (ص٣٧ ـ ص٧٨).
ـ ادارة العـراق (الفصـل الثـاني من كتاب العراق في التاريخ) بغداد/وزارة الاعلام ١٩٨٣ من (ص٣٢١ ـ ص٣٤٠).

١٣ـ فوزي، فاروق عمر:
ـ ثلاث معارك حاسمة في الخليج العربي، (مجلة آفاق عربية) العدد ٧، سنة ٩، آذار ١٩٨٤، من (ص١١ ـ ص١٧).
١٤ـ الكبيسي، حمدان عبد المجيد:
ـ اسواق العرب قبل الاسلام (مجلة آداب المستنصرية، الجامعة المستنصرية/كلية الآداب) العدد الرابع/بغداد ١٩٧٩م من (ص٨١ ـ ص١١٣).
١٥ـ ماسينيون، لويس:
ـ الهيئـات الحـرفيـة والمـدينـة الاسلامية، ترجمة: د. اكرم فاضل (مجلة المورد) المجلد الثاني، العدد الثالث/بغداد ايلول ١٩٧٣، من (ص١١ ـ ص١٩).
١٦ـ مصطفى، شاكر:
ـ التـاريـخ والمؤرخـون في مصر الاسلامية حتى القرن السابع الهجري (مجلة كلية الآداب والتربية) جامعة الكويت، العدد الثاني عشر، كانون الاول ١٩٧٧.
١٧ـ الملاح، هاشم:
ـ المنـافقـون في مدينـة الـرسـول (مجلة كلية الدراسات الاسلامية) جامعة بغداد، العدد ٥، ١٩٧٣م (ص٤٦٩ ـ ص٥٠٨).

- دور العقيدة الاسلامية في تحقيق وحدة العرب الاولى (مجلة آداب المستنصرية) الجامعة المستنصرية، العدد ٨، ١٩٨٤م، من (ص٦٣٣ - ص٦٦٨).

importance distribution of war booty, the tribute on free non-Muslims under Muslim rule as a financial resource, commerce, agriculture, the plots of the prophet, land leasing, the decline of pastoral and bedouin life, the economical measures taken by the prophet etc...

Chapter three tackles the era of organization, (the economical characteristics of the reactionary movement, the Arab - Islamic liberation wars, the economical condition of the liberated lands and its financil resources, the consequentiak economical reformations as well as the economical developments, influence on the political situation in the Arab - Islamic, era ect...

As for chapter four, it tackles the problems at the followed period of organization, particularly the increase in agricultural and commercial inverstment in the reign of the caliph Uthman as well as the development of professions and crafts in the metropolises. Special attention has been given to the struggle between worldly trends asceticism which developed in the revolt against Uthman Peaceful struggle into a violent one. Struggle between the central a government and tribal as well as regional fidlity is also discussed in this chapter. The economical conditions and their development in the reign of Caliph Ali as well as his economical policies have been tackled.

Many conclusions have been arrived at in this work which will illuminate several aspects of our social and economical history, establishing a correlation between nationality and class in terms of the social and national idiology (of Socialist Arab Baath Party) We hope the work may serve as an incentive for further research in the history and civilization of our nation, as well as its unity.

1. N.H. Baynes A.H Moos, Editors, : By - Zantum: An introduction to east Roman civilization, (oxford, 1948).

2. Dermenghem, Emile); The life of Mahomet, (London, 1930).

3. E. Gibbon, The Decline and fall of the Roman Empire, (London, 1911).

4. J.G. Milne: A History of Egypt under Roman Rule, (London, 1898).

5. O'leary, Delacyi, Arabia before Muhammad, (London. 1927).

6. Semple (Ellen churchill, Influences of Geographic Environmant, (London, 1937).

7. SHABAM (M.A); ISLAMIC HISTORY (CAMBRIDGE, 1971).

8. H.G. wells: Ashort History of the word, (Thinkers Library, 1948).

We have also consuted the works of some orientalists in a cautious manner particularly those who have racial views concerning the history of depending on some authentic texts as well as logic, we rejected some of their unfounded claims. We believe that it is time that we write down the history of our nation. We also discussed the views of some contemporary Arab historians who heavily rely on orientalists from the west as well as the East.
We beleve that it is time we wrote the history of our nation with in Arab insight and mentality which we to have attempted in this work.
Our study is based on a multi-dimentional approach since no single the ory can adequtely deal with the complexities of life and history. This is why perhaps a certain theory becomes dominent in a certain period which is later replaced by another, and becoms amatter of history.
Religions Studies ignore great cultural elements in order to emphasize its traditional standpoint of Islam as it ignores the role of nationlity in the resurrection of the nation.
Communism concentrates on the econmical fator and ignores the national factor too. As for liberal whose connections and interntions are well - known, can not see in the history of the nation but the tribal notions and bedouin spirit.This explicitly shows that the three trends ignore the particlarities of our nation.
Though we are quit aware of the importance attached to the economical factor in history which is the main concern of this work, we did not ignore the other factors whether national pf political that might alternately or collectively influence the historical process.

This work is divided into four chapters each of which consists of several sub-titles. The first chapter is concerned with the economical conditions in pre-Islam Arab penisula as well as the environmental infliences on Arab economy: the pastoral and bedion economical aspects, agriclture, industry, commerce, the secial implications of the economy, the social structure of groupsm and the economical situation in Mecca, Taif, and Yathrib where Islam was born.
Chapter two deals with the economical transformations which Islam brought about in the Arab Peninsula (such as the restrictions on ownership, prohibiting interest, legislating inheritance, encouraging alms-giving, slavery, the

are treated cautiously and critically. We also consulted the books on kharaj (land tax) and finance by Abi Yousif, Ibn Adam, Abi - Ubaida al - Qasim bin Salam, and Ibn Rijab which give alot of information with regard to the ecomical conditions and organizations. Though these books were more concerned with the the oretical issues, yet we made use of its realistic accounts. We treated the books on al - Hadith and Figh in the same manner; and made use of the books of Futuhat (victories) by Balathiri and Ibn Ac tham. As for the books on Tabaqat (classes) by Ibn Sa cd, Ibn Hajar, and Ibn c Abdullah, we found them tedious that very useful in their accounts of the wealth that leaders and administrators owned, as well as of econonical growth. The georaphical books of Ibn Hauqal, Ibn rusta, Ibn Khurdathbah.

Al-Hamadani, and Ibn al-Mujawir were very useful in explaining the relationship between man's economical activities and his environment, The literary wroks and language - studies of Al-Jahid, Ibn c Abid rabba, and Al-Tha c alibi were found useful in their accounts of the economical conditions.

We handled these sources cautiously, and with a view to find a common line that considers both what is general and what is specific, and find out matters of agreement as well as matters of disputs. We also made many critical comments on some texts specifying aspects of exaggeration and errors where applicable. We have compared such texts with preceding as well as following ones, taking into consideration the era and circumstances in an attempt to get at an acceptable opinion.

Among the useful modern sources that we consulted, the works of Dr Abdul - Aziz al - Boory and Dr Salik al c- Ali are highly estimated inilluminating many aspects of the problem as well as in referring us to important refernces and thus enabled us to examine the conclusions reached t in this study satisfatorily.

Introduction

I have always been of the opinion that it is impossible to understand the history of the Arab nation without understanding its social and ecomomical aspects which constitute a vital part of its experience, and help us understand its other aspects. It also makes us aware of nation's experience and organizations and its ability to acquire new know-ledge, digest it, and move into the stage of originality. Thus, studying the economical developments is studying an essential part of the history of the nation's civilization.

The purpose of our study has been to form a general autline of the economical conditions in the era of the Prophet and the orthodox Caliphs (Abu Bakr, Omar, Uthman, and Ali). The formation of the Arab nation took place in this era as well as its national and idiological unification. It was also an era of much emigration to the metropolises; and acquaintance with the living of settled communities, as well as giving up the bedouin life general. Indeed, this era became the main subject of many historical and religious research studies later, and had great influences on consequent events.

The period of formation in the history of a nation is characterized with important features and characteristics, and much disputed opinions which may create contradictory stands concerning a certain issue. This is why we have treated the contradictory texts cautiously and doubtfully, and tried to find out the factors that led to such contradictions.

Despite the fact that what is available of the historical data concerning the economical conditions is scattered and wide apart as well as scarce, we have tried hard to organize it alonge the lines of scienrtific research so as to support the political, social, and economical unity. A further difficulty that we faced is the fact that we have not come across and of our historaians who gives the subject matter the care and attention it deserves. This is why we had to read the historical sesources with a critical eye.

Al- Tabari, al - Mas c - udi, and al - Ya c ubi, however, give us some general but useful information concerning the social and ecomomical conditions, which



رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٣٣٦ لسنة ١٩٨٨

طبع بمطابع
دار الكتب للطباعة والنشر
جامعة الموصل



المؤلـــف :

- ولد نجمان ياسين في الموصل عام ١٩٥٢ .
- عضو اتحاد ادباء وكتاب العراق .
- أنهى دراسة الماجستير في التاريخ الاسلامي عام ١٩٨٥ في كلية الآداب بجامعة الموصل بتقدير امتياز، ويعد حالياً رسالة دكتوراه في التاريخ العربي الاسلامي .
- يكتب القصة والبحث التاريخي والمقالة وقد نشرت كتاباته في اهم المجلات والصحف العراقية والعربية .
- ترجمت بعض قصصه الى اكثر من لغة حية ، ودرست من قبل الباحثين في اكثر من جامعة عالمية .
- اصدر في القصة :

١ـ احتراق، المركز الثقافي الاجتماعي في جامعة الموصل ١٩٧٤ .

٢ـ ذلك النهر الغريب/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١ .

٣ـ حكايات الحرب/ وزارة الثقافة والاعلام/ بغداد ١٩٨٧ .

- أصدر في الدراسة الادبية والبحث :

١ـ أمام المرآة/ مقالات في الشعر والقصة/ المركز الثقافي الاجتماعي في جامعة الموصل ١٩٧٦ .

٢ـ شخصيات من التراث العربي الاسلامي ، مكتبة المنتدى العربي ، الموصل ١٩٨٥ .

- يعد احد رواد الكتابة عن الفوتوغراف العراقي حيث اصدر:

١ـ مراد الداغستاني «جدل الانسان والطبيعة» ، الجمعية العراقية للتصوير، بغداد ١٩٨٥ .

٢ـ الانسان والحرب «قادسية صدام في اعمال الفنان رحيم حسن» ، الدار الوطنية ، بغداد ١٩٨٧ .

٣ـ فوتوغرافيون عراقيون ، الدار الوطنية ، بغداد ١٩٨٧ .

- أنجز عدة كتب مهيأة للطبع هي :

١ـ رائحة التفاح ، قصص

٢ـ السر الضائع في الماء ، قصص مترجمة .

٣ـ غزال الحب والموت ، نصوص

٤ـ حوار في الابداع العربي

٥ـ احاديث في التاريخ العربي

٦ـ دراسات في التاريخ العربي

- حصلت كتاباته ولاكثر من مرة على تقدير وتكريم الرئيس القائد صدام حسين «حفظه الله» .



